الرِّحْلَةُ الحِجَازِيَّةُ



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع ١٨١٠١ لسنة ١٩٩٩
الترقيم الدولى : 977-5727-55-3

أوليا چلبى

الرِّحلةُ الحِجازيّة

ترجمها عن التركيّة وقدّم لها

الأستاذ الدكتور الصّفصافي أحمد المرسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران آية ٩٧]

الإهداء

إلـــى

كل مَن تاقت نفسه

آداء فريضة الحج ..

ولم يستطعها ... أُقدم

هذه الرحلة الحجازية

المترجم

المقدمة

إن تاريخ البشرية ؛ إنما هو تاريخ لمحاولة الإنسان التعرف على العالم المحيط به .. والغريب عنه .. لقد ناضل أولاً ضد القوى الحيوانية التى تحول بينه وبين ذلك ، ثم أخذ يناضل القوى المماثلة له .. فتكونت القبيلة ، ثم الأمة ، واندفعت الأمم من آقاليمها إلى الآقاليم المجاورة تكتشفها آفاقًا جديدة .. ثم بدأ ينطلق نحو الفضاء الخارجى عبر الكواكب ، ويغوص في آعماق البحار ، والمحيطات بحثًا عن المعرفة .. ورغبة فى الإمتلاك ..

بدأت كل هذه الرحلات ضيقة ، ثم اتسعت آفاقها مع مرور الزمن ، فالإنسان وُلِد راحلاً ، وإن أعجزته الرحلة .. تخيل رحلات غير محسوسة ؛ تخطى الجبال ، وعبر البحار .. وركب بساط الريح .. سجل لنا التاريخ رحلات ألف ليلة وليلة ، وحي بن يقظان ، والتوابع والزوابع ، ورحلة دانتي في الكوميديا الإلهية .. ورحلة الشاعر التركي العبقري الشيخ غالب إلي مدنية القلوب « حسن وعشق » . كما نجد ذلك بين ثنايا الآساطير ، ودوافع الحروب ..

سجل المصريون رحلاتهم على جدران المعابد ، وخاض الفينيقيون عباب المحيط الآطلسي ، وخلَّف الإغريق مستعمراتهم فى البحرين ؛ الأبيض والأسود ، وعنوا جميعًا عناية واسعة بوصف البلدان ، والأقاليم التى رأووها ، وقدموا الكثير من المعارف الجغرافية .

زار هيرودوت مصر ، وقبرص ، وفنيقيا ، وآشور ، وإيران وتوغل فى الشمال ، وتخطى البوسفور ، وأَوْدَع مشاهداته فى هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه الكبير .. ثم أعقبه « بلوتارك » الذى عنى بتاريخ اليونان ، والرومان .. ومنه استمد شكسبير الكثير من روائع مسرحياته ..

تصبح روما عاصمة العالم ، ويتوغل بحارتها ، وفرسانها فى ربوع إمبراطوريتها الشاسعة .. وتصل سفنهم إلي جزر الكاناريا في المحيط الأطلسي ..

ثم كان الفتح العربي للهند ، والصين ، وجبال البرانس .. ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان ... وبلاد الحبش .... أصبح كل ذلك عالمًا موحدًا مشتركا فى

العقيدة .. واللغة ، وامتزجت الثقافات ، فخلقت نتاجًا حضاريًا مميزًا ... وصف جغرافيوهم مدن هذا العالم ، وبلدانه ، وكذلك سكانه ، وعاداتهم ، وآعرافهم ..

عَرِفت حضارتنا ومكتباتنا العامة كتب المسالك والممالك ، وطرق الحج والقوافل .. وكثرت الرحلات بين المسلمين ، وعندهم ، وتنوعت بتنوع آسبابها ، وحوافزها .. ونشأت عند الكثيرين منهم محبة المجازفة ، والمغامرة فيما وراء المعروف .. وليس من العبث أن نجد في تراثنا رحلات السندباد .. وابن ماجد ..

فتحت الحروب الصليبية آفاقًا نحو الشرق ، فأخذ الأوربيون فى تسجيل أسفارهم ، ورحلاتهم ..

كانت الرحلة عنصراً مهما ، وقويًا فى حياة المجتمع الإسلامي ، خلال عصور إزدهاره .. رحل الناس لزيارة مهبط الوحي .. ولقوا في ذلك الكثير من الصعاب ... وتحمَّلوها راضين مسرورين .... رحل الناس فى طلب العلم حيث مراكزه المضيئة .. كان طلاب العلم يتحملون من المشاق فى سبيل الحصول عليه ، ما يحملنا على إحترامهم ، وإجلالهم .. ورحل القوم فى سبيل الإتجار ، وطلبًا للربح ، والثراء .. فقد كانت الأسواق الإسلامية ، فى مشارق الأرض ، ومغاربها مفتوحة الأبواب ، مرتبطة ببعضها كل الإرتباط .. وتكمل بعضها بعضاً .. وكان التجار يحملون مع بضائعهم ؛ أحلامهم ، وثقافاتهم ، ومعتقداتهم ..

رحل الناس كسفراء بين الملوك ، والحكام .. كما رحلوا طلبًا ، ورغبة فى لذة السفر ، والرحلة فى حد ذاتها .. أو رحلوا طلبًا للرزق إذ ضاقت بهم حدودهم ..

عرف المسلمون كل هذه النماذج من الرحلات .. وقد شجعهم على الإستزادة منها قلة الحدود المضروبة .. والعراقيل المفروضة ... فلما ذهبت الوحدة السياسية ، وضربت الحدود ، وشُدّت الأسلاك الشائكة بقيت وحدة العقيدة .. ووحدة اللغة .. فربطتنا الحجاج ، وطلاب العلم ، ورسل الحكام ، وحملة البضائع ، وزعماء الحرف ، والصنائع فاحتفظوا بالصلة ..

لقد دوَّن الكثير من الرحَّالة أسفارهم ، ومشاهداتهم .. فذكروا الأرض التى

زاروها .. والوديان التى نزلوها .. والجبال التى قطعوها .. والصعوبات التى واجهوها .. قيَّدوا ما رأوا من آثار .. وسجلوا ما وعته الذاكرة من العادات والآعراف .. وسمات الثقافات ولطائف الأخبار ..

إن هذه اللفتات التى نعثر عليها فى كتب الرحلات هي التي تُميز الرحَّالة عن الجغرافي .. فالجغرافي ؛ يسأل ، ويستقصي ، ويقيس ويحقق ، ويحاول أن يحتوي كل جزء من المنطقة التى يعرض لدراستها ، أما الرحالة فيلتقط ما يُشاهده من جزئيات .. ويرسم لنا منها صورة .. تتطابق .. وتتشابك آحيانًا .. وربما تتنافر وتتباعد أحيانًا أخرى .... ففيها ذاتية المشاهد .. وموضوعية الموجود ..

أدب الرحـــلات:

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ (*) فكان لقريش رحلتان ؛ رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف .. وكانتا للتجارة .. ذلك لأن أهل مكة كانوا تجارًا .. وكانت قوافلهم تنقل المتاجر من اليمن إلى الشام ، وتحمل بضائع الشام إلى اليمن ..

الفتوح العربية الإسلامية ، فتحت الأفاق ، وآتسعت رقعة الإتجار ، وتبادل السلع والمتاجر .. وكان التجار يتعرفون على اهل الديار وثقافاتهم ، وكانت هذه المعرفة تنتقل رواية ، وآخبارًا حتى قيض الله لها مَنْ يدونها ، وتُصبح جزءًا من التراث الأدبي للرحلة .

رحل الناس فى طلب العلم من مكان إلي آخر ، فهذا بغدادى يشد الرحال إلى دمشق وهذا دمشقى يقصد بخارى ، وهذا تونسى إلى القاهرة وهذا قاهري يطلب العلم فى فاس ... وهذه الرحلة فى طلب العلم ؛ كانت أحرى بأن تُدوَّن أخبارها ، وتبقى آثارها من أخبار تنقل التجار ، وآصحاب الآعمال .. ومن هذه ، وتلك وصلت إلينا أخبار ، وأخبار هي من مفاخر التراث الإسلامي .

جاء الإسلام ، ففرض الحج علي المؤمنين ، ولو أنه جعل الإستطاعة شرطًا ، والذين استطاعوا إلي الحج سبيلاً ، فى هذا التاريخ الطويل ، كثر . ولم يكن جميعهم ممن

(*) سورة قريش الآيتان ١ ، ٢ .

يدون آخبار أسفاره . . ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم إلي تدوين مشاهداتهم ، فخرج من ذلك أيضاً تراث في أدب الرحلات الإسلامي الشيئ الكثير . .

وإلى جانب التاجر ، وطالب العلم ، والحاج ، والسفير يقوم الرحّالة المحترف ، أو الهاوى برحلته من أجل الرحلة ذاتها . . ويدونها من وجهة نظره هو . .

ولما كانت الرحلة التى نحن بصددها ، تُعتبر من رحلات الحج ، فيجدر بنا أن نلقي بعضٍ من بصيص الضوء على رحلات الحج التي سبقت رحلة آوليا چلبى . والتى سوف نفرد لها الحديث فى حينه ، وعند الحديث عن كتابه الشهير **«سياحتنامه»** . حتى تعم الفائدة .

رحلات الحج[1] :

لم تنل كتب الرحلات التى أُلفت في وصف طريق الحج ومشاعره المقدسة وآثاره ، ووصف المدينتين الكريمتين [مكة] و (طيبة) ما تستحقه من الدراسة ، مع إعتبارها من أوفى المراجع وأوثقها ، وأشملها ، عما يتعلق بالحجاز من النواحي التاريخية ، والإجتماعية ، والاقتصادية والثقافية ، والجغرافية منذ تدوين تلك الرحلات إلى عصرنا الحاضر .

مكة المكرمة من الناحية الثقافية :

ولقد كانت مكة – وما تزال – نقطة التقاء ، مركز تجمعٌ ، لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية ، ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الأقطار ، وكانت صلة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية ، في شرق البلاد وغربها ، وشمالها وجنوبها فى مختلف العصور الماضية ، ومع انصراف العلماء وغيرهم عن الجزيرة العربية بعد الهجرة بما يزيد على نصف قرن من الزمان ؛ أي منذ انتقال مركز الخلافة منها ، وبأنتقال الخلافة . والسلطان ، والدولة تنتقل الرغبات ، وتتجه الابصار

(١) آخذنا هذا العنوان ، وهذا الجزء بتصرف عن كتاب ؛ فى رحاب الحرمين (١) أشهر رحلات الحج – ١– ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدَّرعي المغربي المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ تأليف ؛ حمد الجاسر ، الطبعة الأولى شوال ١٤٠٢ هـ = أغسطس ١٩٨٢ م منشورات دار الرفاعى للنشر ، والطباعة ، والتوزيع . بالرياض . م . ع . السعودية .

وتتركز الآمال حيث يوجد الملك والسلطان ، اللذان بهما تتيسر سبل الحياة وتحصل الطمأنينة والهدوء في كنفهما – مع ذلك الانصراف فإنَّ مكة المكرمة لها مكانة دينية في نفس كل مسلم تجعلها دائما – ما بقى المسلمون – مطمح انظارهم فهي – فضلاً عن كونها تضم مشاعر الحج – وفيها بيت الله المعظم – محط انظارهم وهم بحكم دينهم الحنيف – لا يمكن أن ينصرفوا عنها ، ولهذا فقد اصبحت منذ جاء الإسلام مركزًا للثقافة الإسلامية العربية ، يجتمع فيها من العلماء في كل عام ما لا يجتمع في أية مدينة أخرى من مدن الإسلام .

وكان العلماء في العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدُّوا ركنا من اركان دينهم اداؤه فرض ، وليضيفوا إلى ذلك أمورًا من أهمها التزود بزاد العلم والمعرفة ، فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقى بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم ، واستزادة علم ، وامتداد لروافد المعرفة ، وانتشار للأفكار بين مختلف الأقطار الاسلامية ، ولقد كان علماء الاندلس يفدون إلى مكة المكرمة لا للحج وحده ولكن لينشروا علمًا ولستزيدوا منه ، وليكونوا صلة بين شرق البلاد وغربها بالعلم والثقافة .

ولو أراد باحث أو دارس أن يحاول التأليف عن صلة الأندلسيين بمكة من الناحية الثقافية لوجد الأمر أوسع مما يتصور ، ولنستعرض كتابين عن الأندلس احدهما ، « نفح الطيب » للمقَّري – القاف مفتوحة مشددة – والثانى « فهرست مارواه أبو بكر محمد بن خير الاشبيلي » استعراضًا سريعًا لمعرفة بعض العلماء الذين رحلوا من الأندلس إلى مكة فيما بين القرنين الثالث والسابع ممن كانوا رسل علم ، وحملة ثقافة ومعرفة ، ففي الثالث نجد من بين أولئك العلماء :

١– يحيى بن يحيى الليثي (٢٣٤ هـ= ٨٤٨م) راوى الموطأ تلقى العلم بمكة عن سفيان بن عيينة وغيره .

٢– ثابت بن حزم السرقسطي وابنه قاسم سمعا بمكة سنة (٢٨٨ هـ= ٩٠٠ م) من الهجري وغيره .

٣– زكريا بن خطاب التطيلّي : رحل من الأندلس سنة (٢٩٥ هـ= ٩٠٧ م) فسمع بمكة كتاب « النسب » لعالم الحجاز الزبير بن بكار المتوفي سنة (٢٥٦ هـ=

٨٦٩ م) سمعه من الجرجاني عن علي بن عبد العزيز عن مؤلفه ، كما سمع بمكة « موطأ مالك » من ابراهيم بن سعيد الحذاء ، وكلمة (سمع) باصطلاح المحدثين تعني انه تلقى واخذ سمع شيخه يحدث بذلك الكتاب .

٤- يحيى بن عبد العزيز القرطبي (٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م) سمع بمكة من علي بن عبد العزيز .

٥- قاسم بن أصبغ (٢٤٧ / ٣٢٤ هـ = ٨٦١ م / ٩٣٥ م) تقريباً : هذا من أشهر العلماء ، وقد أخذ العلم بمكة عن محمد بن اسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز .

٦- محمد بن عبد الله الخولاني (٩٠٧م = ٢٩٥ هـ) سمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره .

وفي القرن الرابع : نجد من بين أولئك العلماء :

١) محمد بن عبد الله بن يحيى (٢٨٤ / ٣٣٩ هـ = ٨٩٧ / ٩٥٠ م) وهو من أجلة علماء الأندلس وكبار قضاتها وممن أخذ العلم بمكة عن ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي .

٢) محمد بن أحمد بن مفرج : سمع بمكة سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م من ابن الأعرابي وغيره وسمع بجدة وبالمدينة المنورة .

٣) عمر بن عبد الملك بن سليمان الخولاني ، ذكر ابن خير في « الفهرست » أنه روى سنن أبي داود بسنده اليه . وهذا رواها عن ابن الاعرابي بمكة سنة ٣٣٩ / ٣٤٠ = ٩٥٠ / ٩٥١م .

٤) عبد الرحمن بن خلف الاقليشي ، رحل إلى مكة سنة ٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م فأخذ العلم عن أبي بكر الآجري وأبي حفص الجمحي .

٥) منذر بن سعيد البلوطي (... / ٣٥٥ هـ = ٩٦٥ م) تلقى العلم بمكة عن محمد بن المنذر النيسابوري ، وعنه روى كتابه « الاشراف » في اختلاف العلماء .

٦) كما يروي ابن خير (صحيح البخاري) بسنده إلى محمد بن أحمد المروزي بمكة سنة ٣٥٣ هـ = ٩٦٤م وهذا يرويه بسنده إلى البخاري .

٧) ويروي ابن خير « تاريخ البرقي فى رجال الموطأ » بسنده إلى علي بن أحمد بن شعيب بمكة سنة (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) بسنده إلى المؤلف .

وفى القرن الخامس : نجد من بين العلماء الاندلسيين :

١- عبدالوهاب بن محمد القرطبي المقرئ (٤٠٣ / ٤٦١ = ١٠١٢ / ١٠٦٨ م) سمع بمكة على أبي العباس الكازريني .

٢- عمر بن محمد السجزي الذي روى ابن خير بسنده اليه صحيح مسلم وقد حدث به بمكة سنة ٤٠٣هـ = ١٠١٢ م .

٣- ويروى ابن خير الاشبيلي « سيرة النبي » ﷺ ، لابن طرخان التميمي بسند إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور وهذا يرويها عن أبي ذر عبد بن أحمد الهروى قراءه عليه فى المسجد الحرام عند باب الندوة سنة ٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م .

٤- ويروى « سنن الترمذي » بسنده إلى محمد بن أحمد الاردشتاني بمكة سنة (٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م) بسند إلى المؤلف .

٥- ويروي كتاب « التلخيص فى القراءات الثمان » لعبد الكريم بن عبد الصمد الطبري المكي بسند إلى أحمد بن شعبان المقرئ عن المؤلف بمكة سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م) .

٦- محمد بن عبد الرحمن الاشبيلى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٨م تقريبا) تلقى العلم بمكة عن رزين بن معاوية إمام المالكية .

٧- عمر بن حسن الهوزنى (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) سمع في طريقه إلى مكة كتاب « صحيح البخاري » وعنه أخذ كثير من علماء الأندلس روايته .

وفى القرن السادس نجد من بين اولئك العلماء :

١- محمد بن الحسين الميورقي : قرأ بمكة سنة (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) على عبد الله بن محمد البيضاوي ، وعبد الملك ابن ابي مسلم النهاوندي .

٢- محمد يوسف المرسي : سمع بمكة سنة (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) من رزين بن معاوية .

٣- محمد بن عبد الله بن العربى (٤٦٨ / ٥٤٣ هـ = ١٠٧٥ / ١١٤٨ م) الإمام المالكي الجليل ، ذو التصانيف الكثيرة في الحديث وغيره ، سمع بمكة الحسين الطبري وابن طلحة وابن بندار وله رحلة إلى المشرق نقل عنه ابن رشيد الفهري وغيره . ومنها قطعة نشرها استاذنا الدكتور إحسان عباس فى مجلة « الابحاث » قبل ثلاث سنوات ، لا تختلف كثيرا عن القطعة التى ذكرها الكناني ، الموجود في مكتبته في خزانة الرباط .

٤- أحمد بن عيسى : سمع بمكة سنة (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) « جامع الترمذي » من أبي الفتح الكرخي .

٥- طارق بن موسى بن يعيش (... / ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م) سمع بمكة من الحسين بن علي الطبري وعبد الباقي الزهري ، وعنه أخذ كتاب « الاحياء » عن مؤلفه الغزالي .

٦- خلف بن فرج بن خلف : لقي بمكة سنة (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) رزين بن معاوية الاندلسي ثم المكي ، فروى عنه كتاب « تجريد الصحاح » من تاليفه .

٧- الحسين بن محمد بن الحسن الانصاري : (... / ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م) روى بمكة « صحيح البخاري » عن علي بن حميد الطرابلسي .

٨- مساعد بن أحمد بن مساعد الاصبحي (٤٦٨ / ٥٤٥ هـ = ١٠٧٥ / ١١٥٠م) لقى بمكة أبا عبد الله الطبرى فسمع منه صحيح مسلم .. ولقى أبا محمد بن العرجاء وأبا بكر بن الوليد الطرطوشى وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي وممن لقي امرأة تعرف بصبَاح ، عند باب الصفا ، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير ، فجاء بيت شعر شاهد فسألت : هل له صاحب ؟ فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء فقال الشيخ : لا أذكر له صاحبا فانشدت :

طلعتْ شمسُ مَنْ أحبك ليلا	**واستضاءت فمالها من مغيب**
إنَ شمس النهار تغرب بالليل	**وشمس القلوب دون غروب**

٩- محمد بن جبير (٥٤٠ / ٥٩٩ هـ = ١١٤٥ / ١٢٠٢م) صاحب الرحلة المعروفة ومن رقيق شعره :

بدت لي أعـلام بيت الهـدي ... بمكـة والنـور باد عليـه
فأحـرمت شـوقـا له بالهـوى ... وأهـديت قلبـيَ هَدْيًا اليـه

وقد تحدث في رحلته عن مكة وعن علمائها .

١٠- ابراهيم بن منبه الغافقي سمع بمكة سنة (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) صحيح البخاري من سلطان بن ابراهيم المقدسي عن كريمة المروزية ، ونقل عن أبي ذَرِ الهروي وهو من علماء مكة ، أنه قال عند موته : عليكم بكريمة ، فإنها تحمل كتاب البخارى من طريق أبي الهيثم - يقصد ترويه بإسناد عال - .

وفى القرن السابع من أشهر أولئك العلماء :

١- محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن رُشَيْدْ - بضم الراء (٦٥٧ / ٧٢١هـ = ١٢٥٨ / ١٣٢١ م) وهذا من أشهر علماء الاندلس وقد قام برحلة إلى بلاد المشرق ودوّن كثيراً مما شاهده بكتاب سماه « ملء العيبة » فى خمسة أجزاء ، بقي منها أربعة بخط المؤلف ، وقد خص الحجاز بقسم تحدث فيه عن كثير من أحواله وذكر من اجتمع به فيه من العلماء ، وقد نشرنا ذلك القسم في المجلد الثالث من مجلة « العرب » .

٢- محمد بن ابراهيم بن غصن الاشبيلي (٦٣١ / ٧٢٣ هـ = ١٢٣٣ / ١٣٢٣م) من كبار علماء الأندلس ، وقدم مكة حاجًا فتصدى للتعليم فاقرأ القرآن بها ، وممن قرأ عليه الشيخ خليل امام المالكية ، وشهاب الدين الطبري إمام الحنفية .

هذه اشارات ولمحات موجزة عن صلة علماء من أقصى الأقطار الإسلامية وأبعدها عن مكة المكرمة ، وسيقول قائل : وماذا عن علماء العراق والشام ومصر ؟ فالجواب : (شُبَّ عَمْرو عن الطوق!!) فصلات هذه الأقطار بأم القرى مما لا تتسع له صفحات صحيفة بل تضيق عنه مجلدات الكتب . ولابد من الإشارة - ولو بإيجاز - إلى أن هذه الأقطار الثلاثة ، وقد حفلت بالعلماء وبما يحتاج إليه أولئك مما ييسر لهم سبل الحياة الناعمة الهادئة ، قد اتجهوا اتجاهًا آخر يحتاج تفصيله إلى تطويل .

وعن **جنوب الجزيرة** التي هي أقرب فى حياتها الاجتماعية الى حياة سكان

الحرمين ، والقرب – دائمًا في نمط الحياة – من وسائل التقارب في الأفكار ، فماذا كان أثر هذا التقارب في الأفكار ؟!

والجواب : لقد نبغ فى **القرن الثالث والرابع فى اليمن** علامة جليل لم يفارق تلك البلاد . ومع ذلك فقد بلغت مؤلفاته الأندلس في حياته ، وهو الحسن بن أحمد الهمداني [١] . . .

ففي مؤلفاته إشارات ألقت الضوء على مالمكة المكرمة من أثر فى الحياة الثقافية ، فقد روى الهمداني « السيرة النبوية » التي ألفها محمد بن اسحاق عن عالم مكِّي هو الخضر بن محمد بن داود ، والمعروف عند المشارقة رواية السيرة بطريق عبد الملك بن هشام عن البكائى عن المؤلف وعند المغاربة عن ابن بكير ، ولكن طريقة المكيين وروايتهم السيرة عن الخضر لم يذكرها سوى الهمداني فيما علمت ، مع أن لهم رواية أخرى أو روايات أخرى نجد إشارات عنها في كتابي الأزرقي والفاكهي عن مكة .

وهنا جانب عظيم الأهمية فى تاريخ نشر الثقافة الاسلامية وحفظها ، لم أر أحداً من الباحثين تعرض له وهو أن جزءاً مُهِمًا من تراثنا لم نعرفه ولم يصل إلينا إلا بطريق علماء المغرب فقد قاموا بنقله إلى بلادهم بعد تلقيه أثناء قدومهم إلى مكة ، وتولوا حفظه بالرواية والنقل ، واستفادوا منه ، ثم عاد إلينا بطريق ما خلفوه لنا فى تراث ثقافى ضخم ، وحسبي الإشارة إلى ثلاثة أعلام من علماء الجزيرة عرفهم علماء الأندلس ، ونقلوا مؤلفاتهم . ولم يعرفهم علماء المشرق إلا بطريق أولئك وهم محمد بن اسحاق الفاكهي ، مؤرخ مكة ، وأبو على هارون بن زكريا الهجرى [٣] ، والحسن بن أحمد الهمداني . مؤرخ اليمن وعالمه .

ولقد برَّز علماء المغرب على غيرهم فى تدوين الرحلات ، ولعل هذا يرجع إلى بُعْد ذلك القطر عن حواضر العلم ومراكز الثقافة في الحجاز والشام والعراق في العصور الأولى ثم مصر و (اسطنبول) في العهود المتأخرة ، ففي هذه الحواضر والمراكز نشأت

(١) أنظر ترجمته في مقدمة كتاب « صفة جزيرة العرب » (دار اليمامة) .
(٢) أنظر (العرب) ص ٨٤٣ س ٨ .
(٣) أنظر (أبو علي الهجري) ص ١٠ – ٦٩ – ٩٦ .
(٤) أنظر ص ٢١ مقدمة « صفة جزيرة العرب » نشر (دار اليمامة) .

الثقافة العربية الاسلامية أول ما نشأت ، ثم ما زالت تنمو حتى تكاملت فروعها ، ورسخت أصولها . وبلاد المغرب – بمختلف أقطاره ومنه الأندلس – .

وإن كان في عصوره الزاهرة يمد تلك الثقافة بروافد قوية إلا أن علماءه كانوا – وما يزالون – يرون في تلك الحواضر . وخاصة مكة والمدينة ، مهوى لأفئدتهم ومطمحا لرغباتهم ، وملتقى روحيا تتطلع نفوسهم لبلوغه لا لأداء فريضة أوجبها الدين الحنيف فحسب ، ولكن للتزود من العلم ، وللالتقاء والاجتماع بالعلماء فى أحفل مجمع ، وأشمل ملتقى .

وللحديث عن عناية علماء المغرب بتدوين رحلاتهم إلى الحج مجال أوسع من هذا ، وحسبى أن أعرض الان إحدى الرحلات ، عرضا دعت المناسبة إليه .

ويلاحظ الباحث فى تاريخ الثقافة أن أدب الرحلات ازدهر فى العصور المتأخرة التي اعترى الجمود مختلف الجوانب الثقافية ، منذ القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر .

وما اخالني جانفت الحقيقة حين قلت فى حديثي في (ملتقى مؤرخ الأندلس ابن حيان) الذي أقيم فى الرباط في آخر شهر المحرم من هذا العام (١٤٠٣ هـ = ١٩٨١م) ليست رحلتا ابن بطوطة وابن جبير – على جلالة قدرهما – يمدّان الباحث بفكرة كاملة عما تحويه غيرهما من رحلات علماء المغرب ، مما يتطلع إليه الدارسون لمختلف أحوال غرب الجزيرة ، من معلومات وافية .

وليس من المبالغة القول بأن في رحلات ابن رُشيد الفهري والتجيبى والعبدرى والعيَاشي والدّرعيّين أحمد بن ناصر ، ومحمدّ بن عبد السلام ، ومن بعدهم إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى – في تلك الرحلات ما يعتبر من أوفى المصادر وأشملها وأوثقها في دراسة كثير من أحوال المدينتين الكريمتين مكة والمدينة ، من ثقافية واجتماعية واقتصادية . وهذا ما لم أر أحدا من الباحثين إتجه له باعتبار تلك الرحلات تكوّن وحدة متكاملة في موضوعها .

أشهر رحلات الحج:

ولا يتسع المجال لأكثر من ذكر أهم رحلات الحج ، التي في ميسور كل باحث

الاطلاع عليها – مما يعدّ مكملا لهذا البحث – وكثير من تلك الرحلات نشرت خلاصة ما يتعلق بالحج في مجلة « العرب » .

١- رحلة ابن جبير:

محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (٥٢٨ / ٦٠٧ هـ = ١١١٣م) .

كتب بعض مشاهداته في إحدى رحلاته إلى الشرق فيما بين سنتي (٥٧٨ / ٥٨١هـ = ١١٨٢ / ١١٨٥م) فتولى أحد تلاميذه – فيما يقال – الرحلة المعروفة باسمه وقد طبعت مراراً ونالت جانباً من الدراسة من بعض الباحثين . ومنهم الأستاذ الشيخ عبد القدوس الأنصاري ، حيث ألف عنها « مع ابن جبير في رحلته » .

٢- رحلة ابن رُشَيد:

هو محمد بن عمر بن رُشيد – بضم الراء – الفهري السَبتي الأندلسي (٦٥٧ / ٧٢١هـ = ١٢٥٨ = ١٣٢١م) .

زار مصر والشام والحجاز ، بحيث وصل المدينة المنورة بطريق الحج الشامي في ٢٣ ذي القعدة سنة (٦٨٤ هـ – ١٢٨٥ م) وعاد منها بعد أن حج – عاد في ٢٨ ذي الحجة سنة (٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م) وعاد منها بعد أن حج – عاد في ٢٨ ذي الحجة سنة (٦٨٤هـ = ١٢٨٥م) . بطريق الساحل ماراً بالعقبة في ٢٥ محرم سنة (٦٨٥ هـ[١] = ١٢٨٦م) .

ومع عناية العلماء المتقدمين برحلة ابن رشيد ، التي دعاها « ملء العيبة ، فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة » – إلا أنها لم تصل إلينا كاملة ، وهي من أحفل الرحلات ، وأشملها ، والأجزاء الباقية منها على ما يظهر – مسودة المؤلف بخطه .

ويقوم الصديق الأستاذ الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة مفتى البلاد التونسية بتحقيق تلك الرحلة ، وقد أخبرني في ١٤ شهر ربيع الأول سنة (١٤٠٢هـ = ١٩٨١م) أنه تم طبع جزأين منها .

---

(١) وقع تطبيع في مجلة « العرب » س (٣) – ص (٧٨٥) .

٣- رحلة العبدري :

هو محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحى نسبة إلى حاجة – على غير قياس – قبيلة من البربر ، في المغرب الأقصى وهومن أهل القرن السابع .

حج سنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠م) ماراً بمصر ، سالكًا طريق الحج الساحلي ، فوصف ذلك الطريق منزلة منزلة ، وقد استفاد من رحلة ابن جبير، وأتى بأشياء لم يذكرها ابن جبير في رحلته .

وقد طبعت رحلته في مدينة الرباط ، بتحقيق الشيخ محمد الفاسي سنة (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م) .

٤- رحلة التجيبي :

القاسم بن يوسف بن علي السبتي التجيبي (٦٧٠ / ٧٣٠هـ = ١٢٧١ / ١٣٢٩م) .

وقد حج سنة (٦٩٦ هـ = ١٢٩٦م) بطريق البحر من عيذاب ، إلى مرسى أبحر – من موانى جدة ، فوصل في ٨ رمضان من تلك السنة بعد أن أمضى في البحر ٢٤ يوماً .

ولا تعرف نسخة كاملة من رحلته ، والموجود قطعة يبدأ الحديث فيها عن مدينة القاهرة ، وينتهي بالكلام على المبيت بمنى .

وقد حقق هذا الجزء الأستاذ الصديق عبد الحفيظ منصور ، فجاء في مجلد بلغت صفحاته ٥٥٧ مطبوعا في تونس .

٥- رحلة ابن بطوطة :

وهو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (٧٠٣ / ٧٧٩هـ = ١٣٠٣ / ١٣٧٧م) وبطوطة بتشديد الطاء الأولى المضمومة – .

ورحلته شاملة فقد زار الأقطار الاسلامية وبلاد الشرق في عهده ، واستغرق في رحلته سبعا وعشرين سنة – من سنة ٧٢٥ هـ = ١٣٢٤م) .

ونقلها عنه محمد بن جزي الكلبي في مدينة فاس سنة ٧٥٦هـ= ١٣٥٥م) وسماها : «تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار» .

وفى تلك الرحلة بعض أوهام منها ما ذكر عن شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد تحدث عنه حديث من حضر مجلسه ، مع أنه أدخل السجن قبل وصول ابن بطوطة إلى دمشق بأيام ، ولم يخرج من السجن .

وتعتبر رحلة ابن بطوطة أشهر الرحلات لشمولها .

وقد وجدت عناية كبيرة من الباحثين ، وترجمت إلى عدد من اللغات ، وطبعت مرات .

٦- رحلة البلوي :

هو خالد بن عيسى بن أحمد البلوي الأندلسى من أهل القرن الثامن .

حج سنة (٧٣٨ هـ= ١٣٣٧ م) مارًا بمصر ثم بالشام ، فقد ركب مع الركب الكركي بطريق الحج الشامي فوصل المدينة في ١٩ ذى القعدة سنة (٨٣٧ هـ= ١٤٣٣م) وحج ، ثم عاد من المدينة في ٢٤ المحرم سنة (٧٣٨ هـ= ١٣٣٧م) مارًا بالعقبة فالقاهرة حيث وصلها فى ١٤ صفر سنة (٧٣٨ هـ= ١٣٣٧م) .

واسم رحلته «تاج المفرق ، في تحلية أهل المشرق» وقد وصفها صاحب «نفح الطيب» بأنها رحلة كبيرة ، كثيرة الفوائد .

وقد طالعت نسخا مخطوطة منها ، ولخصت ما يتعلق بالحج فيها ، ولا حظت اضطرابا في ترتيب منازل الحج ، أشرت إلى ذلك في مجلة «العرب» – س ١١ ص٧٣١ – .

وقد علمت منذ عهد قريب بأن تلك الرحلة قد طبعت .

٧- رحلة الصفدي :

خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤هـ= ١٣٦٢م)واسمها «حقيقة المجاز إلى الحجاز» كانت منها نسخة مخطوطة في زاوية درعة في المغرب ، بخط المؤلف –

على ما ذكر ابن عبد السلام في رحلته – ونقل عنها ، كما نقل عنها صاحب « درر الفوائد المنظمة » .

وبلغني بأن في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة نسخة منها .

٨- رحلة القلصادي :

أبو الحسن على القلصادى الأندلسي المتوفي سنة (٨٩١ هـ = ١٤٨٦م) .

بلغ جده بطريق البحر فى شعبان سنة (٨٥١ هـ = ١٤٤٧م) وعاد بحراً – بعد أداء الحج – من رابغ إلى العقبة فمصر – في المحرم سنة ٨٥٢ هـ = ١٤٤٨م) .

وقد حقق رحلته صديقنا الأستاذ محمد أبو الأجفان ، الأستاذ بجامعة الزيتونة فى تونس ونشرت سنة ١٣٩٩ (١٩٧٨م) في ٢٥٦ صفحة – في تونس – .

٩- درر الفوائد المنظمة :

هذا كتاب شامل كاسمه في أخبار الحج ، وطريق مكة المعظمة – للشيخ محمد بن عبد القادر الجزيري المصري الحنبلي المتوفي سنة ٩٤٤ هـ = ١٥٣٧م) .

وقد تضمن وصفا لرحلاته من القاهرة إلى الحج – بطريق الساحل ، فهو من هذه الناحية يدخل في نطاق رحلات الحج – .

وقد طبع الكتاب عن نسخة ناقصة ، مع وجود مخطوطتين كاملتين إحداهما في (دار الكتب) في القاهرة ، والأخرى في مكتبة القرويين في فاس – انظر مجلة « العرب » س ١٢ ص ٣٣١ .

١٠- رحلة البكري :

البكريون العلماء كثيرون ، ولبعضهم رحلات ، ومما ينسب إلى أحدهم رحلة ذات أسلوب أدبي ممتع ، تضمنت وصف منازل الحج من البركة – المنزل الأول من القاهرة – إلى مكة المكرمة – بطريق سيناء ، فساحل البحر إلى ينبع فبدر ، فرابغ – .

يصف الكاتب المنزل نثراً وشعراً – بدون تكلف – .

وقد وصف العياشي تلك الرحلة بقوله : قد ظفرت بمصر رسالة للشيخ محمد

البكري – وأظنه محمد بن الشيخ زين العابدين ، ذكر فيها الحج ودياره وذهاباً وإياباً ، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقايق ، وصعوبتها وسهولتها ، بنثر بليغ وعبارات رائقة .

وذكر في كل منزلة شعراً يتعلق بأحوالها .

والبكري الذى ظنه العياشي صاحب تلك الرحلة هو زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي المصري ، له مؤلفان فى تاريخ الدولة التركية ذكرهما الخير الزركلي في « الأعلام » وأرخ سنة وفاته (١٠٢٨هـ = ١٦١٨م) .

ولم أطلع على رحلته مفردة ، ولكنني وجدت وصف المراحل تامّة في رحلات العياشي وابن ناصر وابن عبد السلام وابي مدين ، فنشرتها في « العرب » .

١١- رحلة البكري :

من أهل **القرن الحادي عشر** ، لخصها الدكتور أحمد سامح الخالدي ، ونشر الملخص فى مجلة « الرسالة » التي كانت تصدر في القاهرة ، واسم الرحلة « الحقيقة والمجاز » ومخطوطتها في دار الكتب المصرية .

١٢- رحلة القيسي :

محمد بن أحمد القيسي – من أهل **القرن الحادى عشر** ويعرف بابن مليح – .

١٣- رحلة العياشية :

أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي – نسبة إلى قبيلة آية عَيَّاش – الفاسي (١٠٣٧ / ١٠٩٠ هـ = ١٦٢٧ / ١٦٧٩م) واسمها : « ماء الموائد » من أوفى رحلات الحج ، بل هي أوفى رحلة اطلعت عليها ، وقد ورد فيها : (وقصدى إن شاء الله – من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم ، لا كتاب سمر وفكاهة ، وإن وجد الأمران فذلك ادعى لنشاط الناظر فيها ، سيّما إن كل صاحب تلوين ، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع ، لا يوجد عند غيره) انتهى .

والواقع أنها كما ذكر ، فهي ديوان علم لما حوته من المباحث العلمية المتنوعة ، ومن الكلام على منازل الحج ومشاعره المقدسة ، ومن وصف شامل للحجاز في القرن الحادي عشر الهجري في مختلف حالاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية . ثم هي كتاب سمر ومحاضرة لما تخللها من مباحث أدبية وقصص وأخبار ومقطوعات شعرية .

وتعتبر رحلة العياشي مصدراً لكثير ممن جاء بعده من الرحالين المغاربة كابن ناصر وابن عبد السلام والزبادي وغيرهم ولهذا وصفه ابن ناصر في رحلته بأنه (إمام المرتحلين في زماننا) ولخص كثيرا مما جاء في رحلته . حينا يصرح بالنقل منها وأحيانا يفوته ذلك .

وقد حج سنة (١٠٥٩ ، ١٠٦٤ ، ١٠٧٢هـ= ١٦٤٩ ، ١٦٥٣ ، ١٦٦١ م) .

وجاور في الحرمين وفي القدس وفي الخليل .

وله مؤلفات منها رحلته التى سماها « ماء الموائد » .

وقد طبعت طبعة حجرية بالخط المغربي في مدينة فاس ، (١٣١٦ هـ= ١٨٩٨م) في جزئين صفحاتهما ٥٦٦ + ٤٢٢ = ٨٧٨ + ٢٤ فهارس وتقاريظ وإصلاح تطبيع .

ثم أعيد نشرها – بطريقة التصوير سنة (١٣٩٧هـ= ١٩٧٧م) ووضع الأستاذ محمد حجي أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة الرباط لها فهارس مفصلة عن أسماء الأعلام والمواضع والكتب ، طبعت ملحقة بالجزء الثاني من تلك الرحلة في خمسين صفحة .

١٤- رحلة القيسي :

محمد بن أحمد القيسي ، من أهل القرن الحادى عشر – ويعرف بابن مليح – .

واسم رحلته « أنس الساري السارب ، من أقطار المغارب ، إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب » .

وقد طبعت في الرباط سنة (١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م) بتحقيق الشيخ محمد الفاسي .

١٥- رحلة الهشتوكي:

وهو أحمد بن محمد بن داود بن يعزى الجرولي نسبا الهشتوكي شهرة المتوفي سنة (١٠٩٦ = ١٦٨٤م) .

يوجد فى الخزانة العامة رحلة مخطوطة يري الصديق محمد بن إبراهيم الكتاني انها للهشتوكى المذكور ولكنني رأيت في أحد المواضع منها ذكر تاريخ سنة (١٠٩٩هـ= ١٦٨٧م) وأن مؤلفها معاصر للسلطان اسماعيل سلطان المغرب الذي تولى الحكم من سنة (١٠٨٢هـ= ١٦٧١م) إلى (١١٣٩هـ= ١٧٢٦) لأنه يدعو له بالنصر وأنه اجتمع بالشيخ عبد الله بن سالم البصرى المتوفى سنة (١١٣٤ = ١٧٢١م) .

وعلى كل حال فالمؤلف من أهل القرن الحادي عشرة الهجري ، ويصف الشيخ العياشي بأنه شيخه وأسلوب الرحلة يدل على عدم تمكن صاحبها من العلم وإن كانت لا تخلو من الفوائد .

وزيادة فى الفائدة ؛ فعلى الرغم من أن هذه الرحلات التالية قد تمت بعد رحلة آولياچلبي للحجاز (١٠٨١هـ = ١٦٧٠م) إلا أننا أوردنا هًا تسهيلاً على الباحثين ، وحتى تعم فوائدها فى إلقاء الضوء على الحجاز حتى العصر الحديث . ومن أهم هذه الرحلات التى تمت بعد رحلة آولياچلبي ما يلى :

١- الرحلة الناصرية:

مؤلفها الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (١٠٥٧ - ١١٢٩ هـ= ١٦٤٧ - ١٧١٦م) .

تعتبر هذه الرحلة من أوفى الرحلات إلى الحج وامتعها . وقد اعتمد فيها مؤلفها على رحلة شيخه أبي سالم العياشي الذى وصفه بأنه شيخ الرَحَّالين ، وقد رحل ابن ناصرهذا أربع رحلات إلي الحج إحداها سنة (١١٢١ هـ= ١٧٠٩م) .

والرحلة مطبوعة طبعة حجرية بحروف مغربية في مدينة فاس سنة (١٣٢٠هـ= ١٩٠٢م) وتقع في حزئين صفحاتها ٤٤٢ .

٢- رحلة النابلسي :

هو الشيخ عبد الغني بن اسماعيل النابلسي الدمشقي (١٠٥٠ / ١١٤٣هـ = ١٦٤٠ / ١٧٣٠م) .

ذو المؤلفات الكثيرة في مختلف علوم عصره ، والذي يعنينا منها ما يتعلق بالرحلات وله ثلاث مؤلفات فيها ، أهمها واغزرها فائدة : « الحقيقة والمجاز ، فى رحلة الشام ومصر والحجاز » في ثلاثة أجزاء ثالثها عن الحجاز – في وصف طريق الحج من مصر برًا إلى المدينة ثم مكة ، ثم عاد من المدينة إلى دمشق براً .

وقد ألف رحلته هذه على طريقة كتابة المذكرات يومًا فيومًا ، منذ أن بدأ فى الرحلة فى بلاد الشام – من مدينة دمشق حتى عاد إليها ، وقد سجل مشاهداته عن الحجاز من اليوم الثالث والثمانين بعد المئة إلي يوم عودته إلي دمشق في اليوم الثامن والثمانين والثلاث مئة – أى فى خلال مئتين وخمسة أيام – ابتداء من خروجه من مصر في سابع رجب سنة (١١٠٤ هـ = ١٦٩٢م) إلي يوم عودته إلى دمشق خامس صفر سنة (١١٠٥هـ = ١٦٩٣م) – على ما جاء فى تلك الرحلة .

وتعتبر رحلته – أو رحلاته – هذه من أمتع الرحلات ، وأحفلها بالمعلومات – مع ما فيها من آراء لا تتفق مع روح عصرنا – .

ولم تطبع هذه الرحلة بعد .

٣- رحلة المنالي الزبادي :

هو عبد المجيد بن علي الحسني الإدريسي الفاسي المتوفى سنة (١١٦٣هـ = ١٧٤٩م) ، واسم رحلته « بلوغ المرام بالرحلة إلى البيت الحرام » ، وكان حج سنة (١١٤٨هـ = ١٧٣٥م) وضمن رحلته هذه قصيدة سماها « اتحاف المسكين الناسك لبيان المراحل والمناسك » وله شعره من نمط شعر العلماء منه قصيدة مطلعها » :

سلام على نجد ومن حلَ في نجد ... سلام محب زائد الشوق والوجد

يتشوق فيها إلى مغاني الحجاز .

ورحلته هذه لا تزال مخطوطة ومنها نسخة في الخزانة العامة في مدينة الرباط ،

وقد عول كثيراً على رحلة العياشي وتعتبر رحلته متممةً لرحلتي العياشي ابن ناصر ، وكذا رحلة الدرعي .

٤- رحلة السويدي :

أبو بكر عبد الله بن حسين السويدي البغدادى (١١٠٤ / ١١٧٤هـ = ١٦٩٢ / ١٧٦٠م) .

واسمها : « النفحة المسكية في الرحلة المكية » ومن نسخها المخطوطة نسخة فى مكتبة حكمة شيخ الإسلام فى المدينة .

٥- رحلة ابن عبد السلام :

هو محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري الدرعي المتوفي سنة (١٢٣٩هـ = ١٨٢٣م) من بيت علم مشهور . وقد حج مرتين إحداهما سنة (١١٩٦هـ = ١٧٨١م) والثانية (١٢١١هـ = ١٧٩٦م) .

وعن الحجة الأولى ألف رحلته الكبرى وهي من أوسع الرحلات وأولها وقد رجع فيها إلي كثير من الرحلات المؤلفة قبل عهده كرحلة العياشي ورحلة العبدرى ورحلة الصفدي ورحلة التجيبي ورحلة البكري والرحلة الناصرية .

أما عن حجته الثانية فقد ألف عنها الرحلة الصغرى .

ولكن الرحلة الكبرى الأولى أوفي وأغزر فائدة من كثير من الرحلات ولا تزال مخطوطة ومنها نسخة فى الخزانة العامة فى الرباط مكتوبة فى عهد المؤلف وقد تكون مسودة تاليفه .

وسياتى تفصيل ما أجمل عن هذه الرحلة .

٦- رحلة التامراوي :

هو محمد بن محمد المزواري التامراوي من المغرب الأقصى حج سنة (١٢٤٢ هـ = ١٨٢٦م) .

وقد أورد رحلته كاملة صاحب كتاب « المعسول » – ج ٨ ص ١٩٧ . وهي موجزة جداً ولكنها لا تخلو من فائدة مع وقوع تحريف في أسماء المواضع .

٧- رحلة إدريس العلوي :

هـو إدريس بن عـبـد الهـادي العلوي الحـسني الفـاسي المتـوفى فى المدينـة سنة (١٣٣١ = ١٩١٢م) .

وصف رحلته إلى الحج سنة (١٢٨٨هـ= ١٨٧١م) .

وقد أبحر من السويس إلى ينبع .

وهي رحلة مختصرة جداً ومخطوطتها في خزانة الرباط .

٨- رحلة ابن كيران :

هو محمد بن الطيب بن كيران الفاسي المتوفي سنة (١٣١٤هـ= ١٨٩٦م) واسم رحلته : «الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية» وصف فيها رحلته إلى الحج سنة (١٢٩٣ = ١٨٧٦م) وقدم بطريق البحر فى الباخرة .

وهذه الرحلة مطبوعة فى مدينة فاس ولكننى اطلعت على مخطوطة فى خزانة الرباط . وهى لا تخلو من فوائد وخاصة فى وصف الطريق بين مكة والمدينة .

٩- الرحلة الحميدية :

مؤلفها اسماعيل الحميدي المالكي . وقد يكون مِصْرِيًا ، وهو من أهل القرن الثالث عشر حج سنة (١٢٩٧هـ= ١٨٧٩م) عن طريق السويس إلى جده .

ومخطوطة هذه الرحلة التي أطلعت عليها موجودة في خزانة الرباط ، وهي ممزوجة بالمناسك ، ومع اختصارها ففيها فوائد .

١٠- رحلة التونسي :

هو محمدبن عثمان السنوسي التونسي (١٢٦٦ – ١٣١٨هـ= ١٨٤٩م – ١٩٠٠م) وقد حج سنة (١٢٩٩هـ= ١٨٨١م) .

والتونسى من مشاهير علماء تونس ، وقد بُدِئ فى نشر رحلته فى تونس فصدر منها جزء فى التراجم .

ورحلته وافية المباحث وهو يعني بتواريخ العلماء وتراجمهم ، مع تسجيل واف لمشاهداته فى مكة وفى المدينة ، ووصف لمنازل الحج إلى الشام ، حيث عاد مع الحاج الشامى .

ومن رحلات أهل القرن الرابع عشر = العشرين الميلادي وهي كثيرة :

١- دليـل الحـج ، للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ، تأليف محمد صادق . كتاب يشمل ثلاث رحلات للمؤلف :

(١) من الوجه إلى المدينة المنورة ومنها إلي ينبع في سنة (١٢٧٧هـ = ١٨٦٠م) .
(٢) للحج سنة (١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م) أميناً للصرة وهذه الرحلة وصفها في كتاب سماه « مشعل المحمل » .
(٣) للحج سنة (١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م) وصفها بكتاب سماه « كوكب الحج » جمع هذه الرحلات الثلاث في هذا الكتاب الذي طبع سنة ١٣١٣ (١٨٩٦م) في ١٥٢ صفحة وفيه صور .

٢- مشعل المحمل ، تأليف محمد صادق يصف فى هذه الرحلة سير الحاج من مصر براً في الذهاب والإياب - في سنة (١٢٩٧هـ = ١٨٩٧م) - مطبوع سنة (١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م) في ٦٠ صفحة (وقد ضمنه كتابه « دليل الحج » المتقدم ذكره) .

٣- التحفة اليمنية في الأخبار الحجازية : لمحمد اليمني بن علي بن عرعار محار العنابي الجزائري . مطبوعة فى القاهرة سنة (١٣١١هـ = ١٨٩٣م) في ٣٩ ص .

٤- الرحلة الوهبية إلى الأقطار الحجازية - تأليف أحمد علي الشاذلي - صاحب جريدة الإسلام : وصف موجز لرحلة المؤلف لأداء الحج سنة (١٣٢١هـ = ١٩٠٣م) في ٨٦ ص صغيرة وهي على إيجازها تحوى وصفًا مجملاً عما يسود الحجاز في ذلك العهد من الفوضى واختلال الأمن .

٥- مرشد الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، تأليف محمد حسن غالي ، مطبوع في الرحمانية في القاهرة سنة (١٩٢٣م) في ٢٠٠ ص .

٦- مرآة الحرمين ، تأليف اللواء ابراهيم رفعت باشا (١٢٧٣ / ١٣٥٣هـ = ١٨٥٦ / ١٩٣٤م) أمير الحج المصري في سنة (١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٥ هـ =

١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٧م) - كتاب من أمتع كتب الرحلات وأوسعها يقع في مجلدين صفحاتها ٥٢٨ + ٤٠٧ = ٩٣٥ يَزْدَانُ بالصور والخرائط المتقنة ، بطباعة أنيقة حقًا - مطبعة دار الكتب المصرية - سنة (١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م) (*) .

٧- **الرحلة الحجازية** ، تأليف محمد لبيب البتنوني ، وصف فيها حج الخديوى عباس حلمي سنة (١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) وهي من أوفي الرحلات تفضيلاً عن أحوال الحجاز العامة في ذلك العهد - على ما فيها من أخطاء - وقد طبعت طباعة جيدة مصورة في سنة (١٣٢٩هـ = ١٩١١م) في ٣٣٤ ص عدا الصور والخرائط .

٨- **سياحتي إلى الحجاز** ، منسوبة إلى غريب بن عجيب الهاشمي مطبوعة في القاهرة سنة ١٩١٥ م في ٤٥٧ ص مصورة .

٩- **تذكار الحجاز** ، رحلة موجزة لعبد العزيز صبرى من مصر فى آخر عهد الشريف الحسين ، وهي على إيجازها ذات فوائد ، مطبوعة سنة (١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣م) المطبعة السلفية وتقع في ٢٢٨ ص وفيها صور .

١٠- **في قلب نجد والحجاز** ، لمحمد شفيق مصطفى ، صحفي مصرى قام برحلة من القاهرة - بطريق فلسطين - إلى قريات الملح فالجوف فالقصيم فالرياض فمكة ، في سنة (١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) ونشر وصف ما شاهده في جريدة السياسة ، ثم قامت دار المنار بطبع تلك المقالات في كتيب بلغت صفحاته ٦٧ ، وفيه معلومات طريفة على إيحازها .

١١- **مرشد الحاج** ، تأليف عبد الوهاب مظهر سنة (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م) مطبوع في ١٠٣ ص .

١٢- **الارتسامات اللطاف** ، في خواطر الحاج إلي أقدس مطاف ، للأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ / ١٣٦٦هـ = ١٨٦٩ / ١٩٤٦م) يصف رحلته للحج سنة (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م)في ٣٠٤ ص ويتطرق إلى وصف مكة والطائف وعمران الجزيرة ومختلف جوانب الحياة بتفصيل ، بحيث تعتبر هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأوفارها .

(*) وهى تختلف عن مرآة الحرمين لايوب صبرى باشا ، فهذا الكتاب فى تاريخ الحرمين والمدينين ووصف لجزيرة العرب (المترجم) .

١٣- **رحلة الحجاز** لابراهيم عبد القادر المازني (١٣٠٨ / ١٣٦٨هـ= ١٨٩٠ / ١٩٤٨م) في سنة (١٣٤٩هـ= ١٩٣٠م) في وصف الاحتفال بجلوس الملك عبد العزيز - رحمه الله - مطبوعة سنة (١٩٣٠م) في ١٦٦ صفحة مصورة .

١٤- **مشاهداتي في بلاد الحجاز** ، تأليف عبد الوهاب خضير ، كُتَيب يقع في ٤٣ صفحة يصف أول احتفال بجلوس الملك عبد العزيز - رحمه الله - في سنة (١٣٤٩هـ= ١٩٣٠م) وهو مقدم بقلم أحمد زكي باشا ومصور ومطبوع .

١٥- **في المملكة الروحية للعالم الإسلامي** (رحلة إلي الحجاز سنة ١٣٤٩هـ= ١٩٣١م) تأليف مصطفى محمد ، في ٢٣٠ ص مصورة ،مطبوعة بمطبعة المدينة المنورة)! .

وهكذا نرى أن نفوس كثير من المسلمين كانت تهفو إلى ديار الحجاز طوال التاريخ .. ومما لا شك فيه أن كل رحلة تحمل بين صفحاتها الكثير من المعلومات عن الحالة السياسية ، والإدارية ، والثقافية ، والإجتماعية لمنطقة الحجاز .

وحتى نستطيع أن نستفيد من الرحلة التى نحن بصددها ؛ فلابد من القاء بعض الضوء على : -

أ - الحجاز فى العصر العثمانى ، أو لنقل العثمانيون والحجاز .

ب- الرحَّالة آولياچلبي الذي قام بالرحلة .

* * *

أ - العثمانيـون والحجـاز

مكانة الحجاز لدى سلاطين آل عثمان :

كان للحجاز مكانة خاصة لدي السلاطين العثمانيين ، وكانوا ينتهزون الفرصة للتعبير عن محبتهم ، وإحترامهم لأمراء مكه ، وذلك لإنتسابهم إلي آل البيت . وقد حافظ العثمانيون منذ بدايات ظهورهم على مسرح التاريخ بعلاقات طيبة مع أمراء الحجاز ، ويكفى للتدليل علي ذلك ما قام به السلطان محمد الفاتح ، من مراسلات مع أمير مكة ، عن طريق العالم الجليل الحاج محمد الزيتوني؛ حيث أرسل الفاتح يبشرهم بفتح القسطنطينية ، مرفقًا الهدايا القيمة مع رسائل البشارة ، وما كان من أمير مكة إلا أن أمر بقراءة الرسالة المرسلة أمام الكعبة المشرفة ، وأردف ذلك بالدعاء للسلطان الفاتح ، ورد على هداياه بهدايا آخرى مع نجم الدين السيوطى .

لقد قام الفاتح في رسائله بإخبار شريف مكة بالفتح المبين ، وأنه حوَّل كبرى كنائس القسطنطينية إلي جوامع ، وأن هداياه ما هي إلا تعبير عن حسن المودة ، وطلب الدعاء . ولم يغفل السلطان الفاتح صاحب السيادة على الحجاز آنذاك ؛ وهو السلطان المملوكي ، فخصه برسالة ، وهدايا قيمة هو الأخر ، وتبادلا رسائل التهنئة ، والمودة (١) . وكانوا يحتضنون الأشراف والسادات (٢) الذين توطنوا الديار العثمانية ، وسمحوا لهم بإقامة التشكيلات الخاصة بهم ، والتى كان يباشرها نقيب الأشراف (٣) أولاً بشكل مستقل ، ثم ألحقوه بالتشكيلات العلمية . وكان هذا المنصب يتوارثه الأبناء عن الأباء .

---

(١) إنظر هذه الرسائل المتبادلة بين الفاتح ، والسلطان المملوكى ، وأمير مكة المكرمة فى كتابنا « استانبول ؛ عبق التاريخ .. وروعة الحضارة ، القاهرة جـ ١ ، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م ص ٣٥ – ٤٨) ، وكذلك ؛ منشآت السلاطين لفريدون بك جـ ١ ، القسطنطينية ١٢٦٤ هـ . ص ٢٣٢ – ٢٦٦ ..

(٢) **الأشراف والسادات** : مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء وأحفاد سيدنا الحسن حفيد النبى ﷺ ، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات . وكان لهم نقيب يطلق عليهم نقيب الأشراف ينظم حياتهم، ويحفظ سجلاتهم . وكانت لهم مخصصات من الدولة ولنقيب الأشراف نواب فى كل الولايات يحلون محله فى حل أمور الأشراف . وكان منهم أمراء مكة المكرمة فى بعض المراحل التاريخية وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكه « مكة شريفى » أى شريف مكه . وكان الشريف بركات يتبع إداره مصر عند الفتح العثمانى . وما أن علم بدخول – سليم الأول مصر (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) حتى أرسل اليه إبنه ومعه مفاتيح مكه والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة . وبهذا انتقلت إلى الاداره العثمانية . (المترجم) .

(٣) **نقيب الأشراف والسادات** :لقب ومنصب عرفته الحضارة الإسلامية ، ويُطلق على المتولي لأمور المنتسبين إلي آل بيت =

وإذا كان السلاطين العثمانيون قد بسطوا رعايتهم على السادات ، والأشراف وأمَّنوا لهم الحياة الكريمة في مختلف الولايات ، والمقاطعات العثمانية ، ومنحوهم

= رسول الله ﷺ ، من السادات ، والأشراف ، والتثبت من نسبهم ، ويقوم على سجلاتهم ، وتوزيع حِصصهم من الغنائم ، وقد كان بمثابة الوصى علي كل المنتسبين إلى آل البيت ، ويثبت مواليدهم ، ويسقط وفاياهم .

ورثه العثمانين عن المماليك ، وأصبح من المناصب الرفيعة فى الدولة العثمانية ، ومكانه فى التشريفات بعد السلطان مباشرة .

ثم الأخذ بهذا النظام منذ عهد بايزيد (١٣٦٠ – ١٤٠٣ م = ٧٦٢ – ٨٠٦هـ) ومنذ عهد بايزيد الثانى (١٤٤٧ – ١٥١٢م = ٨٥١ – ٩١٨هـ) صار يُعيِّن وكيلاً للنقيب ، في الولايات والمقاطعات الأخرى ، ويُطلق عليه « وكيل نقيب الأشراف » .

وقد كان نقيب الأشراف هو الذي يُقلد السلطان سيف السلطنة ، ويقوم بمراسم تتويجه في الإحتفال الذي كان يُقام في مسجد أبي أيوب الآنصاري ، وإعلان السلطان الجديد ، وكان هو الذي يقوم بالدعاء للسلطان في المناسبات الدينية ، وغيرها .

وأول مَنْ عُيِّن في هذا المنصب هو العالم البغدادي الشهير ، سيد على نطاع بن محمد ، وكان تلميذاً للأمير البخاري وتولي إلي جانب النظِارة على الأشراف ، الإشرافُ علي الزاوية الإسحاقية .. واشترط توارثها فى أبنائه من بعده .

عقب هزيمة أنقره علي يد تيمورلنكٍ ، وتشتت الدولة العثمانية ، ثم حبس سيد على نطاع فترة ، ثم أطلق سراحه ، فذهب إلي الحجاز ، ثم عاد إلي بورصة في زمن السلطان مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١ = ٨٢٤ – ٨٥٥هـ) ، واستمر في وظيفتيه السابقتين . وعقب وفاته تولى إبنه سيد زين العابدين نقابة الأشراف .

بعد وفاة سيد زين العابدين ، ظلت هذه الوظيفة شاغرة لمدة ما ، إلى أن وصل (إلي العاصمة سنة ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م) **المولا عبد الله القريملي** ، والذى كان استاذاً للسلطان بايزيد ، بعد سياحة طويلة في بلاد العرب ، والعجم ؛ فرشح أحد طلابه ، وهو سيد محمود ، كأول نقيب للأشراف ، وبعده ظل هذا المنصب شاغرًا ، فطالب به الكثير من الأدعياء . وكان سيد محمود هذا هو أول من لُقِّب بلقب « نقيب أشراف مصر ، وسوريا ، والبلاد العربية » أيضًا .

ومن هذا المنطلق ، ولما بدأت الدولة هي التى تعين نقيب الأشراف ، كان وفقًا للمراسم والتشريفات ؛ يفد النقيب الجديد إلى الباب العالي لتقديم واجب الشكر ، وبعد مدة من الانتظار ، يصطحبه التشريفاتي إلى مقام الصدر الأعظم ، الذى يستقبله واقفًا ، ويقوم النقيب بدوره بتقبيل أطراف ثوب الصدر الأعظم ، ويتم الإنعام عليه بفراء السمور ، للوفاء بمهام وظيفته ...

كان الشعبُ يطلق على السادات ، والأشراف لقب « أمير » وعلى عمامتهم « الخضراء ، عمامة الأمير ، .. وكان نقيب الأشراف ، والسادات ، والأشراف يلبسون هذه العمامة الخضراء الخاصة بهم .

كما كان نقيب الأشراف ، هو الذي يفض فى المنازعات ، ويقضى فيما بينهم ، وكانت لهم سجونهم الخاصة بهم ، يتولاها باشجاويش نقيب الأشراف ، وقبل المحاكمة لابد ، أن يخلع إشارة السادات ، والأشراف وهي العمامة الخضراء ، ولا يُعدم أي منهم أو يجلد إلا بامر من النقيب .

ويأتي بعد نقيب الأشراف الـ « عَلَمْدار » أي حامل العلم ، وصاحبه ، وهو أيضًا من الأشراف الذين مُنِحوا هذا اللقب . وهو المكلف بحمل « الصنجق الشريف » ومرافقة الجيش به عند الخروج إلي الحرب . ولابد ان يُشارِك كل السادات ، والأشراف فى موكب خروج وعودة « الصنجق الشريف » من وإلي القصر ، بعد العودة من الحرب . وكانوا يكبِّرون ، ويهللون ويصلون على النبى ، وهم يسيرون خلف العلم النبوي الشريف وحوله .

كان السلطان يستقبل نقيب الأشراف في مراسم المعايدة واقفًا ، وسط تصفيق جاويشية الديوان . « انظر ؛ الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة ، رجب سنة ١٤٠٣ هـ = ابريل ١٩٨٣م » أو Mekke-i Mükerreme Emirleri , Ord. prof. I. Hakki uzunçarsili, Ank. 1972 - s, 9 - 12.) (المترجم) .

البـراءات المؤيدة لـذلك . حـتـى أن السلطان مـراد الثـاني (١٤٢١ – ١٤٥١م) كـان يُسلم بيـديه سنويًا ألف فيلورى ذهبًا لآل بيت النبي ﷺ في كل مدينة ، أو قَصَبة . وقد ظلت هذه عادة متبعة لدي بعض السلاطين ، يراعونها ، ولا يتخلفون عن الوفاء بها .

ولم يغب سكان مكة والمدينة عن بال السلاطين العثمانيين ، فكان السلطان يلديريم بايزيد (١٣٨٩ – ١٤٠٢م = ٧٩٢ – ٨٠٥هـ) وإبنه السلطان محمد چلبي من أوائل من أرسلوا الصرة [١] إلي أهل الحجاز . وبعد ذلك قام السلطان مراد الثاني – طوال مدة حكمه – بإرسال صرة نقدية تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى . ذهبًا إلي كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف ، وخليل الرحمن . وكانت الصرة التي أُرسلت في سنة (٨٥٥هـ = ١٤٥١م) مقدارها ٨٠١ كيسة ذهبية [٢] . كما أن نفس السلطان قد أوقف حاصلات قرى منطقة « باليق حصارى » أي قلعة باليق من آعمال آنقره علي مكة المكرمة [٣] ، وكذلك أوقف في وصيته المؤرخة بآواخر رجب سنة ٨٥٠هـ = سبتمبر سنة ١٤٤٦م مبلغًا وقدره ٣٥٠٠ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى ذهبًا [٤] ؛ لكل من مكة ، والمدينة ، ولكي يُوزع هذا المبلغ على فقراء المدينتين . . [٥] .

ولا تحتوى السجلات المهتمة بالأمر ، على السنوات التى أعقبت فتح استانبول ؛ ففي نفس سنة الفتح ، وعدا هدايا الفتح ، أرسل السلطان محمد الفاتح الصرة إلى

---

(١) **الصرة** : « سنفصل عنها القول فى المتن بعد قليل » . وسيكون عنها هامش عند الترجمة (المترجم) .

(٢) **الكيسة** : مصطلح مالى ، يدل على الحافظة التى كانت توضع فيها النقود الذهبيه ، أو الفضيه . وكانت تتغير قيمتها من عصر إلى عصر آخر كان يطلق على العملة التى توضع فى الكيسه إسم الأقچة . وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوى أربعين آقچة . أول الأمر كان الكيس يساوى ٣٠ الف اقچة أو ١٠ آلاف دينار ذهب ثم بدأت القيمه تتغير وفقًا للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد . (المترجم) .

(٣) عاشق باشا زاده تاريخى ؛ ص ١٩٦ .

(٤) الفيلورى ؛ Florin <---- Flori <---- Filori – عملة أوروبية سادت لفترات كبيرة فى الدولة العثمانية وكانت قيمتها ذهبية ، وضربت أول الأمر فى فلورنسا فى القرن الحادي عشر الميلادى ، ولقيت رواجًا كبيرًا فى كل دول أوروبا . كانت عبارة عن درهم واحد قيمته أربعون آقچة = « بيضة » ووزنها قيراط . وقد عرفت طريقها إلي الدولة العثمانية منذ عهد محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م = ٨٥٥ – ٨٨٦هـ) . وكان قيمة الدرهم منها ٤٧ قرشًا و ٣٠ پاره ، وقد عرفته البلاد العربية ، وخاصة فى موسم الحج . انظر ؛ عثمانلى تاريخى – د . / الصفصافى أحمد ؛ تأصيل مسميات السكة العثمانية المستعملة فى الجزيرة العربية إبان العهد العثمانى ، . .) المترجم .

(٥) مكة مكرمة أميرلرى . مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ هامش ٦ .

سكان الحرمين الشريفين . وتنتقل المصادر مباشرة بعد ذلك إلي ابنه بايزيد الثاني الذي خصص نصف الصرة إلي المدينة المنورة والنصف الآخر إلى مكة المكرمة ، وكانت فى مجموعها تبلغ أربع عشرة ألف دوقة ذهبية [١] . وكان لابد وأن تصل هذه الصرة إلى مكة المكرمة فى العيد الأضحى . [٢] .

وضاعف السلطان سليم الأول الصرة التى كان يبعث بها والده ، وعقب دخوله إلى مصر ، واستقرار الأمور بها أرسل إلى كلٍ من آشراف مكة خمسمائة دوقة ذهبية، وإلى كل شيخ من مشايخها ست سكات ذهبية . وإلى كل واحد من اعيان المدينة ثلاث دوقات ذهبية ، وتم إحصاء الفقراء الذين خرجوا إلى خارج مكة ، ومُنح لكل منهم دوقة . بحيث وصل مجموع المبالغ التى تم توزيعها . مائتي ألف دوقة ذهبية . هذا عدا الظهيرة التى أرسلت مع الصرة . وكان أول أمين للصرة يُعيِّن من قبل سليم الأول سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) هو الأمير مصلح الدين ، وقد أشرف بنفسه ، ومعه قاضيان مصريان على توزيع الصرة على مستحقيها فى كل من المدينتين المقدستين [٣].

واعتاد العثمانيون ارسال هذه الصرة سنويا إلى اهالى الحرمين الشريفين ، وقد أطلق عليها الأهالي « الصدقات الرومية » [٤] .

---

(١) الدوقة : Dika = Duka عملة كانت تستخدم فى البندقية وفرنسا ، وتسك من الذهب ، والفضة وكانت هى الأكثر رواجًا بين التجار الذين يجوبون الديار العثمانية بالرغم من وجود وتداول العملات التى كان يسكها السلاطين العثمانيين . وكان السلطان اورخان هو أول من سك عملة معدنية عثمانية ، وكُتب على احد وجهيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (اورخان خلد الله ملكه) . وحرص بعده كل سلطان أن يضرب لنفسه عملة خاصة به .. (المترجم) .

(٢) كانت الصرة التى يرسلها بايزيد الثانى كل سنة لتوزع على آهالي الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربي الشيخ شهاب الدين ابن أحمد بن علي المتوفى (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) فقرض قصيدة فى مدح السلطان اسماها (الدر المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) وقدمها إلى السلطان عندما قدم الشاعر إلى استانبول ، ماستحسنها السلطان ، وأنعم على الشاعر بألف دينار ، وكان يرسل إليه سنويًا مائة دينار انظر قرآت مكة ، مجلد ٢ ص ٦٧٠ – ٦٧١) . المترجم.

(٣) وقد جاء فى تاج التواريخ جـ ٢ ، ص ٣٧١ ، وفى هامر جـ ٤ ص ٢٣٦ ، أن السلطان سليم الأول قد خصص لمكة خمسة آلاف أردب ، وإلى المدينة ألفين من الظهيرة ، وكانت هذه الكمية تُزاد وفقًا لزيادة نفوس هاتين المدينتين الشريفتين ، حتى وصلت الكمية الى ١٢ الف أردب إلى مكة ، وثمانية آلاف أردب إلى المدينة وذلك فى منتصف القرن العشرين ، وأنها كانت ترسل من أوقاف مصر . انظر امراء مكة المكرمة ص ١٤ .

(٤) أ. د. إسماعيل حقى اوظون چارشيلى ، مكة مكرمة اميرلرى ؛ أنقره ١٩٧٢م ص ١٤ .

ولما دخلت مصر ، وسوريا تحت النفوذ العثماني ، أخذ العثمانيون على عاتقهم المحافظة علي الأوقاف المملوكية التي كانت وَقْفًا علي الحجاز ، وحافظوا على إرسال الصرة المصرية بُكل عاداتها ، ومراسمها ، وطبَّقوها كما هي .. وأضافوا عليها بعض التحسينات ؛ فقد زاد السلطان سليمان القانونى» (١٤٩٥ – ١٥٦٦م = ٩٠٠ – ٩٧٤هـ) مقدار الصرة التي كانت تُبعث من مصر . كما جعل « صدقات الجوالي » أي معظم الجزية التى كانت تؤخذ من غير المسلمين مخصصة لآهالى الحرمين [١] .

وكانت الصرة التي تُرسل من مصر لآهالي الحرمين الشريفين ، والصدقات والغلال ، والظهيرة ، والدشيشة ، تُؤمن من الأوقاف الخيرة الموقوفة على الحرمين الشريفين فى مصر . وكانت القرى المصرية الموقوفة على الحرمين الشريفين تُسمى فى مصر « قرى الدشيشة » [٢] .

كما كانت الصرة تخرج فى استانبول كل عام وسط احتفال مهيب ، يتقبل فيها أمين الصرة الأوامر من السلطان ، ويتقبل الهدايا ، والعطايا المرسلة من الأمراء ، والأميرات ، والوزراء ، ورجالات الدولة ، والأثرياء ، ويتحرك موكب القافلة ، وسط حراسة مشددة من القوات المخصصة والمرافقة للموكب بمجرد أن يسلم السلطان مقود جمل المحمل إلى أمير القافلة ... وقد فصل الرحالة آولياچلبي فى رحلته القول عن هذه المراسم .

* * *

(١) آولياچلبي سياحتنامه س جـ١ ، ص ١٦١ .

(٢) وصلت الكميات المرسلة من مصر من هذه الظهيرة سنة ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م ، ٩٧٧هـ = ١٥٦٩م ستة آلاف أردب من القمح ، وحسب سجلات دفاتر الديوان المصرى بلغت ١٩١٦١ أردبًا أى ما يقرب من واحد ونصف مليون كجم . وكانت هذه الكميات تُنقل بالسفن . وكان الأهالى يطلقون على الشوربة التى تُسوى في المدينتين الشريفتين من البولغر مسمى « الدشيشة » . انظر ، امراء مكة المكرمة ص ١٥) المترجم.

لقد ظلت إمارة مكة المكرمة فى أيدى آبناء بنى هاشم ، والذين يُطلق عليهم بنى فليطه ، وهم من آبناء ، وأولاد الحسن بن على بن أبى طالب (ﷺ) حتى نهايات القرن السادس الهجرى ٥٩٧ / ٥٩٩هـ أى الثاني عشر الميلادى ١٢٠٠ / ١٢٠٢ م إلي أن تمكن أمير ينبع أبو عزيز قتاده بن ادريس – وهو بدوره من أولاد الإمام الحسن – من السيطرة عليها ، ولقد بقيت الحجاز تحت سيطرة أولاد ، وأحفاد قتاده إلى أن تمكن الملك عبد العزيز آل سعود من استخلاصها من أيديهم سنة (١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م) .

لم يكن أمير مكة ، وأشرافها ، يتمتعون بالإستقلال الكامل ، بل كانوا دائمًا تحت نفوذ ، وسيطرة الدول التى تتشكل في مصر ، وكانوا يقرأوون الخطبة باسماء حكام هذه الدول .

وخلال إمارة قتاده بن ادريس ، كان الأيوبيون هم أصحاب الكلمة فى مصر ، وسوريا ، واليمن ، ولقد اعترفوا بإدارة الأشراف لمكة والمدينة .. ولما جاء المماليك ، ومن بعدهم العثمانيون اعترفوا بإمارة نفس العائلة على ا لحجاز ، وكانوا يبعثون إليهم بالفرمانات التى تعترف لهم بالإمارة ، وتُصدِّق لهم عليها ..إن وجود الحرمين الشريفين ، وما يُمثلانه بالنسبة للعالم الإسلامي أجمع ، تحت سيطرة هذه الدول ، كان يحمل إلي جانب الأهمية السياسية ، أهمية دينية قصوى .. فقد كان ذلك يمثل نفوذًا ، وإعتبارًا معنويًا لا يُستهان به لهذه الدول ، بين شعوب العالم الإسلامي .. ولقد حرص هؤلاء الحكام – وخاصة بعد سليم الأول سنة (١٥١٧م = ٩٢٣هـ) على أن يلقبوا بالخليفة ، لكى يجمعوا بين السلطتين ؛ الدينية – والدنيوية .

وما أن أُشيع أن السلطان سليم الأول قد انتصر فى مرج دابق سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) ، واستولى على الشام ، وفلسطين ، وأنه قد انتصر على ا لمماليك أيضًا فى الريدانية سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية ، حتى سارع أمير مكة آنذاك الشريف بركات بن محمد الحسني ، بإرسال نجله الشريف أبو نمي الذي كان لا يزال صبيًا ، لم يتجاوز الثانية عشر بعد ، برفقة سفير يحمل الهدايا ومفاتيح مكة ليعرضها على السلطان العثماني فى مصر ، مقرونة بالتعظيم وخالص الدعاء .

كان مجيئ الشريف أبو نمي بن بركات إلى مصر في اليوم الثالث عشر من شهر جمادي الآخر سنة (٩٢٣هـ = اغسطس ١٥١٧م) ، فأمر السلطان بحسن استقبال الشريف ، واستضافه في المكان المخصص له [١] وفي السادس عشر من الشهر المذكور حضر أبو نمي إلي مقر إقامة السلطان لتقديم مفاتيح الكعبة والهدايا التى أحضرها معه ، وأخذ مجلسه هو ومَنْ معه ، واستمع إلى ما يدور في الديوان ، وما أن أنتهت أعمال الديوان ، حتى استقبل السلطان الشريف وسط حفاوة بالغة ، ثم ودَّعه في موكب لكي يذهب الشريف إلى مقر إقامته ، واستقبله السلطان مرة آخرى في الثاني والعشرين من نفس الشهر وألبسه الخلعة فقبل الشريف يده ، وودعه .

ويذكر ابن اياس أنه [في يوم الخميس ، الرابع من شهر رجب خرج إلى السفر ابن السَّيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه إلى وطاقه بالريدانية فكان له موكب حافل، وأخلع عليه قفطان تماسيحَ مذَهبًا ، وقدَّامه الرماة بالنفط ، وخرج في صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد نادى لهم السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج في صحبته ، وأشيع ان السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضًا عن الباش = (الباشا) الذى كان بها .. وجعله هوالمتصرف في أمر مكة قاطبة ، واضاف له نظر الحسبة بمكة ايضاً ، وأنصفه غاية الإنصاف ، فتزايدت عظمة الشريف بركات إلي الغاية ، وأكرم ولده غاية الإكرام..] [٢] .

وهكذا ، يتضح أن أبا نمي قد أُحسن استقباله ، ووداعه ، وأنه عند عودته إلى

---

(١) يذكر حيدر چلبي فى روزنامته ان « وَصَلَ الشريف أبو نُمي ابن الشريف بركات امير مكة المكرمة فى الثالث عشر من جمادي الآخر سنة (٩٢٣هـ = آغسطس ١٥١٧م) . وامر الآغوات باستقباله وفى السادس عشر من الشهر المذكور حضر الشريف أبو نمي المذكور إلى الديوان ، وقد شرف بطلعته النورانية ، وكان الصدر الأعظم يونس باشا قد أعد مجلسًا فى المابين وجلس على مقعده مع قضاة العسكر ، ووصل السفير عرّار الذى هو ابن عمه ، فجلس على الكرسي المواجهه ، وبعده عُقد الديوان على الترتيب – وتشرف الشريف بمقابلة الخداوندكار ، فإنسحب علية القوم ، ومَنْ تبقى من آغوات البلوكات ذهبوا إلى دوائرهم ، ومدت الولائم اليومية بدون اي تقصير بحيث كان يُقدم يوميًا من الخراف ثلاثين ، وفى اليوم الثاني والعشرين ، خلع عليه السلطان ، وقام الشريف نمي المذكور وقبل يد الخداوندكار ؛ انظر « منشآت زيدون جـ ١ ص ٤٣٩ ، طبع تقويم خان ، سنة ١٢٦٤ ، بينما ابن إياس يُظهر تاريخ المقابلة سابقًا على التاريخ الذى ذكره حيدرچلبي بيوم واحد) . (المترجم) .

(٢) محمد بن أحمد إياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى جـ ٥ ، القاهرة ١٣٨هـ = ١٩٦١م ص١٩٣ .

مكة ، قد تسلم فرمانًا ، ببقاء والده فى إمارة مكة ، بل واتساع نفوذه ، وإضافة نظر الحسبة إليه أيضاً .

لم يكتف السلطان العثمانى بذلك ؛ بل أرسل مائتي ألف ديناراً ذهبيًا ، لكي توزع على أهالي الحرمين الشريفين ، وكما سبقت الإشارة – أرسل بالسفن عن طريق البحر كمية كبيرة من الظهيرة ، وكلّف الأمير مصلح الدين ، ومعه اثنين من قضاة مصر بتوزيعها !. [(١)] وحدَّد المخصصات التى تُرسل من مصر إلي أمير مكة . [(٢)] وربط معاشه بخزينة مصر .

وهكذا ، دخلت منطقة الحجاز تحت إشراف ، وإدارة الدولة العثمانية ، وتم بعث القضاة إلي الحرمين ، وتم قراءة الخطبة بإسمهم ، وخاصة بعد أن حصلوا على لقب ، ومنصب الخلافة [(٣)] وكان يُذكر إسم أمير مكة بعد إسم الخليفة ، والسلطان العثماني . وتم تأمين الأمن ، والهدوء فى الحرمين الشريفين عن طريق القوات التى كانت تُرسل سنويا من المعسكرات السبع الخاصة بالإنكشارية فى مصر .

* * *

---

(١) ورد فى خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام ، ص ٥١ ما يلى : «أول ورود حب الصدقة لأهل مكة سنة (٩٢٣) ، ثم وصلت إلى بندر جده مراكب من السويس فيها سبعة آلاف أردب قمح ، وهو أول حب ورد لأهل مكة ، فكتب جميع أهل مكة إلا السوقة ، والتجار ، ووزع عليهم ذلك الحب ، وكان المتولى نظر ذلك الأمير مصلح .... وعمر الأمير مصلح مقام السادة الحنفية ولما فرغ ثم توجه إلى المدينة المنورة لإجراء الصدقات ثم إلى مصر ثم إلي الروم» . انظر ، أمراء مكة المكرمة ، ص ٧٤ هامش (١) . المترجم) .

(٢) آولياچلبي سياحتنامه س ، جـ ١ ص ١٧٧ .

(٣) عند دخول سليم الأول الى مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م كان الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والنهي فى الديار المصرية .. ولكن بعد أن استقرت الأمور له ، نقل الخليفة ومَنْ فى معيته إلى استانبول مع الآلاف من الفنيين ، والحرفيين المصريين وخلال المراسم التى تمت فى جامع الآياصوفيا تم التنازل عن لقب الخلافة ، وجُبَتها من قبل آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث ؛ وهكذا أصبح سليم العثماني خليفة للمسلمين ، وجمع بذلك بين السلطة السياسية والدينية فى البلاد . انظر ؛ ابن اياس جـ ٥ حوادث سنة ٩٢٣ هـ . وكذلك ؛ (Osmanli Padisahian Ansiklopedis, C. I. S. 214 (المترجم) .

تعيينات أمراء مكة ومخصصاتهم:

كان بمجرد وفاة أمير مكة ، أو عزله يُصبح مقام الإمارة شاغرًا ، وبناءًا عليه يتم إختيار الشريف الجديد من بين الأشراف وبتأييد من قاضي مكة ؛ وولاة كل من مصر ، والشام ، وجده [١] وتقاريرهم ، يصدر السلطان العثمانى فرمان التعيين .

وإذا ما ثارت العصبية ، واختلف الأشراف حول الأمير المنتخب ، كانت الحكومة تفاضل بين واحدٍ من المرشحين الذين تم تزكيتهما من قبل قاضي مكة ، والولاة المشار إليهم . وكانت الصراعات حول هذا المنصب تخلق العديد من القلاقل فى الحجاز ، وصفحات التاريخ تُسجل العديد من المصادمات بين الأشراف ، وبعضهم البعض ، من ناحية ، أو بينهم وبين الدولة العثمانية من ناحية آخرى .

عقب الإستقرار على الأمير المعيِّن ، كانت تُرسل إليه « برائة التعيين » أو « منشور التعيين » أو الفرمان المتضمن لقرار التعيين ، وتحديد مهام الشريف = الأمير الجديد ، واختصاصاته ، ومخصصاته المالية . وخلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر كان الفرمان مختصراً ، ولكن بداية من القرن الثامن عشر كان الفرمان أو المنشور يُكتب بشكل مفصل ، ومنمق . فوق ورق آبادى مذهب ويحمل طغراء السلطان . ويوضع في كيس من الحرير الأخضر ، ثم يُلف ويوضع داخل صندوق إسطوانى من الذهب ، أو الفضة أو أي معدن آخر ، ثم يختم بالشمع ولا يُفتح إلا في الحرم وفى حضور ذوى الإختصاص ؛ من الأشراف ، والقضاة وشيخ الحرم ، وأمير قافلة الحج المصرى ، والشامي ، وقادة الجند ، ووالي الحجاز .

يخرج المنادون إلي الشوارع ، والطرقات ، والمدن الأخرى تنادي بالشريف الجديد ، وتُطلق المدفعية تسع عشرة طلقة فى مكة المكرمة . وبعد قراءة المرسوم في الحرم وسط الحشد الكبير ، تتم بيعة الشريف المختار من طرف بقية الأشراف ، والقضاة ، والعلماء ، وسائر ذوى الإختصاص ، بينما يكون الشريف المختار ، واقف أمام المنبر النبوى ، أو على الدرجة الثالثة من المنبر . [٢]

---

(١) كانت مكة وضواحيها فى العصور الأولى خاضعة لنفوذ ولاة مصر ، ثم أصح ولاة جده هم آصحاب النفوذ والحكم ، ولما كان ولاة الشام هم أمراء الحج العثمانى فى نفس الوقت ، كان لكل هؤلاء راي ، ووجهة نظر فى اختيار ، وتعيين الشريف – «المترجم» .

(٢) امراء مكة المكرمة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

كانت تُغير النوبة أمام أبواب قصر الأمير كل يوم عند صلاة العصر ، ويذكر إسمه في الخطبة بعد السلطان ، ودرجته الإدارية تعلو درجة عن الوزراء [1] .

كانت مخصصات الشريف ، والتى تحدد سنويًا من طرف السلطان ، ووالي مصر تُرسل إليه كجائزة للركاب الهمايوني ، [2] وكذا العطية الهمايونية [3] وقد استمرت منذ أن أقرها سليم الأول على هذا المنوال ، ثم أُضيف إلي ذلك نصف واردات جمرك بندر جده . [4] كما كانت هناك مخصصات آخرى تأتي إليه من والي مصر مباشرة ، وعند عزل الشريف ؛ كانت تخصص له أيضًا تعيينات من واردات مصر تحت اسم بدل الإعاشة . وعند العزل ، أو النفى لأى سبب ، كانت الدولة تلتزم بتوفير المسكن ، ومعاش مرضى له ولمن فى معيته . [5]

* * *

(١) خلاصة الأثر فى تراجم آعيان القرن الحادى عشر ، محمد أمين بن فضل الله حموى ، جـ١ ص ٤٤٨ .

(٢) كانت تصل إلى خمسين الف قرش .

(٣) كانت تصل إلي خمسة آلاف قرش تُرسل سنويًا .

(٤) خلاصة الكلام ، ص ٥٣ .

(٥) امراء مكه ص ٢٤ .

مهام أمراء مكة وصلاحياتهم في العصر العثماني :

بعد أن دخلت منطقة الحجاز تحت النفوذ العثماني ؛ قبل الحكام العثمانيون بنفس الأصول ، والقواعد التى كان يحكم على منوالها الأشراف في العصر المملوكي ، وأبقوا على نفس صلاحياتهم ، ونفوذهم داخل المناطق التابعة لهم ، وأكتفوا فقط بإرسال قوة محافظة ، لحفظ الأمن والهدوء تُرسل من مصر سنويًا ، وتتواجد في كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة بالتناوب ...

وإذا كان الأشراف قد بذلوا أقصى طاقاتهم ، لوضع هذه القوات المرابطة في مكة ، والمدينة تحت سيطرتهم لما لمسوه فيها من تهديد ، أو تحديد لنفوذهم ، إلا أن القادة العسكريون المرابطون هنالك لم يقبلوا بذلك . وكان كل منهما يحاول التأثير ، أو التقليل من نفوذ الأخر ، بل كان يصل الأمر أحيانًا ، أن يسعى كل منهما لعزل الأخر [1] .

وقد كان الأمراء يحتفظون لأنفسهم بقوات خاصة بهم من البدو ، والأعراب المرتبطين بهم . فقد كان الأشراف يحاولون أن يُبْدَوْنَ كحكام مستقلين بالحجاز ، ولكن بدون عملة خاصة بهم ، وكان خوفهم من بعضهم البعض ، يفوق خوفهم من قوات الدولة العثمانية . [2]

لم يضع العثمانيون قانونًا خاصًا بإدارة الحجاز ، بل كانوا يكتفون بما يتضمنه فرمان التعيين من تحديد للإختصاصات ، ومنح للصلاحيات وما كان يتضمنه المنشور ، أو الفرمان كان عبارة عن مجموعة من التوصيات ، والنصائح ، والتكليفات المحددة ؛ لما يجب عمله تجاه الحجاج ، وضرورة توزيع الصرة ، والظهيرة بشكل يتسم بالعدل ، والمساواة . والتشديد على الحيلولة دون البدو والأعراب ، ونهب أموال الحجيج ، وقوافل التجار . ولم تشغل السلطة المركزية بالها إلا بتأمين طرق قوافل الحج . والتى كانت تعتبره من أولويات مسئولياتها . وقد أشرفت الدولة اشرافًا فعليًا

---

(١) لقد أرسل أمير مكة ابو نمي سفيرًا من طرفه هو قطب الدين المكي لكي يشكو من پيرى قائد قوات المدينة ، إلا ان السلطان سليمان القانوني الذي خشي من إزدياد نفوذ الأمير ، فرد السفير دون ان يعزل قائد حامية المدينة ، انظر ؛ كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . (المترجم) .

(٢) انظر ، امراء مكة ، سبق ذكره ص ٢٥ .

على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجبًا يقع علي عاتقها ، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت الآبار ، وآقامت الحصون ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تُشرف إشرافًا مباشرًا على قوافل الحج ، التى تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة ؛ وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين الذى كان يُسمى سردار الحج [١] وكان على رأس كل قافلة أميرٌ للحج يتولى قيادة الجيش وكثيراً ما كان امير الحج يتولى قيادة الجيش وبخاصة قافلة الحج الشامي . [٢] وتركت للآشراف – فى كثير من الآحيان . الأمر لكي يحلوا مشاكلهم فيما بينهم .. وإذا زادت الأمور عن الحد المسموح به كانت تكلف والي مصر ، أو والي الشام للتدخل ، وحسم الأمر .

ولكن .. لم تر الدولة بدأ من الرقابة ، والمتابعة .. فاستحدثت إمارة سنجق جده ، ثم جعلته مرتبطًا بالحبشة للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ، ثم ربطت بين ولاية جده ، والحبش ، ومشيخة الحرم ، للحيلولة دون إنفراد آمراء مكة بالتجار والآهالي .. ولكن هذا بدوره لم يمنع النزاع ، والشقاق الذي كان يطل برأسه من حين لآخر بين قواد جده ، وأمراء مكة [٣] .

ولما كانت منطقة الحجاز بعيدة عن مركز الدولة ؛ فقد ربطت أُموره منذ آواخر القرن السادس عشر بوالى مصر الذى كانت تُخبره بكل ما كانت تصدره بشأن الحجاز ، أو تبعث به إلي الأشراف في مكة . [٤] وكانت في نفس الوقت تُوصي والي جدة ، أو فيما بعد والي الحجاز [٥] بضرورة حسن التعايش مع

---

(١) سردار = سرعسكر ؛ مصطلح عسكرى يعنى رئيس الجيش ، قائد الجيش ، وكان يُطلق على قائد الجيش العثمانى بعد تخلى السلطان عن قيادته . وتلقب قائد الجيش بهذا اللقب بعد إلغاء الإنكشارية ، وإذا ما عيَّنه الصدر الأعظم كان يُسمى « سردار أكرم » ، وكثيراً ما كان الصدر الأعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه ، وكان يُطلق عليه آنذاك ؛ « وزيرى آعظم وسردار أكرم » . انظر ؛ محمد ذكى باقآلين ، عثمانلى تاريخ ديملرى وتريملرى ، سوزلكى ، استانبول ، ١٩٧١م . (المترجم)

(٢) الدولة العثمانية والولايات العربية ، د. الصفصافى احمد المرسى ، الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة رجب ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

(٣) آولياچلبي سياحتنامه س ، مجلد ٥ ص ١٨٦ .

(٤) يحتوى الفرمان المرسل إلى أمير مكة سنة ٩٨٦هـ = ٥٧٨م بضرورة اخبار بكوية مصر بما يدور فى مكة والمدينة أُسوة بما يحدث من إخبار استانبول بنفس الأحداث . « مهمة دفترى ٣٤ ، ص ٣٦٧ .

(٥) ان بندر جده من أهم الموانئ بالنسبة للحجاز عامة ، ومكة خاصة ، تفد إليه السفن التجارية ، وهو الميناء الذى =

الأشـراف ، ولم تـدخـر وسـعًا في إقناع الأشـراف كـذلك بحـسـن مـداراة الـولاة والقـادة العثمانيين في جده .

وبصرف النظر عن كل هـذه النزاعات السياسـية ، وتطاحـن النفـوذ بيـن الأشراف والولاة ؛ فقـد كـانت هنـاك قـوة مكـونة من حوالي ٥٠٠ إلي ٦٠٠ فـرد تعـمل جنبـاً إلي جنب مع سـادة الديـوان ، والقلم المخصـوص ، أو مـدراء التـحـريرات .. وقـبـيل نهـايـات القـرن التـاسـع عـشـر كـان هناك أفنـدي الـديـوان « ديـوان أفنـديسـي » وكـتـبـه عـربي وكـتـبة تركي ، ومحـاسب ، وأمناء مخازن ، وإمام ، وطـبـيب ، ومـديراً لأمـور الإمارة ، وحُجَّاب خـواص ، وحـامل علـم = صنجـقـدار ، وأمـيـراً للأسـطبل الأمـيري ، ومتعهداً للجمالة ، ومهمنداراً ، ومهتمرباشى = رئيساً للفرقة الموسيقية ، وفرقة عزف عسكرية ، ومتعـهد شماسى ، وكلهم يكونون فى معية ، وخدمة الأمير ، ويعـملون في دوائر الإمـارة ... كـما كـان فى مـعـيتـه ضـابطـين عـسكريـين ؛ أحـدهمـا برتبـة بكباشى ، والآخر بوزباش ، وجاوشين من النظامية [١] .

ويحتوى كـتاب منشآت فريدون ضـمن الرسائل المتبادلة بين الأشـراف والسلاطين ، والصـدر الأعظـم ، والـوزراء ، والـولاة العـديـد من الألقـاب التى كـانت تتـغـيـر من عصـر إلي عصر .. مع مراعاة التقفية مع اسم الأمير .. وتحرص كل المراسلات على الإشـارة إلي إنتسابهم إلي آل البيت النبـوي الكريم [٢] وتصفـهـم ببعض الصفات مثل **مَنْ لا يخلف الوعـد شـريف .. أو ذو القـوة والأيد شـريف** ... أو المحـفـوف بصـنوف عواطف الملك الآعلى ... » إلى جانب الآلقاب الأخرى .

= يستقبل الظهيرة التي تاتي من مصر ، وحجاج البحر - كما كانت جده مطمعًا للدول الأجنبية التى تحاول الولوج إلي البحر الأحمر ، فلم تر الدولة مفراً من انشاء قيادة سنجق فى جده ، وربطته بإمارة أمراء مصر في بادئ الأمر ، ثم جعلته إمارة عسكرية مستقلة ، ثم ربطت بين جده ، والحبشة ، وكانت تعين على هذه الولاية واليًا بدرجة وزير ، وفى آواخر القرن السابع عشر ربطتها بـ« ساليانه » سنوية . ثم خصصت جزءاً من حاصلات جمرك جدة كمرتب لهذا الوالي . وكانت الدولة تُعين ولاة جده بعد عزلهم آغوات لمكة ، أو در السعادة ، أو شيخًا للحرم في المدينة وذلك لوقوفهم ، ومعرفتهم بآحوال منطقة الحجاز ، وكانت تضع تحت إمرة شيخ الحرم النبوي قوة كاملة السلاح . وكانت الدولة تتكفل بعلوفاتهم . « انظر .، واصف جـ ١ ، ص ٣٠٦) وبعد سنة ١٢٨٨هـ= ١٨٧١م بعد انفصال الوالى خورشيد باشا ، أُلغيت ولاية جده ، وحوِّلت إلى متصرفية ، ثم أُعيدت مرة أخرى ١٢٨٩هـ= ١٨٧٢م وفى سنة ١٢٩٩هـ= ١٨٨٢م أُطلق عليها ولاية الحجاز بدلاً من ولاية جده والحبشه واليمن . انظر ؛ مكة أميرلرى س ٢٧ ، حاشية ٢) . المترجم.

(١) مكة مكرمة أميرلرى ، ص ٣٠ .

(٢) فريدون بك منشآتى جـ١ ص٤٤٨ ، جـ١ ص٤ ،٥ . و جـ٢ ص٦ .

اعتادت الدولة العثمانية أن تبعث في شهر رجب من كل سنة وقبيل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، الثالث عشر الهجرى فى شهر شعبان ، من استانبول إلي الحرمين الشريفين مبلغاً من المال ، وكمية من الهدايا تحت مسمىّ الصرة ، وأطلقت على الموظف المكلف بتوزيعها لقب « أمين الصرة ..

وكانت الصرة تُرسل من مصر إلي المدينتين المقدستين حتى سنة (١١٢٦هـ = ١٧١٤م) . ومنذ ذلك التاريخ ، صدرت الأوامر بأن تُرسل من خزينة الحرمين فى الآندرون [١] . وكانت هذه الصرة المرسلة إلي مكة ، والمدينة توزع وفق نظام خاص ، وتُسجل في الدفاتر علي أنها المعلوم أو المعلومية المرسلة باسم الهمايون ..

يتم إلباس أمين الصرة « الخِلعة » فى مقام ، وحضور الصدر الأعظم ، ثم يُبعث به من الباب العالي برفقة (الملخص) إلى السراي ، فيْخلع عليه بخلعة آخرى فى حضور آغادر السعادة وبعدها مباشرة تتم إجراءات إرسال الصرة على النحو التالي :

– خلال السنوات المعتاد إرسال الصرة فيها عن طريق البر ، وكانت تُعد المذكرات والدعوات من طرف آغا دار السعادة إلي الدفتردار ، ورئيس الكتاب ، والنيشانجى = حامل الأختام – من أجل إعداد آلاي الصرة المعتاد خروجها سنوياً من استانبول فى الثاني عشر من شهر رجب ، ثم يقوم معتمد الآغا ، ومعتمد الصدارة بالكتابة إلي مَنْ يهمهم الأمر بهذا الصدد ، ومَنْ يجب تواجدهم في هذا الموكب ..

– تُرسل مذكرة إلي قبطان البحرية لتوفير المَعَدِّيات اللازمة فى مرفئ سيركه جى لنقل الصرة ، وموكبها إلي اسكدار فى اليوم المحدد ...

– يحضر المدعووين إلي السراي في يوم الموكب ، ويجلسون فى قاعة كاتب آغا

---

(١) ... « الحكم إلى الوزير يوسف باشا ، وإلي الشام ، والرقة .. وأمير حاج الشام هو أن : إن الصرة المعتاد إسالها ، إلي آهالي الحرمين المحترمين ، تعبيراً عن العواطف الحليةالخسراوية ، كان المعتاد في السنوات السابقة إرسالها من جانب مصر واعتباراً من هذه السنة الميمونة لن تُرسل من جانب مصر ، بل ستسلم إلي أمين الصرة صاحب قدوة الآمائل ، والآعيان محمد زيد مجده بالفعل نقداً علي الوجه المعهود من خزينة الحرمين الشريفين الكائنة فى آعتابنا السعيدة .. سنة ١١٢٦ آواخر رجب) انظر مهمه دفترى = دفتر المهمة ١٢٢ ص ١٢٦) . المترجم .

دار السعادة التي أعدّت في الديوان ، وفيما بين بوابتي باب الهمايون والبوابة الوسطى، . . وعقب وصول آغا دار السعادة ، تُسلم إليه الرسالة التى قد أُعدّت باللغة العربية ، والموجهة إلي أمير مكة المكرمة ، ثم يتم إلباس الخِلَع ، وتوزيعها علي المدعووين من طرف الآغا .

– خلال هذه المدة يقوم كاتب الآغا ، ومفتش الحرمين بختم دفاتر الصرة الهمايونية التى أُعِّدت ، ثم يوقعها الدفتردار بتوقيعه المزيَّل ، ثم يقوم النيشانجي بوضع الطغراء السلطاني على الدفاتر . . وما أن تنتهي هذه الأعمال حتى يعود الدفتردار ، ورئيس الكتاب والنيشانجى ، ويسلمونها إلي آغا دار السعادة الذي يتوجه بها إلى الآندرون . « الداخل » .

– تُمد الموائد إلي المشايخ ، والعلماء ، والأئمة المدعووين جنبًا إلي جنب مع طاقم الصرة . . وعقب الطعام تحضر هيئة الموكب إلي ميدان « قُبة التى » حيث السرادق والصوان المقام ، وينتظرون جميعًا خروج السلطان .

– وسط تصفيق جاوشية ديوان السلطان ، بطل السلطان من باب الآغوات البيض المسمى « باب السعادة » وهو على صهوة جواده الأبيض ، ثم يترجل ، ويجلسه النيشانجي حيث مكانه المعد لذلك . . وخلال هذه اللحظات ؛ وعلى الرغم من أن مربيه قد وقف ممسكًا برسالة الهمايون ، وآغوات الحرم قد اصطفوا وعلى أكتافهم أكياس الصرة . . إلا أن الضباط حملة البُلَط ، من ذوي الذوائب ، يخرجون من باب حرم السلطان ، ويصطحبونه حتى مقامه المقام داخل الصوان . . ويقومون أمام السلطان بَعدِّ أكياس النقود ، وتسجيلها فى الدفاتر التى توضع فى الأظرف ، وتختم بالشمع ، وتوضع داخل العلب الإسطوانية المعدنية . ثم يعود آغوات الحرم .

– فى تلك الأثناء . . يستقبل آغا السعادة ، مربى السلطان الذي يكون قد اقترب بالفرمان السلطاني . . فيسلم الفرمان إلي السلحدار الذي يكون قد أخذ مكانه بجوار السلطان . ، فيقدمه بدوره إلي السلطان . وبعد أن يتم توقيعه ، يختم بخاتم السلطان ثم يُسلم إلى آغا دار السعادة ، هو ودفاتر الصرة ، وأكياسها .

– وبينما آغا دار السعادة ، وآغوات الحرم يتجهون بها نحو الخيمة الرئيسية ،

يستقبلهم أمين الصرة .. ويكون فى هذه اللحظات قد إرتدى ، هو ورئيس السقاة خلعتيهما . فتُسلم إليه الرسالة السلطانية ، ويتم استعراض أكياس نقود الصرة أمام الخيمة . وخلال هذه اللحظة أيضاً ، يتم إلباس اثنين من المبشرين الخلع الخاصة بهم .

– ثم يُدعى آغا دار السعادة ليرتدى الخلعة الفرائية فى حضرة السلطان ، ويكون في نفس هذه اللحظات معتمد الإسطبل السلطاني يتجول أمام الحضور بالجمل الذي سيحمل المحمل الشريف .. وخلال ذلك يكون المنشدون يرددون المدائح ، والنعوت النبوية ، ويبتهلون بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى .

– يكون السلطان خلال هذه اللحظات قد ألبس آغا دار السعادة القفطان أو الفراء السمورى .. فيتوجه الآغا نحو أمير الاسطبل ، ويتسلم منه مقود الجمل الذى يحمل المحمل .. ويقوم بالطواف أمام الحضور مرتين بالجمل ، ثم يقوم بتسليم المقود الفضي إلى أمين الصرة ، ومقاود مطرزة بالذهب إلي الآغا السقاء ... ثم يتجه ناحية القبلة ، ويسير بضع خطوات تجاه السلطان ، ليقدم فرائض الشكر للسلطان ، ويقبل الأرض بين يديه ...

– عقب ذلك ، يتوجه آغا دار السعادة ، ومعه موظفو الأوقاف ، ويسيرون أمام الجمل الذي يحمل المحمل حتى يكونوا فى مقدمة الموكب .. ويخرجون من البوابة الوسطى ، ويتابعون السير مع الموكب ، حتى المستشفى القريب من باب الهمايون وبعد الدعاء بسلامة الوصول ، يعود آغوات ؛ دار السعادة ، وباب السعادة ، ومعتمد السراى ، ورئيس الخزينة الهمايونية إلي الداخل .. ثم يخرجون من باب الهمايون إيذاناً بالإنصراف .

– أما جَمَلُ المحملِ ، والقافلة التى تحمل أكياس النقود ، والصرة ، فتكون محاطة بضباط بلطجية = « حاملو بلط » السراي ، .. وما أن يخرج موكب الصرة من السراى حتى يتجه نحو مرفئ سَرْكَجي ماراً من تحت قصر أو شرفة الإحتفال ، وهناك في المرفئ ، وبعد الإبتهالات ، والدعوات الصالحات ، تنقل المعديات المحمل ، وكتيبة الموكب إلي أسكدار . [1]

(١) انظر ؛ تشريفا تجيلق دفترى ، رقم ٦٧٦ مكرر ، وسراي تشكيلاتي ص ١٨١ ، وتشريفات قديمه ، ص ١٨ .

يمكث أمين الصرة مدة فى أُسكدار ، لإستكمال نواقصه ، ثم يستأذن بالتحرك ، وبعد السماح ، والإذن من السلطان ، تتحرك القافلة . ومن أُسكدار حتى الشام ، تلقى القافلة إحتراماً ، ومساعدة ، وعوناً ، وحفاظاً على سلامتها وأمنها من سائر الوزراء ، والأمراء ، والقواد ، وقادة الصناجق ، والقضاة والمعتمدين ، وقادة الإنكشارية ، ورجالات الولايات التى تمر بها ؛ وذلك عقب تلقيهم الأوامر ، والرسائل والأحكام التى تُبعث إليهم بهذا الصدد . وتأمرهم بتأمين سلامة الصرة ، وأمينها ، وقافلة الحجاج حتى تصل إلي الشام .

وعقب تحديد اليوم الذي سيتحرك فيه أمين الصرة ، والقافلة من استانبول تُكتب الأوامر إلي متصرف صنجق إزميت الذي يستقبل هو والأهالي الصرة عند بداية حدود المتصرفية .. ويظل هو والخيالة ، والإنكشارية ، وحاملو البنادق في كل الأقضية فى حراستها حتى تم تسليمها إلي آقشهير ، وما أن تصل القافلة إلى هناك حتى تتم عملية التسليم ، والتسلم ، وهم مكلفون بأخذ السندات اللازمة .

وما أن يتسلم قائد صنجق آقشهير القافلة ، حتى يتولى هو ورجاله حراستها وتأمينها حتى يُسلمها إلي والي قونية ، ويتسلم مستنداته ، ويعود ، وعلى نفس المنوال تتحرك القافلة في حراسة والي قونية ، أو ملتزمها ، أو مُتسلمها حتى آضنه ، وطوال الطريق ، ينضم إلي القافلة كل الحجاج الذين يتوجهون إلي الحجاز ، لإيفاء فريضة الحج . وهكذا ، تتحرك الصرة ، والقافلة من آضنة إلي حماه ، وتُسلم القافلة التى تسير على هذا المنوال إلي والي الشام في دمشق .

وقبل أن يتحرك أمين الصرة ، وقافلة الحج من الشام بيوم واحد ، يشترك مؤذنو الجامع الأموي ، وكل الجنود والأهالي مع القافلة ، ويتوجهون جميعًا وسط التكبيرات ، والتهليلات المدوية إلى حيث «لواء السعادة» المحفوظ بجوار مقام الصحابي أبى الدرداء ، فينضم حملة اللواء إلي القافلة ، ويتوجهون جميعاً وسط التهليل ، والتحميد ، والتكبير ، والتلبية إلى أن يصلوا إلي قصر الحكم . وفى اليوم التالي يتحرك والي الشام ، وأمير الحاج علي رأس قافلة الحج الشامي متجهين جميعاً إلي مكة المكرمة .

وكان أمير مكة يقوم باستقبال القافلة فى مدائن صالح ، أو المدينة المنورة ، أو في أي مَنْزَل من مَنَازِل الحج ، ويتجهون سويًا إلي مكة . [1]

إعتباراً من الشام ؛ كانت قافلة الحج سواء فى الذهاب أو الإياب تسير وفق نظام ، ونسق معين مع قواتها ، ومدافعها ولا يمكن أن يُسمح بأي خلل من القائمين أو المنضمين إلى القافلة أو من مستقبليها .

يُقدم أمين الصرة الفرمان الذي أحضره – باللغة العربية – وسط مراسم واحتفالات إلي أمير مكة المكرمة ، فيقبل الأمير الفرمان ، ويضعه على رأسه ثم تُقرأ رسالة السلطان علنًا فى منى .. ثم تُقدم الدفاتر التى تحتوي على مقدار الصرة ، وكيفية توزيعها إلي الشريف .. وبناءًا على ما هو مذكور فى هذه الدفاتر توزع « المعلومية » على الأهالي تحت نظارة ، وإشراف أمير مكة وشيخ الحرم ، وأمين الصرة ، وقاضي مكة . وتُعاد أنصبة الذين توفاهم الله ، أو الغائبين إلي أمين الصرة ، حيث تُعاد إلي استانبول . أما مستحقات أهل المدينة من الصرة ؛ فتوزع على آهالي المدينة المنورة تحت إشراف وكيل ، أو معتمد الشريف في المدينة ، وقاضيها ، وشيخ الحرم النبوي . وكاتب الصرة ، وتُعلن الحكومة المركزية بالكيفية التى تم بها التوزيع .

يعود أمين الصرة أيضًا مع قافلة الحج ؛ وفد حمل ردًا على رسالة السلطان من أمير مكة ، وهدايا قيمة إلي السلطان ، والصدر الأعظم ، والوزراء ، وسائر رجالات الدولة . وما أن يصل إلى مشارف أُسكدار حتى يُعلن عن مقدمه إلى الصدر الأعظم ، الذي يستصدر له الإذن بالدخول من السلطان فيدخل إلي أُسكدار .

يقوم الصدر الأعظم بتقديم رسائل الشريف فوراً ، إلي السلطان ، وتُترجم فوراً فى قلم الديوان الهمايوني إلى اللغة التركية ، ويُعرض الأصل العربي ، مع الترجمة ، وتقرير كامل إلى السلطان ...

كان أمراء مكة يرسلون هداياهم إلي السلطان ، والصدر الأعظم مع واحد من

[1] فى آواخر العصر العثمانى تقرر ان يستقبل أمير المحامل مكة الشريفة فى المدينة المنورة ، وكانت تُصرف له مبالغ تصل إلي ثلاثين ألف قرش كمصاريف للطريق وأجرة الجمال ، انظر ؛ مرآت مكه ، جـ٢ ص٢٩٥ .

أخلص رجالهم ، فيصل إلي الباب العالي مع هداياه .. ويتم استقباله في صالون الإستقبال .. ثم يمثل إلى جوار رئيس الكتاب ، ويُسلم معروضاته ، وهداياه وعقب زيارته إلي كتخدا الصدر الأعظم ، والصدر الأعظم ، يُرسل مع « الملخص » إلى السراي .. وعند استقبال الصدر الأعظم لمعتمد الشريف ، ورجاله ؛ كان يُقدم لهم الشربات ، والقهوة ، والبخور ، ويخلع عليه خلعًا من الفراء ، وعلى أربعة أو خمسة من رجاله بالخلع القيمة . ومن الأصول المرعية أن يقوم آغا دارا لسعادة بالباس معتمد أمير مكة المكرمة ، ومَنْ هم فى معيته الخلع المختلفة . (١)

* * *

(١) التشريفات القديمة ص ٢٧ – ٢٨ .

ب- أولياچلبي ، ورحلته إلي الحجاز

أوليا چلبي ؛ آوليا تشلبي = شلبي

مَنْ هو هذا الأوليـا .. أين ظهـر .. وترعـرع ..؟ مـاكنيتـه وشـهـرتـه ..؟ مـا هي الظروف ، والدوافع التي وقفت خلف رحلته هذه ..؟ ما قيمـة هـذه الرحلـة تاريخيـاً ... وجغرافيًا ...؟ وما مكانتها بين الرحلات الإسلامية ...؟ تساؤلات كثيرة تتابع إلي الذهن بمجرد سماع إسم هذا الرحَّالة التركي المسلم .

فتجمع الأراء علي أن ميلاد آولياچلبي هو العاشر من محرم سنة ١٠٢٠هـ = الموافق ٢٥ من مـارس سنة ١٦١١م [١] في اونقپاني بمدينة استانبول [٢] وأطلق عليـه والده إسم «أوليـاچـلبي» [٣] ، تيمنًا بإسم صديق حميم له ، صار فيما بعد أستاذًا لآوليا .

---

(١) انـــظـــر : 1- M. Cavid Baysun, Evliya Çelebi Mad. Islâm Ansik. - , Cafer Erkiliç, Evliya çelebi, Hayati, Sanati, Eserleri,Varlik Yayinevi, Ist. 1954.- M. W. Özün, Evliya çelebi Seyahatname, Birincicilt.

وغير هؤلاء نهاد سامى بكارلى ، وبهجت نجاتى كَيل ، ووصفي ماهر قوجه تورك واختلف مع هؤلاء ؛
١ـ مؤلف كتاب Book of Travels of Evliya çelebi, Turkey - إذ جعل التاريخ ٢٥ فبراير بدلاً من مارس ، ٢ـ استان فوردجى شو إذ جعل السنة ١٦١٤م بدلاً من ١٦١١م . (المترجم)

٢ـ Unkapani ؛ حي من آحياء مدينة استانبول القديمة ، ذات الطابع الإسلامي . وكانت سوقًا رائجًا للدقيق ، والحبوب ، ومازالت كذلك وإن كان الحي قد تغير إسمه إلى ياوزسنان ، «المترجم» .

(٢) لميلاد آولياچلبى قصة يذكرها فى المجلد الاول من سياحته ، مفادها [أنه في ليله ميلاده كان الشيخ صُنع الله أفندي فى المنزل لحظة ميلاده ، فاذن بصوت عالٍ في أذنه .. وأمر الوالد بذبح الآضاحي «العقيقة» فذبح الشيخ اسماعيل أفندى المولوي أضحـيـة .. وكـان فى المنزل أيضًا سبـعـون من العـارفين بالله وأن الـكسـوه دار مـحـمـد أفندى هو الذى ربط قِماطه... وأخرج شيخ مولوية قاسم باشا كسرة خبز من فمه المبارك ، ووضعها فى فمه داعيًا له . كما أخذ شيخ مولوية يكى قاپى = ينى قاپى الشيخ دوغاني دهده الطفل الصغير وقذف به فى الهواء .. متمنيًا أن يكون هو طائر المولوية في الدنيا..) سياحتنامه جـ١ طـ١ ص ٣٦١ .
نخْلصُ من هذه القصة بتصور الجو الصوفي ، والعرفاني ، والديني الذي ولد فيه الصبي .. وأن ذلك سيكون له أبلغ الأثر فى حياته . «المترجم»

(٤)آولياچلبي ؛ كلمة آوليا ؛ هي تخفيف من الكلمة العربية أولياء وهى جمع كلمة ولي .. أما كلمة چلبي فهى مكونة من كلمة چلب التركية القديمة وتعنى «الله» و«ي» هى ياء النسبة العربية . فيكون المعنى العام هو الولي المنتسب إلي الله .. أو ولي الله .. وهذا هو الأرجح لمعنى الإسم الذى إختاره والد الطفل ، فقد أراد له أن يكون صوفيًا ، يسلك طريق الصوفية المؤدى إلى الله .

كما أن من معاني هذه الصفة ؛ السيد ، الأفندي ، المهذب ، الرقيق الحال . حلو المعشر المتعلم ، الأصيل ، كما كان لقبًا يُلقب به أولياء العهد فى العصر العثماني ، وكذا يُطلق على رئيس طائفة من المولوية ، أو على مَنْ ينحدر =

أما أبوه فهو درويش محمد ظلى [1] وجده دميرجي ، اوغلى قره أحمد ويُوَصَل نسبه إلي الصوفي الشهير أحمد يسوي [2] أما أُمه فهى الأخرى ذات نسب ، وحسب تصل في قرابتها إلي الصدر الأعظم ملك أحمد باشا [3] . أما الجد الرابع لآوليا هو « مير عالم » ياوز أَرْسنان ، وكان من كبار حراس محمد الفاتح ، وله جامع بإسمه ، فى الحي الذي ما زال يحمل إسمه فى مدينة استانبول حتى الآن . حي « ياووزسنان » . وكان للعائلة بيوت كثيرة فى هذا الحي ، وقد ولد آوليا فى آحدها . وقد إحترق وأُعيد البناء فى حياة اوليا چلبي .. وقد تغيَّر هذا الحي

= من سلالة مولانا جلال الدين الرومى ، أو الولي حاجى بكطاش . ولقبًا إداريًا يمنحه السلطان لولي العهد الذى يتولى ولاية صنجق أو ولاية من ولايات الدولة . وكلها تنطبق على آولياچلبى ، فهى أُمنيات يتمناها الأب لولده . « المترجم »

(١) هناك أراء كثيرة بهذا الصدد ؛ فهناك من يجعله محمد ظلى بن درويش . ومن يجعله ؛ درويش محمد ظلي .. ومن يجعله ؛ درويش محمد آغا ظلى ، « المترجم » .

(٢) أحمد يسوى ؛ صوفى كبير ، صاحب مذهب صوفي يحمل إسمه ، وقد ظهر فى التركستان فى محيط صوفي ، تتملذ على يد العالم المشهور آرسلان بابا ، ثم رحل إلى بخارى ليتلقى العلم على يدي الشيخ يوسف الهمزاني ، بعد ان اتم دراسته ، شكل طريقته الصوفية الخاصة به ، ونالت رواجًا كبيراً فى بلاد ما وراء النهر ، توفى عن عمر ناهز الستين سنة (٥٦٢هـ = ١١٦٦م) . وقد جمع آراءه الصوفية فى كتابه (ديوان حكمت) = ديوان الحكمة . « انظر د / عمرو عبد الباقى ، الرحالة التركى آولياچلى ، مجلة كلية اللغات والترجمه ، العدد التاسع (، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م) ، وتورك آدبياتنده ايلك متصوفلر ، محمد فؤاد كوبريلى ، استانبول سنة ١٩١٨ . (المترجم) .

(٣) **ملك أحمد باشا** : من الأشخاص البارزين فى الدولة العثمانية . تقلب فى مناصب كثيره حتى صار صدراً أعظم فى زمان السلطان محمد خان الرابع فقد شغل وظيفة سلحدار ١٠٤٨هـ ثم عين واليا على ديابكر ، فارضروم وبوصاية من (قيا) ابنة السلطان مراد الرابع شغل ولاية حلب لمدة تتراوح ما بين خمسة وستة أعوام ، ثم عين واليًا على بغداد سنه (١١٦٠هـ) وفى العام نفسه ولى الصدارة العظمى ثم عزل بعد ان شغل هذا المنصب لمدة ثلاثة عشر شهراً وعين بعد ذلك واليا على ملسترة وكانت وفاته سنة (١٠٧٣هـ) (انظر قاموس الأعلام لشمس الدين سامى جـ١ ص ٧٩٢ - ٧٩٣) وانظر مقال موزتمان المنشور بدائرة المعارف الاسلامية التى سبقت الإشاره اليها . ويقول أوليا (ولما كان احمد باشا يمت بصلة القرابة لوالدتى فان الإنعام كان يصيبنى فى سهولة ويسر) سياحتنامه جـ١ ص ٢٤٥ . وقد تناول أوليا قصة عزل ملك أحمد باشا (انظر سياحتنامه جـ ١ ص ٢٧٨) ويعد المستشرق موزتمان من الباحثين القلائل الذين أبرزوا ملك أحمد باشا على أنه خال لأوليا چلبي فقد اكتفت مصادر أخرى كثيرة بالقول بان أوليا يعد من أقارب ملك أحمد باشا الصدر الأعظم وأوليا چلبي نفسه هو احد هذه المصادر (انظر سياحتنامه جـ١ ص ٢٤٥) وأحمد وفيق باشا (انظر مقدمة المجلد الأول من سياحتنامه وقاموس الاعلام لشمس الدين سامى مادة أوليا چلبي وانظر كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى العربى - المجلد الثانى ترجمة صلاح الدين هاشم ص ٦٤٨ ويقول الدكتور : جاويد بايصون « والدى يمكن قوله فيما يتعلق بما بين آوليا وملك أحمد باشا من صلة قرابه هو أن ام ، آوليا چلبي ربما كانت اختا للصدر الأعظم ملك أحمد باشا وربما كانت من أقاربه أى أنه ليس هناك من الوثائق ما يعين الباحث على القطع بأنها كانت شقيقة هذا الصدر الاعظم (انظر ج بايصون - المصدر السابق - ص٤٠١) + د. عمرو عبد الباقى ، الرحالة التركى آوليا چلبي مجلة كلية اللغات والترجمة ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م العدد التاسع عشر + د. الصفصافى أحمد المرسى نفس المجلة العدد العاشر) (المترجم) .

الآن «آتاتورك بولوارى» . ومن الطريف حسب قول آوليا نفسه أنه كانت للعائلة محلات دباغة تبلغ ثلاثة عشر محلاً يعمل بها أكثر من مائة عامل . ولم يبق منها إلى الآن إلا الإسم فقط ، فما زال فى الحي شارعًا يُسمى «صاغريجى صوقاغى» أي شارع الدبَّاغ .

حفظ آوليا القرآن ؛ فلُقِّب بـ «حافظ» ، ولماكان إبن جواهرجي السراي ، وتعلم في القسم الداخلى بالسراي فلُقِّب بـ «چلبي» أي المُذهَّب ، ولمتعلم ، ومن هنا فإن الإسم الكامل له هى «الحافظ آوليا چلبي بن درويش محمد ظلى» . وحسب العادات ، والأعراف التركية العثمانية القديمة ؛ كانت هناك مراسم وإحتفالات تُقام لتسمية المولود ؛ منها الاذان فى الأذن اليمنى ، وقد قام بهذا – كما سبقت الإشارة – شيخ الإسلام صنع الله أفندى [١] وهو الذى أطلق عليه لقب آوليا ، ثم إنضم إلي الحفل كَيسوه دار محمد أفندى ، وكان شخصاً محترماً محبوباً من الجميع ، فاحتضن الوليد ، وأذن في أذنه اليسرى .. وهو الذى أَطلق عليه إسم محمد . من هذا المنطلق يصبح «محمد آوليا چلبى بن درويش محمد ظلي» .

أيًا كانت الأسماء ، والآلقاب ، فقد وَصَلْنا الإسم الذي عُرِفَ به وهو «آولياچلبي» . والده هو درويش محمد ظلي [٢] .

---

(١) **شيخ الإسلام صنع الله أفندى** ؛ هوصنع الله افندى ابن الحاج مصطفى بن جعفر أفندى ، ١٥٥٢ – ١٦٢١م . وهو شيخ الإسلام الثالث والعشرين فى الدولة العثمانية . (المترجم)

(٢) **درويش محمد ظلى** ؛ والد آولياچلبي وقد عاصر هذا الوالد تسعًا من السلاطين العثمانيين اعتباراًمن السلطان سليمان القانونى وتوفي عن مائة وتسعة عشر عامًا .. بدأ مُنَادمًا ، ومُصَاحبًا للسلطان القانوني ، ولحسن صوته؛ عمل مؤذنًا أساسيًا في جامع سليم الثاني فى أدرنه ؛ ولما كان فنانًا ؛ اصبح رئيسًا لجواهرجية السراي إعتباراً من عصر سليم الثاني هذا ، ثم تدرج ، وتدرب علي العديد من الآعمال التي طوَّرت ، ونمَّقت الفنون لديه .. كانت له محلاته التي تعمل في الجواهر ، فخرجرت من تحت يديه قطع فنية نادرة .. منها ساعة جميلة جعلها في خاتم السلطان محمد الثالث وباب الحَرَم المشغول خصيصًا لجامع السلطان احمد .. وأرسل به إلى مكة خصيصًا لصنع المِزْراب الذهبي الذي صنعه بيديه لتصريف مياه الأمطار من فوق سطح الكعبة المشرفة ؛ والدولاب الذي صنعه من قنطار من الفضة لـ «قَدَم النبي» = أثر النبي» (ﷺ) في مصر .. والبوابات ، والأبواب الفنية الرائعة التى صنَّعها بنفسه لجامع «استركَون» .. وخرجت من تحت يديه العديد من البَسْمَلات ، والآيات ، وآبيات من الشعر كتبها بالخط العربي الجميل لكي تزدان بها الأسبلة .. والمحاريب .. والمنابر في العديد من المدن ، والأحياء التي طاف بها آوليا فيما بعد ، وذكر أنها من إبداعات والده انظر : جعفر أرقليج ص ٦) (المترجم) .

للوالد تأثير كبير ، وذكريات كثيرة ، ومآثر حميدة ؛ كانت تمنح آوليا الفرصة لكي يتحدث عن والده في ثنايا كتاب الرحلات التي قام بها فيما بعد .

وكلمة « درويش » التى تسبق ، أو تلحق باسم « محمد ظلي » لابد أنه إكتسبها لمسلكه الديني ، أو الصوفى الذي لازمه ؛ وذلك لأنه كان من المداومين على حضور جلسات الذكر فى تكية الشيخ عزيز محمود خدائي [٢] الذي كان من مشاهير مشايخ عصره . وكان الوالد ، دائمًا ما يصطحب ولده ، ويجعله يُشارك في المراسم ، والتراتيل ، والإنشاد الديني ، ويجالس كبار المرشدين ، والمريدين في التكية .

لقد وفدت بدايات العائلة من آواسط آسيا ، وتوطنوا حي زره كان فى كوتاهية [٣] . ثم شيدت العائلة بيوتًا لها في كل من « برغامة » [٤] و « بورصة » [٥] ، وامتلكوا مزرعة فى صانديقلى [٦] . وعند فتح استانبول ، بالرغم من أن العائلة قد انتقلت إليها ، إلا أنها لم تقطع صلاتها بما هو خارج العاصمة .

---

(١) مرجع سبق ذكره ص ٦ 1- Cafer Erkiliç .

(٢) عزيز محمود خدائي ؛ وهو من كبار مشايخ الطريقة الخلوتية ، اشتهر بكثير من أشعاره التى تدعو إلى الزهد ، والعبادة الخالصة لوجه الله . بعد أن اتم علومه ، سَلَكَ سِلْك القضاء ، انتسب فى بادئ الأمر إلى الطريقة المولوية ، وأخذ العهد على سيخها ، استقر بطريقته في اسكيدار ، وعمل بالوعظ والإرشاد فى اواخر أيامه ، توفى ١٠٣٨ هـ وضريحه من المزارات المفتوحة حتى العصر الحاضر ؛ انظر ، شمس الدين سامى ، قاموس الاعلام جـ٣) (المترجم) .

(٣) **كوتاهية** : (مركز ولاية فى العصر العثماني ، وكانت تقع فى جنوب شرق ولايتى خدا وندكَار ، وبروسه . من المدن التى لعبت دورًا مهما فى الحضارة الإسلامية على مر العصور . بها العديد من الآثار الإسلامية التى ترجع إلى العصور السابقة من السلاجقة والعثمانيين . وفى العصر الحديث هناك قضاء يحمل نفس الإسم . وتقع بالقرب من ولاية انقرة . واراضيها تغطى حوالى ١٨٠٠٠ كم٢ من مساحة تركيا المعاصرة ، تتمتع بطقس جميل ، وحركة سياحية نشطة . انظر: شمس الدين سامى ؛ قاموس الاعلام جـ٥) (المترجم)

(٤) برغامه ؛ إحدى المدن الصغيرة القريبة فى بورصه ، ومناخها معتدل ، وزراعية . « المترجم »

(٥) **بورصه** : إحدى أشهر المدن التركية المعاصرة . وكانت أول عاصمه للدولة العثمانية . ثم تلتها أدرنة ثم استانبول . لها مكانه مرموقة فى الحضارة التركية العثمانية حيث شيد بها العديد من المساجد والجوامع والمدارس والأضرحة العثمانية . وظلت إلى عهد بعيد من الفتح العثمانى لمدينة استانبول وهى المدفن الأساسى للسلاطين العثمانين . انظر ؛ للمترجم استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ، القاهرة ١٩٩٩ . ص٢٣) (المترجم)

(٦) **صاندقلى = صانديقلى** ؛ مركز قضاء ، سكانها جميعًا كانوا وما زالوا من المسلمين ، تابعة لولاية خداوندكار . وبها العديد من الاثار الإسلامية التى ترجع إلى العصور السابقة . ويقع في شمالها الغربى سنجق كوتاهية . وفى جنوبها الشرقى قونية . تحوظ بها الجبال المرتفعة . كانت كثيرة المراعى فى العصر العثمانى ، ينبع منها نهر مندريس الكبير . فى جنوبها الغربي توجد بحيرة (آجى كَول) . متعددة المحاصيل فى العصر الحديث . تكثر بها المعادن الطبيعية . تربطها بالعديد من المدن الطرق الحديدية ، والطرق البرية الجيدة . بها مياه معدنية للإستشفاء . انظر : شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام ، جـ٤) (المترجم)

الأم ؛ والتى لم يشأ آوليا ذكر إسمها – كعادة الشرقيين – هي فتاة آباظية [١] وفدت هي الآخرى من قفقاسيا [٢] . أضحت خالة ، أو إبنة خالة ملك أحمد باشا الذي صار وزيراً ، ثم صدراً أعظم ، في الدولة العثمانية . وقد تزوجها جواهرجي القصر درويش محمد ظلي ... ومن هنا كانت صلة آوليا چلبي بملك أحمد باشا ، وطيدة طوال حياته ، وبسط أحمد باشا عليه عطفه ، وحمايته .. كما حظي برعاية زوجته اسمهان قايا سلطان إبنة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠م) . ولهذا ؛ كانوا ينسبون آوليا آحيانا إلي ملك أحمد باشا . كما كانت تربطه قرابة مع دفتردار زاده محمد باشا ، وإبشير باشا ، فقد كان الأخير يخاطبه دائمًا قائلاً «آولياي الحافظ» أو «الحافظ آولياي» ، أما دفتر دار زاده فقد كان يصطحبه ، ويجعله فى معيته آينما ذهب .. [٣] .

إن آوليا ، بالرغم من ولعه بالحديث عن أسرته ، إلا أننا لا نجده يتحدث عن أمه إلا فى مناسبتين فقط ؛ عندما رأي الحناء في قدميها ، وأعجب بذلك ، وعندما كان يراها ، وهى تُطرز بخيوط الذهب المكرميات ، والملائات «الحراشف» وآغطية المخِّديات .. وأنه ذكر ؛ أن من بين المحتويات التى تركتها جدته لأُمه ما بين أربعين ، أو خمسين ديناراً ذهبيًا من سكة السلطان مراد الثالث ، ويتحدث أحيانًا عن زوجة أبيه .. وربما يكون مَرَد ذلك إلى وفاة والدته ، وهو في سن صغير .

لم يذكر من الإخوة سوى أخًا ، باسم محمود ، وبضع آخوات ، إحداهن ؛ تُسمى «إينال» وهي تكبره ، وقد تزوجها «كلْ إيلياس پاشا ، أي ايلياس باشا الأقرع» صولاق اوغلى» الذى أُعدم في سراي چنكَل كوي ، خلال الثورة التى قام بها ، فى عهد مراد الرابع .. ويتضح من حكايات آوليا أنها لم تعش طويلاً بعد إعدام زوجها

---

(١) آباظة = ابازه ، تقع فى شمال قفقاسيا ، وفى الشمال الغربي من بلاد الچركس ؛ يمتاز مناخها بالإعتدال ، وأرضها خصبة رغم انها جبلية ، ويعمل الأهالي بالرعي ، ومشهود لهم بالشجاعة . دخلت تحت سيطرة الروس ، لذلك اتفقوا مع الترك والتتار لمحاربتهم ، انظر . ش . سامى . الاعلام ص ٤٠٣ (المترجم).

(٢) قفقاسيا : بلاد القفقاز = القفقاس . وتقع بين آسيا وأوروبا ، وبين البحر الأسود ، وبحر الخزر ، تتكون من عشر ولايات . ظلت تابعة للحكم الروسى ، وتنقسم إلى إقليمين قفقاس الأدنى ، وما وراء القفقاس . سكانها يتصفون بالشجاعة وهم من المسلمين السنيين . وهى موطن الچركس ، والشيشان ، ويتصف رجالها ونساءها بالجمال ، ولذلك احتلوا مناصب حساسة فى الدولة العثمانية . (المترجم)

(٣) مرجع سبق ذكره ص ٦ 1- CaFer Erkiliç .

الذى كان قد إختطفها من كوتاهية ، وأن إحداهن كانت في سراي قايا سلطان ، ولم يذكر شيئًا عن الأُخْرَيات .

ينحدر أيضًا إلى أُسرة الأب ، والأم مجموعة من الشعراء ؛ كالشاعر مولا فيراقي ، وقول اوغلى محمد چلبي ، وابراهيم چلبي الكرمياني الذي كان يقرض الشعر متخلصًا بـ « شريفي » وعلمدار مولا محمد بن يعقوب .[1] كما لا يمل آوليا من الحديث عن عظماء العائلة ، ومدافنها التي تحتوي علي الكثيرين من المشاهير فى معظم مدافن كوتاهية ، وبورصة ، وشتى أحياء مدينة استانبول[2] .

طفولة آوليا وتعليمه :

مما سبق نلمح فى حياة الرحَّالة آوليا چلبي الجو المترف الذي تربي فيه ، وعاش طفولته المبكرة .. ولقد مكنته مناصب الآقارب ، ووجود والده فى السراي من تعليم راقي .

درس آوليا چلبي في المدرسة الإبتدائية ، وكان طالبًا فى مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندى ، فى نفس الحي الذى ولد فيه ، وظل يتعلم لمدة سبع سنوات على المعلم أخفش أفندي . وكان يداوم على حفظ القرآن الكريم حتى أتقنه علي يد معلمه ، وشيخه آوليا محمد أفندي ، وحسب قوله هو ؛ ظل في كتاب سعدي زاده إحدى عشر سنة للدراسة ، والتعلم .

ودرس التجويد ، والقراءات ، وصمم على التفرغ للعلم . بينما كان يتعلم علي أبيه فن الخط ، وفنونًا آخرى كصقل الآحجار الكريمة ، والكتابة عليها .[3]

كانت لآوليا إهتمامات بالموسيقى ، والإنشاد ، ونراه فى سنة (١٠٤٥هـ – ١٦٢٥م) حافظًا ، ومرتلاً في جامع الآياصوفيا .. واجتذب إهتمام السلطان مراد ، والحاضرين فى إحتفال ليلة القدر ، فطلب السلطان أن يأتي إليه ، ولما استقبله فى مقصورته ؛ خلع عليه ، وقدَّره ، وطلب أن يكون من مصاحبيه .[4]

---

(١) مرجع سبق ذكره ص ٧ ,1- Evliya Celebi Hayati, Sanat, Eserleri .

(٢) انظر مادة آوليا ، دائرة المعارف الإسلامية .2- Is. Andik. Evliya çelebi Mad

(٣) مرجع سبق ذكره ؛ ص ٤٠١ : 1- M. Cavid Baysun

(٤) آوليا چلبي سياحتنامه س ؛ جـ١ ص٢٤٤ .

ويروى آوليا چلبى هذه الواقعة المهمة فى حياته على النحو الاتى :

[كانت ليلة القدر من شهر رمضان لعام ١٠٤٥هـ = الموافق ١٦٤٦م ، وكما يحدث فى كل عام كان عدة آلاف من الحضور فى جامع الآياصوفيا .. وفى تلك الآثناء ، وبينما كان آستاذي آوليا محمد أفندي يختم القرآن الكريم ، وبسبب رغبة ، وإصرار والدي درويش محمد آغا وبعد صلاة التراويح في مقصورة المؤذنين الموجودة في المسجد ، وفي ليلة القدر تلك بدأتُ فى ختم القرآن الكريم .. وعند الإنتهاء من سورة الأنعام خرج كل من [قوزبكچى محمد آغا] ، و(سلحدار ملك أحمد آغا) من المقصورة ، وألبسوني تاج يوسف المقصَّب بالذهب . وسط هذه الجموع الغفيرة ؛ وأمسكوني من يدي قائلين ! « تفضل .. إن صاحب السعادة السلطان يريدكم...) وأحضروني إلي مقصورة السلطان ..[1] .

أدرك السلطان مراد انفعال آوليا فسأله : [فى كم ساعة تستطيع ختم القرآن .. فرد آوليا .. « مولاي السلطان لو شئت فإنني أختمه فى سبع ساعات ، ولكنني أختمه إن شاء الله في ثماني ساعات دون إفراط أو تفريط) فأحسن السلطان عليه بحفنة من الذهب قائلاً : « إن شاء الله تكون مصاحبي » .[2]

وكان لابد أن يتعلم في الأندرون = القسم الداخلي، بالسراي[3]، وهنا تابع تعلم اللغة العربية ، والفارسية ، وفنون الخط العربي .. إلى جانب ذلك كان مُغَرمًا بقراءة التاريخ .. والإبتهالات الدينية .. ولهذا حفظ بعض المختارات من كَلستان سعدى[4]

---

(1) Resad Ekrem Koçu. S. 10 - 77 - .

(2) Zuhuri Danisman : Evliya çelebi Nasil Musâhip oldu? Tarih Mev. Sa : 24 aralik, 2 Cilt 1951 , s : 1168 - 1168 +

(٣) **الآنـدرون** : مصطلح عثمانى كان يطلق على مدارس السراى أو البلاط السلطانى ، ويعنى الأجهزة التعليمية ، أو المدارس والإدارات التى تعد الموظفين الذين سيعملون داخل القصر وفى البلاط الهمايونى ، ويمد السلطان والقصر بكل ما يلزمه من العلماء والقواد والاداريين والحرفيين وقد كانوا جميعا يتخرجون فى هذه المدارس ، وقد كان طلاب هذه المدارس يجمعون فى الحروب « الديوشيرمة » ويربون على تعاليم الاسلام وطاعة السلطان والعمل فى خدمته . وكذا من الشباب الأتراك والمسلمين النابهين . وقد كانت بحق مدارس نظامية داخلية محكمة التنظيم أنظر : المصدر السابق : محمد ذكى باقلين (المترجم)

(٤) كَلستان سعدى : سعدى ؛ هو الشيخ مصلح الدين الشيرازى ، من آعاظم شعراء ايران وحكمائها المتصوفين . ولد فى آواخر القرن السادس الهجرى وفى عصر سعد بن زنكى بمدينة شيراز . ونُسب لهذا الحاكم فاشتهر بسعدى ، عاش ١٠٣ سنة ، بعد سن الطفولة قضى ٣٠ عامًا فى التعلم ، و٣٠ سنة فى العسكرية والسياحة ، و٣٠ فى =

ومثنـوي جـلال الديـن الرومي [١] ، وكان يستشهد ببعضها فى كتاباته ، وخلال رحلاته التى دوَّنها في سياحتنامته .

دخل آوليا القصر ، وسلموه إلى رئيس آغوات السراي واختاروا له غرفة بالقرب من الجناح السلطاني ، وألبسوه ملابس لائقة .. وعلموه كيفية التحرك ، والتصرف في حضرة السلطان .. ورويداً .. رويداً بدأ في حضورمجالس السلطان . وحسب رواية آوليا نفسه ؛ فقد كان يُجيد الشيئ الكثير من فنون القول ، والشعر العربى ، والفارسي ، والسرياني ، واليوناني . وفنون الغناء الشعبي التركي ، والموسيقى .. والذكر والأدب ، ويحفظ الكثير من الشعر فى البحر الطويل ، ومن القصائد وترجيح بند ، وتركيب بند [٢] والمرثية ، والعيدية .. [٣] .

يصف آوليا نفسه ، وهو فى مرحلة السراي ، بأنه كان فى حوالي العشرين من عمره ، وكان رشيداً ، نجيبًا ، على علم بمجالس الأدب ، وحلقات الذكر ، والعلم . وأنه ، وهو فى حضرة السلطان كان حلو اللسان طليقه .. منادماً خفيف الظل ... هذا وغيره مما جعله ينال رضاء السلطان ، ورعايته ، وشرف صحبته [٤] .

= الزهد والعبادة . كتب كتابه المشهور كلستان سعدى اي « حديقة سعدى » وهو فى سن ٦٧ من عمره نالت كتبه « بوستان »، « كَلستان » شهرة واسعة فى عالم الأدب ، أثر فى كل مَنْ اتى بعده من شعراء الفرس والترك . وانتشرت اشعاره فى هذه المناطق الشاسعة . وكان يحفظها كل مَنْ يشتغل بالفكر والأدب . انظر : شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام جـ٤) « المترجم »

(١) مولانا جلال الدين الرومى : (١٢٠٧ - ١٢٧٣م) من أكبر شعراء التصوف فى العالم الإسلامى ، عالم ، وفيلسوف ومؤسس الطريقة المولوية . ولد فى منطقه بلخ فى خراسان . والده كان سلطان العلماء بهاء الدين ولد . والدته مؤمنة خاتون من عائلة الإمبراطورية الخارزمشاهية . ترك بلخ متوجهاً الى الأناضول إلى مكة سنة ١٢١٢م ثم انتقل عن طريق الشام الى الأناضول وعندما وصل إلى قونيه عاصمة الدولة السلجوقية كان على عرشها السلطان علاء الدين كيقوباد ، فاستقبله بحفاوة بالغة سنة ١٢٢٨م . له كتب عديدة فى التصوف ولكن اشهرها قاطبة هو كتاب المثنوى المكون من ٢٦ ، ٧٠٠ بيتاً وقد كتبه باللغة الفارسية ، وترجم بعض أجزاؤه د. محمد كفافى ثم أكملها وأعدها كاملة من جديد الصديق العزيز المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقي يوسف شتا . وله « ديوان كبير » الديوان الكبير . ومجالس سبعة ، أى المجالس السبعه وكلها تدور حول التصوف والعرفان وما يتعلق بهما من آداب ومراسم . وله مكتوبات وهى رسائل فى الوعظ والإرشاد ؛ انظر : د. الصفصافى أحمد المرسى ، استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة القاهرة ١٩٩٩ ص ١٤٤ هامش (المترجم) .

(٢) ترجيح بند وتركيب بند ؛ من فنون الشعر الفارسي والتركي ، وقد حرص الشعراء الفرس والترك بأن يُدلي كل منهم بدلوه فيهما . « المترجم » .

(٣) . 3- Zuhuri Danisman. s 1168 ------> 1169

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٧٠ .

قضى آوليا فى السراي أربعة أعوام ، تعلم فيها الكثير من العلوم والفنون ، وتعرف على الكثير من رجالات عصره بعد أن كان قد أمضى سبع أو ثمان سنوات فى المدرسة [1] إلا أن علامات التبرم ، والسأم بدت عليه فطلب الإذن من السلطان ليلتحق بقوات السپاهية فوافق له ، وخدم فيها براتب قدره أربعين آقچة قبل أن يخوض السلطان مراد حرب بغداد . . إلا أن آوليا لم يستمر طويلا في السلك العسكري ، ولم يشغل رتبًا عالية هذا المجال .

وقد شغف بالسياحة ، والرحلات وهو لم يزل شابًا ، وذلك بعد أن وقع تحت تأثير ما كان يسمعه من قصص ، وروايات عن البلدان البعيدة ، من والده ، ومن رجالات الفكر ، والعسكرية الذين كانوا يجتمعون فى منزلهم فى كثير من المناسبات ، ودفعه هذا الشغف أن يطوف أولاً بإستانبول ، ويدرسها شبرًا شبرًا ، ويتعرف على كل معالمها ومآثرها ، ويعيش لياليها ويتمتع بملاهيها وملاعبها .

وطبقًا للعنعنات التركية ، يربط أوليا چلبي شغفه ، وبدءه للسياحة والرحلات برؤيا ؛ وكانت هذه الرؤيا فى ليلة عاشوراء سنة (١٠٤٠هـ= ١٦٣٠م) وحسب روايته هو ، أنه فى هذه الليلة المباركة رأى النبى ﷺ وسط حشد كبير فى صلاة جماعة بجامع (أخى چلبي) ويَمثل أوليا چلبي بين يدى النبى ﷺ ، وتحت تأثير هذا الموقف يتلعثم ، وبدلاً من طلب الشفاعة يطلب السياحة حيث قال « السياحة يارسول الله بدلاً من أن يقول » الشفاعة يا رسول الله [2] .

---

(١) المدرســة : اصطلاح تعليمي كان يُطلق علي « دار الفنون » أو « دار العلوم » وأول من أنشأ مدرسة على هذا الطراز فى العهد العثمانى هو أورخان غازى ، ثم نَص محمد الفاتح فى قانونه على إمتيازات تُقدم للقضاة ، والمدرسين . وكانت مدرسة إزنيك ، وبورصة ، وأدرنة من أهم المدارس التى أنشأها العثمانيون فى عهودهم الأولى . وبعد أن فتح محمد الفاتح إستانبول أنشأ جامعته « مدرسته » الشهيرة فى إستانبول ، والتى سميت بمدرسة « صحن ثمان » وكان للطلاب فيها أماكن للإقامة جنبًا إلى جنب مع المدرسين . وتدرس فيها العلوم النقلية والعقلية معًا .

وزاد عدد المدارس « الجامعات » في عهد القانوني وأنشأت دار الشفا » أي كليات للطب ، وإلى جانبها « دار الحديث » وكليهما بجوار . جامعة المشهور (السليمانية) ، ولم تحدث الثنائية فى التعليم فى الدولة العثمانية إلا تحت الضغوط الأوربية بعد عهد التنظيمات فاصبح هناك ما يسمى بالتعليم المدرسي ، والتعليم الحديث : أنظر : .M. Z) Pakalin, O.t. Deyimleri ve Terimleri Isb. 1971) (المترجم) .

(٢) آوليا چلبي سياحتنامه س ، جـ١ . المقدمة .

ومـا أن رأى سـعـد بـن أبي وقـاص (رضي الله عنه) منه ذلك حتى طمـأنه بالشـفـاعـة ، والسياحة معًا .

يذهب أوليا چلبي إلى مشايخه ، وأساتذته ويقص عليهم رؤياه . ويطلب منهم تفسير هذه الرؤية . فيذهب إلى الشيخ المولوى عبد الله ده ده في حي قاسم باشا فيطلب منه أن يفسر له هذه الرؤية فيوصيه الشيخ قائلاً (إبدأ بتحرير تاريخ إستانبولنا العزيزة) فيُشمر عن ساعده ، ويتحفنا بالمجلد الأول من سياحتنامه سنة (١٠٤٠هـ سنة ١٦٣٠م وفى سنة ١٠٥٠هـ= سنة ١٦٤٠م) مـا بين إبريل ومـايو يرحل إلى بورصه مع صديق له يسمى « أوقچى زاده أحمد ، وبعد عودته من هذه الرحلة التى لم يستأذن والده فيها ينصحه والده أن يسجل ملاحظاته أولاً بأول فى كتاب للرحلات ، ويأذن له بالترحال ، فيتوجه نحو إزميت » فى (١٠٥١هـ حزيران سنة ١٦٤١ م) وبعد أن يمضي شهرين فى إستانبول يتوجه إلى طرابزون فى صحبة كتنجى عمر باشا الذى عُيِّن واليًا عليها ، وكانت رحلته الثالثة هذه عن طريق البحر الأسود فى (١٠٥٠هـ ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٤٠م) . ومنها توجه إلى آنابا (Anapa) وأنضم إلى الجيش المتوجه للإستيلاء على قلعة (آزاق Azak) ولما إنتهت هذه الحملة بالفشل توجه نحو (بهادر كَيراى خان) بالقوم لقضاء الشتاء . وقد أمضى شتاء هذه السنة فى (باغچه سراى Bahçe saray) . ثم عاد إلى استانبول بعد أن شارك فى إسترداد قلعة الآزاق . ومكث أربع سنوات فى إستانبول . وفى سنة (١٠٥٥هـ= سنة ١٦٤٥م) شارك فى فتح خانيا "Hanya" مع يوسف باشا الذى كان يقود حملة كَريت Girit ثم عاد إلى استانبول . وفى العام التالى مباشرة خرج إلى الأناضول كمؤذن ومُصاحب للدفتردار . آده محمد باشا » الذى عين أميراً للأمراء على أرضروم . وقد مكنته هذه الرحلة من التجول والطواف بكل مدن وبقاع الأناضول . ثم عاد إلى أرضروم ، والتحق بالحملة التى قادها الدفتردار زاده ضد أمير الشوشيك (Susik) فتمكن بذلك من مشاهدة بعض مناطق آذربيجان مثل كَورجستان (Gurcistan) كُلِّف أوليا چلبي ببعض المهام ، وحمل بعض الرسائل إلى خان روان "Revan" فتمكن من الطواف ، ومشاهدة مناطق كَومشخانة Gümüshane وطورطوم Tortum . بعد أن شارك فى حملة كورجستان عاد إلى أرضروم وأمضى الشتاء بها ، ثم عاد مع الدفتردار زاده محمد باشا إلى استانبول وقد كلفه محمد باشا بمهام كثير ،

ووساطات لجمع كلمة أمراء الأناضول للمشاركة فى القضاء على عصيان (واردار على باشا) الذى كان يهدد كيان الدولة أنذاك . ويحكى هو نفسه أنه بسبب العواصف الثلجية التى هبت خلال إحدى هذه الرحلات ضل طريقة فوجد نفسه وسط الجلاليين أمثال حيدر أوغلى وقاطرجى أوغلى وقد ساعدته هذه الصدف على التعرف عن قرب على ثورة الجلاليين [1] . والكتابة عنها هى وثورة (واردار على باشا) وقد أعطى معلومات قيمة جداً عن هاتين الثورتين .

يعود رحّالتنا إلى إستانبول (١٠٥٨هـ= سنة ١٦٤٨م) . ولكنه يتوجه مع أمير أمراء الشام مرتضى باشا إلى الشام فى (١٠٦٠هـ= ١٨ سبتمبر سنة ١٦٤٨م) ويظل بها حتى (١٠٥٨هـ= ١٤ تموز سنة ١٦٥٠م) وخلال هذه الفترة يكلفه مرتضى باشا بالتوجه إلى حاكم غزة ، ، ويحمله الرسائل إلى الشهابيين فى لبنان ، مما أتاح له رؤية الكثير من بلدان ، ومناطق سوريا وفلسطين . وبعد أن يطوف بالكثير من مدن وسط شرق الأناضول (لجمع الأموال لسيواس) يعود إلى استانبول وتسير الأمور لصالح أولياچلبي ، فيُعين خاله ملك أحمد باشا صدراً أعظم وبالتالى يصير أولياچلبي أمين الجيش المتوجه لتأديب الجلاليين . ويعاصر ، ويرى سوء إدارة خاله – كما يرى عن قرب ما يدبر فى القصر من خطط ، وخدع ، ومكائد . ويصاحب بعض منها وهو فى رفقة ملك أحمد باشا ، وفى بعض منها وهو وحده . وقد كان يقاوم رغبة خاله هذا فى أن يدفع إلى السوق بنقود مزيفة للقضاء على الأزمة ، الاقتصادية وكيف أن هذه السياسة قد أدت إلى عواقب وخيمة ، وإلى ثورة الحرفيين . ولما تم عزل الصدر الأعظم وتعينه أميراً للامراء على « أوزى » Ozi أُتيحت الفرصة لأوليا چلبي ليقوم بأول رحلة له فى بلاد الروميلى ، وأستمرت هذه الرحلة من (١٠٦٢هـ= ٢٣ أغسطس سنة ١٦٥١م) إلى نهاية (١٠٦٤هـ= حزيران سنة ١٦٥٣م) وكانت هذه الرحلة فى بعض منها فى رفقة ملك أحمد باشا ، وفى بعض منها وحده . وكان يقوم بحمل الرسائل المهمة بين روسچوق Rusçuk – وإستانبول ، وذهب إلى سلسترا ، وطاف

---

(١) جلالى : مصطلح ادارى عثمانى يطلق على العاصى أوالخارج عن القانون او من يعمل ضد السلطان ، وقد كان هذا فى البداية اسم لأحد العصاة الذين ظهروا بالقرب من طوقات ورفع راية العصيان ضد السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٧هـ= ١٥١٢ – ١٥٢٠م) وادعى المهدية والتف حوله عدد كبير من قطاع الطرق واتباع العصابات وسبب قلاقل كبيرة للدولة تم القضاء عليهم . ولكن ظل أسمهم يطلق كل العصاة الخارجين على الدولة : أنظر : محمد ذكى باكالين . المصدر السابق (المترجم) .

بقرى ومراكز بلاد الأوز ، وكتب عما رآه من غرائب وعجائب فى قرى « بابا داغى » وزار صوفيا . ولما تم عزل الباشا عاد معه إلى إستانبول وقضى بها فترة انسته ملاهيها ، وملاعبها متاعب الرحلات الطوال التى قام بها .

عين ملك أحمد باشا واليًا على « وان » فتوجه فى معيته ، قريبه أوليا چلبي . وظل فى جنوب الأناضول من (١٠٦٦هـ = ٩ مارس سنة ١٦٥٥ إلى ١٠٦٧هـ = ٢٤ حزيران سنة ١٦٥٦م) ، وأتيحت له الفرص لزيارة كل مدن جنوب الأناضول ، وإيران . واختلط باليزيديين ، وجمع عنهم الكثير من الوثائق والمعلومات . ولما تم نقل ملك أحمد باشا واليًا للمرة الثانية على بلاد الأوز توجه أوليا چلبي معه إلى سلسترا ودخل فى خدمة محمد كَيراى الرابع خان القرم ، وشاهد هزيمة القازاق الذين هاجموا بلاد الأوز وكان هو الذى حمل انباء هذه الهزيمة إلى إستانبول . وبعد عودته إلى مقر الولاية كان يكلفه خاله بنقل الرسائل بينه وبين زوجته (قايا سلطان) . (Kaya Sultan) .

سافر إلى البوسنه مع ملك أحمد باشا (الذى عين واليًا عليها ولكنه بقى فى استانبول شهرا للعلاج بعد أن جرحه واحد من رجال كوبريلى محمد باشا (١٠٧٢هـ = ١٥٧٥ - ١٦٦١م) [1] وهو فى الاناضول فطاف بكل سواحل الأناضول ثم توجه إلى أدرنه مرورًا بكوپريلى محمد باشا (١٠٧٢هـ = ١٥٧٥ - ١٦٦١م) فى « چناق قلعة » وبعدها إنضم الى الحملة التى قادها « كوسه على باشا » على « واراد » "Varad" واعتبارا من (١٠٧١ = ٢٦ مايو سنة ١٦٦٠) طاف ببلاد الأورناؤوط ، والأويغار = البلغار ، وبوهميا = المجر وظل بها حتى (١٠٧٣هـ = مارس ١٦٦٢م) وبعد أن أمضى الشتاء فى بلجراد عاد إلى إستانبول ثم خرج منها إلى النمسا مع الجيش المتجه إليها تحت قيادة فاضل أحمد باشا (١٠٤٥ - ١٠٨٧ = ١٦٣٥ - ١٦٧٦م) [2] ويقص علينا أوليا چلبي الغرائب والعجائب التى شاهدها ولمسها

---

(١) كوپرلى محمد باشا ، مؤسس عائلة كوپرلى التى تولت الصدارة العظمى في الدولة العثمانية لفترات طويلة ، ولعبت دوراً بارزاً فى تاريخها . تتابعت فيه وفى ذريته الصدارة . وقد تولى على بلاد الآرناؤوط (آلبانيا) سنة ١٠٧٠هـ = ١٦٦٠م (المترجم) .

(٢) فاضل أحمد باشا : من عائلة كوبريلي ، اشتهر بحبه للعلم ، وحمايته للعلماء ، تولى منصب الصدارة بعد العديد من المناصب فى الدولة العثمانية وأجرى بها العديد من الإصلاحات . ولد سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٢٥م وتوفى سنة ١١٨٧هـ = ١٦٧٦م . (المترجم)

بنفسه في بلاد النمسا ، وهولندا ، والسويد حيث زارها بعد يوهميا . وهذه الحكايات بالرغم مما فيها من مبالغات إلا أنها فى غاية الأهمية لدراسة تاريخ ، وعادات ، وتقاليد ، ومعالم تلك البلاد خلال هذه العصور . وتصل مبالغات الرحالة ، أوليا إلى أن يقص علينا أنه التقى فى فينا بالإمبراطور (ليوبولد الأول) (Leopold I) ومونتوسوكلى (Montecucolli) وأنه زار بلاد الأسبان ، والدنمارك وأنه وصل حتى دونكاركيه بجواز السفر الذى تسلمه من الإمبراطور ، وبالرغم من أن هذا الكلام فى حاجة إلى تحقيق إلا أنه يعطى الكثير عن تاريخ ، وعادات وتقاليد تلك البلاد ، وعلى مدى سعة إطلاع الرحالة أوليا چلبي . وبعد أن عاد من هذه البلاد كلف بمهام التفتيش على قلاع المجر ، فلذلك وافته الفرصة لكى يطوف بكل قراها وقصباتها ، ويحكى لنا فى كتابه . سياحتنامه » أنه وصل إلى بلاد القرم ، بعد أن تجول فى أردل (Erdel) ، والبغدان ، والأفلاق » وينتقل من القرم إلى قفقاسيا عن طريق البر . ويسجل أنه تجول فى بلاد « داغستان » ، وشواطئ بحر الخزر ، وبين قبائل الفولجا ، وأنه إنضم إلى قافلة أحد السفراء الروس من ترك Terek حتى الآزاق وعلم بها أن الجيش العثماني قد تحرك نحو كريت . فتوجه چلبي نحو (باغچه سراى) وشارك عادل كَيراى فى بعض حروبه ، ثم عاد بطريق البر إلى استانبول . ومضى فى هذه الرحلة ما بين (١٠٧٤هـ = تموز سنة ١٦٦٣م) حتى (١٠٧٨هـ = ١١ مايو سنة ١٦٦٧م) . وبعد أن استراح بعض الوقت توجه إلى زيارة بعض مدن الروميلى كسلانيك « وأدرنه » وساح بكل بلاد اليونان والموره » « وتساليا » . وعاصر ، بل وشاهد استيلاء العثمانيون على قانديا (Kandiye) ، وشارك فى إخماد العصيان الذى شب فى بلاد اليونان ضد العثمانيين ، والذى عرف فى كتب التاريخ بعصيان (ماينا) "Mayna" وبعد أن طاف بسواحل بحر الأدرياتيك مروراً ببلاد الأرناؤوط عاد إلى استانبول . وكانت هذه الرحلة فيما بين (١٠٧٩هـ = ٢٦ يناير سنة ١٦٦٨م) إلى (١٠٨١هـ = ٣١ أغسطس سنة ١٦٧٠م) .

رحلته إلى الحجاز:

أصاب أوليا چلبى الذى زار الكثير من البلدان ورأى آلاف المدن نوع من الحزن والكآبة لعدم قيامه بالحج وزيارة الأماكن المقدسة ، فحزم أمره ، وأعد عدته للقيام بالرحلة الرابعة عشر ، والأخيرة فى حياته ألا وهى رحلة الحجاز ومصر . فاستراح عدة

أشهر وأعد غلمانه ، ورافق قافلة الحج التركى ، والتى كانت تضم حجاج كل دول البلقان واستانبول . وشاهد ووصف لنا مراسم توديع القافلة وتسليم الجمل الذى يحمل المحمل وكيف أن السلطان بنفسه – وفى معيته الصدر الأعظم وشيخ الإسلام قد حضر هذه المراسم وقد كانت فرقة الموسيقى السلطانية تعزف أمام قصر السلطان قبل موعد قيام القافلة بزمن طويل وكان معنى ذلك ايذان وإعلام للجميع باقتراب موعد قيام القافلة ، فيقدم الأمراء والأثرياء وأهل الخير هداياهم لتكون فى عهدة أمير القافلة حيث يوصلها إلى سكان مكة ، والمدينة ومجاورى الحرمين الشريفين .

وفى وصف دقيق وممتع يصف لنا الكاتب رحلته منذ أن قامت من استانبول حتى إنتهى من آداء شعائر الحج . ويقدم لنا شعور المسلم المؤمن فى مواجهة الصعاب ، وكيف أن القافلة كانت تحمل مالا يطاق من برد ، وجوع ، وعطش وهى تعبر الصحراء القاحلة [١] . كان كل ذلك من أجل الايفاء بركن من أركان الإسلام . وكثيراً ما كان يتحفنا ببعض من أشعاره الجياشة وتضرعاته وتوسلاته فى الحرم النبوى وأمام أستار الكعبة الشريفة .

يقدم أوليا چلبي أوصاف الحرمين الشريفين وما فيهما من تحف وعدد المآذن ، والأبواب ، والأعمدة ، والشبابيك وأطوال كل منها . وتعريف كامل بسكان البقيع من أصحاب رسول الله ﷺ . كما يصف لنا وصفاً دقيقاً كل ما كان يصادفه من قلاع ، وحصون ومساجد وتكايا ، ويعرفنا بأقطاب العلم ووصفا للأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية ، والادارية ، والتشكيلات العسكرية والتقسيمات الادارية للشام والحجاز [٢] .

أتم أوليا چلبي طواف الوداع ، وأتم فريضة الحج فى موسم سنة (١٠٨٢هـ = ١٦٧١م) واستقر رأيه على مرافقة قافلة الحج المصرى عند عودتها لكى يقوم برحلته إلى مصر . فيلتقى بشريف مكة ، ويتجه إلى جدة لمقابلة الوالى العثمانى ليستأذنه فى الرحيل ، ولم يفته أن يخبرنا بتجارة جدة ، وبنوع وأجناس الحجاج ، والسفن وما

---

(١) سنرى كل ذلك فى ترجمة المتن الذى نحن بصدده ، وهو المجلد التاسع من الرحلة ، (المترجم) .
(٢) أوليا چلبى سياحتنامه س ، جـ٩ . استانبول ١٩٣٥م .

يحـمله الحـجـاج المصـريون فى رحلة الذهـاب والايـاب من مكـة والمدينة وجـدة التى كانت تجمع فى خاناتها تجارة الشرق والغرب .

رافق أوليا قافلة الحج المصرى بعد أن شحن كتبه ، وهداياه مع بعض من عبيده ، وغلمانه فى إحدى السفن المتجهة إلى السويس بحمولتها من البن والدخان ، وبضائع الهند ، والصين ، وجاوه ، ورقيق الحبشة وأفريقيا .

ويذهب الرحالة الى مصر عبر طريق العقبة وطور سيناء حتى وصل إلى السويس ، ومنهـا إلى القـاهرة مـروراً ببلبـيس والصـالحـيـة . ويسـجـل لنا أنه تردد بين القـاهرة ، وبلبـيس عدة مـرات لاستـقبـال عبـد الرحـمن باشـا الذى عـيِّن واليًا على مصـر فـى (١٠٨٧هـ= ١٢ تموز سنة ١٦٧٦م) . وفى إعتـقـادى أن كـتـاب « سـيـاحـتنامـه » أوليـا چلبي من أدق وأوفى ما كـتب عن الحـجاز ومصر فى القرن السابع عشر ، فلو استبعدنا المبالغات فى تفسير بعض الظواهـر لأعتبر هذا الكتاب سـجلاً وافيًا لما كان فى الحجـاز ومصر من أثار ، ومساجد ، وجوامـع ، وتكايا ، وزوايا ومستشفيات ، وبيـمارستـانـات، وكنائـس ، وخانـات ، وقصـور ، وبـرك ، وتـرع ، وقنـوات ، ومـعـسكرات، وعـائلات . وكـذا مـرجـعًا لا يسـتـهـان به للوضع الاجـتـمـاعى ، والاقتصادى، والعسكرى ، والإدارى لمصـر فى هـذه الحقبـة التاريخية الغامضـة من تاريـخ مصـر . فـقـد طـاف الرجـل بكل مـصـر ، حيـث ذهب إلى دمـياط عن طريق النيل ثم إلى الاسكندرية ، ورشيد ووصـف لنا كل مدن ، ومراكز وقـرى الدلتا ، ثـم رافق حامية متجهة إلى السودان فتعرف وعرَّف لنا بكل مـدن الوادى حـتى وصـل إلى أعـمـاق السـودان والحبـشة وبـلاد الفـونج والتقى بملكها ووصـف لنا ما كـانت عليـه هذه البـلاد ، والقـبـائل من تخلـف ومـا كـان يسـودها من عـادات وتقـاليـد وأعـراف [١] .

بقى أوليـا چلبى فى السـودان ، والحبـشـة مدة طويلة ، وعـاد إلى مصـر عن طريق ساحل البحر الأحمر وسجل كل ملاحظاته ومشاهداته والتى كان يدعمها بالمراجع فى مجلدة العاشر والأخير فى مجموعة رحلاته .

---

(١) آوليا چلبي سياحتنامة س ، جـ١٠ ، استانبول سنة ١٩٣٨ . وتُعد ترجمته للنشر حاليا من قبل مترجم ، وناشر هذا الجزء . «المترجم»

طريقة أوليا چلبي في التاريخ :

كان أوليا چلبي يدّون ملاحظاته ، ومشاهداته عن البلد ، أو المدينة التي يمر بها . ثم يرجع إلى كتب التاريخ ، والرحلات التي سبقته إليها وخاصة الثقاة منهم . أمثال القزويني ، والمقريزى ، والطبرى ، والذهبى وجلال زاده ، وصولوق زاده ، والأطلس الصغير . ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين ، والسجلات ، وكتب المناقب ، وسجلات الولايات ، ودفاترها ، وميزانياتها . وقد كان يستخدم أساليب عصره فى القياس ، فما أن يمر بجامع ، أو قلعة حتى يحصى الأبواب والأدوار ، والمخازن ، ويقيس بالخطوة ، والذراع كل ما يصادفه من آثار وأطلال . كما كان يعود إلى ما سجله أو رجع إليه من مراجع فى كتبه السابقة على حد قوله هو :

طبعات سياحتنامه :

أعتمدت النسخة رقم ٤٥٨٤٦٢ فى مكتبة برتو باشا أساسًا فى طبع سياحتنامه . وقد أشرف نجيب عاصم ، وأحمد جودت على طبع المجلدات الخمسة الأولى سنة (١٣١٤هـ - ١٨٩٦م) . وقام أمره قره جه صو سنة (١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) بطبع المجلد السادس ، وقام كليسلى رفعت بطبع المجلدين السابع ، والثامن من سنة ١٩٢٨م . أما المجلدين التاسع والعاشر فقد أشرف على طبعهما أحمد رفيق فيما بين سنة (١٣٥٤ - ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٥ - ١٩٣٨م) كما طبعت مقتطفات ومختارات من رحلة أوليا چلبي فى إستانبول سنة (١٢٥٦هـ =١٨٤٠م) ، (١٢٦١هـ = ١٨٤٥م) . (١٢٧٩هـ=١٨٦٢م) والقاهرة سنة (١٢٦٤هـ = ١٨٤٧م) . واستطاع رشاد أكرم قوچى إختصاره وطبع خمسة مجلدات منه فقط ، وقام مصطفى نهاد أوزون باختيار لوحات تتعلق بالحياة فى القرن السابع عشر من سياحتنامة أوليا چلبي وطبع هذه اللوحات فى مجلدين . وأستطاع نفس المؤلف أن يجمع ماكانت الرقابة قد منعت طبعه فى حينه وشكل بذلك مجلداً ثالثًا . وفى سنة (١٣٩٠ هـ= سنة ١٩٧٠م) قام ظهورى دانشمان بإعداد طبعة جديدة مختصرة تقع فى عشرة مجلدات .

وقد ترجمت مقتطفات ومختارات من سياحتنامة أوليا چلبى إلى الألمانية ،

والانجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، والمجرية ، والرومانية ، والبلغارية ، والصربية ، اليونانية ، والأرمنية ، وغيرها من اللغات الغربية [1] .

إن أوليا چلبي الذى قضى سنوات طويلة يطوف ، ويجول ، وهو فوق صهوة جواده قد إمتلك مهارة فائقة فى ركوب الخيل وسباقها ، وكان يتمتع - إلى جانب ذلك - بروح مرحة ميال إلى الفكاهة . وقد مكنته هذه السنوات ، وهذه الرحلات من إكتساب علوم ومعارف غزيرة ، إلى جانب كونه كان خطاطًا ، ونقاشًا ، وموسيقيًا وشاعرًا . وقد كتب لوحاتًا فنية ، وأشعارًا دينية وعلقها فوق جدران الحرم النبوى في المدينة المنورة ، خلال زيارته للمسجد النبوى سنة (١٠٨٢هـ= سنة ١٦٧١م) وأذا كانت أشعاره التى أوردها فى كتابه سياحتنامة ، تتسم بشئ من الركاكة ، والبساطة فإن نثره يدل على أنه كان يمتلك ناصية اللغات الاسلامية الثلاث « العربية والفارسية والتركية » وأن أسلوبه التركي كان من النوع السلس ، المتدفق . وكان يستخدمه فى الكتابة وكأنه يتحدث أو يقص على مستمعيه ما يشنف به أذانهم ، وتطيب به نفوسهم ويسعد به فؤادهم حتى ولو أدى ذلك إلى بعض الأخطاء اللغوية . [1]

* * *

---

(١) انظر فى تلك المراجع التالية :

1. Ayfar Güçlü, Evliya Çelebi Seyahatnamesi üni. Kip. Tez. Nu 1473. Ist. 1947.
2. Cafer Erkiliç. Evliya Celbi. Ist. 1969 .
3. Leman Nusret. Evliya Çelebinin Hayati üni, Kip, Tez. Nu, 173. Ist. 1939.
4. M. Çagatay Ulucay, Evliya Çelebi. Ist. 1957.
5. Mesküre Eren, Evliya Çelebi Seyahatnamasi. birinci Cildinin kaynaklari üzerinde Bir Arasriema. Ist. 1960
6. Zuhuri Danisman. Evliya Çelebi Seyahatnamesi. Ist. 1970 .. « المترجم »

(١) انظر فى هذا الجزء ، آوليا چلبى وكتابه سياحتنامه ، د/ الصفصافى أحمد المرسى ، مجلة كلية اللغات والترجمة ، العدد العاشر ١٩٨٥ ص ٢١٧ - ٢٢٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة أوليا چلبى إلى الكعبة الشريفة فى شوال سنة ١٠٨١ هـ [١] وبيان المراحل التى مر بها من الشام الفيحاء حتى بيت الله الحرام

عُيِّن حسين باشا [٢] أخو سياوش باشا [٣] والى الشام ، قائداً على الحملة المكلفة بحماية قافلة حجاج الشام ، حتى الكعبة المشرفة . لإن أشقياء العُرْبان ، والبدو ، يهاجمون الحجيج كل سنة ، وينهبون متاعهم . ولقد تم توزيع مائتى وسبعين كيسة [٤] على خمسة آلاف ومائة وعشرين رجلاً هم قوة الحامية ، وتسلم القائد ثلاثمائة كيسة أخرى للصرف منها على بقية الأغراض والمهام المنوطة إليه .

وفى اليوم ..... [٥] من شوال ، قام المحفل النبوى الشريف ، بالطواف فى

---

(١) ورد فى بعض النسخ المخطوطة أن الرحلة كانت فى الثانى عشر من المحرم سنة ١٠٨٢ هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٦٧١ م . وأنه قضى حوالى عشر سنوات فى رحلته إلى مكة ومصر والسودان وبلاد الحبشة . «المترجم»

(٢) حسين باشا : والى الشام ، وقائد حاميتها خلال موسم الحج سنة ١٠٨١ هـ= ١٦٧١ م ، وجاء تعينه عقب القلاقل التى عمت مكة فى الموسم السابق ، ووضع تحت إمرته ثمانية آلاف جندى ، وكان قائداً شديد المراس .. تعامل بشدة مع البدو والأعراب مما أدى إلى هدوء موسم الحج . وعمل على تحسين العلاقة مع شريف مكة لتهدئة الأوضاع خلال موسم الحج ، «المترجم» .

(٣) سياوش باشا من الآباظية ، تولى الصدارة فى عهد محمد الرابع لمدة مائة يوم فقط . وكان من عتقاء كوپرلى زادة أحمد باشا . وصل إلى رتبه «آغا البلوك» و «قائد المهمان» وتولى ولاية ديار بكر ، وحلب . عاد إلى دار السعادة وتولى الصدارة مرة ثانية سنة ١٠٩٨ هـ=١٦٨٧ م قُتل فى نفس العام بعد أن نهب العصاة منزله وممتلكاته «المترجم» .

(٤) كيسه : Kese = Kise
اصطلاح مالى يدل على الكيس أو الوعاء أو الحافظة التى كانت تُستخدم لحفظ مبلغ معين من النقود الذهبية أو الفضية ، وكانت قيمتها متغيرة حسب العصور . كما استخدم هذا المصطلح للدلالة على العملة و [صره] للدلالة على الذهب . وكانت الكيسه فى عهد محمد الفاتح وبايزيد الثانى تساوى ٣٠ الف آقچه ، أو عشرة آلاف قطعة ذهبية . ثم كانت الكيسه السلطانية المسكوكة فى طرابلس وتونس والجزائر تساوى عشرة آلاف وفى سنة ٩٤٤ هـ= سنة ١٥٣٧م كانت عشرين ألفًا وفى سنة ١٠٧١ هـ= ١٦٦٠ / ١٦٦١ م كانت اربعين الفًا ومنذ سنة ١١٠٠ هـ= ١٦٨٨ م أصبحت قيمتها خمسين ألف آقچة . «المترجم»

(٥) ترك المؤلف مخطوطته دون ذكر لتاريخ التحرك بالضبط . وثبت أن التاريخ هو اليوم العشرون من شوال سنة ١٠٨١ هـ. «المترجم»

الشـام [= دمشق] الفيحاء . وقد وصل ألفين من حجاج إيران فى نفس هذا اليوم أيضًا . وتم تحصيل خمس عشرة قطعة ذهبية [1] عن كل حاج إيرانى ؛ مما شكل عونًا ماديًا كبيرًا آنذاك .

وكنت – أنا العبد الحقير إلى ربه – قد قمت بتأمين كافة إحتياجات الرحلة من مأكل ، ومشرب ، واشتريت خمسة جمال ، وقاعودًا ، وفرسًا ، وأربعة هوادج ، وخيمة . كما استأجرت سقاءًا وخمسة عبيد . وجمعت الجميع فى سرادقى .

أخيرًا ، وفى العشرين من شوال سنة إحدى وثمانين وألف من الهجرة النبوية ، خرجنا من الشام ، وسط إحتفال مهيب ، لم تر مثله البلاد من قبل . وسارت القافلة مسافة ساعة نحو القبلة ، وسط رياض ، وبساتين غناء ، وحدائق فيحاء ، حتى وصلت إلى :

قصر كوجوك أحمد باشا : [2]

لقد انتشرت الأخبار ، وتناقلت الأقاويل بين مشايخ الأعراب جميعًا ، وكان مفادها أن . . . «إن هذه السنة تختلف عن كافة السنوات السابقة ؛ فعلى رأس القافلة وزير شديد البأس ، صعب المراس لا يرحم قط ، ولن يرحم أبدًا من تُسوّل له نفسه الشغب ، أو يفكر فى العصيان . فأقبلوا جميعًا مع عيالكم وذويكم وقدموا فرائض الطاعة ، واظهار الولاء . . . » . . وما هى إلا سويعات قليلة حتى وفد عدد من مشايخ البدو ورجالاتهم على قصر الوزير كوچوك أحمد باشا ، وتشرفوا بالسلام عليه والمثول بين يديه .

وهنا ؛ فى هذا المَنْزَل قام كتخدا [3] الباشا بتسليم عنان جمل المحمل الشريف إلي

---

(١) عملة ذهبية ضربت فى الدولة العثمانية ، واستقر الرأى على قيمتها فى عهد محمود الثانى (١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م) على أن تكون ٢٤٠ پارة أو ستة قروش . «المترجم»

(٢) كوچوك أحمد باشا : هو أحمد باشا كوچك من وزراء الدولة العثمانية فى عهد السلطان مراد خان الرابع تولى ولاية سيواس ، والشام ، وكوتاهية ، ثم كُلّف بالتنكيل بعصيان إلياس باشا الذى نشب فى الأناضول ، ولما وفق فى ذلك أنعم عليه السلطان بولاية الشام سنة ١٠٤٢ هـ . وقد نجح فى القضاء على حركات العصيان فى الشام أيضًا . . وأعاد الأمن والأمان ، شارك فى حرب إيران ، ثم عيِّن محافظًا على الموصل ، فى سنة ١٠٤٦ هـ ، واستشهد فى الحرب التى دارت ضد الشاه عباس الإيرانى . «المترجم»

(٣) كتخدا = Kethüda = وكيل ، معتمد

=

معاليه ، وقام هو بدوره بتسليمه إلى أمير الحاج . وتقدم شيخ الشام وقاضيها وسلمه الحجة الشرعية التى تؤيد إمارته للحج هذا العام . وبهذا تمت المراسم المتعلقة بتسيير القافلة .

فى الصباح الباكر ، وعقب صلاة الفجر ، تحركنا ، مارين من بين المزارع وإقطاعات الموظفين . واستمرت القافلة فى سيرها أربع ساعات متواصلة حتى وصلت إلى :

قرية الكِسْوَ :

وهى قرية عربية بيوتها مائتين فقط ، تقع وسط وادى صخرى . بها جامعين ، ومسجداً ، وحماماً عاماً ، وخاناً كبيراً . يقوم آهالى هذه القرية ببيع الكعك الأبيض ، والبوريك والدجاج المشوى ، والحملان ، والزبادى ، والقشدة ، والشعير والتبن إلى الحجاج على الطريق . ومعظم آهاليها جمّالة . ومياه الكِسْوَ عذبة جداً لذيذة المساغ . يشربُ منها أغنياء الشام .

خان الطارخانة :

عبارة عن نُزْلين كبيرين على جانبى الطريق ، يتوقف الحجاج عند عودتهم من الحج هنا فى شهر عاشوراء . وحسب تعليمات أصحاب الوقف ؛ تُعَد ، وتطهى هنا مئات القازانات ، والقدور المليئة بالعاشورة ، وحساء الطرخانة [1] ، وتوزع على جميع الحجاج .

= لقب كان يُطلق على من يقوم مقام الأغنياء أو رجالات الدولة ويعنى « الوكيل ، المعتمد ، مدير الأعمال » .
تم أصبح لقباً إدارياً يطلق على معاونى الصدر الأعظم . وكانوا فى البداية رجالاً خصوصيين للصدر الأعظم ، ثم أصبحوا من موظفى الدولة . ومَنْ يرتقى منهم أو يقدم خدمات جليلة للدولة كان يطلق عليه « كتخدابك » .
فى عهد السلطان أحمد الثالث أصبح معاوناً للصدر الأعظم فى الأمور الداخلية ومن هنا أصبح له كتبته وقلمه الخاص به .
أماعسكرياً فقد كان يُطلق على كبار ضباط الإنكشارية . وكان أحياناً يسمى « كتخدا القول » أو « كتخدا المعسكر » وكان يعهد إليه بمعاونة آغا الإنكشارية . ولما كانت تنشئتهم فى المعسكرات فقد إزداد نفوذهم فى بعض العصور حتى غطى على نفوذ آغا المعسكر .
وكان لحرس القصر كتخدا يسمى « كتخدا البوابين » يرأس حراس أبواب القصر السلطانى . ويقوم مقام الساعى فيما بين السلطان والصدر الأعظم . لقبه الأوروبيون بلقب مشير القصر ، أو مدير القصر ، أو ناظر القصر . « المترجم »

(١) حساء الطرخانه : « Tarhana » أو الطرخانه ؛ وهو حساء يُصنع من اللبن الحامض ، أ و الزبادى ، وأحياناً يُضاف =

تحركت القافلة من هنا سالكة الطريق الذي تم تعبيده على نفقة والده سلطان [1] ، ومن قبل كانت الجمال ، والبغال تُنْهك ، بل كان بعضها ينفق فى هذا الطريق قبل تعبيده . قطعنا عشرة ساعات على هذا الطريق حتى وصلنا إلى :

قلعة الصنامين:

وهي عبارة عن قلعة صغيرة مربعة الشكل ، على حافة بحيرة ضيقة داخل حدود الشام . مدارها ستمائة خطوة ، بداخلها مساكن لبعض الجند والخفراء العرب ، المعافين من الضرائب . بها مسجدين ، وخانًا ، وحمامًا ، تكثر بها الحبوب ، والتى تُباع على قارعة الطريق ، وفوق برج القلعة المطل على البحيرة ، كان هناك صنمين . وقد أرسل الرسول الكريم جيشًا بقيادة خالد بن الوليد وعمر ابن عبد العزيز قام أولاً بفتح البوصيره ، ثم هذه القلعة . وقد قاما [ﷺ] بتحطيم الصنمين المذكورين وألقيا بحجارتهما فى مياه البحيرة .

ولقد شهد كل من الشيخ على عباس ، والشيخ عبيد الطائفى ؛ الحرب فى هذه القلعة واستشهدا بها ، ودفنا فيها .

بعد ذلك عبرنا أحد الكباري المنخفضة ، وكان به تسع عشرة عينًا ويقع فى اتجاه القبلة التى يممنا وجهنا إليها ، وتابعنا المسير مدة ساعة واحدة ، مررنا خلالها بقرية زراع العامرة الواقعة على جانبى الطريق ، وبها حوالى ستمائة منزلاً ، وبها جامعًا ، وخانًا واحدًا . وقد استمرت القافلة فى سيرها نحو القبلة حتى وصلت إلى :

= إليه حساء اللحم ، ويجفف على شكل حبيبات أو بُدره .. وفى الشتاء يسوى بالغليان ويّصنع منه الحساء الساخن .. ويمكن أن تُضاف إليه بعض المواد الأخرى لرفع قيمته الغذائية . ويقدم منذ القدم للفقراء ، وعابري السبيل من قبل الأوقاف الخيرية . «المترجم»

(١) والده سلطان : لقب كان يُطلق على والدة السلطان المتربع على العرش ، وكانت لها مخصصاتها ، ونفوذها الكبير الذى تكتسبه من نفوذ وقوة إبنها السلطان . وكان منهن صاحبات فضل ، وخير عِميم . كن يقمن الجوامع ، ودور الأيتام ، والمطاعم التى تُقدم الطعام للمساكين ، والحمامات ، والاسبلة ، ويقدمن الهدايا القيمة للمقيمين ، والمجاورين فى الحرمين الشريفين . وقد عرفت الحضارة الإسلامية منهن ذوات فضل كبير طوال عصور الحضارة الإسلامية .. وكان لوالدة السلطان سليمان الفانوننى ، ومحمد الرابع شهرة كبيرة فى مضمار الخير . وتسهيل سبل أداء فريضة الحج . «المترجم» .

قريـــة البوصـرة الصغـرى:

قـريـــة ذات ثلاثـين بيتـًا ، وجامعـًا ، وهـى تبعـد عن البـوصـرة الـتى وصـلـهـا النبى ﷺ للتجارة قبـل البعثـة بمسـيرة خمس سـاعات . وبها قـبر سـيدنا إليـاس بن آخطـوان . جامـعهـا ذو منارتـين وعلى بعد ثنتـا عـشر سـاعة منها يقـع منزل كتيبة ؛ .

منزل كتيبة:

تبة صغـيرة وسط صحراء حوران . كانت عـامرة فى وقت ما ، ولكنها أصبحت خرابًا ، تسكنهـا البوم ، والغربان من جراء تعديات الأعراب وهجماتهم المتوالية . بها عين ، مياهها عذبة .

أخذ الحجاج حاجتهم من الماء منهـا . وتتمتع فتيات كتيبة وماجاورها من القرى بجمـال آخـاذ ، وجـاذبيـة لا تُقـاوم ، فكلهـن من ذوات الدلال ، قـمـريـات الوجـه ، ملائكيات الطلعة ، وكأنهن حوريات من حورى الجنة . أثَّرن فى بعض الحجاج حتى صرفوا النظر عن استكمال الحج ، وكتبوا للقائدين عن رغبتهم هـذه والبقاء فـى هذه الديار .

ويسجل التاريخ أن سيدنا آدم قد قام بزراعة ديار حوران هذه ولذلك فهى منطقة خصبة ، مباركة ، كثيرة المحاصيل ؛ من حبة القمح الواحدة تخرج خمس عشرة سَنبلة أو ما يزيد . ومن كل سنبلة يخرج ما لا يقل عن مائة حبة . ويجود بها سبعة أنواع من القمح ومثلهم من الشعير . قمحها وشعيرها من النوع الجيد الممتلئ ، محصولها يكفى العالم بأسره لوفرته . ولكن يهاجمها كثير من عصاة ، وبدو الموال والتلدان القادمون من الصحراء بآلاف من بعيرهم ، وجِمالهم ، ودوابهم ، يحمِّلونها بالقمح من الأجران ، ويفرون بها . ولا يجرؤ أىٍ من السكان أن يعترض بأى شكل من الأشكال .

تحركت القافلة من كتيبة عابرة الصحراء ، وقد مررنا بالعديد من القرى التى كانت تُشاهد جوامعها ، وخاناتها . وبعد أن تابعنا المسير مسافة خمس عشرة ساعة وصلنا إلى :

قلعــة مُزَيْرِب:

شيد هذه القلعة حاتم الطائى فى زمن سيدنا أبى بكرالصديق (رضي الله عنه) . والقلعة عبارة عن مربع داخل منطقة حجرية ، محيطها حوالى ثمانمائة خطوة . ويوجد فى جدران الحصن ثمانين فتحة للرماة . يسكنها أحد السادة الباشوات = القواد ، وفى معيته ثلاثمائة جنديًا ، كما يقطن بها قاضيِ حوران ، ضواحيها ، وتوابعها حوالى مائتين وسبعين قريةً ونجعًا . كما يوجد داخل حصون القلعة جامعًا ، وحمامًا صغيرًا ، ومخازن عديدة حيث تُحفظ الأموال الأميرية وبضائع التجار بها .

نهــر الحــور:

ينبع من جبال البوصره ، ويصب فى بحيرة مِنىَ Mina . أقام قائد الحملة حسين باشا ، وبقية الحجاج خيامهم على الساحل المواجه للنهر ، ومكثنا بهذا الموقع مدة عشرة أيام حتى بداية ذى القعدة حتى تجمع الحجاج من المناطق المجاورة ، وبلغ عدد الخيام المقامة ستمائة وثلاثين خيمة . كماكانت هناك خيام أخرى تخص الحرفيين ، وما شابه ذلك . كما أقيمت هناك دكاكين كثيرة منها ثلاثمائة للخبازين والطباخين والبزازين والقزازين . وكانت مسافة معسكر الجيش يبلغ طولها ثمانية آلاف خطوة .

يفُد أعراب البادية المجاورة إلى هذا السوق كل سنة للبيع والشراء ، فيحققون أرباحًا طائلة . ومعظم مشترياتهم من الأقمشة الغالية النفيسة .

أما القبائل التى كانت توفر الجمال اللازمة للحجاج فكان من أشهرهم :

آل عمر ، آل رشيد ، آل رياح ، آل معان ، آل خرنوش ، آل طورابى ، آل شهاب ، بنى سالم ، بنى إبراهيم ، بنى ابن حنش ، آل حرفوش ، بنى زيد ، بنى صقر ، بنى عطية وعطا ، بنى زهد ، بنى وحيدات ، وكذا بعض من مشايخ نابلوس = نابلس ، وعجلون ، وصفد ، وعكا ، والرملة ، وغزه ، والقدس ،ومشايخ خليل الرحمن . والحاصل فإن مشايخ السبع والسبعين قبيلة التى تنال من الصرة السلطانية ، والإحسانات من خزينة الشام ، هم ، وأتباعهم ومعهم مابين أربعين ، أو خمسين ألفًا من الجمال والبعير مكلفون بخدمة حجاج بيت الله الحرام منذ عهد السلطان سليمان

القانوني . [1] ولكن يجب الحذر التام منهم فهم يسرقون الكحل من العين على حد تعبيرهم .

أخذ الباشا ثلاثة آلاف جملاً عدا حوالى مائتى قطاراً من الجمال والبعير ، وحوالى خمسين قطاراً من البغال ، حيث أن البغال تتحمل مشاق السفر من الشام إلى مكة المكرمة .

حكمة إلاهية :

اليوم الخامس والعشرين من شوال ، فجأة ، وفى وقت الظهيرة ، إنقلب الجو إلى شتاء قارس ؛ حيث هطلت الأمطار بشكل كثيف ، وكأن السحاب قد نثرت شعورها وبدأت فى البكاء والنحيب . وتحولت الأمطار إلى سيول أغرقت كل الخيام ، واستمر هطول المطر طوال الليل ، وكانت ليلة ليلاء فى برودتها وغزارة أمطارها ، وتساقط الثلج والبرق والبَرَد كأنه رؤوس العصافير . وقد نفق في هذه الليلة حوالي مائتين جملاً ، ولقى حوالى ثمانين بدويًا حتفهم ، ومزقت الخيول مرابطها وأعنتها من شدة الرياح ، واحتمت فى القرى المجاورة من الهلع والخوف .

وبينما الحجاجُ جميعًا قد فقد كل منهم بعضًا من خيوله ، أو بغاله . فحمداً لله وشكرًا ، ففى الصباح وجدت جيادى وبغالى كاملة لم تنقص شيئًا .

وإستمرت الأمطار فى اليوم التالي أيضًا ، بشكل مخيف ، حتى كانت الجياد ، والجمال تغوص فى المياه حتى ركبتيها . أما الحجيج فقد كوَّم كل منهم أمتعته داخل خيمته وجلس فوقها . ولله حكمته فى ذلك .. فإن الزواحف والقوارض التى تعيش تحت سطح الأرض لم تجد لنفسها مفرًا ، فظهرت على سطح الأرض ، ودخلت الخيام ، ولم تترك أى شئ يمكن أن تتغذى عليه ، حتى ملابس الحجاج ومتاعهم ،

---

(١) سليمان القانونى [٩٠٠ - - ٩٧٤ هـ = ١٤٩٥ - ١٥٦٦ م]
أعظم سلاطين بنى عثمان . ابن سليم الأول . اعتلى العرش سنة ٩٢٦ هـ لُقب بالقانونى لعدله وكثرة القوانين التى سنها ، وصلت الدولة العثمانية فى عهده أقصى اتساعها . لقبه الأوروبيون بالعظيم "MagniFique" وصلت فتوحاته إلى المجر ، سنة ٩٣٦ هـ ، وحاصر فينا غربًا . وسَّع فتوحاته فى آسيا فضم كل إيران وبغداد وآذربيجان ووصل خليج البصرة سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م . حول البحر الأبيض والأحمر إلي بحيرات عثمانية تحت قيادة خير الدين بارباروس . له عمارات فى كل العالم الإسلامى . مدة سلطنته ٤٨ سنة . «المترجم»

مزقته شر ممزق . بل وصل الأمر بها أن أكلت أسرجة الحيوانات التى كانت ترقد وذيولها . ويعلم الله أنه لو غفل الشخص بعض الوقت لربما أكلت أذنية أو أنفه أو أطرافه .

وكان أحمد آغا كتخدا القول [١] وسياوش آغا كتخدا بوابى القصر الهمايونى [٢] ومعهما بقية الحجاج الذين كانوا قد تخلفوا بعض الوقت فى الشام ، قد داهمتهم الرياح والعواصف والأمطار فى المكان المسمى الصنمين ، فلاقوا من البلاء أشده ، ومن الصعاب ما تشيب من هولها الولدان ، حتى وصلوا إلى الجيش فاستقبلهم الباشا فى سرادقه .

وقد حدثت عاصفة هوجاء ، وريح صرصرعاتية فى ذلك اليوم أيضًا فاقتلعت الخيام ، مزقتها شر ممزق ، تطايرت فى الهواء . ولماكان بعض الرجال قد تشبثوا بالحبال المربوطة فى الأوتاد ، فإن بعض الخيام بقيت معلقة فى الهواء بين عصف الرياح ، وتشبث الرجال ، والأوتاد وسيطرت الدهشة والحيرة على معظم الحجيج فوفدوا على معسكر الباشا وسرادقه للمشاورة ومناقشة الأمر .

مشايخ الحجاج وأصحاب الحاجات فى حضرة الوزير حسين باشا :

مَثَل مشايخ القبائل ، وأصحاب الحاجات بين يدى الوزير حسين باشا وقالوا « ها هو شهر ذى القعدة قد حلَّ ، ومراحلنا أصبحت معدودة ، ولو تخلفنا يومًا واحداً ، وإذا لم يصل المحمل الشريف إلى عرفات فى موعده ، لقلل ذلك من شأننا ، وحط من قدْرنا أمام عظمة السلطان ، وجموع الأهالى . وها هم حجاج الشام قد تشردوا » .

فأجابهم الوزير حسين باشا على الفور ... « ..الحكم لله وحده.. وما لم يكن

---

(١) القول مصطلح عسكرى استخدم فى الجيش العثماننى . ويطلق على قائده «آغا القول» . وعلى صغار ضباطه « چاوش القول» . وقد اطلق عليهم هذا اللقب تفريقًا لهم عن الإنكشارية وضباط البحرية وضباط الديوان الهمايونى . « المترجم »

(٢) كتخدا بوابى القصر الهمايونى : لقد كان يُطلق على آمرى البوابين والحراس الذين يقومون بالخدمة على أبواب القصر السلطانى . وهذا اللقب مذكور فى دستور الفاتح ص ١١ وكان يقوم بالخدمة فى مجلس السلطان وديوانه . ويقوم مقام الساعى فى حمل المكاتبات المتبادلة بين السلطان والصدر الأعظم . وقد عبر عنه المؤرخون الأوربيون بـ« مشير القصر» أو « ناظر القصر» وكان يُكلف بمهام رسمية على مستوى الإمبراطورية كلها . « المترجم »

الطريق آمنًا .. فلا يكون الحج فرضًا . وإنى لمكلف بإحضار المحمل ، ولست مكلفًا بإحضار الحجيج ؛ هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية ، فهناك مسألة نقود الخزانة المصرية ، فإذا وصل المحمل المصرى قبل المحمل الشامى أو تأخر وصوله فإن ذلك يُعد لطمة لسمعة آل عثمان ، ولذلك يجب أن تتكاتف الجهود ، ونلتف حول المحمل ، حتى نختصر المراحل الثلاث فى مرحلة واحدة حتى نصل إلى الكعبة المشرفة فى الوقت المناسب ، ولذلك فعلى القادر أن يتحرك أما غير القادر فلا تكليف ولا جناح عليه ...» .

صادق الجميع على ما قاله الباشا . قرأت الفاتحة . وعاد قسم من الحجاج ، وشاء القدير العليم أن يستمر سقوط المطر ، والثلج طوال هذا اليوم ، وهذه الليلة أيضًا ؛ فلجأت معظم الحيوانات إلى القرى المجاورة للإحتماء فيها . وآعادها القرويون إلى آصحابها . وقد أمر الباشا بالإبتهال إلى الله لدفع ذلك البلاء ، بقراءة سورة الإخلاص مائة ألف مرة والصلوات على النبى المصطفى مائتى آلف مرة ، والأنعام الشريفة ألف مرة . وشاء الله أن هدأت السماء ، أطلت الشمس بنورها .. وإن كانت جميع الحيوانات والأمتعة قد غرقت فى بحار الماء ولجج الوحل . وبزغت تباشير شهر ذى القعدة مع إطلالة دفئ الشمس المشرقة .

قيام العبد الحقير بزيارة قبر حضرة سيدنا أيوب فى صحبة بعض الأصدقاء:

قريـــة نــوا:

اتجهنا نحو القبلة بعد الخروج من مزيرب ، وتابعنا المسير لمدة ثلاث ساعات ، فوصلنا إلى قرية «نوا» وهى قرية بها ثلاثمائة منزلاً ، وجامعًا واحداً ، وحوضًا للمياه . ومدفون بها الشيخ سعد الذى كان من أتباع سيدنا أيوب وخدّامه . ويتردد بين أهلها أن الملك طاهر عندما حاصر عكة ، واستعصى عليه فتحها ، قام الشيخ سعد هذا بتوجيه مزراق حولها ، بادئا بإسم الله وأخذ فى إلقاء مزارقه ورماحه نحو قلعتها ، فكان الجند جميعًا يشاهدون تراشق الرماح ، والمزارق فى جدران القلعة حتى هدّمتها ، فشد ذلك من إذرهم ، وألهب حماسهم ، وتم فتح القلعة . ومكانه معروف حتى الأن . وهكذا يكون سلطان أولياء الله الصالحين ، ومن هنا قطعنا مسيرة ساعتين نحو القبلة حتى وصلنا إلى :

عاش النبى أيوب مائة وثلاثين عامًا يعتصره الألم ، ولم يتأوه مرة واحدة . وكانت زوجته هى «رحيمة» ابنة «أفرايم ابن يوسف»[1] . ومزاره فى قرية «چوَان» . ومازال قائمًا حتى يومنا الحاضر . ولو ابتلي انسان بأي مرض جلدى واغتسل فى نبع النبى أيوب الواقع فى قرية «سعدون» فإنه يعافى بعون الله وتلتئم كل جروحه .

فى الصباح الباكر ، وفد مشايخ العرب على الباشا ، وأخبروه قائلين : [يا معالى الوزير .. خذ معك ما يلزمك من الظهيرة والمؤن فقط ، وما تبقى سوف نلحق بكم به فى «معَن» أو «المدينة» . تحركوا عندما تسكن العاصفة] ، . كماجاء تركمان مرعش[1] وعينتاب[2] وقالوا .. [ياصاحب العزة والدولة .. لقد تجولنا في النواحي المحيطة بنا ، وهناك مكان أخضر تفوح منه رائحة العشب ويقع على نفس طريقنا .. فلوشئتم فانتقلوا إلى هنالك وإن شاء الله سيزداد الجو تحسنًا وجمالاً ..].

على الفور ، أصدر الباشا أوامره إلى جميع الحجاج الذين جمعوا حوالى سبعة آلاف جمل ، وتحركوا . وفى خضم الوحل ، وآلاف المشاكل ، والبلايا ، قطعنا المسافة – التى كان من الممكن قطعها في ساعة واحدة – في أربع ساعات . وقد نفق كثير من الجمال فى الوحل ، كما بقى فيه عدد آخر ؛ لم تكن جمال الشام لتتحمل هذا الوحل قط . بل إن جمال التركمان الرومية هى التى تحملته وتغلبت عليه وكذا جمال العجم ؛ ذات الطبيعة الطاووسية ، قد نجحت هى الأخرى فى نقل متاعنا .

---

(١) أفرايم بن يوسف : = أفرام بن يوسف

ولد فى نصيبين سنة ٣٠٦ وتوفي فى أدسه = اورفه سنة ٣٧٣ م رحل دين سرياني ، وكاتب – قبض عليه من قبل بطارقة مدينة نُصيبين لنشاطه الديني . سنة ٣٦٣م . ثم هاجر إلى أدسه = اورفه ، وأسس بها مدرستها . ترجمت أعماله فيما بعد إلى اللغات ؛ اليونانية ، واللاتينية ، والعربية ، والأرمنية ، والسلافية وقام بابحاث عن الكتاب المقدس، وأصبح معلمًا بالكنيسة ، ومعروفًا فيما بين السريان كزعيم دينى . خاطب المشاعر بأعماله التى الفها ، وتُعتبر أشعاره من أجمل النماذج فى الشعر العالمى . (المترجم) .

أنظر .Büy¨k Lügat Ansik. Cclt 4, s. 88 -

(٢) مرعش : من أشهر مدن الآناضول ، ولها مكانة كبيرة فى تاريخ التركمان والأكراد وبها العديد من الأثار الإسلامية التى تعود إلى عصور مختلفة . «المترجم»

(٣) عينتاب : من مدن الأناضول الشهيرة ، وقد منحها مجلس الأمة التركي الكبير لقب غازى فاصبح يُطلق عليها غازى عينتاب . وتُعتبر المدينة السابعة حاليًا من ناحية التعداد فى تركيا المعاصرة .. وهى غنية بآثارها التى تعود إلى مختلف العصور ، .«المترجم»

أعدنا الجمال مرة أخرى إلي مكان المعسكر لإحضار ماتبقى من الحجاج والأمتعة . وأنا العبد الحقير قد ترددت بين مكان المعسكر ، والمنْزَل الجديد مرتين لنقل وإحضار حاجياتنا .

مرحلة[1] قرية طورنا :

قرية عربية بها جامع ، ومائتى منزلاً ، حط كل الحجاج رحالهم على هذه المراعى الخضراء ، وأشرقت الشمس إشراقة أضاءت وجوه الجميع . وجاء جمع من المشايخ الذين كانوا قد تواروا بجمالهم ، وقدَّموا أولاً إلى عثمان ، بك بن دمير باشا أمين بيت المؤن ألف جمل من أجل المؤن السلطانية ، وإلى الباشا قائد القافلة ثلاثة آلاف جملاً ، وإلى أمين الصرة [2] محمود آغا الطوپ قاپى مائة جملاً .

وغرب قرية الطورنا هذه يوجد قبر النبى دانيال عليه السلام على رأس رابية خضراء . وصل جميع الحجاج . وذبحوا الذبائح ، وصلوا ، وحمدوا الله على النسمات الدافئة التى بدأت تهب من ناحية القبلة :

«وجدَ العالمُ حياةً جديدة .... وتوهبَ الأرواحَ لحظة بلحظه ..»

أُطلقت المدفعية على الفور ، عُيِّن خارموج باشا على رأس مفرزة المقدمة وإثنين من الـ « شام چورباجى » [3] وإثنين من الـ « پاشا آغاسى » وخمسمائة من المقاتلين الافذاذ

---

(١) المرحلة : المرحلة أو المنزل أو الإستراحة أو الموقف أو القوناق ؛ كلها مصطلحات تدل على المسافة التى كانت تقطعها قوافل الحج ، أو التجارة ، والمرحلة مسيرة يوم واحد بالجمال اى مسافة سبعة وعشرين ميلاً تقريبًا .« المترجم »

(٢) أمين الصرة = « صرة امينى » اصطلاح إدارى يُطلق على الموظف الذى تسند إليه عهدة ومهمة توصيل الصرة الهمايونية إلى الحرمين الشريفين كل سنة . وكان يُعين لهذه المهمة إحدى الشخصيات العلمية أو المدنية أوالعسكرية التي تتصف بالتدين والإستقامة . وكان يبدأ رحلته وسط احتفالات آلاى الصرة . وبعد أن يقوم بتوزيع الصرة على أربابها وأداء فريضة الحج كان يعود إلى استانبول.

ومع أن هذه المهمة تعتبر مهمة شرفية إلا ان أمين الصرة كان مضطرا فى كثير من الأحيان للصرف من ممتلكاته الخاصة مبالغ كبيرة وذلك لقلة المخصصات . ومن هنا كانت تسند هذه المهمة إلى بعض الأغنياء فى كثير من الأحيان ، وكان كثير من العثمانين فى عصور الإزدهار لا يتوانون أو يتهيبون من صرف المبالغ الضخمة فى هذا الصدد . ولكن فى آواخر القرن الثانى عشر = الثامن عشر الميلادى ، وبسبب الأوضاع المالية المتردية للدولة العثمانية ، بدأ الكثيرون يرفضون القيام بهذه المهمة متعللين بكثير من الأسباب الواهية لإعفاءهم من هذه المهمة . ولكن فى عهد السلطان سليم الثالث وخاصة فى سنة ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ / ١٧٩٣ م تم علاوة مبلغ ١٥٠ الف قرشا ذهبيًا على مخصصات هذه الوظيفة مما أعاد إليها رونقها واصبحت مطلبًا لكثير من رجالات الدولة . « معجم المصطلحات التاريخية جـ٣ ص ٢٨٣ » .« المترجم »

(٣) چورباجى = Çorbaci اصطلاح عسكرى عثمانى يُطلق على ضباط البلوك الذين يكوِّنون جنود المشاه فى =

الذين يتصفون بالشجاعة فى المؤخرة . وجميع الحجاج فى الوسط . وبعد مهرجان الطلقات النارية التى أطلقتها المدافع ، والبنادق ، عُزفت نوبة التحرك ، كما عزفت الفرقة الموسيقية الشاهانية المهتر (١) ثمان مرات ، وبعدها تقدمنا وبدأ الموكب فى المسير . وقد كان بالإمكان زيارة حاتم الطائى فى نفس المكان فإن مدينة البُصْرَه تقع بالقرب من هنا ؛ ضواحيها كثيرة القرى تقطعها القوافل فى إثنتى عشرة ساعة .

مرحلـة قلعـة مـازراق :

قلعة بناها سلطان بنى هلال (٢) ، وهى على شكل مربع ، وسط الصحراء لا يوجد بها أحد . تقع فى ناحية الكرك ، فى آراضى القدس . الكل يتناول طعامه هنا على شاطئ نهر الزرقاء دون أن يُنْزل أمتعته بالقرب منها ؛ وادى خصب ، وفير المياه . وبعد أن استراحت القافلة قليلاً ، تحرك الموكب ، قاطعًا مسافة ثلاثة عشر ساعة فى هواء جميل ، ووسط طرق جبلية ، وصخريه .

= الجيش لعثمانى . وعلى ضباط معسكر الجند الجدد ، المكون من واحد وثلاثين بلوكًا ، والذين كانوا بمثابة مخرجًا لمعسكر القاپى قولى . وهو موازٍ للبلوك باشى اى رئيس البلوك . وكانوا يُلقبون احيانًا بـ « صوباشى » ويطلق على أقدمهم فى الجماعات « باياباشى » قائد المشاه . وكانت لهم خيولهم الخاصة بهم . وكانوا يرتدون جبة طويلة الأكمام من المخمل . وقفطان رقيق وشلوار قرمزى وپاپوجٍ نعل اصفر فى اقدامهم .

أما القادة الذين يلقبون بـ « چورباجى كچه سى » فقد كانوا يرتدون فرواً مُقصَّبًا . وهم الذين يقومون بتنفيذ الجزاءات التى تُوقع على الجند ، وينظمون أمورهم ؛ أى أنهم كانوا بمثابة البوليس الحربى فى العصرالحديث . غُيِّر هذا اللقب إلى « أورطة آغاسى » بعد الغاء الإنكشارية . « المترجم »

(١) مِهْتَرْ : إصطلاح موسيقى يعنى الموسيقار الذى يقوم بغرف النوبة أمام باب احد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار . وتُجمع على مِهتران اى مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطنى أو السلطانى أو النوبات المختلفة فى الجيش . وكانوا يقومون بالعزف على الطبل ، والزمر ، ويطوفون الأحياء تبشيراً بسير المحمل إلى الحجاز . ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض .

ومنهم « مهتران علم » أي الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم ، أو السلام الوطنى فى وقت الحرب . و« مِهتران طبل وعلم » وهى الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى فى القصر السلطانى ، وفى حضرة السلطان وقائدها يسمى « مهترباشى » . أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى « مهترخانة خاقانى » أو « مهترخانة همايون » ويقول هامر جـ١ ص ٣١٣ إنها فرقة الشرف التى تعزف أمام الوزراء ، والقواد وقت الحرب ، وتُذكرهم طبولها بأوقات الصلاة أيضا عند الجهاد . ويبين أدوات المهترخانة كالتالى : ١٦ زورنا ، ١٦ طبل ، ١١ مزمار ، ٨ نقارة ٧ أجراس = « صاجات » و ٤ أوستان . وكان عددهم ٧٢ فرداً أما إذا إشترك السلطان بنفسه فى الحرب فيتضاعف هذا العدد . وقد أُلغى نظام المهترخانه مع الغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٨٢٦ م = ١٢٤١ هـ واستبدل به نظام موسيقات الباندو . « المترجم »

(٢) بنو هلال : قبيلة عربية يرجع نسبها حتى سيدنا اسماعيل ؛ ويبدأ بهلال بن عامر بن شعشعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس عيلان . كانوا يعبدون الأوتاد فى الجاهلية . وكانوا يعيشون فى نجد واليمن . ولهم آبار ومزارع نخيل كثيرة بالقرب من البصرة . وهم الذين كانوا يقيمون سوق عكاظ الشهير . وهم الذين زحفوا إلى شمال أفريقيا . . وتتحدث عنهم سيرة بنى هلال . ولهم أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة ، والثقافة ، واللغة العربية بالذات ، « المترجم »

قلعة عين الزرقاء:

شيدها نور الدين شهيد [1] ، وهى قلعة مربعة الشكل ، تقع فوق صخرة مدببة ، لم يعد بقطنها أحد . تقع ناحية الكرك ، ضمن أراضى القدس . والكل تناول طعامه على شاطئ نهر الزرقاء دون أن تحط الرحال . ومُلِئت مئات الجرار والقِرَب بالماء . وقد كانت هذه المياه سابقًا تتدفق إلى الصحراء ، وعندما وفد الرسول الأكرم ﷺ مع قافلة مكة المكرمة قاصداً البُصْرَه [2] ، فأشار ﷺ ، إلى هذه المياه ، فشاءت قدرة القادر ، أن تتجه هذه المياه الضائعة إلى أعماق القلعة ، وتحولت رُويداً رُويداً مع الزمن إلى بحيرة . ويُشاع أن كثيراً من سباع صحراء بغداد تفد إلى هذه البقاع . ولكنى لم أر أي منها . وقد مررنا من هذه المناطق على عجل .

منزل تبركه:

منزل به خان خرِب ، مطل على رابية سهلة . وبينما كان التفكير متجه إلى الإستراحة هنا فى هذا الموقع بعض الوقت دون أن حّط الرحال أيضًا ، فإذا بالمطر

---

(١) نور الدين شهيد : هو نور الدين زنكى ، ونور الدين محمود زنكى ، الملك العادل أبو القاسم بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ؛ الإبن الثانى لعماد الدين زنكى مؤسس دولة الآتابكة فى نواحى الموصل والجزيرة . ولد سنة ٥١١ هـ / توفى والده سنة ٥٤١ هـ . فتولى اخوه سيف الدين عرش الموصل ، وقام هو بتخليص حلب من بنى الأرقط ، وأسس بها مُلكًا ، وكون دولةً بعد ضم حماة ، وحلب ، وبعلبك ، ودمشق . واستطاع أن يستخلص مدنًا وبلادًا كثيرةً من الصليبيين منها مرعش ، والرقة ، ويانياس . كان نور الدين مِلكًا ، شجاعًا ، وعادلاً ، محبًا للعلم ، والعلماء ، والأدب، والأدباء ؛ صاحب خيرات كثيرة ، مما جعل – حتى – أعداءه يبهرون بعدله ، ومنجزاته . أنشأ الكثير من المدارس والجوامع والمبرات فى كل من حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبعلبك . كما أمر بإنشاء مستشفى كبير فى دمشق ، أوقف عليه ، أوقافًا كثيرةً ، وجلب إليها أشهر أطباء عصره . سار على منواله صلاح الدين الأيوبى فى مصر . توفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ . بعد أن قضى فى الحكم ثمان وعشرين سنة اتسمت بالعدل وجلائل الأعمال . انظر : « شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام جـ٦ ص ٤٦٠٧ » . وهو الذى أمر ببناء « دار العدل » ، وعيَّن فيها محلاً للملك ومحلات لقضاة المذاهب الأربعة ، والمفتى ، لتجرى فيها أحكام الشرع . انظر : تاريخ جودت ، جـ١ بيروت سنة ١٣٠٨ هـ ص ٥١ .

(٢) البُصَرَه : Busra إحدى القرى السورية تقع فى أحضان جبل الدروز من الناحية الغربية ، بها آثار يونانية قديمة ، وحمامات ، وأسبلة تعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، السادس الهجري ، كما أن بها قلعة ، وجامعًا يعودان إلى نفس القرن . . كانت مركزاً للولاية العربية فى العصر الرومانى ، وكانت تمر بها طرق القوافل . دخلها الإسلام بعد سنة ٦٣٤ ، إلا أنها خُرِّبت خلال الحروب التركية – الصليبية . (أنظر : ميدان لاروس مادة Busra) « المترجم » .

ينهمر دون أي مقدمات ، فدُهش الحجاج لذلك . وبدأوا التفكير في الكيفية التى يتمكنون بها من عبور صحراء « بلقاء » فالكثيرين منهم يعرف أن العديد من الكروانات = القوافل قد غرقت فى مياه تلك الصحراء . فمعروف أن بلقاء هذه منطقة وحلية تكثر بها المستنقعات ورمالها متحركة .

أخيراً ، تجمع الرجال فى حضرة الباشا ، وتشاوروا فى الأمر ، فأصدر الباشا أوامره متسائلاً .. « أين رجال الشام .. ؟ أين الدليل إبراهيم چلبى ؟ فلقد عبر هذه المناطق عشرات المرات ، فلتخرج مفرزة من الفرسان لإستطلاع الطريق .

فتقدم شِعار اوغلى والباشاويش والجاويش حب الزمان وبعض أصحاب الخبرة . وبعد ساعة عادوا قائلين .. « يا معالى الباشا هناك طريق رملى فى الناحية الشمالية ، ولكننا سنتأخر يومين فى هذا الطريق .. » . فغضب الباشا وزمجر قائلاً .. « إننا ونحن على هذه الحالة قد تأخرنا .. وأنتم تودون تأخيرنا يومين آخرين .. ! سأطيح برقابكم جميعًا فداءً لسمعة السلطان .. » . فقال بعض الشوام :

« .. إن صحراء بلقاء هذه تقطعها القوافل بمسيرة ثلاث ساعات ، ونتعشم إن شاء الله ألا تكون الأمطار قد أثرت فيها ، فلنتحرك فوراً .

وعلى الفور أُطلقت نوبات الإستعداد ، وتحرك الموكب ، ونزلنا فى صحراء منبسطة. ولكن استمرار هطول المطر بغزارة حال دون أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام .

مرحلة بوغاز بلقاء:

استمر هطول المطر حتى منتصف الليل ، وصارت الخيام ، والخيول ، والجمال وسط بركة من المياه . وشاء الله أن تخف الأمطار قليلاً بعد منتصف الليل . وبينما القافلة تستعد للتحرك من جديد ، فإذا بالسماء تعصف ، والثلوج تهطل ، ويخيم الظلام على المكان ، ويطمس معالمه . مما أدى إلى نُفوق بعض الحيوانات ، وإختفاء بعض الأفراد . وعلى الفور نادى المنادون بألا يتحرك أحد من مكانه ، وفى النهاية ، وما أن أصبح الصباح حتى رأينا الصحراء وقد تحولت إلي بحر متلاطم الأمواج ، فأمسك كل حاج بزمام جمله ، أو مقودة فرسه ، وأخذ يخوض وسط المياه ، سائراً على قدميه ،

شاقًا طريقه بصعوبة جامة بين الأوحال ، متجها نحو خان قديم على الجانب الأيسر من الصحراء .

خان عين الطير:

وهو من أعمال خليفة بنى هلال . سُمىَ بهذا الإسم لتشابه أحجاره مع عين الطير. ولقد كانت هذه المنطقة قديمًا مدينة كبيرة . ولقد اكتشفتا أن القافلة فقدت العديد من حيواناتها عند عبور هذه المنطقة إما غرقًا ، أو نفوقًا من شدة البرد . والصقيع وساءت حالة النسوة ، والأطفال ، بسبب ترجلهم ، وخوضهم ، وسط المياه وكأنما الحالة تذكر بيوم المحشر . ولكن الحجاج التركمان والعجم قد عبروا المستنقع بدون أدنى تردد ، وكانوا أكثر جرأة ، فى خوض غمار المياه ، وأكثر تصرفًا ، إذ كانوا يضعون بعض الأكلمة تحت أقدام الجمال التى تغوص فى الأوحال حتى يساعدونها على الخروج ومداومة السير .

منزل صحراء بلقاء:

عبارة عن منطقة رملية بها بعض الكلأ الأخضر . وكان المطر ما يزال منهمراً . ولم يكن حسين باشا يكف عن الطواف ، والدوران ممتطيًا صهوة جواده حتى يطمئن على الجميع ، ويجمع الجمال والحجاج الذين تفرقوا ، ويجمع لهم أمتعتهم ، وأموالهم ، فنال دعاء الجميع . وأمر بإعداد عشرة قدور من الحساء الساخن ، وتم توزيعها على الحجيج ، حيث كانت بوادر أزمة فى المواد الغذائية بدأت تظهر بين أعضاء القافلة ، ووصل ثمن الأوُقة من البقسماط ثلاث قطع ذهبية . وفقد الحجاج أملهم فى الوصول إلي عرفات فى الموعد المناسب . وهبت هنا أيضاً عاصفة هوجاء ، لم تُبق على شئ ، حيث اقتلعت الخيام بأوتادها ، وبعثرت المؤن ، والأحمال ، من أماكنها . فأمر الباشا أن يتوسل الحجاج ثانياً بقراءة الأنعام الشريفة ، والإخلاص . فهدأت الأمطار قبيل المساء ، ولكن اشتد البرد القارس ، لدرجة أن أحد عشر رجلاً وما يزيد عن مائتى جمل ، وفرس ، وبغل ، قد تجمدت ، كما تجمدت المياه فى القرب ، وغطى الصقيع ، والثلوج وجه الصحراء . ولما رأى الحجاج فى الصباح ؛ أنه لم يعد هناك وحل على الطريق ، فتحركت القافلة على

الفور ، واستمرت فى سيرها ، أربعة عشر ساعة ، حتى دخلنا فى ممر ضيق ومضيق مهول .

قلعــــة القطــــران:

تخضع لسيطرة صوباشى [1] قلعة الكرك من أعمال القدس . أهلها غلاظ ، عصاة حتى أنه ما أن بدت قلعة القطران للعيان حتى وجدنا أنفسنا بين أربعين ، أو خمسين فارساً بدوياً ، وقد سيروا خيولهم علينا ، ووجهوا سهامهم ، ومزارقهم نحونا . وعلى الفور قام فرساننا بالرد عليهم ، وأمطروهم بوابل من الرصاص ، فقتل إثنان منهم وفر الباقون . ودخلنا نحن القلعة ، وقد كانت على شكل مربع ، قلعة صغيرة محيطها ثلثمائة خطوة ، بداخلها سبع منازل ومخازن . بها سبعون رجلاً من رجال الحصار = جنود القلاع . ومعظمهم يجلبون مؤنهم ، وموادهم الغذائية من الكرك ، كما يحضرون الظهيرة ؛ ويبيعونها هنا ، بأسعار عالية .

تحرك العبد الفقير من هناك مع بعض من جند القلعة وحوالى مائتى من المسلحين بالبنادق ، واتجهنا نحو الغرب متخطين عقبات ، وسالكين طرقًا حجرية ، حتى وصلنا قلعة الكرك بعد مسيرة ساعتين .

قلعــــة الكرك:

تعد من أهم سناجق ولاية القدس ، وهى ملتزمية [2] ضواحيها حوالى سبعين قرية . شيدها العباسيون . وقد سُلمت القلعة إلى السلطان سليم [3] سنة ٩٢٢هـ =

---

(١) صوباشى : Subasi = أمين البلدية = ومدير الأمن ؛ اصطلاح ادارى عثمانى كان يُطلق على كبار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى . وكانت اعمالهم تشبه اعمال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى . وكان عثمان هان – مؤسس الدولة العثمانية – هو اول من أسند هذا المنصب إلي أخيه « كوندوز بك » . كما أسند اعمال الحكومة إلى إبنه أورخان بك ، وذلك بعد فتح قره حصار . [عاشق باشازادة مارنجى ص ٢٠] كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين « سليمان بك » صوباشيًا على استانبول بعد فتحها ، وفوضه فى أمر تعميرها واعمارها . [تاج التواريخ جـ١ ص ٤٤٧] . « المترجم »

(٢) الملتزمية : اصطلاح مالى عثمانى يُطلق على القرية أو القصبة التى تمنح لأجد رجالات الدولة نظير مبلغ معيّن يقدمه إلى الخزينة سنويًا أو يدفعه مقدمًا لعدة سنوات ثم يقوم بتحصيله من الأهالى . وكانت هذه الملتزمية تحال إلى من يدفع أكثر . كما يمكن ان يطلق هذا المصطلح على المبلغ المطلوب من الملتزم . « المترجم »

(٣) السلطان سليم الأول : ٨٧٥ / ٩٢٦ هـ = ١٤٧٠ / ١٥٢٦ م . =

١٥١٦ م لها حصن خماسى الشكل ، وقلعة الظاهر بيبرس [١] متينه جداً ، بداخلها مائة وخمسين منزلاً ، وجامعًا ، وخانًا ، وحمامًا . ولها سوقًا صغيرًا ، وكانت فى الماضى سجنًا يستخدمه السلاطين المصريون . وبها مزار الشيخ شجاع [٢] . وقد اشترينا . على عَجَلٍ ، بعض المأكولات والمشروبات من هنا ، وما أن لاح لنا أن الحجاج ينسحبون فوجًا فوجًا حتى جُنَّ جنوننا ، وأتينا إلى قلعة القطران فى ساعتين ، فوجدنا أن كل الحجيج قد غادروا المكان ، ولم يبق سوى المؤخرة . فرافقناها ، وقطعنا مسيرة أربع عشرة ساعة حتى وصلنا إلى :

منزل تابوت :

لم تبق أي أطلال من البناء ، وفى هذا المكان يجمع الأعراب منتجاتهم لبيعها إلى الحجيج ، وإذا ما سنحت لهم الفرصة فإنهم ينهبون ما يُتاح لهم من متاع الحجاج ويهربون بها .

حمدا لله .. إذ تحسن الجو ، وعادت البسمة والحيوية إلى وجوه الناس ، ودبت الحركة فى أوصال الدواب . وبينما كان الحجاج مشغولون بملئ جرارهم ، وقربهم من المياه ، هاجم البدو ثلاثة قطارات من البغال والجمال مُطْلقين صيحاتهم ، وولولاتهم

= لقب بـ « ياووز » الفظ . وهو تاسع سلاطين آل عثمان ، فاتح مصر والشام ابن بايزيد خان ،حفيد محمد الفاتح ووالد سليمان القانونى جمع بين السلطة والخلافة . وسَّع من حدود الدولة فى آسيا وأفريقيا . شمل خير الدين بارباروس برعايته ، تولى العرش ٩١٨ هـ حاول خلق جنسية عثمانية تشمل كل العناصر الإسلامية التى دخلت حوزة الدولة ليخلق بذلك تكتلاً إسلاميًا يصد الصفويين سنة ١٩٢٠هـ= ١٥١٤ م موقعة چالديران ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبته فى كسر شوكة الصفويين لتعاملهم مع البرتغاليين . توفى عن إحدى وخمسين سنة بعد أن قضى فى السلطة ثمان سنوات فقط وثمانية أشهر» .

(١) الظاهر بيبرس : هو الملك الظاهر سيف الدين الصالحى البندقدارى ١٢٢٣ - ١٢٧٧م = ٦٢٠ - ٦٧٦ هـ وهو السلطان الرابع للمماليك البحرية . اختلفت الروايات حول مولده .. وهو قبچاقى فى الأصل ، اختطفه تجار الرقيق هو وأخيه فى الرضاعة وأُحضر إلى سيواس ومنها إلى حلب ثم أخيرًا إلى الشام . نال أخيرًا حريته على يد ملك مصر الأيوبى الملك الصالح نجم الدين . أحبه شعب مصر لسلوكه الطيب تجاه الشعب . كوَّن امبراطورية مصرية ، أصبح لها كلمة مسموعة فى العالم الإسلامى . ما زالت أثاره على مستوى العالم العربى والإسلامى ماثلة للعيان .. وخاصة فى القاهرة وحلب والشام والحجاز .. ويعتبر من أهم الحكام الذين أعطوا أهمية قصوى للمنشآت المعمارية ؛ من جوامع ، ومدارس ، ومستشفيات ، وأسبلة ..

كان رجل دولة من الطراز الأول ؛ له بصماته فى ميادين الحرب ، وتشكيلات الجيش ، وادارة امور الدولة . جمع السلطات فى يده لكى يضمن الأمن فى البلاد ، ويحول دون فساد المماليك . «المترجم»

(٢) الشيخ شجاع : هو الشجاعى شاهين الجمالى شيخ خدم المسجد النبوى الشريف حوالى سنة ٨٩٣ هـ . «المترجم»

المعهودة ؛ فأمر الباشا خمسة من حاملي الأعلام الأشداء بتعقبهم بخيولهم ، فلحقوا بهم وتم القبض على ستة منهم .. وقال قائل منهم .. «أيها الباشا .. لا تغفل عيناك وخذ حذرك حتى الصباح ، فإن الأعراب سيهاجمونكم» . فأمر الباشا أن يستعد الركب للتحرك . وبدأ الموكب فى الحركة فى منتصف الليل ، وتم تسليح كل الجنود ، واصطفوا على اليمين وعلى الشمال ، وعُزِفت الموسيقى الهمايونية ثمان دفعات متتاليات حتى اهتزت الجبال ، وصدحت الوديان ، وكان الأعراب فعلاً قد اتخذوا من الجبال والصخور المتوفرة فى منطقة عنزة مكمنًا لهم ، وبدوا وكأنهم كالغابة المتناثرة الأشجار ، ثاروا ، وهاجوا؛ وماجوا ؛ وإذ بدوا ولكنهم لم يجرؤوا على الهجوم ؛ ففروا وتابعت القافلة سيرها فى هذه المنطقة مدة تسع عشرة ساعة .

منزل عـنزه:

عبارة عن منطقة صحراوية واسعة ، ليس بها قرى أو ما يشابهها ، وهنا وفد بعض المشايخ من أعراب عَنَزَه [1] وزهد والوحيدات طالبين الصرة . فقال لهم الباشا : «إن الصرة تقدم لكم مقابل الخدمات التى تقدمونها إلى الحجاج حسب قانون السلطان سليمان خان القانونى ، ولن أقدم هللة واحدة إلى هؤلاء الأعراب الذين اصطفوا على قمم الجبال ، واستعراضًا للقوة ، وعددهم عشرة ، أو خمس عشرة ألفًا ..

قال الشيوخ : «إننا سنرسل هدية الباشا ، حتى وإن لم نحضر بأنفسنا ..» . وأرسلوا بالفعل ثلاثة خيول كُهَيْلانية إلى الباشا الذى تقبلها ولكنه أعلن مصممًا : «إن شاء الله .. عند عودتنا بسلامة الله ورعايته سأجد رؤوس العصاة وحتى ولو كانوا فى أعماق البحر ، المهم هو أن تسيطروا على المنطقة وتقبضوا على كل من وقف ضدنا أو خرج علينا ..» .

---

(١) عنزه : من أشهر القبائل العربية ، وأقواها . كانت تعيش فى جزيرة العرب ، وبادية الشام . وكانوا يتجولون ما بين الجزيرة والموصل والزور وشمال بادية الشام هذه . كانوا فى صراع دائم مع قبائل شمر : موطنهم الأصلى ديار نجد ، كما كانوا يتواجدون فى منطقة الحجاز ، ناحية خيبر . سكنوا اليمامة قبل الإسلام . كانوا يقضون الصيف ناحية الشام وحلب ، أما فى الشتاء فكانوا يعودون إلى جوف الصحراء ؛ وكثيراً ما كانوا يصلون إلى العراق . ويعيشون – فى ذلك الوقت – على الرعي ، وتجارة القطعان .. كانوا يتلقون العطايا من الصرة السلطانية ؛ سواء فى العصر المملوكي ، أو العثمانى (أنظر : قاموس الأعلام ، شمس الدين سامى جـ٥) «المترجم» .

ثم صدحت الأبواق عاليًا وتابعت القافلة سيرها إحدى عشرة ساعة بين الرمال ، والصخور حتى وصلنا إلى :

قلعة معان = معَن

قلعة صغيرة على شكل مربع ، بدون خندق ، محيطها ثلاثمائة خطوة . كانت في الماضي تحت سيطرة انكشارية الشام [1] ، ثم تمكن الأعراب من قتل محافظها ، والإستيلاء عليها . .

---

(١) إنكشارية الشام : الإنكشارية ؛ لغويًا ينى جرى ، ويطلق عليهم الاوروبيون Janiser . اما عسكريا ؛ فهو اسم يُطلق على فرق المشاه النظاميين التى كونها الترك العثمانيون فى القرن الرابع عشر الميلادى = الثامن الهجرى ، وأصبحت اكبر قوة عسكرية عندهم ، وقد مكنتهم من الفتوح الواسعة التى قاموا بها .
ويُطلق عليهم احيانًا اسم الـ« قاپى قولى » أى عبيد الباب السلطاني ، أو الرقيق السلطانى نظرًا لإرتباطهم بالسلطان شخصيًا . وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاجقة ، والمماليك . . ولكن العثمانيون ادخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط ، خاصة في عهد السلطان مراد الاول [سنة ١٣٦٠ - ١٣٨٩ م = ٧٦٢ - ٧٩٢ هـ] وكان تدريبهم ، وتعليمهم العسكرى مركزًا على الطاعة وتحمل الجوع والعطش وكافة الصعاب . وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة ، ولذلك اثبتت الإنكشارية وجودها في كل فتوحات الدولة العثمانية سواء فى آسيا أو فى آوروبا . أو فى شمال أفريقيا .
أما لباس الرأس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الأبيض ، وتتدلى من خلفها قطعة من القماش رمزًا للبركة التى منحها إياهم مرشدهم الشيخ حاجى بكداش كما يعتقدون . وعلى لباس الرأس شارة عبارة عن ملعقة من الخشب . وكانت ألقاب الضباط مرتبطة بمختلف مرافق المطبخ كالجورباجى باشى [رئيس طهاة الحساء] وآشجى باش = [رئيس الطباخين] . وأهم الأشياء فى الكتيبة هو القدر الكبير [القازان] . وكانوا يجتمعون حوله لا لتناول الطعام فقط ، بل للتشاور ، وكان قلب القدر دلالة على العصيان والثورة .
وكانت الفرقة منهم تُسمى أوجاف» أى المعسكر أو الموقد . . وتنقسم إلى وحدات حربية تُسمى كل منها « اورطه » أى فرقة وهى ثابتة العدد ، مختلفة القوة ، تتراوح وفقًا للظروف من ١٠٠ - ٥٠٠ - ٣٠٠٠ جندى . وهذه الفرقة تُقيم فى ثكنات تُمسى (اوضه) = غرفه - عنبر . أما فى ميدان الحرب فكانت الفرق تُقيم فى سكنات عبارة عن خيام واسعة مستديرة ، وقد نُقشت عليها شاراتهم المميزة لكل منهم .
كان يرأس الفرقة قائد رتبته [يكجرى آغاسى] أى آغا الإنكشارية . وهو يتولي فوق عمله الخاص ، أمر الشرطة وحفظ النظام فى المدينة .
لقد تنوعت أسلحتهم الحربية فى الدفاع والهجوم تبعًا للزمن الذى يعيشون . ولكن كثرة مشاكلهم ، وعصيانهم ، فى فترات ضعف السلاطين ، السلطة المركزية ، ومعارضتهم لكل ما هو جديد لكل ما هو جديد أو أى تطوير فى الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة - عندما ارادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد ، مما دفع السلطان محمود الثانى بالقضاء عليهم فى ٩ من ذى الحجة ١٢٤١ هـ = ١٠ يونية سنة ١٨٢٦ م فى آت ميدانى ، وفى مذبحة شبيهة بتلك التى نفذها محمد علي الكبير ضد المماليك فى القلعة .
وكانت معسكراتهم تنتشر فى كل الولايات العثمانية ، وتُسمى باسم الولاية الموجودة فيها فهناك انكشارية الشام ، وانكشارية مصر وانكشارية اليمن . . الخ . . [المترجم]

تحيط بها أشجار النخيل ، والحدائق ، والبساتين ، بها منازل حوالى ألف وخمسمائة إعرابى ، مواطنيها أثرياء جداً ، محصولاتها ؛ من حبوبيات ، وفواكه كثيرة ، ومرغوبة . تتبع ولاية الشام إداريًا ، وإن كانت ضمن أراضى القدس الشريف . بها ثلاثة جوامع ، وحماماً واحداً . أهلها عصاة شداد .

اشتكى الأهالي في الولاية من خمسة رجال عصاة ، وحدث أن سرق واحد من الأعراب ناقة أحد الحجاج وأخفاها فى منزله بين التبن ، وتم القبض عليه وضربت رأسه .

تم استئجار ألفا جمل ، وقدَّم الأعيان الأطعمة ، والمواد الغذائية ، للباشا الذى ترك بدوره بعض أمتعته ، وحاجياته هنا كأمانات متخففًا منها . ونال الحجيج فى هذه المدينة من الراحة والعطايا والمشتريات ما أنساهم متاعب مزيرب .

وبهذه المنطقة هيكل لكلب تظنه حيّ عند النظر إليه . ويحكى آهالى المنطقة أنه هيكل الكلب الكاسر الذى هاجم النبى محمد ﷺ قبيل البعثة عندما كان متوجها إلى البُصْرَة للتجارة فنهره النبى الكريم قائلاً : « قف يا كلب مكانك كالحجر . . » وبمشيئة الله ، وقدرته تشكل الحجر على هيئة الكلب .

تحركت القافلة من هنا ، وعاودت سيرها ، ونحن معها لمدة ست عشرة ساعة ، حتى وصلنا إلى منزل العقبة :

منــزل العقبــة :

عبارة عن منحدر صعب ، تحوطه الصخور الملساء من كلتا ناحيتيه ، يترجل الجميع فى هذا الموقع ، ويُتابع كلٍ سيره ماشيًا وقد سحب دابته . مكان تحف به المخاطر ؛ وقد قام البدو بنهب الحجاج فيه عدة مرات ، مهددين حياتهم ، ولكننا تخطيناه بسلامة الله ، ورعايته ، وسرنا عشرة ساعات حتى وصلنا إلى قلعة حَوْزَيْمان :

قلعــة حوزيْمان :

عبارة عن صخرة واحدة من صنع الله سبحانه وتعالى ، تقع جنوب الصحراء ، لا يقطنها أحد من البشر . وقد أقامت أسماء بنت السلطان سليمان حوضًا للمياه فى

جنوب هذا المكان ، وإن كانت مياهة تميل إلى الملوحة بعض الشئ ، وبعد ذلك عبرنا صحراء جرداء لمدة ست عشرة ساعة حتى وصلنا إلى قلعة نبع النبى . . .

قلعـــة نبــع النــبى:

بناها معاوية سنة ٥٦ هـ ، وبالقلعة قوة قوامها مائتى نفر على رأسهم چورباجى من قوة انكشارية الشام . داخل القلعة مائتى حُجرة ، ومسجداً وحماماً . وكان الرسول الكريم ﷺ قبيل البعثة ، وعند توجهه إلى البصرة للتجارة قد حفرها بيده الكريمة ، فخرج الماء ساخناً ، وهى مياه مباركة ، مَنْ شربها وهو مصاب بالإسهال يُشفى منه فوراً بإذن الله ، وعلى حافتها ، مصلى صغير ، يتسع لخمسة أشخاص بالكاد . وكان النبى الكريم ﷺ يتعبد فيه . ومن خصائص هذا المكان ؛ أنه إذا ما نام به العليل بعض الوقت شفاه الله ، وعافاه ، وإذا ما قام الفقير بالخدمة فى هذه القلعة ؛ أنقذه الله من براثن الفاقة ، وبراثن الفقر . وحول هذه القلعة قرى عامرة ، وأرض خِصْبة معطاءة . يتوافد القرويون فى هذا الموقع على الحجاج ليبيعونهم ما يحتاجون إليه من نتاج أرضهم . نهضنا من هذا المكان ، وتابعت القافلة المسير سبع ساعات ، وسط الصحراء الجرداء حتى وصلنا إلى « شجرة الحور الجاحدة » وهى بلا ماء ، أو نبات ، ولم تتوقف القافلة بها ، لضيق الوقت ، بل تابعت سيرها لمدة إثنتا عشر ساعة أخرى ، حتى :

مرحلة قلعة النخلة العاصية:

تفع فى منتصف الطريق إلى مكة ، وعند العودة يقوم باشوات نابلس ، وعجلون ،

---

(١) السلطان محمد الرابعَ : (١٦٤٢ – ١٦٩٣م = ١٠٥٢ – ١١٠٥ هـ . بعد تنحية السلطان إبراهيم عن العرش بالقوة ، فُتح الطريق على مصراعيه أمام ولى العهد محمد لكى يكون سلطاناً . فتولى العرش فى الثامن من أغسطس سنة ١٦٤٨ م وهو مازال صغيراً ، مما أدى إلى زيادة القلاقل .. ولكن عندما اشتد عوده عُيِّن فى الصدارة مَنْ هم على علم وخبرة ودراية ، وعقد العديد من المعاهدات مع النمسا ، والصرب .. ولكنه قام بحروب على روسيا وكريت وفتح الأخيرة . وتوجه إلى لهستان للمرة الثانية سنة ١٦٧٦ م وفى سنة ١٦٨١ م عقد معاهدة صلح مع الروس ، وفى سنة ١٦٨٢ م قرر الدخول فى حرب ضد النمسا ، ولكن نتيجة للهزيمة التى مُنى بها الجيش تم اعدام الصدر الأعظم فره مصطفى باشا المرزفوّنى .. وخلال سنتى ٨٤ ، ١٦٨٥ م فقدت الإمبراطورية بعض قلاعها المهمة . وسقطت بعضها الأخر فى يد الأعداء دون حروب تذكر .

وفُقدت المجر تماماً بعد سقوط بودين فى يد العدو سنة ١٦٨٦ م . ثم موهاج ١٦٨٧ ، وآثينا سنة ١٦٨٧ ، بالرغم فى كل ذلك ، افتتح فى عهده العديد من الجوامع والمؤسسات المعمارية الكبيرة .

أُنزل عن العرش فى الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٦٨٧ م . « المترجم »

وأثرياءهما ، بإغراق الحجاج بخيراتهم مما لذ ، وطاب أكله . وقد شيدها نور الدين شهيد ولكنها تهدمت مع مرور الزمن ، ولكن بناءاً على فرمان السلطان محمد الرابع[1] قام ناشف أوغلى بتجديدها ؛ محيطها أربعمائة خطوة . وعلى بابها تأريخ مكتوب نصه : « فى أيام مولانا السلطان محمد خان ابن إبراهيم خان مُدَّ ظله قام أمين دفتر دمشق ناشف زاده محمد الفقير سنة ١٠٦٢ بتعميره . . » .

يوجد بها مدافع ، ومَدْفَعْجيَّة ، وقوة من انكشارية الشام . تحتوي على جامع ، وحمام ، وعين ماء ، كما أن هناك نبع كبير فى غرب القلعة ؛ وهو من مآثر الرسول الكريم . ومعجزاته ، فمما يُروى فى هذا الصدد أن الرسول ﷺ بينما كان يمر من هنا التجار قبل البعثة لم يعطهم أهل هذه المنطقة ما يَسد رمقهم ، أو يُذهب عطشهم . فقال ركب القافلة . . « يا محمد إن هؤلاء القوم لن يساعدوك ، ولن يعطوك تمراً . . » فما كان منه ﷺ إلا أن تفضل بالقول . . « فليكن نخلهم مثلهم عاصيًا مُجْدبًا غير مثمر . . . » ولهذا فإن نَخيل هذه المنطقة مجدب ، غير مثمر ، وجريده ، وأغصانه لا تجدى ، ولا يتأت منه أي نفع . توسل الآهلين إلى الرسول الكريم آنذاك قائلين « . . نحن أخطأنا وأنت أكرم مِنْ أن تُعاملنا بمثل أفعالنا . . فلا ماء عندنا فادعو لنا دعاء الرحمة . . . » فقام الرسول الكريم بحفر الأرض بيديه الكريمة ، فخرج منها ماءٌ عذبٌ متدفقٌ . ما زال يروى الحدائق ، والبساتين ، ويملأ الآبار ، والعيون التى بداخل القلعة . وما زال الحجيج يغتنم منها ما يكفيهم تاركين ما يزيد عن حاجتهم . .

خرجنا فى هذه الليلة المظلمة على أضواء المشاعل ، وكانت تُحيط بالقافلة قوة عسكرية ، مسلحة تحرسها . واستمرت فى السير سبع ساعات حتى وصلت إلى موقف « المقابر » .

منزل المقابر:

كانت مدينة كبيرة فى زمانها ، ولكنها الآن أطلال خَربة ، مدفون بها « آصف بَرْهِيا » وزير سيدنا سليمان ، على بعد نصف ساعة من الطريق ، ويبدو أنها من عمل العمالقة ، فقبتها عبارة عن صخرة واحدة وبرهيا هذا هو الذى أحضر بلقيس من مدينة سبأ .

وبعد أن جلسنا هنا ساعة للإستراحة تابعنا المسير ست ساعات وتخطينا مرحلة العقبة كلها بعد مسيرة إثنتا عشر ساعة .

منزل قلعة حَيْدر:

يسكن بها العرب الحَيْدَريون ، وحسب رواياتهم أن سيدنا على ﷺ هو الذى بناها ، ثم جددها حيدر باشا والى الشام .[١] وهى عبارة عن قلعة رباعية الشكل على حافة جبل أملس ، مطلة على ثلاثة وديان ، وبداخلها معسكر لإنكشارية الشام . وبها أيضًا ما بين أربعين ، أو خمسين غرفة للعرب العذَاب . كما أن بها مسجداً ، وعلى الطرف الأيمن من الباب الخارجي توجد بحيرة صغيرة ، مياها باردة كالثلج ، وبها مؤن كثيرة . وكان المولي عز وجل يفيض علينا بنعمه وإحساناته الكثيرة فى كل منزل ننزل به فى صحبة حسين باشا حيث كان يكرمنا بأطيب الأطعمة وألذها .

ليس هناك قرى فى ضواحى قَصَبَة حيدر . ويحكى المعمرون هنا أن نهر مراد أحيانًا ما كانت تفيض مياهه فتحول هذه الصحراء إلى بحر متلاطم الأمواج تصل مياهه إلى هذه القلعة . ونهر مراد هذا قريب من بغداد .

إن المجيئ إلى هذه القلعة ، والمرور بها ، أمر مسلم به ، ومتبع بين جميع الحجاج . وقد أُخبرنا أن قافلة الحج المصرى قد مرت من هنا منذ عشرة أيام . وتم تغيير جند الحراسة ، وقوات الأمن . وخرجنا من هنا ، وقطعنا مسافة ثمانية عشر ساعة فى الصحراء .

قلعة شرين المعظمة:

من أعمال الملك المعظم طوران شاه الأيوبى [٢] وطوران شاه هو ابن نجم الدين

---

(١) حيدر باشا : من وزراء عهد السلطان سليم الثالث ، هو مؤسس معسكر = قشلاق حيدر القريب من السليمية . هناك فى إستانبول محطة كبيرة لقطار الشرق السريع تحمل إسمه ، وهى فى الجانب الأسيوي . وقد زادت شهرته لهذا السبب . «المترجم» .

(٢) طوران شاه الأيوبى : تورانشاه هوالملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين أيوب ، شقيق القائد المشهور صلاح الدين ، انتقل من الشام إلى مصر مع عائلته سنة ٥٦٤ هـ =١١٦٨م أظهر حماسًا كبيرًا فى الحروب التى خاضها مع السودانيين ، فاقطعه آخوه قوص واسوان تمكن من السيطرة على النوبة سنة ٥٦٨ = ١١٧٢م ثم كُلِّف بفتح =

صالح الذى كان ملكًا على مصر ، واستشهد أثناء حروبه مع الإفرنج . وقد اتفق المصريون على تنصيب زوجته شجرة الدر مكانه . وأصبحت ملكة على مصر ، ثم استدعت إبنها طوران شاه وأصبح سلطانًا مستقلاً سنة ٩٣٨ هـ= ١٥٣١م .

قام السلطان مراد (١) بإعادة بناءها سنة ٩٨١ هـ= ١٥٧٣م . وقد تمكن البدو من الدخول إلي القلعة سنة ١٠٣٥هـ= ١٦٢٥م بعد استشهاد كل حراسها ، وحملوا كل ما كان بها . وبقيت على حالتها تلك منذ ذلك التاريخ . مُحيطها أربعمائة خطوة . كان يجب وضع جند فى هذه القلعة لتأمين سبل الحياة فى هذه المنطقة ، لأن الذين سيأتون إلى هذه المنطقة ما لم يجدوا ماءاً بها فإنهم لن يجدوا له أثر فى « شق العجوز » على الرغم من أن هناك بحيرة قوامها حوالى مائتى متراً وعرضها عشرة باعات بجوار هذه القلعة وقد قام الملعون المسمى ابن رشيد (٢) بغلقها فى السنة الماضية ، وأطلق النيران على الحجاج ، ولم يحظ الآلاف منهم هم ، وبهائمهم أي قطرة من الماء، لدرجة أن العديد من الحجاج قد تقددت أجسادهم من شدة العطش وقيلولة الشمس . وكانوا يرقدون – كما يحكى البعض – وكأنهم من الطين الصلصال الجاف .

لذا ، فإن المحافظة علي هذه القلعة ، وتعميرها ، يُعد من الفروض الواجبة .

= اليمن بعد هذا التاريخ بسنة ، تمكن من فتحها سنة ٥٧١ هـ= ١١٧٥م وشكل بها حكومة ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧٢ هـ ومنها عيّن من قبل اخيه والياً على الشام ، ثم أرسله صلاح الدين إلي مصر خلال حروبه سنة ٥٧٤ هـ= ١١٧٨م ثم أصبح والياً على الاسكندرية ، ومات بها سنة ٥٧٦ هـ= ١١٨٠م كان جواداً ، سخيًا ، ترك بعد وفاته تركة عبارة عن مائتى ألف دينار . «المترجم»

(١) السلطان مراد : المقصود هو السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ووالدته هى ماهبيكر سلطان .. ولد فى ٢٧ / ٧ / ١٦١٢ م .. تربى فى دائرة والده سلطان فى سراى طوب قابى .. ظهر فى اشد فترات الدولة العثمانية اضطرابًا .. تولى السلطنة وهو فى سن صغير مما أعطى الفرصة لأمه ، ولقادة الانكشارية للتدخل فى أمور الحكم .. ولكنه نجح فى القضاء على الكثير من ثورات الجند .. وحقق بعض الانتصارات للدولة . وفتح بغداد سنة ١٦٣٩ م وكان قد حاصرها من قبل فى سنة ١٦٣٠ م . عقد مع ملوك البلقان بعض معاهدات الصلح .. كان محبًا للأدباء وإن اعدم الشاعر نفعى سنة ١٦٣٧ م .
تولى السلطنة فى العاشر من سبتمبر سنة ١٦٢٣ ، وتوفى فى ليلة ٩ /٨ فبراير سنة ١٦٤١ م .
أكثر من عزل وتعيين الصدر الاعظم مما لم تتوفر به الفرصة لزيادة الاعمار فى الإمبراطورية .. أهتم بالحرمين الشريفين ، وتأمين القوافل خلال مدة حكمة ، [المترجم]

(٢) لم يكن بن رشيد موجوداً فى ذلك التاريخ ، ولعله يقصد إسمًا آخر غير بن رشيد ، حيث أن بن رشيد لم يظهر على الساحة السياسية فى هذه المنطقة إلا فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . (المترجم)

بقينا هنا ساعة ، وبعدها غُصنا ثانيًا فى بحر الرمال اللانهائى وسرنا به ثمانية عشر ساعة مستمتعين تارة بهديل القُمْرِى ، وتارة أخرى بمطاردة النعام ، أو صيد الغزلان ، والآرانب البرية .

منزل شق العجـــوز:

أُطلق عليه هذا الاسم لإن على بن أبى طالب ﷺ كان قد شق عجوزاً شمطاء إلى شقين بسبب سوء خُلقها ، ومازال جسدها كالحجارة السوداء فى غرب الطريق . ويطلق الآهالى على هذا المكان «المنطقة التى لا يمر بها الخازوق» . وقد أمرت ، والدة السلطان بحفر عدة آبار فى هذه المنطقة هذه السنة . لم نمكث هنا طويلاً . وبينما كنا نسير مستمتعين بهديل القُمرى ، فإذا بصوت جاويش الكتيبة يقطع هذا السكوت معلنًا : «سنصل اليوم عند الظهر إلى الممر الضيق المسمى «قضاء سيدنا صالح» فأستعدوا ، وكونوا على يقظة تامه لإن ابن رشيد قام بقتل الحجاج فى هذا الموقع فى العام الماضى . والواقع انه منقاد لطاعة حسين باشا هذا العام ، ولكن ربما تشعر قبيلة أخرى برغبة فى النهب أو يستشعرون لذة من ذلك . فلا تغفلوا . . .» . وقد حرص الباشا على أن يجعل الجند يسيرون فى نظام وانتظام بأسلحتهم وهم فى وضع الإستعداد الدائم . وبعد قليل عاد المبشرون من المقدمة معلنين:

«كان الآعرابُ ينتظرون وصولنا بعد يومين . ولقد قضينا علي بعض العصابات وعدنا ببعض الرؤوس والألسنة . .» .

عتيـــق الرمـــال:

ماأن تصل القافلة إلى مضيق النَقَب حتى تواجه بعتيق الرمال ، وهو بحر من الرمال والنيران ، وعنده تتسمر الجمال واقفة وهى تبعبع . ويُسمى الجبل المحيط بهذا المضيق «جبل الناقة» وسبب هذه التسمية أن سيدنا صالح قد أرسل إلي قومه فى هذه البقاع ، ولم يؤمن بع بعض من قومه ، وأنكروا عليه دعوته ، وأصروا على عقر ناقته ، فأخذوا يرصدونها ، وخرجوا يرقبونها ، فلما صُدَّت عن وردها ، ورجعت عن مائها ، فرموها بسهم انتظم عظم ساقها ، وابتدرها آخر منهم بالسيف ، فكشف عن عرقوبها ، فخرت على الأرض ، فطعنها فى لبتها فنحرها . . . فرعدت السماء رعدة

مدهشة ، وإلى الآن يُسمع الصوت من هذه الصخرة . وصخور المنطقة كلها ملساء . ومازال الشق الذى أحدثه جبريل عليه السلام بجناحيه واضح للعيان حتى اليوم . إن بعض النوق تسمع صوت ناقة صالح عليه السلام أثناء المرور من هذه المنطقة الصخرية، وتلك النوق التى تسمع الصوت تتجمد فى مكانها ولا تستطيع الحركة ، ولذلك ، فإن القوافل عند مرورها من هذه المنطقة تُطلق المدافع والبنادق ويكبر المارة مرددين بصوت عال « الله ... الله ... الله اكبر .. » حتى لا تسمع النوق صوت الأنين الصادر عن ناقة صالح عليه السلام . ومع أن قافلتنا قد فعلت نفس الشئ ؛ فأطلقت المدافع والبنادق .. وكبرنا جميعًا ، إلا أن سبعون ناقة قد توقفت فى مكانها ، ولم تستطع الحركة ، فقام أصحابها بذبحها فداءًا فى سبيل الله .. وتَرضية للباشا ؛ وهم يقولون .. « .. لقد سمعت الإبل صوت الناقة الصغيرة بين الصخور .. ولن تُرجى منها فائدة بعد الآن .. » .

قام عصاة البدو وأشقياءهم ، بالتفرق والتشتت فى أماكن بعيدة ، بعد أن سمعوا جَلَبة القافلة ، وطنطنة قوات حسين باشا .

ويُمثل شمال مضيق الناقة هذا حدود الشام ؛ حيث أن من يمتلك أمور مصر ، أو يحكمها ، تكون مكة المكرمة ، والمدينة المنورة تحت حكمه ، وإدارته . ويأتى القمح ، والمؤن إلى المدينتين المقدستين من مصر عن طريق السويس ، ولولا مصر لمات أهل الحجاز ، والطائف جوعًا .

وقد حدث أن وقعت مصر فى أيدى الروم سنة ٢٦ م فاستولى الزنوج على مكة والمدينة ، فما كان من « دار شاه » سلطان بغداد آنذاك إلا أن أعمل سيفه فى رقابهم ، وفتح الحجاز ، وكان يرسل المؤن إلى مكة ، والمدينة سنويًا . ولم تدخل مكة المكرمة، أو المدينة المنورة – منذ العصر الجاهلى – تحت نفوذ الكفرة ، ولن تدخل قط ، إن شاء الله .. وإن كانت المدينتين المقدستين قد خضعتا فى بعض العصور لسيطرة بعض المذاهب الغير سنية .

والحجيج الذين تطأ أقدامهم حدود صخرة الناقة ، يترجلون ويدعون الله قائلين « اللهم ثبت قدمى على طريق عرفات » وتستغرق الرحلة فى هذه المنطقة ساعة واحدة ، حتى تدخل القوافل وادى سمود .

قوم سمود ؛ أي آبار صالح :

هي حدود الكعبة ، بها آبار كثيرة واسعة ، متدفقة المياه ، كانت من مدن سيدنا صالح . وبها الكثير من المراعي المُعْشِبة الخضراء ، يتوقف بها الحجيج فترة للإستراحة ، والإستزادة من حدائقها ، وبساتينها ، وفواكهها ؛ وأحد هذه الأطلال يُطلق عليها مدينة الوادى العتيق .

الــوادى العتيــق :

أطلال مدينة تُحيط بها حدائق النخيل من كل جانب ، يأتيها العرب فى موسم التمور ، لجمعه ، والتمتع بطلاوته ، وبالقرب منها مدينة أخرى تُسمى وادى صفره .

وادى صفــره :

أطلال مدينة قديمة تُسمى « وادى صفره » ، وهى عباره عن أطلال ، وبقايا ، وخرابات ، وسط الحدائق ، والرياض ، والبساتين . يسعد بها العرب ويستلذون فواكهها .

وادى القُــرا :

شيده قوم سمود ، مَنَازِلة عبارة عن مغارات ، شُقّت فى صخور الجبال ، تحيط به مجموعة من الصخور التي يمكن للإنسان أن يستخلص منها العبر ، ولم أر مثل هذه الصخور فى أي بقعة أخرى من ديار العالم ؛ فبعضها كالسرو ، وبعضها كالأفاعى ، أو التنين . والبعض الآخر كالأسود المتنوعة ، أو كالسفن المبحرة ، أَسفلها مجوف ، ومُقسَّم إلى غرف ، وحجرات ، وبعضها ؛ كخراطيم الأفيال المشرئبة ، وقد تشابكت بعضها بالبعض الآخر . لأرضية مفروشة بالرمل الناعم ، وبين خضم هذا البحر الرملى ، تُرى القواقع ، والأصداف ، المتنوعة ، لشتى مخلوقات البحر ، مما يجعل المتأمل لها يقتنع تمام الإقتناع بأن هذا المكان كان فى الزمن الغابر بحراً متلاطم الأمواج ، يعج بكثير من المخلوقات وقد قرأت – أنا العبد الحقير – فى التاريخ اليوناني القديم ، أن صحراء مكة المكرمة ، والمدينة المنورة كانت كلها بحراً متلاطماً قبل أن يفتح الإسكندر

ذى القرنين [1] مضيق سبته . ومن الممكن أن يقبل العقل ذلك ، وهكذا .. فإنه عندما كانت صحارى الكعبة بحراً ، جفت مياهه مع مرور الزمن ولم يبق سوى بحرالسويس [والله على كل شئ قدير] . وتحركت القافلة من هذه المنطقة ، بعد العصر ، إلى مدينة سيدنا صالح .

مدينــة ســيدنا صالــح:

كان سيدنا هود ، وصالح ، وسمود ، وقفّاح قد عاشوا فى هذه الديار ، وبعثهم الله إلى قوم سمود . وقد قُمت مع سبعين أو ثمانين رجلاً بزيارة هذه المدينة ، ومشاهدة بقاياها ، وأطلالها ، وقد أدى ذلك إلى تخلفنا قليلاً إلى مؤخرة القافلة .

وجبالها عبارة عن مغارات ، يربط بينها أنفاق ، وممرات ، يعجز اللسان عن وصفها ، وتثبت للمشاهد أنهم – فى ذلك الزمان – كانوا قد سيطروا على الحجارة سيطرة كاملة ، وأنهم كانوا يشكلونها ، ويقطعونها ، وكأنهم يقطعون جُبّنًا هشًا . فقد شقوا فى الصخور النوافذ ، والأبواب ، وزينوها بالحفائر ، والنقوش البارزة ، والغائرة ، وشقوا الطرق بينها ، وشيدوا القصور ، وأقاموا الإيوانات ، والدواوين ، وحفروا تحت سطح الأرض قاعات تتسع الواحدة منها إلى ألفٍ أو ألفا شخص . وفوق أبواب هذه المدينة تُبتت كتابات عبرية ، وسريانية ، مكونة من سطر ، أو سطرين ، وهى عبارة عن تواريخ ، وإن كان الناظر إليها ، يظنها نقوش ، فنيه ، بديعة . وقد قُمت – أنا العبد الحقير – بنقشها ، ورسمها ، لتكون مطابقة للأصل قدر الإمكان . وإن شاء الله سأقوم بتصحيحها ، عند إعادة كتابة هذه المسودات . كما نُقشت بعض الصور المخيفة على بعض الأبواب كرأس طائر كاسر ، أو تنين ، أو حيوان مفترس وقد دخلت إلى أعماق هذه المغارات ، وكان بها العديد من الهياكل البشرية ، رؤوسها فى حجم يقطين أطنه = آضنه ، أزرعتها طويلة ؛ تبلغ

---

(١) اسكندر ذو القرنين = ذو القرنين :

من أكبر فاتحى العالم ، مقدوني الأصل . كان يرتدى تاجًا له شارتان كالقرنين فلقبه الناس بهذا اللقب .

مر اسمه فى القرآن الكريم كفاتح من أكبر الفاتحين ، وقد قام بصراع طويل ضد قومي يأجوج ومأجوج عند حدود الصين، وتقول الأساطير كان يبحث عن ماء الخلود . اختلف المفسرون حول نبوته وإن اتفقوا حول ولاية مَنْ ذكر فى القرآن الكريم . وتختلف الأراء حوله . (المترجم)

سبعة أو ثمانية أذرع ، بعضها تآكل ، ولم يبق منها سوى عظمتين ، نحيفتين أو ثلاث .

ولما كانوا قد كفروا بسيدنا صالح ، ولم يُؤمنوا به ، ولم تَلِنْ قلوبهم ، إلى الإيمان ، جاءهم النذير من ربهم ، على شاكلة صوت مهلك ، فَمَنْ لم يؤمن صُعِق . وجاءهم جبريل بأمر من ربه ، وحملهم على جناحيه ، وأعادهم إلى الأرض ، فارتطموا بها ، رطمة قاضية ، أودت بهم ، وقضت على قصورهم ، وبيوتهم ، إلا قلة ، بقيت سليمة ، ولم يصبها الدمار ، وتلك هى منازل مَنْ آمنوا بالنبى صالح ، ومقبرة النبى سمود ، كانت مقامة فوق قصرٍ فى مغارة ، داخل صخرة طويلة .

زيارة النبى سمود :

هو الأخ الأصغر لسيدنا صالح ، نزلت فى حقه الآية الكريمة : ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾ (*) طول مقبرته سبعون خطوة ، وقد أقام النحل فيها خلاياه ، وإذا ما حاول البدو أن يفتحوا فيها فتحة ليأخذوا منها العسل ، فيصيبهم الدمار ، والهلاك . وعلى بُعد ألف خطوة فقط كانت تقع قلعة دُبّل ، وجذّل .

قلعة دُبّل ، وجذّل :

كل منهما حصن ، قد قُد فى الصخر فوق قمة الجبل ، لم نستطع التفرج عليه أو مشاهدته عن قرب ، بسبب ضيق المكان ، وفى الغالب لم يكن به أحد . ولكن كانت هناك تحت سفح الجبل ، والحصن مباشرة ، حديقة نخل يسمونها « قرية جَذَل . وقد عبرناها ، واستمرت مسيرتنا خمس ساعات ، حتى وصلنا إلى قلعة العُلا :

مرحلة قلعة العُلا :

شيد القلعة سيدنا هود ، وأعاد بناءها معز الدين الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨م (١) ، والقلعة ثلاثية الأضلاع ، خفرها من العرب ، لا علوفة عندهم ، ويوجد

(*) سورة الأعراف آية ٧٣ .

(١) معز الدين الله الفاطمى : هو معز لدين الله ؛ أبو تميم معد بن منصور بن القائم بن المهدى ، هو الرابع بين =

داخل القلعة عشرة منازل ، وخارجها ما يقرب من سبعمائة منزل سليم ، سقوفها مغطاة بالطين ، آهاليها من أتباع المذهب المالكى ، المياه متوفرة فى كل منزل من منازلها ، تُمورها لا مثيل لها فى ديار أخرى . والنهر الذى يمر وسط المدينة يروى الحدائق ، والبساتين ، التى تنتج الليمون ، والنارنج فى حجم رأس الإنسان . محصولها من القمح وفير ، ينضج فى شهرين ، نساءها جميلات المظهر والمخبر ، أهلها شداد ، عصاه ، غلاظ . يقدحون الحجاج المسلمين بـ « القرمانى ، أو أولاد النصارى » .

نادى المنادون بأن القافلة ستستريح هنا يومًا واحداً . . وصدر أمر إلى الآهالى مفاده « على كل من الآهالى أن يخرج ما فى بيته من بضائع إلى السوق ، وإلا ستُقطع رأسه » . فأخرج الأهلون ما لديهم ، وتكدست البضائع فى السوق ؛ من خبز ، وبقسماط ، ومأكولات مختلفة . فاشترى الحجاج حاجتهم . وأحضر ألف جمل ، استبدلت بعضها بجمال الحجاج النحيفة المنهكة ، وأستأجر البعض الآخر . وقدّم الآهالى إلى الباشا الأشياء المعهودة حسب القانون .

أقام الباشا الحراس ، فى كل مكان ، هذه الليلة ، وجعل المنادين ينادون فى الحجاج ، بضرورة أن يتخذوا الحذر ، والحيطة ، ولكن الحجاج المساكين – الذين لم يذق أى منهم طعم الراحة ، أوالنوم منذ مدة – قد استغرقوا فى النوم فور خلودهم إلى الراحة . وما أن انتصف الليل حتى نجح بعض لصوص الآعراب فى الإندساس بين الجيش وفى أيديهم الحبال ، والأربطة ولكن قوات السكبان (١) والصاريجة (٢) الذين

= ملوك الفاطميين ، اتخذ من القاهرة عاصمة لمصر بعد فتحها ، ولد فى المهدية سنة ٣١٨ هـ ، عيَن وليًا للعهد فى زمن والده ، وتولى العرش عقب وفاة والده سنة ٣٤١ هـ .

بعد أن أقر الأمن والهدوء فى بلاد المورسكين ، وشمال افريقيا بعث بجيشه تحت قيادة جوهر الصقلى إلى المغرب ، ففتحها وأدخل كل بلدان البحر الأبيض تحت سيطرته ، ووصل بالبحر إلى المحيط ، وفى سنة ٣٥٨ هـ بعث بجيش أكثر كثافة تحت قيادة جوهر الصقلى أيضًا إلى مصر . وصادف ذلك وفاة كافور الإخشيدى ، وعم مصر القحط ، والوباء مما سهل دخول جوهر إلى مصر ، وخضعت له بالتبعية الشام والحجاز التى كانتا خاضعة لمصر . أسس مدينة القاهرة ، وأغرى جوهر المعز بالمجئ إلى القاهرة ، وأخيراً وصل المعز مصر سنة ٣٦٤ هـ ونقل رفاة أجداده وأباءه إليها ، وأتخذها عاصمة لملكه ، استمر فى الحكم ٢٤ سنة ؛ ٢١ فى المغرب وثلاث فى مصر توفى سنة ٣٦٢ هـ ، كان عالمًا ، وشاعراً ، وحكيمًا، وعاقلاً ومدبراً لكافة الأمور . « المترجم »

(١) السكبان : « Sekban » : فرقة من فرق قوات الانكشارية ، تكونوا فى عهد محمد الفاتح ، وكانوا مكلفين برعاية ، وتربية ، وتدريب كلاب الصيد .. ثم انخرطوا فى صفوف الانكشارية ، واصبحوا من عمدة المشاة فى الجيش =

كانوا كامنين فى مخابئهم ، استطاعوا القبض عليهم ، واقتادوهم إلى الباشا فوراً ، فأمر بجز نواصيهم ، دون رحمة ، وهَوادة . مكثت القافلة يومًا آخر للراحة ، ثم تحركت فى الصباح الباكر . وعندما وصلنا إلي المضيق ، انهالت علينا رصاصات آعراب « عُلا » "Ula" ، ولكنا حمداً لله لم يصب أحد بسوء ، ورد الجند بالهجوم فأصابتهم الدهشة ، ولم يدروا كيف يتصرفون حيال هذا الهجوم المضاد ، المفاجئ . وكانت النتيجة أن قُتل حوالى أربعين بدويًا فى هذه المحاولة .

دقت طبول الموسيقات العسكرية ، وصدحت معها الجبال ، وتردد الصدا فى جميع الأنحاء .. أكلنا اللوز النبوى الذى تشتهر به هذه المنطقة . ثم قطعنا ست عشرة ساعة أخرى ...

منزل بئر زمرد :

مرحلة وسط الصحراء ، ليس بها ماء وفير . نَشب عِراك حول الماء ، مما أدى إلي مقتل أحد الأبطال . وما أن عبرنا هذا المكان حتى نادى المنادون « ... يا أمة محمد ... إننا سنمر الليلة من بين يهود خيبر ، إنهم يشربون دماء محمد ﷺ نفسه لو كان حيًّا ، فمن كانت حياته ، وماله غاليًا عليه ، فليكن حذراً .. » .

وما أن خُيِّم ظلام الليل حتى أشعلت مئات الألوف من المشاعل والفوانيس والمصابيح . وتم القبض على ثلاثة يهود ، وقُطعت رقابهم كانت الطرق فى هذه المنطقة مليئة بالأشواك ، محاطة بأشجار السنط ، المليئة بالشوك ، ومن الطريف أن عمائم وقلانس الكثيرين قد بقيت معلقة بهذا الشوك . كما جُرِح الآلاف منه . وأدميت أطراف البعض . تعلق قلباق [1] أو أحد من البوشناق [2] فى هذا الشوك قد

= العثمانى . وكانت اورطتهم موزعة على ٣٥ بلوكًا .. وعلى رأس كل بلوك ضابط ، ويطلق على رئيسهم فى التاريخ العثمانى . « سكبان باشى » أي رئيس السبان . « المترجم »

(٢) الصاريجية = صاريجه Sarica مصطلح عسكرى يُطلق على عصاة الجند فى منطقة الأناضول خلال فترة حكم الدولة العثمانية . وقد نُسبوا إلى صاريجه باشا الذى تعرض لغضب السلطان محمد الفاتح لما ارتكبه من عصيان وثورة . وقد مرت هذه الحادثة فى التاريخ العثمانى تحت مسمى « عصيان صاريجه باشا » وأصبح هذا المصطلح يطلق على الجنود الذين يظهرون العصيان .. فيتم ابعادهم عن العاصمة . « المترجم »

(١) قلپاق : غطاء رأس يُصنع من الجلد ، أو الوبر ، أو الجوخ ، ويرتديه التتار ، والبلغار ، والچركس ، ومنه أنواع عديدة . يرتديه الخيَّالة .. ومنه أنواع تُصنع من السمور ، والفراء وقد ارتدت طائفة من التركمان نوعًا منه لونه أسود ، فاطلق =

عليهم هذا الإسم . « المترجم »

اخذته سنة من النوم فظن أن اليهود هم الذين اخذوه فإستل سيفه ، وهاج ، ولم يهدأ إلا بعد أن جرح ثلاثة من رفاقه . سارت القافلة في هذه المرحلة سبع عشرة ساعة .

منزل البئر الجديد :

والدة السلطان محمد الرابع [1] هى التى أمرت بإنشاءه سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠م عمقه حوالى أربعون زراعًا ، واتساعه حوالى مائة خطوة . ما أن وصلناه حتى وجدنا البدو قد ملئوه بشوك الجمل ، ولكن القائد حسين باشا ، وتحت إمرته آلاف الجند ، استطاعوا أن يُنظفوه فى غضون ساعة وبدت للعيان مياهه الرائقة كالبلور .

انتشرت حوله نباتات السيناميك ، وهى من النباتات المسهله . ويطلقون على هذا الوادى « شعيب النعام » وهو مكان كثير الكلأ ، وحسب الكتب الدينية كان موسى عليه السلام يرعى أغنام سيدنا شعيب فى هذا الوادى .

زيارة سيدنا هود :

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى هودًا على قوم عاد ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، فأرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية ، ظلت ترطم بعضهم بالبعض حتى أهلكوا عن آخرهم . ونزلت فى حقهم الآية الكريمة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (*) .

بيت :

لقد هبت تلك الرياح ، العاتية ، مرة واحدة على الدنيا ، فاقتلعت قوم عاد ، وقطَّعت أوصالهم ، ثم هدأت . [2]

= (٢) البوشناق : Bosnak هم من آهالى البوسنة ، أو مَنْ ينحدرون من نسبهم ، يتسمون بالجمال ، وهم من المسلمين .. ومنهم مَنْ هم مسيحيون يعيشون فى بلاد الصرب والكروات . «المترجم»

(١) والدة السلطان محمد الرابع : هى والدة السلطان محمد الرابع ، وكانت تُسمى طورخان خديجة سلطان .. اصبح لها نفوذ كبير عندما تولى ابنها السلطنة وهو فى سن صغير . وكانت من المحبات للخير .. وانشاء الكثير من العمارة الإسلامية فى شتى بقاع الإمبراطورية . «المترجم»

(*) سورة الحاقة الآيتان ٦ - ٧ .

(٢) دنياه اول بل بركز اسوب دورور ... عاد قومينك كوكسدة كسوب دورور

قدم هود عليه السلام إلى هذه الديار ، وتوطنها ، ثم توفى بها عن عمر جاوز المائة وخمسين سنة . وقد أمضى حياته بالتجارة .

وقبيل تحرك القافلة ، من هذا الموقع ، وصل رهط من الفرسان العرب ، يتراوح عددهم ما بين أربعين ، أو خمسين فارسًا ، وطلبوا حصتهم من الصرة ؛ وقالوا أنها ستة آلاف وستمائة قرش ، فأخبرهم الباشا «إن القانون لا يسمح لي بدفع أكثر من ثلاثمائة قرش فقط » فقال قائد الفرسان . . «إن تدفعوا . فهذا حسن . . وإن لم تدفعوا فسترون ماذا تشربون من هنا حتى المدينة . . علاوة على ما بالطرق من عوائق» وما أن سمع الباشا هذا الكلام ، حتى أصدر أوامره ، بالقبض عليهم ، بعد أن واجههم بالعبارات التالية . «أيها الكفرة الجاحدين . . . لقد اغلقتم الآبار ، وهل تظنون أن ما فعلتموه يخفى علينا . .» وتم القبض عليهم ، وإقتيدوا وسط لعنات الحجاج ، ولطمات الجند ، ورُبطوا بالجمال وهم حفاة الأقدام ، فوق الرمال المحرقة ، وتحت أشعة الشمس القائظة واستمروا على تلك الحالة عدة أيام ، كان من نتيجتها ؛ وفاة إثنين منهم . تابعت القافلة مسيرتها سبعون ساعة حتى وصلت إلى :

مرحلة نبع الهدية :

هذه المنطقة عبارة عن وادى أخضر ، تتراكم فيه مياه الأمطار ، فيستفيد بها الآهالى ، فى القضاء على الجفاف . مياهه تميل إلى الملوحة بعض الشئ ، لدرجة أن مَنْ يكثر من شربها يُصاب بالإسهال . وقد اتضح أن أعشاب هذا الوادى كلها من السيناميك المسهل .

وكانت دهشتنا كبيرة حينما أحضر باشجاويش الشام [1] أحمد آغا ، وكتخدا قاپى قولى [2] أحمد آغا سمكًا ، إلى الباشا ، فسألهما فى حيرة ، «ليس هنا نهير ، أو بحيرة فمن أين أحضرتم هذا السمك ؟ فقالا : « . . يُقال أن الله سبحانه وتعالى جلت

---

(١) باشجاويش الشام أحمد آغا :
من أشهر جاوشية قوات الإنكشارية فى الشام ، وكلّف بالعمل مع قائد قافلة الحج سنة ١٠٨١هـ «المترجم» .

(٢) كتخدا قاپى ، أحمد آغا :
من قوات الحرس فى السراي السلطانى ، ومن المكلفين بإحضار قافلة الحج إلى الديار الحجازية . وكان مع قافلة سنة ١٠٨١هـ .

قدرته كان قد أنزله من السماء ، وكلما أُكل وأُلقى بعظامه فى الرمال ، فإنه بعود إلى الحياة من جديد . . » . وقد أكلت أنا – العبد الحقير – من هذا السمك ، وكان لذيذاً ، ومقويًا ، بدرجة ملحوظة . وكانت الاسماك ، تسبح فى الرمال ، كما لو كانت تسبح فى البحر . ويطلق الآهالى عليها « هدية المائدة » . (*)

لم تتوقف القافلة هنا ، بل استمرت فى سيرها ثلاث عشرة ساعة حتى وصلنا إلى قلعة الفحلتين :

مرحلة قلعة الفحلتين :

يُسميها الآهالى وسكان المنطقة أيضًا « صخرة السلام » ويقولون أن الرسول الكريم « ﷺ » عندما كان يمر من هذا المكان ألقى السلام قائلا « السلام عليكم يا جبل منوَّر » فجاءه صوت من الجبل مجيبًا « وعليكم السلام يارسول الله » .

وتُسمى هذه المنطقة أيضًا ، ولاية بلاد خيبر ، والقلعة مقامة فوق صخرة مدببة ، ويُقال أن أول من أقامها عنترة . ولم يكن بها أحد ، ولم نشأ أن نصعدها ، أو نتفحصها . فى شرق هذه المنطقة ؛ توجد جبال بها عيون مائية عذبة من القاع . وقد قام الجميع بملئ قربهم منها .

فى هذه الليلة شن اليهود هجومًا على القافلة كان من نتيجته استشهاد أحد الأكراد ، وقطع ثلاثة رؤوس منهم .

ديار خيبر هذه منطقة ذات رياض ، وورودها فوَّاحة ، تُعبق الجو بأريجها من مسافة بعيدة . أهلها شجعان ، لم يخمد حقدهم ضد العرب ، والمسلمين ، فما أن يروا عربيًا مسلمًا ، فى أي مكان حتى يودون قتله ، ولكن الغريب أنهم كانوا يمتحون حدائقهم لحجاج بلاد الأناضول . . !!

وكما تسطر كتب التاريخ ؛ فإن الغزوة الخامسة للنبى الكريم « ﷺ » كانت على قلعة « فديك » فى ديار خيبر . وتنسب هذه القلعة إلى « فديك » أم عنترة ابن شداد الزنجية . كما كانت الغزوة السادسة أيضًا فى هذه الديار ، ألا وهى غزوة أحد . وقد

(*) ربما يقصد الكاتب ، الضب الذى يظهر عقب موسم الأمطار . « المترجم » .

قطعت القافلة هذه المسافة فى تسع عشرة ساعة . حتى وصلت إلى ؛ وادى القرى القديم .

وادى القـــرى القديـــم :

ويسمونه أيضًا المدينة القديمة ، مياهه وفيرة ، عذبة ، يفد إليه البدو من المناطق المحيطة ، ليبيعوا منتجاتهم إلى الحجيج . بعده دخلت القافلة ممرًا ضيقًا ، وما أن غربت الشمس حتى أشعلنا آلاف المشاعل والفوانيس تجنبًا لمخاطر قطاع الطرق ، وعبرنا هذا الممر الضيق بسلام ، ونحن تحت حراسة الجند المدجج بالسلاح . وفى صبيحة اليوم التالى وصلنا إلى دار الوداع :

دار الـــوداع أو وادى الإســـتقبال :

وتُسمى هذه المنطقة « دارخازن » أيضًا . وجميع الجبال الممتدة من الشام حتى هذه المنطقة ؛ جبال ملساء ، جرداء ، عارية ، من الغابات ، أو الأشجار ، ولما كان أهلها جميعًا يستقبلون أهل المدينة هنا فلذلك سميت « وادى الاستقبال » .

وقد قدم كل أعيان المدينة ، ووجهائها ، ومطوفوها ومرشدوها – مع آهالى المنطقة – لإستقبال الموكب ، وكانوا جميعًا يرتدون ملابس بيضاء ، وجوههم نورانية ، تعلو البسمة شفاههم ، عيونهم حورية كحيلة ، فى صوتهم رقة ، وعذوبة ، تبدوا عليهم علامات الصحة ، أشداء قدموا مهللين ، فرحين ، وقد حملوا هداياهم . مكثنا ساعتين فى هذه البقاع ، قضيناها وسط ترحاب المستقبلين . ولم يكن قد بقى سوى يومًا واحدًا عن حلول شهر ذى الحجة . ولو توقعنا ؛ توقف الحجاج ، يومًا ، آخرًا فى مكة المكرمة ، ولما كانت وقفة عرفات فى العاشر من ذى الحجة ؛ لإتضح من ذلك ؛ أن اللحاق ببداية مراسم موسم الحج غير ممكن ، لذلك تابعت القافلة سيرها ، وواصلت ليلها بنهارها . ولم تحط رحالها منذ الخروج من « مُزَيْرِبّ » .

وهذه المسافة عبارة عن أربع وعشرين مرحلة ، تستغرق ثلاثمائة وخمسين ساعة ، سيرًا بالجمال أما إذا كانت الطرق معبدة ، مستوية ، وفيرة المياه ، والطعام ؛ فإن

المسافة تستغرق مائة ساعة فقط ؛ بالخيول ، والبغال . ولكن لما كانت الطرق غير ذلك ؛ تَحتم على القوافل استخدام الإبل . وكما هو معلوم ؛ فليس هناك فرق كبير ، بين ما تقطعه الإبل ، وبين ما يقطعه المترجل فى سيره ، أو من يسير على قدميه ، لذلك ، لو إهتم السلاطين بإنشاء الطرق الرئيسية ، أو السلطانية [1] من الشام إلى

---

(١) **الطرق السلطانية** : مصطلح إدارى يُطلق على الطرق الرئيسية الواقعة بين الحرمين الشريفين ، ولما كان السلاطين هم الذين يهتمون وكان حجاج بيت الله الحرام يتوجهون بعد الإنتهاء من مناسك الحج إلي المدينة المنورة للتشرف بزيارة المسجد النبوى الشريف ، والسلام على النبى المصطفى ، وزيارة الروضة المطهرة ، والحجرة المعطرة ، وكانت القوافل تسلك طرقًا عديدة ، رأينا أنه من المناسب الإشارة إليها : وخاصة الطرق الرئيسية أى السلطانية ؛

الطريق السلطانى : إن أول منزل للخارجين من مكة المكرمة هو القرية المشهورة المعروفة بـ(وادى فاطمة) . إن هذه القرية تبعد عن مكة مسافة ست ساعات سيراً بالجمال . وتشتهر بعيونها الجارية ، وحدائقها وبساتينها اليانعة التي تشتمل على النخيل وسائرالأشجار الأخرى .

إن الليمون والنارنج وأكثر الخضروات التي تباع فى مكة المكرمة تزرع فى هذه القرية .

والمرحلة الثانية للخارجين من مكة المكرمة تكون عند البئر المسمى (بئر عسفان) . كما تسمى هذه المرحلة أيضًا (بئر التفل) .

وتبعد مرحلة بئر عسفان اثنتى عشرة ساعة عن قرية (وادى فاطمة) ، ومياه تلك الآبار رقراقه وعذبة حلوة المذاق .

ولما كانت مياه تلك الآبار مخلوطة بمياه وجه الانبياء وبريق سيدنا ونبينيها (عليه وعليهم التحية) فإن مياه النيل والفرات وربما ماء الكوثر تغبطها على طلاوتها . وهنا فى هذا الموضع يوجد البئر المشهور بين العرب ب (بئر التفلة) .

والمسافرون من بئر التفلة يصلون إلى قرية (خليص) بعد ثمان ساعات من تحركهم . وقرية خليص تبعد عن مكة المكرمة بثلاث مراحل ، وتشتمل على العديد من الآبار والعيون الجارية ، كما أن بها الكثير من البساتين ، وحدائق النخيل المثمر .

والقوافل المترددة بين مكة والمدينة تواصل سيرها إلي (قضيمة) بعد استراحة قصيرة تمكنها من الاستسقاء فى مرحلة خليص .

وقضيمة هى المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص إثنتا عشرة ساعة سيراً بالجمال .

ومرحلة قضيمة بها ثلاثة آبار ، إلا أن مياهها مالحة بعض الشئ ، وذلك لقربها من البحر . ولما كانت هذه القرية المذكورة وفيرة الأسماك فقد لقيت استراحتها رواجًا بين المسافرين المحليين المترددين عليها .

والقوافل المتحركة من هذا الموضع تصل إلي (رابغ) التى تبعد مسيرة ست عشرة ساعة عن قضيمة من ناحية المدينة المنوره .

ومع أن هناك بعض التباب الصغيرة الممتدة على طول الطريق بين مكة المكرمة ورابغ ، إلا أنها غير مرتفعة بالقدر الذى يحجب الرؤية . ولذلك كانت معظم المواقع فى هذا الطريق ترى البحر بسبب قرب منطقة رابغ من البحر كذلك .

ولما كانت الطرق الموصلة بين قضيمة ورابغ معبدة ورملية فى معظمها ، فلذلك كان السير فيها مريحًا .

وكانت الطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تتعدد عن رابغ ، وكان اكثرها استعمالا يسمى (الطريق السلطانى) .

والمرحله الأولى للطريق السلطانى (الرئيسى) أى الاستراحة الاولى للقوافل المتحركة فى رابغ ، كانت فى موقع (مستورة) الذى يبعد ست ساعات عن رابغ .

وبهذه المرحلة التى تقع فى الميدان الصحراوى المسمى (منخفض ميمون) بئران : أحدهما عذب المياه ، والآخر مالح . =

المدينة ؛ لما أصاب البعير ، والدواب ما يُصيبها الآن ، من التعب والإنهاك ، ولكانت الرحلة بالخيول ، والبغال أسرع ، وأقل فى الوقت ، والإرهاق . ولقد منح الله سبحانه وتعالى الجمال من القوة ، والصبر ، والتحمل ، مايجعلها تواصل السيرحتى وهى نائمة .

تحركت القافلة على الفور ، وبعد ساعة ، تراءت لنا من قمة عالية ، حدائق المدينة

= وبعد مرحلة مستورة تصل القوافل إلي استراحة (بئر الشيخ) ومن ذات نبع عذب المياه ، وتبعد اثنتى عشرة ساعة عن مستورة .

والمسافرون من بئر الشيخ يصلون إلى قرية (سفرا) التى تبعد عن بئر الشيخ اثنتى عشرة ساعة . وبين هاتين المرحلتين بئر مشهور يسمى (ابن حصانى) .

وإذا كانت قرية صفرا كبيرة حد ما ويقطنها حوالى خمسمائة نفس ، إلا أنهم جميعًا ما زالوا يعيشون حياة البداوة . ومع ان هذه القرية المذكورة تمتلك المياه الجارية والأشجار المتعددة إلا ان معظم مغروساتها محصورة فى أشجار النخيل والليمون والحناء .

وبعد صفرا بثلاث ساعات تقع قرية (حمراء) ، وهى أيضًا ذات مياه جارية وأشجار يانعة متعددة . وتنتج هذه القرية أجود أنواع الحناء وزيت البلسان الذى يتكالب عليه الحجاج والمسافرون عند المرور بها .

وأكثر القوافل المسافرة من صفر لا تتوقف فى الحمراء ، بل تواصل سيرها إلى الموقع الموجودة فى مدخل (جديدة) الضيق والمسمى (الحوبه جية) . والمسافة بين هذين المنزلين ست ساعات . وتوجد المياه الجارية فى موقع الاستراحة .

وتصل الرحلة بعد (الحوبه جية) إلى (بئر عباس) . ويقع بئر عباس على بعد خمس ساعات من المدينة المنورة من جهة (الحوبة جية) ، وعند التوجه إلى هذه المرحلة تمر القوافل من ممر (جديدة) . وتوجد قريتان صغيرتان بين هذين المنزلين .

والقوافل المسافرة من بئر عباس تصل إلي (بئر الشربوفى) بعد اثنتى عشرة ساعة ، وهنالك أيضًا بئر مياهه عذبة حلوة . وبعد التحرك من (بئر الشربوفى) باربع ساعات ، تصل القوافل إلي موقع (شهدا) ، وهناك أيضًا بئر مياهه عذبة مستساغة .

وبين هذا الموقع والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة ، وأهالى المدينة المنورة الكرام يستقبلون .

زوار مكة المكرمة وحجاجيها القادمين لزيارة المدينة المنورة فى البستان المسمى (بيار على) الواقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة .

وليس من المعتاد توقف المارة من هذه الطرق فى هذه المنازل والبقاء بها ، إنما الأمر حسب رغبة الجمالين الذين بودون التوقف فى كل مرحلة بها آبار للتزود بالمياه . ولا يتوقفون فى الاستراحات التى ليست بها مياه . وعلى اى حال فإن دخول المدينة المنورة فى اليوم السادس من القيام من رابغ يعتبر من العادات القديمة التى تعودت عليها القوافل .

والطريق المذكور قديم بالنسبة للمحامل الشريفة وقوافل الحجاج ، وبالرغم من قلة مياهه ، إلا ان منازله ومطالعه شبه معدومة ، أما الطريق المذكور آنفًا فتوجد عليه سلاسل الجبال التي تحيط بجانبيه حتى مرحلة (بئر عباس) . ولما كان الطريق يمر ببعض الممرات الضيقة فى أكثر مراحله ، فإن هذا يشجع البعض من عربان قبائل (بنى حرب) على السيطرة عليه من حين لآخر والسطو على أموال القوافل المترددة . وربما وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى القتل والسلب معًا مما يدفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب الزوار وسائر المسافرين إلى ان يسلكوا الطرق المسماة بـ(الفرع وغابر) والتى كان قد افتتحها حضرة السلطان منذ بضع سنين خلت بسبب عمرانها وعدم خطورتها . (المترجم)

المنوره ، وقبة المسجد النبوى ، الشريف . وكانت صحراء المدينة المنورة تُضاء من حين لآخر بومضات نورانية مباركة . وما أن رأى الجمع ذلك ، حتى ولّوا وجوههم شطر المدينة ، سواء أكانوا راجلين ، أو ممتطين صهوة دوابهم ، وأخذوا يرددون « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » . والطريف أنه ما أن رأى الحجيج قبة المسجد النبوى – على ساكنه أفضل الصلاة والسلام – من أعلى ، وما أن بدأوا جميعًا فى التهليل ، والتكبير ، والدعاء حتى بدأت البعير فى البَعْبَعة ، والهدير ، والخيول فى الصهيل ، والبغال ، والحمير فى النهيق ، حتى أنه لم يعد بالإمكان السيطرة عليها بسهولة ، بعد ما كانت فيه من الإنهاك ، والتعب ، فأخذت تُسرع الخطى ، بل وتُهرول نحو المدينة . وقد بدأ بعض الحجاج يُحرمون من هذا الموقع .

أطوار أهل المدينة :

ماأن تراءت المدينة المنورة ، حتى تحولت الصحراء إلى خضم بشرى ، ومحيط آدمى ، وهب جميع سكان المدينة المنورة ، الطاهرة ؛ من رجال ، ونساء ، وذكور ، وإناث ، كبير ، وصغير ، إلى إستقبال الموكب والترحيب به ، وكان الأطفال يقدمون أكياس التمور ، إلى الحجاج ، وهم يرحبون قائلين « حمداً لله على السلامة ياحاج .. زيارة مقبولة .. وحج مبرور » وكان الحجاج يردون عليهم شاكرين لهم قائلين « شكراً لله .. لقد قَدمنا إلى آعتاب سيدنا ، ونبينا ، الذى هو رحمة للعالمين » .

أما الفتيات ؛ فقد كن ينشدن الآغانى ، والقصائد ، والأناشيد الدينية ، وهن فى صحبة الحجاج ، حتى الدخول إلى أبواب المدينة نفسها ، وقد استغرقت هذه الرحلة خمس ساعات .

إطراء جند صارى حسين باشا :

لقد دخلت كتيبة حسين باشا ، إلى المدينة ، تحف بها أطياف الجلال ، والفخار ، مرفوعة الهامة ، ناصعة الجبين ، وأضحت ملحمة على كل لسان ، حيث لم يسبق لمن سبقوه مثل ؛ سنان باشا [1] ورضوان باشا [2] ، وطاوشان سليمان باشا [2] ، أن

---

(١) سنان باشا ؛ ورضوان باشا ، وطاوشان سليمان باشا : من قواد قافلة الحج السابقين على هذه السنة التى حج فيها آوليا ، ولم يتمكنوا من اخماد عصيان البدو ، والأعراب ، (المترجم) =

كان فى معيتهم جند مختارون أمثال هـؤلاء عند دخولهم المدينـة . لقـد خرج كل الآهلـين ، مصطفـين على جنبات الطـرق ، والشوارع لإستقبـالهم ، والحفـاوة بهـم ؛ فنُحـرت الآضـاحى ، أمـا سيـدات المدينة ، اللائى قـد إصطفـفـن فى النوافـذ ، وقد إرتدين الفساتين الحريرية ، ما أن رأين موكب الباشا ، حتى أطلقن زغاريدهن ، التى صدح بها المكان ، واهتزت الأرض تحت أقدام الموكب .

وكـان البـاشـا هو الآخـر ، قد بدا فى أبهى صـورة ؛ حـيث تَدثر بفـراء السـمـور ، الثمين، ووضع على رأسه ؛ العـمامة السليـمية [١] ، ومن حـوله شطاره [٢] ؛ وقـد إرتدوا ملابسـهم العسكرية ، وخوذاتـهم المذَهبة ، ومن وراءهم محفل مهيب ؛ من الفرسان ، وموسيقات الجيش الهمايونى ، المكون من ثمان أطقم ، يدقون طبولهم ، ويعزفون موسيقاهم ، التى تعبق المكان بالحماس الدينى ، والروحانى الجميل . وسار الموكب حتى استقر الباشا فى أوطاقه [٣] .

= ولم يتمكن سنان باشا من التصدى لهجمات البدو والآعراب فى بوادى أرض الحجاز ، وطرق القوافل مما أدى إلى عزلة فى السنوات التالية .

(٢) رضوان باشا : واحد من القادة العسكريين ، والولاة الذين قادوا قافلة الحج قبل سنة ١٠٨١هـ ، ولكن لم يحالفهم التوفيق مما أدى إلى عزله .

(٣) طاوشان سليمان باشا :كان واحد من الولاة ، والقادة ، تم تكليفه بقيادة القافلة التى تصاحب موكب الحج ، لم ينجح من صد هجمات البدو، فتم عزله .

(١) **العمامة السليمية** : غطاء رأس يُنسب إلي السلطان سليم الأول العثمانى ، وتسمى «سيليمى» وتصنع من أجود أنواع الاقمشة ، ويصل طولها إلى ٦٥سم ، وآعلاها اكثر اتساعًا ومستويًا ، ويعلق عليها شريط من التل . وكان يرتديها السلاطين ، وقوات الانكشارية) «المترجم»

(٢) **الشطار** : جمع «شاطر» Sâtir مصطلح يطلق على بعض من القوات التى تكون فى معية السلطان ، ويكلفون ببعض المهام المهمة ، ويسيرون حول السلطان فى كوكبة ظريفة لإضفاء البهجة ، والمهابة على موكب السلطان . وكان منهم من يكون فى خدمة الصدر الأعظم ، أو الوزراء . ويعتبرون من تشكيلات السراى . ويدخلون ضمن قوات البيادة أى المشاة . وكانت لهم معسكراتهم الخاصة بهم ، وكانت قد الغيت ولكن فى محرم ١٠٧٧ هـ= يوليو سنة ١٦٦٦م أعيد تكوينها . وكان رئيسهم يسمى «شاطرباشى» . ولهم كتخدا اى معتمد ، ملابسهم مزركشة ، واحزمتهم مرصعة . وكان السلطان محمد الرابع يتوجه إلى صلاة الجمعة وسط كوكبة منهم فى كل أسبوع . وكانوا يضعون على رؤوسهم تيجان تُشبه الكوكب المرصع بالذهب . وفى آياديهم اسلحتهم التي تُشبه البُلط .
كان الصدر الأعظم ، والوزراء يستخدمونهم لفرض الهدوء والسكينة بين الآهالى ، وكانوا يقومون بما يُشبه اعمال قوات الضبطية .
كما كان يستخدمهم بعض رجالات الدولة ، والوجهاء كنوع من المظهرية .. بحيث يسيرون عن يمينه وعن يساره وهم فى كامل أبهتهم . «المترجم»

(٣) الأوطاق : اوطاغ مصطلح فنى يُطلق على نوع من الخيام المخصصة للسلطان والصدر الأعظم ، والوزراء ، وكبار =

وحينئذ أطلقت مدفعية قلعة المدينة مابين سبعين ، أو ثمانين طلقة ، وكان هذا إيذان بدخول المدينه .

وما أن استقرت القافلة ، فى مكانها ، حتى هيئت نفسى ، أنا العبد الحقير . للقيام بالزيارات اللازمة ؛ فأخذت لنفسى مرشداً ، وأحد العبيد ، وتوجهت إلى مقامات الزيارة .

مقامات الزيارة خارج المدينة :

على طريق الشام ؛ وعند مدخل المدينة المنورة ، تقع حديقة وبستان سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وكان موقعها على يمين الشارع ، وهى عبارة عن بستان فسيح ، مزدان بشتى أنواع الأشجار المثمرة ، رياضه مزهرة وآباره عذبة المياه ، وبالقرب من الحديقة يقع جامع « ذى القبلتين » إحداهما ناحية الكعبة ، والثانية متجة نحو القدس حيث المسجد الأقصى ، وحيث نزلت آية ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)** ﴾ (*) فى حقها .

ففى السنة الرابعة عشر للهجرة النبوية ، وبينماكان النبى ﷺ يصلى فى أحد المساجد ، نزل عليه جبريل الأمين « عليه السلام » وأوحى إليه ﷺ بالآية الكريمة ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..** ﴾ (**) ، فاتجه المسلمون جميعًا منذ ذلك الحين فى صلاتهم نحو الكعبة المشرفة ومما لا شك فيه ؛ أن كل من يُصلى هنالك ،

= القادة . وكانت خيمة السلطان تسمى « اوطاغى همايون » ، أما خيمة الصدر الأعظم فكانوا يطلقون عليها « اوطاغى آصفى » . ويختلف الأوطاق عن الخيمة العادية بزخارفه ، وكبره ، واتساعه ، والكرانيش التى تطوقه . وقد نصب السلطان سليم الأول عند دخوله مصر اوطاغه فى منيل الروضة ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ .

كما كان يُقام اوطاغ = اوطاق قائد أو أمير الحج كلما دعت الحاجه والاستراحة ، أو استقبال رجالات القافلة ، وأهل الحرمين

وكان الأوطاغ الهمايونى غاية فى الزينة ، والزخرفة ولونه أحمراً فى العادة . ولا يسمح للوزراء ، والأمراء ، واولياء العهد باستخدام اوطاقات بنفس هذا اللون .

كان الاوطاق السلطان يُنصب فى العادة وسط المروج والرياض .. وفى وقت الحرب ؛ فيقام وسط معسكرات الانكشارية وخيامهم تُحيط بخيمة السلطان من كل جانب ، وكانت هى بمثابة خيمة القيادة المركزية . وفى الغالب كانت تُصنع من خيوط القطن . وخاصة القسم الداخلى .. أما القسم الخارجى فكان معالجًا ضد الأمطار ، والحرارة الشديدة . « المترجم »

(*) آية تغيير القبلة ... سورة الحج آية ٢٩ .

(**) سورة البقرة آية ١٤٤ .

ركعتين، خاشعًا لله ؛ فإنه يدخل الجنة ، بدون عذاب ، أوحساب . ولقد كانت إحدى الغزوات الثمانى والعشرين التى غزاها الرسول الكريم « ﷺ » [1] ضد المشركين قد دارت رحاها فى هذا الموقع ، وبالقرب من القبلتين ؛ ألا وهى غزوة الخندق، . وبنفس هذا الموقع أربعة مساجد ؛ أحدهم هو مسجد « سَلْمَان الفارسى » ومسجد « سيدنا عثمان » ومسجد « سيدنا على » . . .

أما الجماعات التى بقيت فى حدائق المدينة فهى قليلة ، وفى جنوب هذه المساجد السابقة يوجد جبل صغير ؛ كان الرسول الكريم « ﷺ » يتعبد فيه ، ويوجد حيث يوجد مقام الرسول الكريم . ويقع جبل عسير ، أى « جبل جهنم » بالقرب من هذا الجبل ، وفى ضواحيه الأربع توجد الحدائق والرياض ، ولكن هذا الجبل أملس ،

---

(١) عزوات الرسول ﷺ الثمانى والعشرين :
إن معركة بدر (١) كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين بقيادة الرسول (ﷺ) والمشركين ، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرًا حاسمًا شهد له العرب قاطبة . وكانت هى بداية النشاط العسكرى الإسلامى ، (٢) ثم كانت غزوة بنى سليم بالكدر ، (٣) ثم غزوة بنى قينقاع بعد أن نقض اليهود العهد فى اتفاقهم مع الرسول (ﷺ) ، (٤) غزوة السويق التى طارد فيها النبى أبا سفيان وآصحابه ، (٥) وغزوة ذى أمر ، وهى أكبر حملة ، عسكرية قادها الرسول قبل أُحد وكانت فى المحرم سنة ٣ هـ . (٦) غزوة بحران ، قادها الرسول (ﷺ) فى شهر ربيع من نفس السنة ، ثم كانت . (٧) غزوة أحد بالقرب من المدينة المنورة ، وقد شاركت فيها نسوة قريش فى تحميس المقاتلين ، وفيها استشهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، ونزلت الهزيمة بالمشركين ، ولولا غلطة الرماة لما تبدد المسلمون فى الموقف ، وعندما احتدم القتال حول الرسول (ﷺ) والتفاف الصحابة وتجمعهم حوله (ﷺ) . واشتد الوطيس فيها ، كما استشهد فيها سبعون من المسلمين . (٨) غزوة حمراء الأسد . (٩) ثم غزوة بنى النضير ، (١٠) وغزوة نجد (١١) وغزوة دومة الجندل ، (١٢) ثم غزوة الأحزاب ؛ التى كانت معركة آعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير ، إلا أنها من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام ١٣٠ – ثم كانت غزوة بنى قريظة . ثم أعقبها بعض البعوث والثرايا ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريع فى شهر شعبان سنة ٦ هـ ، وفى ذى القعدة سنة ٦ وقعت وقعة الحديبية ، وأعقبها هدنة الحديبية التى تُعتبر بداية طور جديد في المعارك العسكرية الإسلامية ، فقد بدأت المكاتبات إلى الملوك والأمراء .

وبعد صلح الحديبية كانت غزوة الغابة أو غزوة ذى قرد ، وغزوة خيبر ووادى القرى فى المحرم سنة ٧ هـ . ثم غزوة ذات الرقاع والتى أعقبها بعض السرايا ، وتم عقبها عمرة القضاء . ثم معركة مؤته ، وهى أكبر معركة دامية خاضها المسلمون فى حياة الرسول (ﷺ) فى جمادى الأولى سنة ٨هـ اغسطس / سبتمبر سنة ٦٢٩م . وكانت بين المسلمين والرومان . واعقبها السرايا كسرية ذات السلاسل ، وسرية أبي قتادة إلى خضرة .

ثم كانت غزوة مكة التى أعز الله بها دينه ، ورسوله ، وجنده وحزبه الأمين . ثم جاءت غزوة حنين واستخدم فيها سلاح الاستكشاف على أحسن وجه .

عاد الرسول إلى المدينة بعد الفتح المبين . وما أن استهل هلال المحرم سنة ٩هـ حتى بعث عليه السلام بالرسل إلى المصدقية به ، ثم تتابعت السرايا ، وكانت غزوة تبوك فى رجب سنة ٩ هـ وقد نزل فى حقها الكثير من الآيات المباركات . انظر : (الرحيق المختوم ، صفر الدين المباركفورى ، دار ابن خلدون ١٧٦ ٠) المترجم.

أجـدب لاثمر فيـه ، وقد دعى عليـه الرسـول الكريم ﷺ لذلك ؛ هو جـبل أسـود ، مظلم ، لا نور فيه ، ولا زرع . أما حدائق تلك الديار فغزيرة المياه ، وفيرة الثمار ، متعددة الأنواع ؛ فمن الليمون ، واللارنج ، إلى الفواكه الأخرى الفوّاحة .

هناك بستان آخر ؛ يقع على طريق الحجاج ، كثيرًا ما تَرْتَدْنَه سيدات المدينة الطاهرات ، لعفيفات ، لمشاهدة مواكب الحجاج . وقد طفت ، وتجولت فيه أنا العبد الفقير ، للوقوف على كل مابه من بساتين ورياض .

وبعدها اغتسلت فى حمام عام ، حتى اتخلص من عناء الطريق ، ومشقته ، وعدت إلى خيمتى ، وغيرت ملابس الطريق ، وأحرمت ، ثم خرجت من الخيمة ، متجهًا نحو قلعة المدينة ، من باب مصر ، وأنا أردد الدعاء العظيم « ربى أدخلنى مدخل صدق . . وأخرجنى مخرج صدق . . » ثم دلفت إلى المسجد النبوى من باب السلام ، ثم بدأت أزحف ، وسط الحشد الغفير ، حتى وصلت إلى المقصورة النبوية فلثمتها ، ثم ركعت على ركبتى محييًا ، « السلام عليك يا رسول الله » ، وقد استغرقت فى إبتهالاتى ، وما أن عدت إلى نفسى ، أو عادت إلىّ نفسى ، حتى حاولت أن أشق طريقى ، وسط هذا الزحام المحبب إلى النفس . وعدت إلى خيمتى . وقد أعلن جاويشية الكتيبة عن البقاء يومين فى المدينة .

* * *

أوصـــاف يــثرب أى أوصـــاف
قلعة المدينة المنورة

كانت يثرب مدينة صغيرة فى بداية عهدها ، وبعد أن هاجر إليها الرسول الكريم من مكة ، ، عُمرِّت عمرانًا عظيمًا . ومن أهم ما يسجله تاريخها ، أنه عندما حاول الكفار الإستيلاء على قبر الرسول لهدمه ، هب نور الدين شهيد من الشام ، ووصلها فى تسعة أيام ، وخلص المدينة من أيدى الأعداء ، وبنى حولها قلعة . ولكنها خَربت خلال تعاقب الأزمان ، حتى رأى السلطان سليمان [1] الرسول الكريم فى منامه ، فخاطبه النبى ﷺ قائلاً : « . . يا سليمان إفتح بلجراد وبودين ورودس وشيد قلعة حول القدس الشريف التى بها مقام الإمام الأعظم ، وأخرى حوِل مدينتى يثرب » . فقام السلطان سليمان القانونى بفتح هذه المدن ، وشيد القلاع .

---

(1) السلطان سليمان القانونى : ١٤٩٥ – ١٥٦٦م = ٩٠٠ – ٩٧٤هـ . عند وفاة والده السلطان سليم الأول ، كان الأمير سليمان واليا على مغنيسيا = ما ينصه . تولى السلطنة ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره بَعد . وكان عليه أن يتابع انتصارات والده ، ففتح بلجراد ، ورودس والمجر ، وحاصرفينا ، ولولا خيانة زوجته اليهودية روكسلانه = خُرم سلطان ، وصدره الأعظم إبراهيم باشا لتحولت النمسا إلى ولاية عثمانية . لُقب بالقانونى لكثرة القوانين التى أصدرها لتنظيم حياة الإمبراطورية العثمانية .

حوّل البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، والبحر الأسود وبحر مرمرة إلى بحيرات إسلامية لم تكن الاساطيل الأجنبية تستطيع دخولها بدون اذن سابق ، وقد اعتمد فى ذلك على الأمير الجزائرى خير الدين بارباروس الذى عينه قائداً للاسطول العثمانى .

لم يغفل السلطان سليمان القانونى عن إنشاء الصروح المعمارية ؛ من جوامع ، وكليات الصحن ثمان ، ودور الحديث ، والخور ، والخانات ، والحمامات ، والاستراحات فى شتى ربوع الإمبراطورية .

كان للمدن الإسلامية المقدسة الثلاث ؛ مكة ، والمدينة والقدس مكانة خاصة فى نفس القانونى ، فأوقف عليها الكثير من الأوقاف الخيرية ، وولى عليها خيرة قواده ، ما كفَل لها تطوراً معماريًا وحضاريًا ، ما زالت ماثلة للعيان حتى اليوم ؛ فجدد الحرمين الشريفين ، والمسجد الأقصى ، وأمن قوافل الحج المؤدية إليها ، وأقام المخافر والحصون والقلاع ، والأبار ، والمطاعم على طرق القوافل لخدمة الحجيج . سليمان القانونى [٩٠٠ – – ٩٧٤ هـ = ١٤٩٥ – ١٥٦٦ م] أعظم سلاطين بنى عثمان . ابن سليم الأول . اعتلى العرش سنة ٩٢٦ هـ لُقب بالقانونى لعدله وكثرة القوانين التى سنها، وصلت الدولة العثمانية فى عهده أقصى اتساعها . لقبه الأوروبيون بالعظيم "MagniFique" وصلت فتوحاته إلى المجر، سنة ٩٣٦ هـ ، وحاصر فينا غربًا . وسَّع فتوحاته فى آسيا فضم إيران وبغداد وآذربيجان ووصل البصرة سنة ٩٤١هـ = ١٥٣٤ م . حول البحر الأبيض والأحمر إلي بحيرات عثمانية تحت قيادة خير الدين بارباروس . له عمارات فى كل العالم الإسلامى . مدة سلطنة ٤٨ سنة . «المترجم»

أشكال قلعة المدينة:

كانت مولوية [1] المدينة حسب القانون القديم مولوية «قضاء» مخصصاتها خمسمائة آقچه ، ولكن لبُعدها ، وعدم خصوبة أرضها ، فقد أصابها الإهمال ، حتى كان عهد السلطان محمد الرابع ، فأصدر قانونًا نص فيه على ما يلى :

«إنه بدون قضاء مكة والمدينة فلن يكون هناك قاض لإستانبول» وبذلك إرتبطت مكة والمدينة فى بادئ الأمر بقاضى ، أو ، مولوية إستانبول :

آهالى المدينة يتصفون بالحلم ، ولين الجانب ، والمسالمة . ولقد تم تخصيص ألف قطعة ذهبية لكل من ، شيخ الإسلام ، ومشايخ الحرم ، والمعلمين ، من الصرة . كما خُصَص لكل طائفة ، مائتين أروب قمح ، من الظهيرة ، التى كانت تأتى من مصر .

يُسيطر شيخ الحرم على الأمن فى المنطقة بالجند الذين تحت إمرته ، والذين يبلغ

---

(١) **مولوية المدينة** : قضاء المدينة = «مولويت» مصطلح علمى يُطلق على الطرق العلمية المتعلقة بالقضاء . وكانت المولوية هى طريق كبار المدرسين .. وتم الأخذ بهذا النظام بعد عهد السلطان سليمان القانونى ، فقد كانت المراتب ، والدرجات العلمية مختلفة قبل عهده .. وقد وجد أنه من الضرورى إحداث تغييرات فى الدرجات العلمية وخاصة لسد احتياجات الكليات التى أنشأها . وإن كانت الأوقاف ، «وقانون نامه» ، السلطان محمد الفاتح تُبين أن المولوية كانت موجودة كدرجة علمية ، يرقى صاحبها لشغل القضاء .

كانت رتبة أو درجة المولوية تُمنح لكبار المدرسين وظل هذا الأمر معمول به بعد عهد سليمان القانونى ، وكان من ينال هذه الدرجة العلمية يتوجه إلي حيث المكان المحدد له ، ويتولى القضاء فيه .

ولكن هذه الرتبة العلمية أصابها الفساد بسبب النظام الذى وضعه شيخ الإسلام [فيض الله أفندى] فى عهد السلطان مصطفى الثانى ، والذى كان يجيز توجيه هذه الدرجة العلمية إلى الأصلاء = «زاده . كَانه» .

كانت المولوية فى حينها خدمة تنفيذية ، بمعنى على مَنْ يتولدها التوجه إلي حيث مكانها ، ويبدأ فى ممارسة مهامها على الفور ، ورويداً .. رويداً بُدأ فى الاستغناء عن هذا النظام ، وأن يتولى النواب القيام بهذه المهام .

كانت المولوية ثلاث درجات ؛ أ- مولويات المخرج . ب- مولويات البلاد الخمس . جـ- مولوية الحرمين الشريفين؛ وكان يُطلق على مولوية المخرج ، مولوية البلاد العشرة أيضًا ؛ وكانت هذه البلاد هى ؛ ازمير ، سلانيك بنى شهير ، فنر، خانيا ، القدس الشريف ، حلب ، طرا بزون ، صوفيا ، غلطه ، أبوب وملحقاتها .

أما مولوية البلاد الخمسة ؛ مصر ، الشام ، بورصة أدرنه ، فليبه ، أما مولوية الحرمين ، فكانت عبارة عن قضاء مكة والمدينة .

وكانت مولويات المخرج يُعين فيها كبار المدرسين ، وهناك صلاحية ترقية عشرة أفراد سنويًا لهذه الدرجة .. وبعد أن ينال مرتباتها ومخصصاتها ، ويظل بها المدة المعتادة . يبدأ فى ممارسة مهام مولوية البلاد الخمس لمدة بدون مقابل ، ويكون ملازمًا للقاضى بها قاضيا وبعد اتمام المدة المقررة يُصبح مولويًا فى إحدى المولويات الخمس . وبعد قضاء مدته بها ، يعمل ملازمًا بدون مقابل لفترة ما لقاضى مولوية الحرمين ، وبعدها يُصبح قاضيًا فى مولوية الحرمين ، وأحيانًا ؛ كان يتم الفصل بين مولوية المدينة ، ومولوية مكة .

كانت المدة المعتادة فى كل مولوية هى مدة سنة واحدة . «المترجم»

عددهم خمسمائة جندى ، والأقضية التابعة للمدينة ومرتبطة بها إداريًا هى :

ينبع البحر ، ينبع البر ، الحديدة ، وصفرا ، ودار القرا ، وفِدك ، وديار خيبر .

يقدمون للقضاة فى هذه الأقضية فاتحة وثلاثة مكاييل من التمر ، بدلاً من البدل النقدى للحجة .

وبالقلعة ثمانين مدفعًا ، وسجنًا ، ومهترًا [1] ، وجنود محاصرة ، ومحافظًا .

وأبعاد القلعة كالتالى :

الجنوب به باب مصر ، وعلى جانبيه برجين عظيمين ؛ وفوق العتبة العليا للباب كتبت العبارة التالية : «إنه من سليمان وأنه بإسم الله الرحمن الرحيم» . وعلى بعد ثلاثمائة خطوة ناحية الشمال ، يوجد باب الحاج ، أى باب القبلة . وعلى مسافة مائتين خطوة من هذا الموقع ، ونحو الشمال يتجه «المَطْلَع» ، المرتفع ، إلى أعلا نحوالشمال . والمسافة من هذا الموقع ، حتى البرج الداخلى ، للقلعة ، مسافة أربعمائة خطوة . وجدار القلعة فى هذا الموقع عريض ، وقوى جداً وناحية الشرق من هذا الموضع ، وعلى بُعد مائتين خطوة ، من هذا المرتفع ، يقع «باب الشام» . ومنه ، وحتى برج الشريف ، ألف خطوة ، ومنه حتى «باب البقيع» ثلاثمائة خطوة . وبعد مائة خطوة من باب البقيع ينتهى الجانب الجنوبى للقلعة .

والإتجاه الغربى يبلغ ألف ومائتين خطوه ، من الموضع السابق ، وحتى «باب مصر» ، وعلى هذا الأساس ؛ فإن محيط القلعة ؛ ٣٣٥٠ خطوة وسمك الجدران ستة أذرع ، وإرتفاعها عشرون ذراعًا ، وداخل القلعة ألفين منزلاً عامرًا . أما المبانى

---

(١) مِهْتَرْ : إصطلاح موسيقى يعنى الموسيقار الذى يقوم بعزف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار . وتُجمع على مِهتران أى مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطنى أو السلطانى أو النوبات المختلفة فى الجيش . وكانوا يقومون بالعزف على الطبل ، والزمر ، ويطوفون الأحياء تبشيراً بسير المحمل إلى الحجاز . ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض .

ومنهم «مهتران علم» أى الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم ، أو السلام الوطنى فى وقت الحرب . و«مِهتران طبل وعلم» وهى الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى فى القصر السلطانى ، وفى حضرة السلطان وقائدها يسمى «مهترباشى» . أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى «مهترخانة خاقانى» أو «مهترخانة همايون» ويقول هامر جـ١ ص ٣١٣ إنها فرقة الشرف التى تعزف أمام الوزراء ، والقواد وقت الحرب ، وتُذكرهم بطبولها بأوقات الصلاة أيضًا عند الجهاد . ويبين أدوات المهترخانة كالتالى : ١٦ زورنا ، ١٦ طبل ، ١١ مزمار ، ٨ نقارة ٧ أجراس = «صاجات» و ٤ أوستان . وكان عددهم ٧٢ فرداً أما إذا إشترك السلطان بنفسه فى الحرب فيتضاعف هذا العدد . وقد أُلغى نظام المهترخانه مع الغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٨٢٦ م = ١٢٤١ هـ واستبدل به نظام موسيقات الباندو . «المترجم»

الأخرى ، فأكثرها خانات ، ومدارس . وجوامع ، وأسبلة ، وتكايا ، وكتاتيب ، ودارًا للحديث ، ودارًا للقراء . ولا يوجد داخل القلعة مساجد ، أوجوامع ، ولكن بالقرب منها . وهناك خارج الأسوار ؛ توجد هذه المنشآت الدينية السالفة الذكر . وتوجد حدائق فى سبعة منازل فقط . والمدينة المنورة عبارة عن خمسة أحياء فقط .

ويوجد بالقلعة الداخلية محراب واحد ، وعدة عنابر « مخازن » وبها مخزن للذخيرة « جنجانه » ، وما بين سبعين ، أو ثمانين منزلاً صغيراً ، ومسجدها بديع الصنع ، وهو من مآثر السلطان سليمان ، وتشييده . وتقام الجماعة وتقرأ الخطبة ، فى الجامع الكبير فقط .

جامع الروضة المطهرة:

إن القبر الشريف ، للرسول الكريم ﷺ ، يقع فى داخل هذا الجامع ، ولما كانت صلاة الجمعة ، لا تُقام فى أى مسجد آخر بالمدينة ؛ فلذلك يحضر الصلاة فى هذا الجامع حشد كبير من المصليين . ولقد إهتم الحكام على مدى التاريخ بهذا الجامع ، اهتماماً بالغًا ، من الناحية المعمارية ، والفنية ، وزينوه بالنقوش ، والفنون ، والمجوهرات حتى غدى كالجنة .

ولما هاجر النبى الأبى من مكة إلى المدينة ، وعندما تساءل فيما بينه وبين نفسه الأبية « ياترى أين سنضاف؟ » .فأمسك جبريل الأمين بوهاق ناقته (ﷺ) ، وبينما كانت وجهتهما نحو بيت أبى أيوب الأنصارى ألهم الله سبحانه وتعالى أبا أيوب ، فخرج من المدينة لإستقبال النبى المصطفى والترحيب بمقدمه السعيد ، وكان ذلك عند جامع قباء ، فأمسك بوهاق الناقة وتوجه بها نحو بيته . وكان النبى ﷺ ، قد هاجر وفى صحبته عدد كبير من الصحابة المهاجرين الذين لم تحضر معهم زوجاتهم ، بل طلقوا معظمهن . وكان الأنصار الذين يقطنون المدينة قد قاموا هم أيضاً بتطليق زوجاتهم اللائى يزدن عن واحدة ليزوجوهن للمهاجرين .

هكذا حوَّل أبو أيوب الأنصارى المهاجرين ، إلى أصحاب منازل ، وعقار ، وعيال ، ثم تنازل أبو أيوب نفسه عن منزله للرسول عليه الصلاة والسلام . ثم أمر المصطفى ببناء مسجد لطيف ، بجوار هذا البيت المُشَرّف . وهذا المسجد ما هو

إلا جامع الروضة المطهرة الحالى . وعندما صعدت روحه (ﷺ) الطاهرة ، إلى الرفيق الأعلى ، دُفِن جسده الطاهر فى هذا البيت الشريف .

وفى تلك الليلة المشهورة رأى الصحابة الميامين جميعًا الرسول الأكرم فى منامهم ، وقد خاطبهم جميعًا متفضلاً :

[يا أمتى ... إن كنتم تُريدون شفاعتى .. فإننى لست فى حاجة إلى الذهب ، والفضة ، أو القِباب المجوهرة .. وإن كنتم تريدون رضائى فوسِّعوا ، وسوِّروا – (أقيموا الأسوار) حولى لتحافظوا علىَّ ، من المشركين والمنكرين] ولذلك ، فقد صرف الصحابة الميامين النظر عن تزيين مقام الرسول بالذهب واللؤلؤ ، والجواهر ، وصرفوا هِمَمهم فى توسيع المقام الطاهر ؛ حيث حوَّل سيدنا عثمان رضي الله عنه هذا المسجد الشريف إلى جامع فسيح ، وأقام جداراً للقبلة ، ثم أعقبه سيدنا على كرم الله وجهه فزاد فى اتساعه [١] ثم الوليد الأموى [٢] ؛ ومن سلاطين مصر : قايتباى [٣] والغورى[٤] ، ومن آل عثمان : سليمان القانونى ، ومراد

---

(١) توسيعات الحرم النبوى : سوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب حرآة المدينة المنورة .

(٢) الوليد الأموى :هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وهو سادس الخلفاء الأمويين ، وثالث آل مروان ، ولد سنة ٤٨ هـ= ٦٦٨م ، وخلف والده فى الحكم سنة ٨٦هـ= ٧٠٥م ، واتخذ من الشام مركزًا للخلافة ، فُتِحت فى عهده الكثير من البلدان من الاندلس والبرتغال حتى التركستان . جدد المسجد النبوى ، والمسجد الأقصى وقام بتوسيعهما ، ثم أقام المسجد الأموي فى دمشق . استمر فى الحكم ٩ سنوات وثمانية أشهر . ثم توفى سنة ٩٦ هـ= ٧١٤م وخلفه اخوه سليمان . (المترجم)

(٣) **قايتباى** : Kayit Bay الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين المحمودى الظاهرى سلطان مصر وسوريا (٨٧٣ – ٩٠٢هـ= ١٤٦٨ – ١٤٩٥م) اشترى كمملوك من قبل بارسباى ، وأطلق سراحه من طرف السلطان چقمق ، ثم أصبح « دوادار » ثم فى سنة ١٤٦٨ عرض عليه العرش فى مصر ، قبله بعد تردد . بعد أن استقر به الحال فى الحكم ، اشتدت المنافسه بينه وبين العثمانين من جهة أو بين آلاق قيونليلر – الشاه البيضاء ، من جهة اخرى استقبل فى القاهرة الأمير جم منافس السلطان بايزيد على العرش وساعده على ذلك عقد مع العثمانين صلحًا سنة ٨٩٦ هـ= ١٤٩١ م . عاش بقية حياته فى السلطة فى سلام مع جيرانه ، ويعتبر من أهم سلاطين المماليك البورجيه . وإن لم ينجح فى اقرار نظام ضريبى مستقر فى البلاد . وهذا مما جر الإمبراطوريه المصريه المملوكيه إلى الدمار والخراب . أعاد اعمار الكثير من المنشآت ، وإنشا الجديد منها فى شتى بقاع البلاد . أقام القلاع والحصون ، وجدد المسجد النبوى فى المدينة المنورة ، بالرغم من تولية السلطان وعمره يناهز الستين ، إلا أنه قضى السنوات الأولى من السلطنه فى نشاط ودأب مستمر ، حج البيت الحرام ، وكان يقوم بالتفتيش بنفسه على مناطق دجله والفرات ، ونجح فى اخضاع القبائل العربيه فى الدلتا ، وحماه وحمص . كان حاكما مثاليًا بالنسبة لكتاب الوقائع ، وإن كان يتسم بالشده والغلظة . « المترجم »

(٤) الغورى : Konsu, Kansuk Al-Gauri هو الملك الأشرف سيف الدين بن بايبارى الغورى (١٤٤٠ – ١٥١٦م) جاء الى مصر ضمن المماليك الذين جاءوا من منطقة عور فى افغانستان . ظل الى سن الأربعين واليًا على ولاية =

الثالث [1] وأحمد الثالث [2] حيث قام كل منهم بتشيد أثرًا جديداً ، أو إضافة فريدة حتى تحول الحرم الشريف إلى روضة من رياض الجنة .

وأطراف الجامع النبوى الشريف ألف خطوة . وداخل الحرم ، ومن عند قدمى الرسول المباركتين ، ومن باب جبريل الأمين ، وصُفَّة شيخ الحرم ، حتى تعبر باب الشفاء ، من الناحية الداخلية للحرم مخازن الزيت ، تبلغ المسافة سبعون خطوة . ومن هذا الموقع ، حتى أزيار المياه ؛ مائة وخمسون خطوة . ومن نفس الموقع ، وحتى باب الرحمة ، وباب السلام ؛ مائة وسبعون خطوة . وهكذا فإن المسطح الداخلى للجامع ستمائة وتسعون خطوة . وقد فرشت أرضيه الحرم الشريف كلها بالأحجار الكريمة الصغيرة . ومحيط الحرم ستمائة خطوة . وفي وسط الحرم تمامًا ؛ توجد قبة ،

= البحيره . وتولى منصب حاجب الحجاب فى حلب سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٨ م وفى عصر السلطان جانبولاط تولى نيابة النواب سنة ٩٠٣ هـ = ١٤٩٧ م عينه طومانباى الأول سنة ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠ م دوادارًا كبيرًا . اختاره المماليك سلطانًا، وقد تجاوز الستين من عمره . لم تكن الأوضاع الاقتصادية فى بدايه حكمه مستقره ، اشتط فى جمع الضرائب للصرف منها على القلاع التى أنشأها فى حلب والحجاز ، وشق القنوات ، وحفر الآبار . (المترجم)

(٢) مراد الثالث : [٩٥٣هـ- ١٠٠٣م = ١٥٤٦ - ١٥٩٤م]

السلطان مراد الثالث هو من السلاطين العثمانيين العظام ، هو ابن سليم الثانى ، جده سليمان بن سليم الأول . ولد سنة ٩٥٣هـ . عند وفاة والده ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م وصل إلى العاصمة ، وجلس على عرش السلطنة وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، أبقى على صقوللى محمد باشا فى منصب الصدارة ، فتح فى عصره العديد من المدن فى البلقان، كما ضم العديد من المدن فى آسيا إلى حوزة الدولة العثمانية - استمر فى الحكم ٢١ سنة ، وتوفى وهو فى الخمسين من عمره .

كان محبًا للعلماء ، والشعراء ، كما كان يقرض الشعر ، وتخلص فى اشعاره د «مرادي» ، تعهد العديد من الشعراء ، وكان حليما ، مسالمًا ، محبًا للذوق وصفاء الحياة . خيراته ، وعطاياه كانت كثيره . خصص الكثير من الأموال لتوسعة ، وترميم ، وتجديد الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، كما اجرى إليهما المياه الوفيرة . . أنظر : قاموس الاعلام جـ ٦ . «المترجم»

(٣) أحمد الثالث: [١٠٨٣ - ١١٤٩هـ = ١٦٧٢ - ١٧٢٦م]

إبن السلطان محمد الرابع العثمانى ، هو السلطان الثالث والعشرين بين السلاطين العثمانيين . ولد سنة ١٠٨٣هـ جلس على العرش بعد أخيه مصطفى الثانى ، وظل فى الحكم ٢٨ سنة ، ثم تركه سنة ١١٤٣هـ وتوفى سنة ١١٤٩هـ ، وتوفى عن ست وستين سنة . قضى على حركات العصيان التى تفشت فى البلاد قبيل توليه السلطة . وقد نفى ، وقتل الوزراء ، والصدور العظام الذين كانوا يساندون العصيان . فى عهده لجأشارل الثانى عشر ملك السويد إلى بلاده بسبب الحروب مع الروس مما أدى إلى دخول الحرب ضد الروس ، وقد وقع بطرس الأكبر فى الأسر ، ولم تنقذه زوجته كاترينا إلا ببعض التنازلات ، والدسائس مع القائد بلطجى محمد باشا . استردت فى عهده العديد من المدن التى سبق وأن فقدتها الدولة العثمانية . تنازل عن العرش بضغط من الإنكشارية لإبن عمه محمود سنة ١١٤٣هـ = ١٧٢٠م . جامعة فى إستانبول من المعالم المهمة . [المترجم]

وتُحفظ فيها زيوت المصابيح . وأمام قبة الزيت هذه توجد نخلة محاط حولها بسور من القضبان ، وقد قام النبى الأمين ، بغرس هذه النخلة خصيصًا ، بيديه الكريمتين . وتصطف الإيوانات على جوانب الحرم ، ويزدان بثلاث مآذن ، وداخل الحرم والجامع عامة ثلاثمائة عمود من الأعمدة المختلفة الأحجام ، والأشكال ، وفوقها ثلاثمائة كمر ، وقد زينت هذه الكمرات «الأحزمة» . بالنقوش ، والزخارف المختلفة الألوان ، والتذهيبات ، وغطت القباب من نواحيها الأربع بالزجاج الملون ، الذى يملئ المكان ضياءًا ، وبهاءًا عندما تُشرق الشمس ، وتسطع أشعتها . وقد فُرِش الحرم بالأحجار الكريمة القيمِّة والتى يصعب على أي أنسان تحديد قيمتها ، أو نوعها ؛ فبعضها عقيق أخضر ، أرجواني ، وبعضها أصفر يَرَقانى ، = «فى لون اليرقات » والبعض أصفر ، «بالجامى» = عسلى أو صوماكى = فى لون السمسم . وغُطت هذه الأرضيات المزدانة ، بأفخر أنواع السجاد الذى قدمه الملوك ، والسلاطين ، والوزراء ، والأغنياء إلى الحرم النبوى الشريف مما أضفى عليه نوعًا من الروحانية العلوية ، التى تشد المرء إلى طول الإقامة به ، والتشرف بالمثول فى حضرة ساكنيه فى كل وقت وحين . ولولا أننى مولع بالسفر والطواف بالعالم لما برحت هذا الجامع النبوى الشريف طوال حياتى .

محفل المؤذن مقام على ثمان أعمدة ، صغيرة ، بالقرب من الروضة المطهرة ، ومحراب الإمام الأعظم ؛ صغير ، ولكنه بديع الصنع ، وعلى جانبيه شمعدانات ذهبية ، بقدر طول الرجل ، وبداخل كل منها شمعات ، طول كل منها ثمانية أشبار . وعلى الجانب الأيمن للمحراب ؛ يوجد المنبر الذى أمر السلطان مراد الثالث بصنعه ، من الفضة الخالصة ، والذى لم أر مثله فى العالم الإسلامي أجمع . وعلى الجانب الأيمن من المحراب ، أيضًا ، يوجد محراب لكل من الإمام الشافعي ، والإمام المالكي ، والإمام الحنبلي، وفى الناحية الداخلية لباب السلام ، وتحت الكمر ، توجد هذه الكتابة [هذا البناء المبارك لمولانا السلطان قايتباى عز نصره فى سنه ؟] وهو باب روعة فى الفن ، صنع من النحاس الأصفر المصقول . وما أن يلج الزائر من باب السلام، إلى الداخل حتى يرى هذه الأشطر التالية ؛ والتى كُتِبت بخط التعليق الجلي على لوحة من الورق الأزرق فى قامة الرجل ، وقد عُلِّقت علي زاوية الجانب الأيسر :

« إذا كان لقوم العرب آيين ؛ هو هذا ياسيدى وقلة هم الذين يتحررون من الإرتباط بضره ، فأنت فخر المؤمنين ، وسيد الكونين أنت فليحشرنى الله .. لأمسح الجبين بقبرك .. وألا أبرحه .. » (١).

وعلى الزاوية اليمنى من نفس الباب نُقشت الآية الكريمة : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) وقد كُتبت الآية بالخط الجلى ، وامتدت حتى محراب سيدنا عثمان رضي الله عنه . ومن باب السلام حتى باب جبريل سُطرت سورة الفتح الشريف وعلى زاوية الشافعية من ناحية جدار سيدنا عثمان يوجد هذا التأريخ :

« فيض حقدن دوشدى تاريخ دعاء خير ايله دين ودعاسن معمى ايده رب العالمين [١٠٣٢] » (٣)

ولا توجد أى نوافذ فى الجدار الذى أمر ببناءه سيدنا عثمان ، ولكن هناك نافذة ، ذات إطار نحاسى ، تجاه المرقد النبوى الشريف . كما أن هناك نافذة ، أخرى ، أمام المقصورة ، المقامة عند قدمى النبى المباركتين (ﷺ) .

وتقام بهذا الجامع النبوى الشريف حلقات لأرباب العلم والعرفان ، ولقد كتبت أنا العبد الحقير على لوحة بالخط الجلى :

« سيَّاح عالم آوليا روحيچون فاتحه » (٤) وكتبت كذلك بالخط الجلي أمام المقصورة :

« شفاعت يارسول الله آوليايه ١٠٨٢ » (٥) . وبالجامع النبوى الشريف سبعة آلاف قنديل بالكمال والتمام .

* * *

(١) بودر آيين عرب برقومك اوله سيدى آز اولور كيم قبرى اوزره نبده آزار او لمايه سن كه فخر المؤمنينك سيد الكونينك حشر الله قبرينه يوزسوره م آزاد اولمايه .

(٢) سورة التوبة آية ٢١ .

(٣) تاريخ الدعاء بالخير مَنَّزل من فيض الحق فليجعله رب العالمين معموراً بالدين ودعائك « ١٠٣٢ » .

(٤) الفاتحة على روح آوليا ، رحَالة العالم .

(٥) الشفاعة لآوليا يارسول الله ١٠٨٢ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ (*)

لتبدأ أولاً فى بيان سبب بناء مخزن السر الإلهى هذا ؛ فلقد نزلت الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ (**) فى السنة الرابعة عشر للهجرة النبوية فى حق أهل بيت المصطفى ؛ أى فى حق سيدنا على ، والحسن والحسين وفاطمة الزهراء .

ولما كان هناك احتمال فى المستقبل أن تتوحد كلمة المشركين ، والمنكرين ؛ ويحاولون إصابة جسد النبى الطاهر بأذى ؛ لذلك ؛ فقد قرر أهل بيته الكرام ، وصحابته الميامين ، ضرورة المحافظة علي الجثمان الطاهر ، فبنوا قبةً ، كبيرةً ، تقيه شرور المنكرين الحاقدين . ثم أضاف المأمون بن هارون الرشيد [١] العباسى إليها المبانى . وعندما تولى نور الدين شهيد [٢] الحكم ، يُقال أن الملعون عدو الدين

(*) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(**) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

(١) المامون بن هارون الرشيد ؛ ١٧٠ - ٢١٨هـ= ٧٨٦ - ٧٣٣م .

هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد ، هو السابع بين الخلفاء العباسيين ، والإبن الثانى للخليفة هارون الرشيد ولد سنة ١٧٠هـ= ٧٨٦م . درس العلوم والآداب منذ صغر سنه على أيدى مشاهير علماء عصره . كما كان واقفًا وقوفًا كاملاً على الأدب العربي والفلسفة وسائر العلوم الإسلامية . تولي منصب الخلافة فى بغداد سنة ١٩٨هـ= ٨١٣م، عيَّن وهو فى خراسان عليٍّ بن رضا القاظم « ﷺ » وليًا للعهدوهو الذى أمر تبديل الملابس الرسمية من اللون الأسود إلى اللون الأخضر ، وكذلك العلم ، كان عادلاً وحكيمًا طوال فترة حكمه . أمر بترجمة الكثير من الكتب عن اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية إلى اللغة العربية وكان يمنح المترجم وزن الكتاب الذى بترجمة ذهبًا . أسس المجالس العلمية ، وكان يحضر بنفسه جلساتها العلمية . مرض أثناء توجهه إلى محاربة الروم . وتوفى هنالك . ودفن بالقرب من طرسوس . يُعتبر عصره عصر ازدهار للعلوم والفنون ، وتكاملت فى عصره معالم الحضارة الإسلامية . «المترجم»

(٢) نور الدين شهيد : هو نور الدين زنكى ، ونور الدين محمود زنكى ، الملك العادل أبو القاسم بن عماد الدين زنكى بن اقسنقر ؛ الإبن الثانى لعماد الدين زنكى مؤسس دولة الآتابكة فى نواحى الموصل والجزيرة . ولد سنة ٥١١ هـ / والده سنة ٥٤١ هـ .

فتولى أخوه سيف الدين عرش الموصل ، وقام هو بتخليص حلب من بنى الأرقط ، وأسس بها مُلكًا ، وكون دولةً بعد ضم حماة ، وحصب ، وبعلبك ، ودمشق . واستطاع ان يستخلص مدنًا وبلاداً كثيرةً من الصليبيين منها مرعش ، والرقة ، ويانياس . كان نور الدين ملكًا ، شجاعًا ، وعادلاً ، محبًا للعلم ، والعلماء ، والأدب ، والأدباء ؛ صاحب خيرات كثيرة ، مما جعل - حتى - أعداءه يبهرون بعدله ، ومنجزاته . أنشأ الكثير من المدارس والجوامع والمبرات فى كل من حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبعلبك . كما أمر بإنشاء مستشفى كبير فى دمشق ، أوقف عليه أوقافًا كثيرةً ، وجلب إليها أشهر أطباء عصره . سار على منواله صلاح الدين الأيوبى فى مصر . توفى نور الدين سنة =
٥٦٩ هـ

المدعو البابا ، قال فى أسبانيا « مهما تكن التضحيات فإننا سنُقدم الغالى ، والنفيس ، وندرب الفدائيين ، والمتطوعين اللازمين ، وليذهبوا إلى المدينة ليعيشون فيها فى عزلة عن الناس ، ولكن بالقرب من قبر محمد وليقوموا بحفر نفق تحت سطح الأرض . ولنسرق جسد محمد ، ولنحضره إلى روما » .

كان البابا الملعون يعرف كثيراً من اللغات . وقد قام فعلاً ؛ بإرسال عشرين فدائيًا من رجاله ، وأتباعه ، أولاد السفاح . كانوا جميعًا ، وكأنهم من الشياطين الحمر ، ذهبوا أولاً إلى مصر ، ومنها ركبوا الحمير ، ووصلوا إلى المدينة مع الحجاج . قدَّم عشرة منهم هداياهم إلى شيخ الحرم (*) وقد تدثروا فى زى العلماء . فقام شيخ الحرم بتخصيص مكان فى الحرم الشريف . أما العشرة الآخرون ، فقد ظلوا خارج المدينة ؛ يشتغلون بزخرفة المبانى وتكليسها وحمل القمامة . استمروا ثلاث سنوات فى حفر الأرض ، وشق نفق تحت أرض المسجد النبوى الشريف ، حاملين التراب ، والأنقاض فى أكياس يبعدونها . وبينما لم يعد بينهم وبين قبرالمصطفى سوى ستة أزرع . هناك ، فى الشام ، يرى نور الدين شهيد النبى عليه الصلاة والسلام فى منامه وهو يخاطبه متفضلاً :

« يا نور الدين .. إن هؤلاء الملاعين يحفرون قبرى ، ويريدون أن يسرقوا جسدى ، لكى يهربونه إلى بلاد الكفر ، إنهض ، وإلحق بهم » ويريه النبى عليه السلام هؤلاء الملاعين ، واحداً ، واحداً . ينهض نور الدين شهيد ، ولم يُضيع الوقت سدى ، بل أعدَّ ستة آلاف رجل ، وقطع المسافة التى تبلغ خمس وعشرين مرحلة ، فى ثلاثة أيام ، وثلاث ليالى ، وكأنه العاصفة . وما أن وصل إلى المدينة المنورة حتى أولم

= بعد أن قضى فى الحكم ثمان وعشرين سنة اتسمت بالعدل وجلائل الأعمال . انظر : « شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام جـ٦ ص ٤٦٠٧ » . وهو الذى أمر ببناء « دار العدل » ، وعيَّن فيها محلاً للملك ومحلات لقضاة المذاهب الأربعة ، والمفتى ، لتجرى فيها أحكام الشرع . انظر : تاريخ جودت ، جـ١ بيروت سنة ١٣٠٨ هـ ص ٥١ .

(*) شيخ الحرم : Sayh-ül Harem

مصطلح إدارى كان ، وما زال يُطلق على العالم الذى يتولى أمور الحرم الشريف فى مكة المكرمة ، وكان هذا التعيين يتم من قبل السلطان ويحدد له راتبه ومخصصاته المالية جنبًا إلي جنب مع المهام الوظيفية . وكان يُطلق على العالم الذى يتولى أمور المسجد النبوى ، شيخ الحرم النبوى . ولما كانت الشام تقع على طريق الحج ، فقد أطلق هذا اللقب فى بعض العصور على والى الشام . انظر : محمد زكى باق آلين ، عثمانلى تاريخ ديملرى وتريملرى سوزتكى . جـ٣ استانبول سنة ١٩٨٣م) « المترجم »

وليـمة كبيرة ، ودعى إليها كل مَنْ في المدينة من الغرباء جنبًا إلي جنب مع الآهلين . وأصر على أن يصافح الحاضرين مُرحبًا ، ولكنه لم ير هؤلاء الأشخاص الذين رآهم فى رؤياه ؛ فسأل مَنْ حوله :

- «أهناك من فقراء المدينة من لم يحضر وليمتى؟» .

فأجابوه :

- «إن هناك عشر رجال ، مشغولون بالصوم ، والعباده ، منذ ثلاث سنوات ، يعيشون فى حجرة بمدرسة باب الشفاء ، وهم لا يأكلون ولا يشربون ، بل شغلهم الشاغل هو العبادة . .» . فقال نور الدين شهيد : «أسرعوا ، وأحضروا هؤلاء الرجال إلى هنا ، لينالوا صدقاتنا ، وليأكلوا طعامنا» .

وما أن مَثَل أمامه هؤلاء الرجال حتى تعرف عليهم ، فهاجم مقر إقامتهم ، فوجد مئات من الفئوس ، والكواريك ، والمقاطف ، والمعاول . وما أن أمر بإنزال العقاب بهم فورًا حتى انتفض واحد منهم - وقد خُيِّل للبعض انه على وشك الهلاك - وهجم على نور الدين ، وأطلق آخر النيران من بندقيته .

وتحت وطأة ما ذاقوا من عذاب ، وتنكيل ، اعترفوا بكل شئ ، وتم القبض على الآخرين الذين كانوا يتظاهرون بجمع القمامة على حميرهم . وتم كشف النقاب عن النفق الذى حفروه ، ودخل نور الدين شهيد بنفسه إلى هذا النفق الذى لم يكن قد بقى بين نهايته والقبر النبوى سوى خطوة واحدة . وأُجبر هؤلاء الملاعين على الكلام ، فأعترفوا قائلين : « . . نحن من رهبان أسبانيا . . منذ أن ظهر دين محمد ، ونحن لا يقرلنا قرار ، ولا تطمئن لنا نفس ، ولا يهدأ لنا بال . لقد أخذ العرب ديارنا ، وفتحوا أقدس بقاعنا . . فكرنا كيف ننتقم منهم ؛ وكنا حسب خطة ، وتدبير الراهب ؛ الأب ، سنقوم بتهريب جسد نبيكم محمد إلي روما . وبهذا الشكل كنا سنسترد القدس ، والأندلس ، وأفريقيا ، وسوريا ونتوطن بها نحن ، أما العرب فليعودوا ثانية إلى صحراءهم» .

تابعوا اعترافتهم قائلين :

«لقد وصلنا خطاب من الباب قبل شهر ، وأمرنا أن نستمر فى أعمالنا قائلاً لنا فى خطابه لو استطعتم أن تحضروا جثمان محمد إلى روما ، أو أسبانيا ، فإننا سنجعلها

هى الكعبة ،وسيأتى إليها سنويًا عشرات الألوف من العرب ، والترك ؛ وسنتقاضى من كل قادم مائة قطعة ذهبية . وسأوليكم على التربه » .

هكذا إعترف الملاعين . ثم توجهوا بالرجاء . والتوسل إلى نور الدين شهيد معبرين عن ندمهم ، سائلين إياه . . « – هل إذا أسلمنا تُطلق سراحنا ؟ » ولكن نور الدين لم يتجاوب مع توسلاتهم ، ولم يخدعه ندمهم ، كما لم يقتنع برغبتهم فى الإسلام حيث أنه يعلم أنهم جبلوا على الكفر ، ولُقّنوا الملعنة والخداع . فأمر بقتلهم جميعًا . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يعد يُسمح لأى يهودي ، أو نصراني بأن تطأ قدماه النجسة أرض مكة ، والمدينة الطاهرة .

نور الدين شهيد يشرع فى بناء الروضة المطهرة لسيد العالم وفخر الكائنات .. الرسول الكريم :

استقدم نور الدين شهيد أساتذة العمارة ، وأمهر حرفييها ؛ من الشام إلى مكة ؛ والمدينة المنورة ، وجمع من المدينتين المباركتين ، ومن الشام ، وحلب آلاف القناطير من النحاس ، والرصاص ، والحديد ، والقصدير . فى البداية قاموا بهدم القبة التى كانت مشيدة على قبر الرسول الكريم . وتركوا حوله مسافة عشرين ذراعًا . ثم أمر بحفر الخنادق التى كان عمق كل منها عشرين ذراعًا أيضًا ، وعرضها عشرة أذرع . ثم أقام القضبان على جهاته الأربع ، وجعلوها كالشبكة الحديدية ، وأصبح المكان المدفون فيه الجسد الطاهر ، وكأنه صندوق معلق – ثم جعلوا الشبكة الحديدية ، وكأنها حوض ، ثم تم صهر النحاس ، والقصدير ، والرصاص ، وصُبّ فى هذا الحوض ، حتى تحول إلى كتلة واحدة ، من البرونز ، أو النحاس الأصفر . وهكذا أصبحت الجهات الست ، لمقام الرسول الأمين من البرونز . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أمر بحفر خندق آخر يبدأ من الجدار الذى أقامه الخليفة عثمان بن عفان ، ﵁ ويصل حتى باب جبريل . ومن هناك حتى داخل الجامع ، وغطى هذا الخندق بقفص، أو شبكة حديدية ، قضبانها فى سمك خصر الإنسان ، حتى أصبح وكأنه سد الإسكندر . كما أقام فوق القبر قبة ذات مقصورة حديدية .

هناك آراء أخرى ، تدعى أن الذين قصدوا التعدى على جثمان النبى الأمين هم الرافضة . ولكن هذا الرأى خطأ تاريخى ، وليس له ما يأكده من الأسانيد ، والبراهين، وأن هذا التدبير من عمل الكفرة الأسبان .

وصف قبة حضرة سيد الكونين:

هذه القبة النورانية ، مقامة على إرتفاع خمسين ذراعًا ، مشيدة فوق تسعة عشر عمودًا ، داخليًا ، وخارجيًا . مغطاة بالرصاص المنقوش ، وبين الكمرات الموجودة على جوانبها الأربع – توجد مقصورة حديدية ، وقد سورت أطرافها بزخارف نباتية ، كالورد ، والسنبل والأرجوان ، والتلب ، وكلها مصنوعة من أسلاك فضية ، وحديدية رقيقة ، وتخيل للناظر ؛ أنها زهور حقيقية ، لا ينقصها إلا روائحها ، ولكن الرائحة التى تفوح ، ويعبق المكان بها ، وهى رائحة الحبيب الأزكى ، وناحية رأس النبى ، وفوق القفص الموجود لوحة فضية مكتوبة بالخط الجلى تقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وجوارها كتبت عبارة « هذا النقش قد أُعد فى زمن السلطان قايتباى » . ومرقد السيدة فاطمة الزهراء ، ومزارها ، ﷺ هوالآخر ، داخل مقصورة ، تقع جنوب المقصورة النبوية .

آداب زيارة الروضة المطهرة:

إن الرسول الكريم ؛ مكى ، مدنى ، قرشى ، اسمه محمد وهو محمود ، ولم يكن إسم محمد معروف بين العرب حتى ذلك التاريخ . كان يلقب بالأمين ، وبعد أن اصطفاه الله بالرسالة ، أصبح المصطفى ، أبوه هو عبد الله ، وجده الثامن والعشرين ، هو اسماعيل عليه السلام ، وجده التاسع والعشرين ، هو سيدنا ابراهيم الخليل وفى الليلة التى شرف فيه العالم بمقدمه (ﷺ) ، قامت قيامة عالم الكفر ؛ تهدم إيوان كسرى ، وأطفئت نار المجوس . أمه هى السيدة أمينة بنت وهب ، أما والدته فى الرضاعة هى السيدة حليمة السعدية عرج إلي السماء فى مكة ، وهاجر إلى المدينة، وهو فى الحادية والخمسين من عمره الميمون . بلغ فريضة الصوم فى السنة الثانيه للهجره ، وتحولت قبلته من القدس إلى الكعبة المشرفة . استمرت الرسالة النبوية ثنتا وعشرين سنة . حضر بذاته الشريفة ثمان وعشرين غزوة ، وخاض بنفسه غمار التاسعة منها . نزل جبريل الأمين بأوامر الله إلي وجه الأرض ثلاثين ألف مرة ، علي الأنبياء السابقين ، وسبع وعشرين ألف مرة على الرسول المصطفى وحده . والله أعلم . عاش عليه السلام ثلاث وستين سنة مباركة .

أما عن آداب الزيارة ، فعليك إذا ما أردت أن تؤديها ، أن تغتسل متطهرًا ،

وترتدى الملابس الطاهرة النظيفة . وأن تتمسح بالطيب الزكى الرائحة . وأن تتجه بالقلب ، والروح ، والفؤاد معًا فى التوسل ، والدعاء . كن متأدبًا ، وأنت فى حضرة المصطفى ، فكيف تكون وأنت ماثل بين يدى السلطان ، أوملك دنيوى ، فيجب عليك أن تكون فى وجل ، وخجل ، وتأدب ، يزيد عن ذلك ألف مرة ، لإنه عليه السلام ، لم يمت إنما غيَّر الدنيا فقط - فقد سُمِع صوته الرخيم من قبره المبارك كثيراً .

هكذا ؛ ما أن تطأ قدماك الجامع النبوى الشريف ، من باب السلام . وما أن تتراء لك قضبان المقصورة ، عليك عندئذ أن تسير الهوينا من وراء دليلك ، وأنت تُردد بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ (*) . ولابد أن تكون فى صحبة مطّوف يقوم لك بدور الدليل . (بيت) .

من لم يترك المحبوب لا يعرف طريق الحانه

ولا يستطيع كل انسان أن يعرف طريف السلطان بلا دليل (١)

ضع يديك على صدرك ، وعند إقترابك من المقصورة ؛ إقرأ هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (**) وانحنى قائلاً : «السلام عليك يارسول الله» ، وتقدم رويداً ، رويداً ، داعياً متوسلاً ، ولا تحبس دموعك الجائشة إن انهمرت . وعندماتصل إلي المقصورة ؛ إقرأ السلام قائلاً :

«السلام عليك يا رسول الله ... السلام عليك يانبى الله ..» استغفر ، ادعو ، توجه بالدعوة ، والتوبة ، والتوسل وأنت تمسح على وجهك بكلتا يديك . ثم عليك أن تخطو خطوتين ، شرق المقصورة ، لكى تُسلم على سيدنا الصديق .

زيارة سيدنا أبى بكر الصديق:

يرقد سيدنا أبو بكر الصديق ، أيضاً ، داخل هذه المقصورة . فعلى الزائر ما أن يصل إلي جواره حتى يُحى قائلاً : «السلام عليك ياسيدى أبا بكر الصديق» وأن يقرأ الفاتحة ، ويرجو الشفاعة ، ويهبها إلى روحه الطاهرة .

(*) سورة الإسراء آية ٨٠ .

(١) [جانينى ترك ايتمه ين حانه اولماز آشينا بى وسيله هركيشى سلطانه اولماز آشينا] .

(**) سورة الاحزاب آية ٥٦ .

كـان إسـمـه الأول ﷺ عبـد الكعبـة ، ثم سمـاه الرسول عبـد الله ، وكانوا يطلقون عليه ابن أبي قُحافة ، ويتـصل نسبه بنسب النبي ﷺ عند كعب . لُقِّب بـ « الصِّديق » لأنه أول من صدَّق النبي ﷺ . « بيت »

هـو الصِّديـق الأكبر فـى الصداقـة وقـد جعلـه النبـى ولـىَّ العهـد

ولقـد أصبح خليـفةً لرسـول الله ﷺ . توفى ﷺ سنة ١٣ هـ = ٦٣٤م . وفى ليـلة وفاته ، صـدح صـوت من الروضـة المطهـرة ، ، قبـيل الصبـاح ، وهو ينـاديه « تعـال إلي جوارى » . وقد سمع كل سكان المدينـة هذا الصوت . هذا ، وفى الأثر أن عمر ﷺ عنه بينما كـان يُنزل الصِّديق ، إلى جوار المصطفى ، بدت له يـد الحبيب الشـفيع وهى تُشيـر إلي جـواره ، وتـشد طرف ثوب الفـاروق ﷺ فيـفـهـم أنه سـيُدفن هو الآخـر فى هذا المكان الطاهر .

على بُعـد خطوتين نـحو الشـرق أيضًا ، يرقـد سـيـدنا عـمـر الفـاروق ، تحت القبـة المبـاركة ، مع الحـبيب الشفـيع « ﷺ » . وعلى الزائر ، أن يُحى قـائلا : « السلام عليك يا عـمـر الفـاروق » ويـقـرأ الفـاتحـة على روحـه الطاهرة . وعنـد طرفى قـدمِى الرسـول المباركتين يوجد « مقام جبريل » .

وهو داخل المقـصورة النبـوية . ويجب عليك أيها الزائر أن تقرأ الدعاء فى خشـوع وتوسل « السلام عليك يا جبريل الأمين » . بعدها يتوجه الزائر ، بالدعـاء الذى يتوخاه لنفسه ، ولأهله ، والأقربين فى الدنيا ، والآخرة . وبعد أن يفرغ من دعاءه ، وتوسله ، يتجه نـحو الشـمـال ، بسبع خطوات حيـث تكون فاطمـة الزهراء ، كـريمة ، وحـبيبة ، رسـول الله . وجسـدها الطاهر مسجى تحت القبـة النبـوية أيضًا ، ولكنهـا فى مـقصـورة خاصة بهـا . يقترب الزائر بخضوع ، وخشـوع ، وأدب ، ويُحى قائلاً : « السلام عليك يافـاطمـة الزهراء ، يابنت رسـول الله . . » . ثم يـقـرأ الفـاتحـة ، واهبًا ، متـشـفـعًا . ومن عادات أهل المدينة ما أن يولد لأحدهم بنتًا حتى يُحضرونها إلى الحرم النبوى الشريف ويقـفون بها ساعة أمام مرقدها الطاهر . وإليها أي إلي السيـدة فاطمـة الزهراء . يصل نسب كل السادات الكرام .

مناقب سيدنا عمر الفاروق :

تولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق سنة ١٣ هـ للهجرة النبوية . وكـانت وفاته سنة ٢٣ هـ = ٦٤٣م .

أصبح مقدمًا على العالم أجمع بعدله

ثـم كان نائبـًا .. واليًا علي مكة

والدته ؛ هي جسيمة بنت هاشم ، وأبو جهل هو خال سيدنا عمر ، وكان النبى المصطفى هو الذى لقبه بالفاروق ، لإنه كان يفرق بين الحق والباطل . وقد كانت من عادة النبى الكريم ، أن يلقب صحابته ، بألقاب عرفوا ، واشتهروا بها . وسُمى أصحابه الذين كانوا يقرأون عليه القرآن بالحفظة . وكانت بنات سيدنا عمر ، من الحفظة ، الحافظات ، اللائى حفظن القرآن ، اشتهرن بالذكاء ، وكان سيدنا عثمان عند جمعه القرآن يسمّع لهن ، ويأخذ عنهن ، وقد استُشهد سيدنا عمر ولقى شهادته على يدى أبى لؤلؤة الفارسى المجوسي سنة ٢٣ للهجرة .

وعلى مسافة ثلاث خطوات من كوشة السيدة فاطمة الزهراء يوجد مقام أهل العرفان :

مقـام أهـل العرفـان :

عليك أيها الزائر أن تقرأ الفاتحة بجوار هذا المقام على أرواح أهل العلم والعرفان . ثم تُوزع الصدقات سرًا ، على الفقراء ، والمحتاجين الجالسين بجواره . وحذارى أن تُظهر تصدقك ، أو أن يراك أحد ، وأنت تُخرج النقود ، من حافظتك ... وإلا ، فإن كل ما معك لن يكفى ، بل ولسوف يمزقون ملابسك ، وهم يتزاحمون حولك ، وربما وصل بهم الأمر إلى إيزاء المتصدق . أو يصرخون ، ويولولون ، وهم فى حضرة رسول الله ﷺ . والواجب ، والأصح ، والاسلم ؛ أن يتصدق الزائر بأي شيء ، وهو فى داخل الحرم .

هناك سبعمائة خادم من الطواشية [1] يعملون في الحرم ومعهم ثلاثمائة مفتاح من

---

(١) الطواشية : طواشى "Tavasi" مصطلح يُستخدم فى السرايات والقصور بدلاً من الخادم . وكانت هذه الطائفة تختار من الذكور الذين يتم خصْيهم ؛ لكى يُحال دون قدرتهم على التناسل .. فالخدمة فى القصور معروفة منذ أقدم العصور ، وقد شاعت بين المصريين ، والبابليين والآشوريين القدماء . ثم راجت عند اليونانيين ، ثم انتقلت الطواشة منهم إلى الرومان والإفرنجة ، ويقال ان أول من قام بهذا العمل هو سميراميس الملكة الآشورية فى الألف الثانى قبل الميلاد .

ويُسجل التاريخ أسماء العديدين منهم الذين اشتهروا إلى الخدمة – بالقيام بأعمال جليلة ، وكانت لهم دراية ، =

الذهب . وعدا هؤلاء ألف خادم آخر للجامع ، فإذا ما شاهدوا المتصدق وهو يُخرج

= بوخبرة كثير من الامور ، وأن البعض منهم قام بأعمال فدائية وبطولية كبيرة . منهم « مَرْمَس Mermes الرومـانى ، وكافور الآخشيدى الذى حكم مصر ، وكان طواشيًا أسودًا ، وارجوان الذى كان طواشيًا أبيضًا وادار دفة الحكم لمدة طويلة فى أيام الحاكم بأمر الله . وكان منهم مَنْ تولوا المناصب العليا فى الهند وفارس والصين .. وكانوا من أصحاب النفوذ فى آواخر عهد الدولة الرومانية .

ويسجل التاريخ أيضًا أن بعض الخصيان « الطواشية » قد تولوا المناصب العالية كالصدارة ، والوزارة فى العهد العثماني أمثال على باشا الخادم ، وسليمان باشا الخادم .

وقد تم الاستمرار فى هذه العادة فى العالم الإسلامى لعدة أسباب ؛ كالخوف والغيرة فى الحرم السلطانى ، وعلى الرغم من تحريم ذلك بل تجريم عملية الخصى هذه إلا أن بعض الحكام قد غضوا الطرف عن منعها .. وكان زيد بن معاوية هو أول من استخدم الطواشية فى الإسلام ، فلقد استخدم يزيد طواشيًا يُدعى « فتح » كياورله . ثم تبعه الخلفاء الذين جاءوا بعده فى هذه السنة وهذا مما أدى إلى كثرة استخدامهم فى العالم الإسلامى .

ولما زادت الرغبة فى استخدامهم ، زاد تجار الرقيق من اليهود فى أسعارهم ، وبالغوا فى ذلك . وكان هؤلاء النخاسون اليهود يخصون الذكور من العبيد الذين يجمعونهم من شتى الآقاليم المباح فيها تجارة الرقيق .. ويبيعونهم بهذا الشكل .. وقد لاقت رواجًا كبيرًا على أيدى هؤلاء التجار اليهود .. وأسسوا مجموعة كبيرة من المستشفيات للقيام بهذه المهمة . وكانت اشهرها هى تلك التى تأسست فى مدينة ويردون "Verdun" . وقد اكتسبت شهرتها خلال سنوات الحرب الفرنسية – الآلمانية . ولقد نشط تجار الرقيق خلال هذه الحرب ، وجمعوا أطفالاً لا حصر لهم ، وقاموا بخصيهم ، وقد مات الآلاف منهم من جراء هذه العمليات الوحشية ، ومَنْ بقى منهم على قيد الحياة ، كانوا يرسلون بهم إلى اسبانيا حيث يباعوا للعظماء ، والاثرياء بثمن باهظ . ثم رويداً ، رويداً راحت عمليات تبادلهم كهدايا مثل الخيول أو أدوات الصيد وما شابه ذلك . .

فمثلا كان حكام الفرنجه لكى يداهنوا الحكام العرب المسلمين فى الاندلس كانوا يبعثون لهم مجموعة من الطواشية ضمن الهدايا التى يبعثون بها إليهم . فعندما أراد حاكم برشلونه ، وطارغونه تجديد الصلح مع الخليفة المستنصر فى الأندلس فقد أرسلا له عشرين طواشيا من أطفال السلاو ، وعشرين قنطارًا من الفراء الثمين ، وكان الخلفاء يشكلون منهم فرقًا خاصة لخدمتهم والعناية بأمور القصر والخدمة داخله . وكانت طوابير الطواشية تحتل مكانها بين الطوابير الآخرى فى الاحتفال بالجلوس على العرش ، أو تعين وليًا للعهد أو سائر المناسبات الآخرى .

كان أكثر الطواشية الذين جلبوا إلى العالم الإسلامى يُحضرن من الأندلس حيث تتم عملية الخصى فى الأماكن القريبة منها . أو من ناحية جوراسان حيث كان بعض تجارها يشترون العبيد من بلاد السلاو ويقولان بهذه العملية لهم، ثم يبيعونهم .

ولابد من الاشارة أيضًا . إلى أنهم كانوا يتدخلون فى شئوون الحكم والإدارة لما يملكونه من نفوذ بسبب حساسية الاماكن التى كانوا يخدمون فيها .

كما يُقال ان بعض المتعصبين المسيحيين كانوا يقومون باجراء هذه العمليات لانفسهم لقتل الرغبة الجنسية ، والشهوة فى داخلهم ولكى يوقفوا حياتهم للحياة الآخروية .. ومن أشهر هؤلاء اوريجان "Origen" الاسكندرانى وكان عالمًا كبيرًا فى العقائد المسيحية . بل شهدت العصور الوسطى بعض من المذاهب الدينية المسيحية التى كانت تقوم بهذه العمليات لوقف حياتهم على العبادة فقط . وكان لهم صوتهم المسموع فى ايطاليا .

أما فى الدولةالعثمانية ، فقد كان هناك الآغوات البيض = أى الطواشية الذين يجلبون من البلدان الأوروبية ، ويطلق عليهم آ ق آغا = الآغا الأبيض ، أما الطواشيةالسود ، فقد كان يطلق عليهم « خادم آغا » أى الآغا الخادم . وكانوا يجلبون من الحبشة أو من أفريقيا عامة .

كان مراد الثانى هو أول من استخدم الطواشية البيض للخدمة فى السراى . قاموا بالخدمة فى أول الأمر ، =

نقـوده علنًا ، فلربما أصـابوه بمكروه ، وقـد يصل الأمـر إلى مـا هـو أخطر ، وأهـم من النقـود ، حيث أن أهل المدينة جـميـعًا ، أغنيـاءهم وفقراءهم ينتظرون مقـدم الحجيج سنويًا ؛ ومـهـما بلغت الصدقات ، ومـهـما بذل الإنسان في سبيلها فـهى فى محلهـا ، ولها ثوابها ، ولكن من الأفضل ، والواجب ، أن تكون سرًا .

الروضـة المطهـرة مـن الداخـل:

لقد تيسـر لى أنا العبـد الفـقيـر إلى ربه الدخـول إلى داخل الروضـة المطهـرة مع ولى النعمة حسين باشا .

ولقـد ارتدينا مـلابس طاهرة ، نظيـفة ، حـلالاً ، وكنا نردد فى خـشـوع وبهـجـة ، الصلوات الطيبات على فخر الكائنات . وقد أقبل شيخ الحرم ، وفى معيتـه ثنتا عـشر طواشيًا ، وهـم يحـملون المبـاخر ، ومراود الطيب ، واصطفـوا أمـام المقـصـورة النبـوية .

= ثم رويداً رويداً بدأوا يكلفون بأعمال ادارية داخل السراى ، وفى أجنحة الحريم .. وقد وصل البعض من هؤلاء الخدم البيض إلى الوزارة ، والصدارة العظمى ..

أما الطواشية الزنوج فقد كانوا فى أدنى المراتب فى الخدمة ، وكان يُطلق عليهم (الأدنى) . وكان الخادم الجديد يمثل فى بادئ الأمر بين يدى" آغا در السعادة » أى بين يدى خادم العتبة السلطانية . ثم يُسلم إلى « مربى الأوضة = اوضه لاله س» ، وبعدها بصبح من الخواص . ثم يُرسل أقدمهم تباعًا إلى « الأغا غلام الباب الرئيسى » لقيده فى سجلات السراى . وكان جميع هؤلاء من الطواشية أى من الخصيان ثم يُربون على الطاعة ، والخضوع وأول دروسهم تقبيل اليد ممن هم أقدم منهم من المربيين ، وهم آيضًا من الطواشية . وكان يُطلق على الحديث منهم الآغا الآعجمى » أى الذى لا يعرف شيئًا بعد .

وكان خمسة منهم يمسكون نوبة الخدمة على باب الحريم فى السراى السلطانى ، أو على باب الحريم فى أى قصر . ويطلق علي أقدمهم « قلفة النوبة » . وكان آغا عتبة السعادة هو الذى يسلمهم المفاتيح ويتسلمها منهم عند تجديد النوبة .

يتلو فى المرتبة « الأوسط » ؛ وهم بدورهم أربع درجات ، أقدمهم يتولى تنظيم النوبتجيات ، النوبات أمام الأبواب ، ويشرف عليهم ، رهم المسئولون عن فتح وغلق الأبواب .. ثم يتدرج الأقدام فيعيِّن غلامًا على الباب الرئيسى ، ويصل إلي أن يكون هو المسئول عن بوابة السراى الرئيسية . ثم يحظى صاحب الحظ الوفير منهم على لقب «آغا عتبة السعادة » . وهذه أعلى منزلة فى السراى السلطانى .

وفى سنة ١١٢٧ هـ= ١٧١٥ م لما تولى داماد على باشا والى مصر الصدارة فى عصر السلطان احمد الثالث ، أصدر أوامره بإلغاء نظام الطواشة لكى يتخلص من لقب الطواشى الذى كان يلازمه خاصة وان الطواشية الزنوج أى السود كانوا يجلبون من السودان إلي مصر ، ومنها إلى بقية ولايات الإمبراطورية . بعد أن يتم خصيهم فى مصر . بالرغم من هذا المنع ، إلا أن هذا لم يمنع الدولة العثمانية ، وإن كان بشكل اقل .

وكان آغا در السعادة أى آغا عتبة السعادة عند تغيير السلطان ، أو كِبَر سن الاغا يبعث به للعمل والخدمة فى الحرمين الشريفين . « المترجم »

وقام شيخ الحرم بلف حسين باشا بفوطة بيضاء ، ثم سلّمه مكنسة ، وكنا – والعبد الفقير – سبعة أشخاص ، وكل منامعه مكنسته . وناب شيخ الحرم عن السلطان ، وأخذ هو الآخر مكنسة في يده . وفُتح باب المقصورة ، ودخل الإثنى عشر طواشيًا ، ثم أغلقوا الباب ، ولم يُسمع لأى إنسان آخر ، بالولوج إلى الداخل .

وكانوا يرددون عند دخولهم « دستور يا بنت رسول الله » أي الإذن يا بنت رسول الله حيث أنه لابد من المرور من جوارها ، عند التوجه إلى مقصورة النبي الكريم .

قبَّل الباشا [1] ، والعبد الحقير ، الأرض بين يدي خير الكائنات طالبين الشفاعة . ثم بدأنا في تنظيف المكان . وكان مجموع الذين في داخل المقصورة قد أصبح خمسة عشر فردًا . ولكنني أنا العبد الفقير ، فقد فقدت وعي ، وجاشت روحى من العشق والجوى ، وكنت كلما عدت إلي نفسي ، ووعيت ما حولى ، عدت إلى التوسل بشفاعة الحبيب المصطفى . ثم أشعلت ثلاثة قناديل . وفى وسط القبة الطاهرة ، تمامًا ، تتدلى ناموسية « كله » رقيقة ، لم تر عيناي ، لها ، مثيلاً ، فى طول الأرض ، وعرضها سواء من ناحية الإبداع ، فى الصنع أو القيمة . ولا يُسمح قط بدخول أي أحد تحتها ، حيث أن جسد الحبيب المصطفى مسجى فى صندوق مغطى بجزء من غطاء الكعبة الشريفة الأخضر .

فى هذا المكان الطاهر ، من المجوهرات ، والشمعدانات الذهبية والقناديل ، المرصَّعة ، ما لا عين رأت ، ولا خطر على عقل بشر ، ولا يعرف حصرها أو قيمتها سوى الله سبحانه وتعالى .

ويدخل المسئولون ، والخدم ، هكذا مرة واحدة كل عام ، ليزيلوا ما قد يكون قد علق بهذه التحف النادرة من غبار .

وسيدنا أبى بكر ، وعمر ، راقدان هنا تحت القبة أيضًا . أما السيدة فاطمة ، فهى

---

(١) الباشا : Pacha = Pasa لقب كان يُمنح لكبار الموظفين فى الدولة العثمانية ؛ سواء من المدنيين أو العسكريين ، ويقول هامر ؛ إنها تدل على الشخص الذى ينيبه السلطان فى إدارة أمر ما ، أو القيام بمهمة محددة . على اعتبار أن السلطان يعتبر موظف فى الدولة بمثابة قدمه الراسخ فى انحاء البلاد . وكان السلطان يحب تشبيه موظفيه ببعض أعضاء جسده؛ فالموظفون الكبار عينيه ، ورجال الشرطة اذنيه ، ورجال الماليه يديه ، والجنود قدميه .. وكان هذا اللقب يمنح لبعض العلماء والفنيين تعظيمًا لهم ، وتقديرًا لدورهم . وفى بعض فترات التاريخ العثمانى تم وقف هذا اللقب على الوزراء ، والصدر الأعظم فقط . « المترجم »

خارج القبة . وبين الكلّة المسدولة ، والمقصورة الخارجية ثلاث خطوات ، وقد رُصِّع هذا المكان بأثمن الأحجار ، الكريمة ، كالعقيق ، والفيروز ، والزبرجد ، والكرستال ، والبلور ، والثريات ، ولذلك لم يفرش هذا المكان بالسجاد ، أو ما شابه ذلك ، أما الكرات الذهبية ، والمجوهرات ، والقناديل المعلقة ، داخل القبة ، من ذلك النوع الذى لا مثيل له ، ولم يخطر على عقل بشر ، ومن يراها يفقد وعيه ، وإدراكه . لم يكن فى القبة مكان خالٍ ، بل لقد علقوا هذه التحف النادرة ، فى سلاسل ، متدلية ، من زوايا القبة . ويمتلئ المكان بالشمعدانات الذهبيه الخالصه التى تصل أطوالها قامة الرجل أما الغطاء المسدول أمام الرسول الكريم ، فقد ثبت فيه قطعتين من الماس ؛ إحداهما سبعون قيراطًا ، ويعلم الله أننى نظرت إليها ليلاً فإذا القبة قد أُنيرت من أشعتها وضياءها . بل يردد البعض ، أن بعض الدارسين يقراوون على نورها .

يصل ارتفاع القبة خمسين زراعًا ، وقد نُقشت على أطرافها الآية الكريمة ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ (١) .

وهكذا بعد أن تمت الزيارة ، استأذنت خارجًا .

وفوق المقصورة نُقشت الآية الكريمة ﴿ **الذين يتبعون النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبْا عندهم فى التوارت والإنجيل** ﴾ .

كما توجد لوحة معلقة مكتوب عليها ﴿ **وكفى بأولئك شهيدا** ﴾ . هذا وقد كتبت أنا – العبد الفقير – بالقدر الذى سمحت به قدراتى . ولم أنس قط ؛ أننى قد كنت ، وأنا فى سن الخمسين ، وأنا فى شبابى – قد قمت بالآذان فى رؤياى ، وأنا فى الحضرة النبوية ، وقبلت يديه الكريمتين « ﷺ » وبشرنى عليه السلام قائلاً متفضلاً : « الشفاعة ... الزيارة ... السياحة .. الفاتحة .. » ،حمداً وشكراً لله فقد تحققت بشرة الحبيب هذه السنة .

ومنذ أن خرجنا ، من خيامنا ، فى قلعة مزيرب ، بالشام ، وحتى الآن قد انقضى سبعة عشر يومًا ، أو كادت . وخلال هذه المده ختمنا القرآن سبع مرات ؛ وإن كنت قد تركت فى إحداها و « والضحى » وفى الآخرى « يسين » وفى بعضٍ « الإخلاص » فقد يسر الله لى إتمامها جميعًا هنا ، والحمد لله ، وقد أهديت ثوابها جميعًا إلى روح

---

(١) سورة النور آية ٣٥ .

الشفيع المشفع ، وسألته عليه السلام الشفاعة . هذا وقد يسر الله لى إتمام الختم الشريف ، عند صلاة الظهر ، في محفل المؤذنين . وقد شرح الله صدرى ، وفتح عليَ ، بدعاء من البحر الطويل ، وما أن رددته ، وردده الجمع ، الغفير ، من الحجيج ، الملتفين حولى ؛ حتى إغرورقت أعيننا جميعاً بالدموع ، وبهرتهم الدهشة .

هنا تمت كل مناسك زيارة الحرم النبوي الشريف

* * *

تعريف بالمباني الموجـودة داخـل قلعـة المديـنة

أولاً المدارس:

خارج باب الرحمة ، توجد مدرسة سيف الدين سلطان ، وقد كُتِب على بابها الآية الكريمة ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها ...** ﴾ وتحت الآية (أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة الأمير الكبير المحتاج إلى عفو ربه الرحمن مالك الأمر سيف الدين خوبان ، والخاتون المعظمة سنة أربع وعشرين وسبعمائة ٧٢٤ ...) .

وبجوار هذه المدرسة تماماً مدرسة السلطان قايتباى . وخارج باب جبريل توجد مدرسة صوقوللى محمد باشا [١] . وبالقرب من باب السلام يوجد مبنى الوقف الكبير للسلطان محمد الثالث [٢] . وهناك بالتمام والكمال مائة وثمان عشرة مدرسة .

ويقع داخل القلعة حمامات [٣] ، وبضع خانات [٤] . وشوارع المدينة داخل القلعة ذات أرصفة بيضاء ، نظيفة جداً ، ودائماً ما تُرش هذه الشوارع والطرق بالماء . وبها عشرون كتَّاباً « مدرسة للصبية » وسبع « دور للقراء » دار القراء ، وسبع دور

---

(١) صوقوللى محمد باشا : صقوللى محمد باشا = صوقللى محمدپاشا - محمد باشا صوقللى :
تولى الصدارة لمدة ١٥ عامًا فى عهود كل من السلطان سليمان القانونى وسليم خان الثانى ومراد خان الثالث ، يُنسب إلى قصبة صوقل فى البوسنة ، تربى فى السراي السلطاني ، وعيِّن فى الضواحي بلقب قبوجي باشا ، ثم أنعم عليه بالوزارة لما أبداه من شجاعة وحسن تدبير خلال فتح طمشوار فى بلاد الروميلى . ثم عيِّن قبطانًا سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م ثم صاهر السلطان بزواجه من « سميخان سلطان » سنة ٩٦٩هـ - ١٥٦١م ثم أصبح الوزير الثانى عقب ذلك . ثم رُقي إلى مرتبة الصدارة سنة ٩٧٢هـ = ١٥٦٤م عندما توفى السلطان سليمان كتم خبر الوفاة حتى تم جلوس السلطان سليم الثانى على العرش . أدار أُمور الدولة بقدرة واقتدار . شارك فى فتح العديد من مدن ودويلات البلقان . إستشهد بخنجر أحد المجازيب سنة ٩٨٧هـ = ١٥٧٩م . مدفون فى ضريح خاص به بجوار أبى أيوب الأنصارى . « المترجم » .

(٢) السلطان محمد الثالث : (١٥٦٦ - ١٦٠٣م = ٩٧٤ - ١٠١٢ هـ) والده هو السلطان مراد الثالث وأمه هى صفية سلطان . ولد فى ١٥ ابريل سنة ١٥٦٦ م ، تولى العرش فى ٢٧ يناير سنة ١٥٩٥ م . وجه حروبه إلى شبه جزيرة البلقان . فتح ، وأعاد فتح العديد من مدنها . تم القاء حجر الأساس للجامع الجديد « بنى جامع » فى عهده . كان يوقف الكثير من غنائم فتوحاته على الحرمين الشريفين ، وعرف عنه حبه للخير ، وتوفى ٢٠ / ٢١ من شهر نوفمبر سنة ١٦٠٣ م .

(٣) الحمامات : أقام العثمانيون أسوة بالحكام المسلمون الآخرون حمامات كثيرة ومتطورة حول الينابيع ، وكان بعضها له قباب مزينة من الداخل بآشكال النجوم والفصوص الحلزونية الشكل . وكان يصل قطر قباب بعضها ١٦ متراً ، ومحمولة على دلايات منشورية ، وبعضها رحيبة وذات زخارف كثيرة من الداخل .. وكانت تُقام بعض الحمامات =

بجوار عيون المياه الدافئة .

للحديث «دار الحديث» وسبعون نُزْل لعابرى السبيل والغرباء ، ولبعضها أوقاف كثيرة تمكنها من أن توزع على الحجيج عسل ، وشربات محلى بالسكر . وهناك ثلاثة أماكن ؛ بها صنابير مياه ، يُنزل إليها بحوالى عشرين أو ثلاثين درجة من درجات السلالم الحجرية وتصلها المياه من ماء «عين الزرقاء» التى تصل إلى المدينة ، وهم من خيرات السلطان سليمان . وعلى بعض الأسبلة (١) كتبت الآية الكريمة ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ (*) وعلى البعض الآخر نُقشت الآية ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ﴾ (**) .

وفى الواقع ؛ ليس هناك فى المدينة ما هو أعز ، وأندر من المياه وإذا ما قام واحد من أصحاب الخيرات بتوصيل الماء إلى مسجد الرسول ﷺ وبنى حوضاً للمياه فيكون له ثواب ألف حجة ، وكم من الحكام قد وفدوا إلي هذه الديار المشرفة ، ولكن لم يتيسر لأى منهم ، القيام بهذا الخير الميسر ، ولم ينل هذا الثواب . وبعض الحجاج الغرباء ينوون الوضوء ، ويتوقون الزيارة ، فيضطرون إلي شراء إبريق من الماء من أحد الفقراء ، وقد يصل ثمنه إلي أكثر من قطعتين من النقود ، ليتوضئ به ، فهم حقا يتحملون

= لقد اصبح للحمام التركى نمطه المعمارى الخاص به ؛ ويتكون فى الغالب من غرفة لتغيير الملابس ، على هيئة رواق كبير، ويعلوها قبتان ، الواحدة من وراء الأخرى ، وتتصل الأخيرة بالغرفة الدافئة ، وبها هى الأخرى قبة ترتفع فوق أعمدة تستند على الجدران ، ثم يلى ذلك غرفة ساخنة بها حوض الماء الساخن ، وتتسع الجوانب لإضافة حنيات ركنية، وتوجد فى قمة كل قبة كوة نافذة تسمح بدخول الضوء ، توجد فى الغرفه الدافئة ، وغرفة تغيير الملابس المجاورة ، أحواض تتوسطها النافورات فى الغالب . وكان للحمامات دور كبير فى الجوانب الاجتماعية إلى جانب دورها فى النظافة ، والطهارة ، والاغتسال .

ولسوف نرى تفصيلاً عن حماما ت المدينة فى كتاب مرآة المدينة الذى ستصدر ترجمته قريبا بإذن الله . «المترجم»

(٥) الخانات : كانت الخانات بمثابة النزل ، أو الفنادق المعدة لإستقبال الحجاج ، أو التجار وبضائعهم ودوابهم ، وبحيث تُغطى منشآتها كل هذه الاحتياجات . . وكان بعضها على طرق القوافل وداخل المدن .

(١) الأسبلة : حرصت الحضارة الإسلامية على تعميم الأسبلة ، والششم «عيون المياه» والصنابير فى كل البلاد ، وكانت تُبنى فى واجهات المساجد ، والمدارس . . وما تزال هذه المنشآت باقية إلى الأن وقد حرص السلاطين والخلفاء والحكام المسلمون على تعميمها . . وكان اسلوب البناء والنقش والزخرفة يتغير تبعًا لظروف المبانى التى الحقت بها . أما الأسبلة ذات الجوانب الأربعة ، فقد ارتفعت فى مواضعها كالڤيلا ، أو الأكشاك الصغيرة ، وسط الميادين العامة ، وأضفى هذا عليها فخامة وروعة ، وجهزت هذه الأسبلة بالماء الجارى وزخرفت واجهتها بالزخارف الجميلة ، وكان منها ذات الواجهتين أو ذات الشعبتين .

وسنرى تفصيلاً لها فى كتاب مرآة المدينة المنورة الذى ستصدر ترجمته قريباً إن شاء الله تعالى «المترجم»

(*) سورة الإنسان آية ٢١ .

(**) سورة الإنسان آية ١٨ .

مشقة جامة فى سبيل الحصول على الماء . ويعرض التجار الذين يفدون من أقاليم الدنيا السبعة ، بضائعهم فى المدينة ، والآهالى يعملون بالتجارة . وأبواب المدينة ، ومحلاتها مفتوحة ليلاً ونهاراً طوال أشهر رجب وشعبان ، ورمضان ، ويضيئون المدينة ليلاً بمئات الألوف من القناديل . ولكن العيد الحقيقى للآهالى هومجئ الحجاج المسلمين . حيث يأتى معهم المحمل [1] والصرة والهدايا ، والأعطيات . فيرتدى الآهالى أفخر ماعندهم من ثياب ، ويدعون الحجاج إلى بيوتهم ، ويعقدون معهم صداقات حميمة ، ويؤدون معهم مناسك الزيارة وهذا مما لا شك فيه يحقق لهم مكاسب عدة . والسلام

ضاحية المدينة المنورة:

وتقع هذه الضاحية قبالة القلعة ، وأطرافها الشمالية ، والغربية والجنوبية ، كلها عبارة عن قصور ، وبيوت ذات حدائق ، غناء ، وبساتين يانعة ، والمدينة عبارة عن سبعة أحياء ، بها ألفين منزلاً ثنائية الطوابق تُستجلب أشجارها ، وأخشابها ، من مصر عن طريق السويس ، إلى ينبع البحر ، ومن هناك بالجمال ، إلى المدينة . ويصنع أهل المدينة من هذه الأشجار ، والأخشاب منازلهم . وحول المدينة كلها ، ومن جهاتها الأربع ، وادى جاف ، وكأنه للمدينة بمثابة الخندق .

وفوق محرابه نُقشت الآية ﴿ **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً** ﴾ (*) . وليس له فناء ، ولكن له إيوان خارجى ، أما داخله فمفروش بالأحجار الصغيرة « الحصى » والدعوات فيه مستجابة لإن المصطفى (ﷺ) قد دعى بذلك .

---

(١) المحمل : المحمل الشريف : مصطلح إدارى يُستخدم للدلالة على الوسيلة التى كانت تُستخدم لحمل ، ونقل الصرة الشريفة ، وستارة الكعبة ، والهدايا المقدمة من السلطان ، أو والى مصر ، أو الحاكم ، أو الخليفة ، إلى الحرمين الشريفين، وأهل الحجاز ، والمجاورين ، والدارسين فى الحرمين ، وكانت هذه الأمتعة تُحمل على الجمال ، وكان السلطان فى الآستانه ، أو والى مصر يُشيع بنفسه المحمل الشريف عند سفره إلي الحجاز فى موسم الحج . وكان يرافق المحمل آلاى الصرة .. وكانت هذه المراسم تتم فى آواسط شهر شعبان من كل عام . وسط احتفالات ، ومراسم شعبية ورسمية بديعة . وكان كل والى يتولى شئوون المحمل ورعايته خلال مروره عبر حدود ولايته .. ثم يتم استقباله من قبل الوالى فى الولاية التى سيدخلها حتى يتم الاستقبال النهائى من قبل والى الحجاز وأمير مكة والشريف وآغوات الحرمين ، وقائد الحامية العسكرية فى كل من المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وسط حفاوة بالغة . (المترجم)

(*) سورة آل عمران آية ٣٧ .

غرب هذا الجامع يقع مسجد سيدنا أبى بكر الصديق ، وعلى بعد مائة خطوة وناحية القبلة من المسجد النبوى الشريف وعلى مساحة مسطحة يقع مسجد .... وهومسجد أنيق وبه قبة .

وبعض من المدارس التى كانت تبلغ ست وأربعين مدرسة قد تحولت إلى منازل . وبها ست مدارس « دار للقراء » وإحدى عشر « داراً للحديث » وعشرون مدرسة للصبية والأطفال . وجميع هذه المدارس مرتبطة بالصرة السنوية ، ولكل حصة محددة . وخيرات المدينة المنورة لاتُصادف فى أي مدينة أخرى .

وبهذه الضاحية حمام عام ، ولكنه لا يعمل طوال اليوم ، وبالقرب منه مدرسة « الخاصكية » [1] حيث ينام بها الحجاج . كما أن بئر سيدنا على بهذه الضاحية أيضاً .

وبها أربعة مبانى كبيرة ، إحداها من أثار السلطان سليمان ، وهو بالقرب من حمام مراد الثالث . ومن الخاصة السلطانية تُوزع الشوربة « الحساء » ولحم الضأن ، والأرز ، والزردة ، والعاشوراء على الفقراء ، والمساكين ليلاً ، ونهاراً كما تُوزع على الذين يسكنون داخل أسوار القلعة جميعًا ؛ غنى ، أو فقير خادم ، أومخدوم .

---

(١) الخاصكية « خاصه كى » Haseki مصطلح يُطلق على الجارية التى كان يستحسنها السلطان ، وتدخل ضمن محظياته.. كانت الفتاة التى تقدم إلى السراى كهدية أو تشترى تُسمى فى البداية « أعجمية » أى ما زالت خام ، ولم تدرب بعد . ثم تُصبح « قلغه » وفى النهاية تُصبح « خزينة دار » . وللترقى فى هذه المناصب كان الأمر يتطلب إلى جانب الجمال ؛ العلم والخبرة وحسن المعاشرة ، ومَنْ تروق للسلطان تصبح « خصكى أوخاصكى » أى خاصة ، أو محظيته . ويمكن أن يكون للسلطان أكثر من خاصكية ؛ ربما تكون أربع وحتى ثمان محظيات . وربما يختار السلطان من بينهن من يكن زوجاته ، وتكسب لقب « سيدة » بدلاً من محظية . وتُعيَّن لكل خاصكية أى لكل محظية حرمًا أو دائرة خاصة بها .

ومَنْ كانت تنجب للسلطان وليًا للعهد ؛ كانت تُسمى والده سلطان أى السلطانه الوالدة ، وظلت بعضهن محظيات أى خاصكية للسلطان على الرغم من حصولها على لقب والدة سلطان ، فليس من الضرورى أن يتم الزواج . وأول من فكر فى أن تكون الزوجة بعقد النكاح هو السلطان عثمان الثانى ، وإبراهيم ، وكانْ يعد السلطان محمد الفاتح . وقد أراد الأول بزواجه من إبنة شيخ الإسلام أن يجعل نسله يكون من زوجات ، وليس من محظيات – وكان السلطان إبراهيم إذا أعجبته خاصكية ، يعقد عليها ويتم العرس ، إلا أن هذه العادة قد استمرت حتى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، فحتى عصر هذا السلطان كانت زوجات السلاطين من الخاصكية ، وكان يُطلق على أطفالهن « خاصكى سلطان » وبعده تم اطلاق لقب « قادين أفندى » على سيدات القصر .

وكان من الأسرار المحرمه ، هو الأسر التى تدخل فتياتها إلى السراى .. ولم يكن يسمح بتداول المعلومات عن حريم السلطان على الاطلاق ، وذلك بهدف الحفاظ على نسب ، وسلالة الأسرة العثمانية الحاكمة .. « المترجم »

وبهذه الضاحية أربعون مضيفة ؛ يؤمها عابروا السبيل ؛ وأشهرها هى مضيفة المفتش محمد باشا التى تقع فى إيوان جامع الإميرال . وعلى بابها تاريخ منقوش ، ولكنى لم أتمكن من نقله ، وكتابته بسبب السرعه وخارج باب مصر ؛ يوجد سبيل الآغا (١) ، وقد نُقش على نافذته الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (*) . وعلى ناصية كِبْدِى « خاصكى سلطان » (٢) يوجد سبيل آغا در السعادة (٣) . كما

---

(١) الآغـا ؛ A´ga مصطلح عسكرى وإدارى كان يُطلق فى العهد الماضى على أصحاب المواقع الرفيعة فى الدولة . وكان هذا المصطلح ، « الآغوية » يحمل أهمية كبيرة فى الدولة العثمانية قبل فترة التنظيمات (١٨٣٩ م = ١٢٥٥ هـ) . وكان يطلق بصفة عامة ومطلقة على ضباط الانكشارية . ثم اصبح يُطلق علي الذين لا يعرفون القراءة أوالكتابة من أصحاب الثروة .

كما تدل الآغوية ، بين الشعب على السطوة ، والقوة والشدة ، وعلو الجانب من ناحية ، ومن ناحية أخرى على الكرم والوجاهة ، ويعتبر لقبًا بين التركمان ، وعلى الخصيان ، والطواشية ، وعبيد الباب .. وخدم الحريم فى القصور السلطانية.

أما فى اللهجة الجغطائية فمعناه ؛ الأخ الاكبر وفى اللهجات التركية الغربية يفيد معنى « أفندى » أو السيد ، ويحل محل « بك » لدى التركمانيين ، فى العصر التيمورى تدل على الأصالة ، وصاحب الشرف والمقام الرفيع ، وكان لقبًا للسيدة التى استرقها ثم تزوجها تيمورلنك .

وفى اللغة التركية العثمانية ، تُستخدم كلمة آغا للدلالة على كبير البيت والعائلة ، وصاحب الأرض الزراعية الشاسعة . كما كانت لقبًا للكثيرين الذين يقومون ببعض الوظائف الإدارية ، آغا البريد ، آغا الباب ، آغا البلوك ومنهم آغوات الحَرَم .؛ آغلت الحرم = آغوات الحَرَم ؛ مصطلح يُطلق على الطواشية اي الخصيان الذين يعملون كخدم فى الحرم؛ سواء أكان الحرم النبوى ، أوالحرم المكى . كما يُطلق فى العصر الحديث على الذين يتولون الخدمة ، والأمن فى الحرمين الشريفين .فى العصر العثمانى كان هؤلاء الطواشية يخدمون أولاً فى القصور والسرايات وعند تغيير السلطان ، أو بلوغ الآغا نفسه سنًا كبيراً كان يبعث به مع آخرين للعمل بالخدمة فى الحرمين الشريفين ، وكان لبعضهم نفوذ ، وثروة كبيرة استمدها من نفوذ وثروة السلطان الذى تربى فى كنفه.

ولما كانوا فى البداية يعملون فى خدمة سيدات السراى فقد كان يطلق عليهم إسم « خدم الحرم » أى خدم الحريم، ففى هذه المرحلة يكون المقصود حرم السراى .. وكانوا أغلبهم من الزنوج السود ، الذين كانوا يقدمون إلى السراى من قبل والى مصر ولكن قام الصدر الأعظم ابشير مصطفى باشا بمحاولة بابعادهم عن السراى ولكنه لم يوفق ، ولكن تمكن الصدر الأعظم الشهيد على باشا بالقضاء على هذا النظام فى عهد السلطان أحمد الثالث . وأصدر فى سنة ١١٢٧هـ = ١٧١٥ م أمراً صريحًا إلى والى مصر بإبطال خصى الصبيان الحبشيين . (المترجم)

(*) سورة الأنبياء آية ٣٠ .

(٢) خاصكى سلطان : خرَّم خاصكى ؛ إحدى زوجات السلطان سليمان القانوني . والدة كل من السلطان سليم خان الثانى ، وولي العهد بايزيد ، والاميره مهر ماه سلطان . من أصل روسي ، اكتسبت نفوذًا كبيراً بسبب جمالها وذكائها منذ كانت محظية . ولكنها لم توظف هذا النفوذ فى الخير طول الوقت . كانت سببًا فى إعدام كل من الصدر الأعظم إبراهيم باشا واحمد باشا . وكانت هى السبب فى قتل ولي العهد مصطفى ليخلو المكان لإبنها سليم . وهى التى تُسمى فى المصادر الغربية د « روكسلان » (Roxelane) . وهى يهودية الأصل . (المترجم)

(٣) آغادار السعادة : مصطلح عسكرى ، وإدارى كان يُطلق على كبار القادة والموظفين فى السراي العثمانى . وكانت =

رأيت أن هناك سبيل ماء ، ملحق بكل خان ، أومدرسة ، وتُجلب مياهها من ماء «عين الزرقاء» . كما يوجد بها سبعة أحواض ، كما أن الأبار تنتشر ، حيث تمر مياه عين الزرقاء . وبها حوالى مائة دكان أغلبها مقاهى ، ودكاكين قصابين ، ومطاعم وعطارين ، وصيارفة .

وتتحول المدينة إلى بحر من البشر عندما يفد الحجيج ، ويعم الرخاء . وتعداد سكان المدينة خارج أيام الحج حوالى أربعة عشر ألف نسمة . ويرد إليهم كل مآكلهم ، ومشاربهم من مصر ؛ حيث أوقف كل من سليم فاتح مصر ، وسليمان ، ومراد الثالث ، والسلطان أحمد ، عليها أوقافًا ، كثيرة فى مصر . فالدشيشة والقمح يأتيان من الأوقاف «المرادية» و «المحمدية» و «الخاصكية» . فمن الدشيشة أربعة عشر ألفًا ، ومن القمح مائة ألف أردب تُحَّصل فى مصر ، وتُجلب إلى المدينة ، وتُوزع على الآهالى كلٍ حسب البراءة السلطانية التى يملكها .

وما أن يصل أمين الصرة مع قافلة الحج الشامى [1] حتى يحضر المبالغ المخصصة

= الآغوية مصطلحًا مهمًا قبل تنظيمات سنة ١٨٣٩م = ١٢٥٥هـ . كما كان يُطلق بصفة عامة على ضباط الانكشارية ولكنها بعد ذلك أصبحت تُطلق على آصحاب الآراضى والملاك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة .

كما كان يُطلق على كبار العاملين فى السراي . وكان الباشآغا يتولى أمانه العاصمة – ودر السعادة يُقصد بها هنا العاصمة استانبول . فهنا آغا در السعادة أي أمين باب السعادة = استانبول . وكان هو المسئول عن كل أمور العاصمة . (المترجم)

(١) قافلة الحج الشامى : وهو الطريق الذى كانت تقطعه قافلة الحج الشامى والتى كانت تضم حجاج الشام والأناضول والقوقاز وشبه جزيرة البلقان . . وبعد أن تصل هذه القوافل إلى الشام وخاصة مدينة دمشق ينضم إليها حجاج ايران ويتجهون سويًا إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة مرورًا بالمناطق التالية :

طريق قافلة الحج الشامى : كان طريق الشام هو أحدى الطرق السبعة المذكورة التى كانت تسلكها قوافل الحج فى الذهاب والإياب ، كما كان (محمل الشام الشريف) يسلك هذا الطريق .

كانت قافلة الشام تتحرك – فى أغلب الأحيان – فى الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج ، والتى كان يتولاها فى العادة والى سوريا . وكان يسبق التحرك احتفال مهيب ينظمه قائد الجيش الخامس ، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة فى مثل هذه الأمور ، تخرج القافلة من الشام من (قبة الحاج) التى كانت تعد نقطة البدء للقافلة ، ومن هناك أيضًا تتحرك إلى (الكسوة) وينضم إليها الحجاج الذين يجمعوا فى (مزيريب) ، وتتجه القافلة نحو المرحلة الأولى من هذا الطريق والتى تسمى (خان ذى النون) .

ومنذ القدم كانت تقدم وجبة ساخنة للحجاج والحراس من وقف ابن الحصن عند استراحة خان ذى النون ، كما كانت توزع عليهم كمية من المأكولات نظير رسم معهود فى نفس المرحلة أيضًا .

والقافلة المتحركة من خان ذى النون تمر من المكان المسمى (خان الزيت) حتى تصل إلي استراحة (خيمن) . والمرحلة المذكورة هى بعينها قرية ابن قواص التركمانى . وهذه القرية ذات مياه وفيرة وطيورها متنوعة وكلاب الصيد =

من مصر ، ومقدارها ثنتا وستون ألف قطعة ذهبية شريفية ، عدا ما يرد من الأوقاف الأخرى ، المخصصة لكل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، في البلدان

= فيها مشهورة ، حتى أن معظم كلاب الصيد التي يستخدمها أهالي الشام الشريف تستجلب من هذه القرية ، والقافلة التي تغادر مرحلة خيمن تتوقف في موقع (غباغب) بعد أن تكون قد عبرت (تل فرعون) .

وفي غباغب قلعة حصينة هي من آثار المرحوم السلطان سليم الأول الذي أوقف حمايتها على أحفاد إبن قواص التركماني سالف الذكر ، وهي قلعة حصينة بقدر ما هي جميلة .

ومن الوظائف والواجبات المنوطة بأحفاد ابن قواص سالف الذكر أيضًا ، المحافظة على طريق الحج ، الممتد من ذي النون حتى خيمن وحمايته .

والقوافل التي تترك غباغب تصل إلي مزيريب بعد أن تكون قد مرت ببئر (ديله) . ومن العادات القديمة التوقف عند ديله بعض الوقت لإناخة الجمال حينا لتلقط أنفاسها .

مزيرب :

مزيريب اسم متنزه كبير ومشهور داخل بلدة حوران ، والمرحوم السلطان سليم هو الذي أمر ببناء قلعة جميلة بجوار عين مزيريب من أجل راحة الحجاج والعناية بهم ، وقد أمر بوضع بعض الجنود بهذه القلعة للمحافظة عليها .

ولما كان هذا الطريق في مأمن من تسلط الأعراب وغاراتهم ، فإن المحمل الشريف يقيم في هذه المنطقة بضعة أيام . كما يقام بها مايشبه السوق ، حيث يتم بين الحجاج وبين التجار ، الذين يتوافدون من المناطق المحيطة ، بعض المعاملات التجارية .

والقوافل المتحركة من قلعة مزيريب تتوقف عند مرحلة (كتيبة) التي تقع إلى الجنوب قليلا من القلعة المذكورة ، وهذه المرحلة تتمتع بكثرة الآبار ذات المياه العذبة المتدفقة ، وبالرغم من هذا ، فإن المسافرين لا يقضون لياليهم في نفس المكان ، بل يستمرون في سيرهم حتى (ازرغات) .

ازرغـــات :

وازرغات هذه قرية بالقرب من حوران . ومع أنه توجد استراحة تقع على بعد نصف مسافة من هذه القرية ، إلا أن القوافل لا تتوقف عندها لعدم وجود المياه الكافية بجوارهذه الاستراحة ، بل تستمر في سيرها حتى ازرغات .

والقوافل المتحركة من قرية ازرغات هذه تصل إلى (الزرقا) ، ومنها تصل إلي (الزرق) .

الزرقـــا :

وقرية الزرقا قرية تحتوى على مياه كثيرة جارية . كما تحتوى أزرق على أطلال قلعة قديمة ، وكثير من حدائق النخيل . والمكان الذي تتوقف فيه القوافل كثيره المياه . وتقع قرية أزرق هذه على بعد مسيرة يوم واحد إلى الشمال الشرقي من الزرقا .

والقوافل التي تغادر أزرق تصل أولا إلى (عمرى) وبعدها إلى (بلقا) .

وعلى طريق عمرى وعند استراحة (دومة) وفي الجهة الشرقية توجد ساقيتان لإخراج المياه . وهذه المياه تأتي من عمان وتتجه ناحية الغور في جريانها . وتقع بلقا في أقصى جنوب ولاية سوريا علي درجة ٣٣ خط عرض و١٢ دقيقة شمالا و٣٣ دقيقة واحدة على خط طول شرقي . ولكن القوافل لا تتوقف فيها لعدم توافر المياه بها .

وتصل القوافل المتحركة من بلقا إلي استراحة (قطران) بعد اجتياز سبع عقبات ، ومن هناك تتحرك القوافل حتى تصل إي منزل (حسا) .

والسلطان سليمان هو الذي أمر بتأسيس قلعة كبيرة عند مرحلة قطران ، وهو الذي أمر بحفر وتطهير بركتها التي كانت قد سويت بالأرض لامتلائها بالمخلفات . وقد أرسل خمسة عشر ألف فيلوري للصرف منها على هذه الأغراض .

ولم تكن قوافل الحج التي لا تجد المياه اللازمة لها في بركة قطران ، تتوقف في هذه المرحلة ، بل كانت تتابع سيرها =

التي تم فتحها حديثًا ، ويقوم – في حضور شيخ الحرم وملأ المدينة . بتوزيع هذه الحصص على أصحابها نهارًا ، وليلاً تحت أضواء المشاعل وطبقًا للدفاتر السلطانية .

= حتى تحط رحالها عند جسر (الجون) الواقع فى الطرف الغربى للمرحلة السابقة .

ثم تصل القوافل إلي قرية (الكرك والشوبك) الواقعتين فى الشمال الشرقى للمنزل السابق ، وعندما تصل قافلة الحجيج إلى الحسا كانت ترسل مؤنها من هذه القرى .

وعلى الرغم من أن قرية الشوبك هذه تقع بين الجبال ، إلا أنها تتمتع بالمياه المتدفقة ، ومراعيها الخضراء الكثيرة . وفوق الجبل الواقع فى الطرف الغربى ، يوجد نزل ونبع ماء ، وبالقرب من هذا النزل يوجد جسر صغير .

أما الكرك فهى مركز ملحق بسنجق الشام ، ومرتبطة بالدوائر الحكومية الموجودة فى (نابلس) ، وأراضيها خصبة وذات محاصيل وفيرة . إلا أن سكانها من قبائل البدو ، وعشائرهم لا يعرفون شيئًا عن المدينة الحديثة . وتعداد سكانها حوالى ثمانية آلاف ستة منهم أو يزيد على الدين الإسلامى ، أما البقية الباقية فهى على الدين المسيحى .

والقوافل التى تغادر الحسا تصل إلي (ظهر عنيزة) ، ثم تصل بعد ذلك إلى قلعة معان .

وإذا كان الطريق الممتد بين (الحسا) و(عنيزة) فيه الكثير من المنحنيات والانحدارات ، إلا أن الحدائق التى ترى فى (الوبك) و (عنيزة) من بعيد تجعله طريقًا مأمونًا .

أما مرحلة (معان) فهى تتبع ناحية (شراء) .وكانت هذه المنطقة مقر إقامة بنى أمية فى القدم ومأوى رجالاتهم . وللسلطان سليمان القانونى فى المنطقة قلعة وينبوع ماء . ومع أن مياه هذه العين لا تستحق المدح والثناء ، إلا أنها تدفع عن المسافرين والقوافل شدة العطش والحاجة الملحة إلى المياه .

وبعد قلعة معان تصل القوافل إي (شهر العقبة) ، ومن هناك تتحرك نحو (ذات الحج) وتسمى ظهر العقبة بـ (عبادان) أيضًا . وإذا كانت هذه المرحلة تعوزها المياه ، إلاأنها مشهورة بتمورها وبلحها الذى يسمى (طبيليات) .

كما أن ذات الحج أيضًا لها اسم آخر وهو حجر ، وقد أمر المرحوم السلطان سليمان القانونى بإقامة قلعة فى هذا المكان أيضًا . وتأتى مياه ذات الحج من الحفر والآبار التى يقوم الاهالى بحفرها ، ويصنعون لها المجارى ، ويقيمون المشاتل والمزارع على مياها . وتشتهر هذه المنطقة بالعديد من أنواع التمور والبلح الذى تشتهر به بساتينها .

والحجاج الذين يغادرون ذات الحج يصلون إلى (قاع البسيط) ، ومن هناك يشدون الرحال إلى (تبوك) .

ومنطقة قاع البسيط منطقة رملية ، تسمى أيضًا بـ (عرابد) ، وقمة الجبل المرتفعة التى يسميها العرب (شرورًا) تقع فى مكان يتوسط هذه المنطقة الرملية .

وتشتهر منطقة تبوك بالبلح والتمور . وقد أمر المرحوم السلطان سليمان بإقامة قلعة حجرية منيعة فى هذا الموقع أيضًا .

ومما يروى أن المصطفى ﷺ قاد المجاهدين أثناء غزوة تبوك الشهيرة ، قد ملأ راحتيه الكريمتين من نهر تبوك ونثرها فى الوادى الذى كانت مياهه قليلة وراكدة آنذاك . فتدفقت مياها وبدأت فى الجريان ، وما زالت تلك المياه تسيل حتى الآن .

وتوجد بركة ذات مياه بالقرب من قلعة تبوك .

والقوافل المسافرة من تبوك تصل إلى منزل (مقابر القلندرية) ، ومنها تتجه إلى مرحلة (أخيضر) .

ومقابر القلندرية هذه عبارة عن هضبة صغيرة إلى حد ما ليست بها عيون ماء . أما أخيضر فتقع بين الجبال ، وهى ذات مساحات واسعة ، وقلعتها تحت إدارة حكومة الشام . وتوجد ثلاث برك ملاصقة للقلعة تمامًا لدرجة ان سكان القلعة يأخذون المياه من الآبار الواقعة داخل الحصن ويملأون بها البرك المذكورة .

وقد أمر السلطان سليمان القانونى فى بداية جلوسه على العرش سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ، وإليه على الشام مصطفى باشا بأن يشيد قلعة أخيضر . وبناء على هذا الامر قام مصطفى باشا هذا بتكليف (طريان بن قراجا) شيخ عربان بنى حارثة ببناء هذه القلعة ، فقام بتشييدها على الفور ، لان عربان بنى عقبة وبنى لام كلما نشب الخلاف ودب العصيان بينهم ، قاموا بإغلاق الآبار وتصفية البرك من مياهها .

=

ويتم ذلك كله وسط فرحة الآهالى ، وتهليلهم وبالثناء والدعاء للسلطان .

= وتصل القوافل بعد مرحلة اخيضر إلى (بركة المعظم) ، وتتجه من هنالك إلى (مغارش الزير) . وبعد هذه المرحلة تتجه القوافل إلى مرحلة (جبل الطاق) .

بركة المعظم :

وهى عبارة عن حوض كبير أقيم ليملأ بمياه السيول وسط منطقة صحراوية ، ويظل فارغًا من المياه عند انقطاع الأمطار، ويروى أن هذاالحوض من آثار الملك المعظم عيسى أحد سلاطين بنى أيوب .

مغارش الزير :

ويطلق عليها أيضًا (فراح وافرع) وهى تبعد عن جبل الطاق بنصف مرحلة فقط .

جبل الطاق :

وهو الموقع الذى عقرت فيه ناقة صالح عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن تصل قوافل الحج إلى هذا الموقع ، تتجه ناحية الشرق ، وتعرج نحو (مبرك الناقة) ثم تتابع سيرها حتى تنزل فى مرحلة (حجر) .

الحجر :

ويطلق عليه أيضًا (قرى صالح) . وهذه القرى عبارة عن هضاب رملية وبيوت منحوتة فى الصخر على قمم الجبال . . وهذه المنطقة وإن كانت آثارها كثيرة إلا أنه قد نهى عن الشرب منها .

قرى صالح :

وهى عبارة عن موقع رملى ويابس به بعض الجبال المنخفضة وتُسمى هذه الجبال بالأتالب أيضًا . وقد مر الرسول الكريم ﷺ بهذا المكان عند ذهابه إلى غزوة تبوك . وهو – عليه الصلاة والسلام – الذى تناول بعضًا من مياه آبارها ثم نهى عن شربها ، بل وأمر بسرعة المرور والعبور من هذه المناطق .

الحجر :

وهى الأراضى التى تعرف بديار ثمود . وتوجد بها بعض المنازل التى نحتت فى الجبال . وبها أيضًا مسجد صالح الذى حفر فى البقعة الشريفة من هذه الديار . وحول هذا المسجد الشريف توجد بعض الاطلال والآثار التى بقيت من عهد ثمود .

ويطلق على الجبل الذى توجد عليها استراحة الحجر (جبل أنان) . وكان صالح بن عبيد بن أسفان ماشيخ بن عبيد بن ثمود بن عابر بن إرم ابن سام وأولاد عمومتهم جديس وعاد يسكنون بجوار الحجر هذا ، وكانوا يعبدون أصنامهم فى تلك البقاع ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى ، صالح إليهم ليدعوهم إلى التوحيد . وقد أرادواهم بدورهم إعجاز صالح (عليه وعلى نبينا السلام) ، بأن طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من الصخر . وبناء على إصرارهم هذا أخرج لهم الحق جل وعلا ناقة من الصخر ، وتمادى بعضهم فى غيه وعناده . ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه صالح ، وحددوا يومًا لكى تشرب فيه الناقة من البئر الذى منه يسقون . ثم قر قرارهم على أن يعقروا ناقة صالح . وعقرها رئيسهم (قدرا) ، فأنذرهم صالح بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام . وهاجر عليه السلام إلى بلدة (الرملة) فى فلسطين واختارها موطنًا ومقامًا له . وبعد أن انقضت المهلة الممنوحة لهم ، أتاهم عذاب الله . إذ أنزل عليهم من السماء حجارة كأنها سهام القضاء ، ونالهم الهلاك المبين . وأصبحت جثثهم هامدة ، وديارهم خاوية . ولم يحمهم ما شيدوه من قصور شامخة ، وما جمعوه من أموال وافرة ، ونحتوه من بيوت آمنة . وكان ذلك تصديقًا لوعده ، ومظاهرة لنبيه ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم «فأصبحوا فى ديارهم جاثمين» .

والقوافل التى تغادر مغارش الزير تواصل سيرها جهة القبلة مسافة نصف منزل أى حتى المكان الذى عقرت فيه ناقة صالح . ثم تتحرك من هناك حتى تنزل فى منزل (الحجر) سابق الذكر والواقع فى الجهة الشرقية . وتمر القوافل مسرعة أمام الصخرة التى عقرت فيها ناقة صالح حتى لا يسمعون صدى صوت الناقة عند عقرها لأن الجمال والنوق التى قدر لها أن تسمع صدى صوت ناقة صالح تنخ باركة ، ولا تستطيع أن تنهض مرة أخرى ، ويعتقد البعض أن هذا هو السر وراء دعوة المصطفى عليه الصلاة والسلام لرجاله أن يمروا خفافًا من هذا المكان عند توجههم إلى غزوة تبوك . =

وهواء المدينة ومناخها فى غاية الإعتدال والجمال ؛ فالمحبوب والحبيبة فى غاية الرقة والجمال والبهاء : « بيت »

= العـــــــلا :

وتتجه القوافل القائمة من الحجر إلى موقع (العلا) الموجود فى الجهة الجنوبية ، وعلى مسيرة نصف مرحلة من ديار ثمود .

تبعد العلا عن المدينة المنورة بست مراحل ، وهى من توابع المدينة المنورة وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين . كما توجد بها قلعة حصينة ، وتتمتع بانخفاض فى أسعار منتجاتها .

وكان السلطان سليمان القانونى قد أمر بتجديد قلعتها وحصنها . وقد ضرب حولها حصار من الجند لحراستها ، على أثر الشكوى التى قدمها الاهالى إلى والى الشام من غارة بعض العصاة من الاعراب على نخيلها . وبعدها بدأت الحكومة فى تقاضى درهم عن كل نخلة ، حتى يصرف من هذه الحصيلة على الجند . ويروى البعض ان هذه الضريبة قد ارتفعت إلى اربعين درهمًا عن كل نخلة .

والقوافل التى تغادر (العلا) تتجه نحو (قطران أو طوامير) . وهذا المكان حجرى صلب صعب الاجتياز يخلو من المياه والسكان .

وتصل القوافل من هناك إلى (شعب النعام) . وهذا الموقع وإن كانت لا تتوفر فيه الآبار ، إلا ان الحجاج ينالون حاجتهم من المياه التى تراكمت على جانبى الطريق بعد هطول الامطار .

شعــــب النعــــام :

وبعد (شعب النعام) تصل القوافل إلى مرحلة (هدية) . ومع أن هذه المنطقة تتوافر فيها المياه من الحفر ، إلا أن احدًا من المسافرين لا يقربها لانها تسبب الإسهال ، وبعد هدية تصل القوافل إلى منزل (فحلتين) .

منــــزل فحلتـــــين :

ومنزل فحلتين هذا عبارة عن هضبتين صغيرتين ، تخلوان تمامًا من المياه ، ويوجد بالقرب من فحتلين جبل مرتفع فوق قمته حصن حصين .

والقائمون من (فحلتين) يمرون بـ (وادى القرى) ومنه إلى (بيار حمزة) . وبعد ذلك يصلون إلى (المدينة المنورة) وتستمر رحلة القوافل فمن الشام إلى المدينة المنورة ١٤٧ ساعة وتصل فى الغالب فى الثالث والعشرين من ذى القعدة من كل عام ، ثم تستمر حركتهم إلى (بيارعلى) .

وادى القــــــرى :

ووادى القرى هذا موقع تكثر فيه الغابات والأشجار ، وإن لم توجد به المياه . وتنسب (بيار على) إلى الحيدر رضى الله عنه . وهى عبارة عن عدة آبار عمق كل منها ثلاثة أذرع .

ولماكانت القوافل تصل إلى هذا المنزل فى وقت الإحرام ، فإن الحجيج جميعهم يلبسون ملابس الإحرام فى هذا الموقع .

والقافلة التى تتحرك من (بيار على) تصل إلى (قبور الشهداء) ، وبعدها تصل إلى الجديدة .

قبــــور الشهـــــداء :

وهى عبارة عن مكان محصور بين جبلين ، تعتمد مياهه على البحيرة التى تتجمع مياهها من اثر هطول الامطار ، وإذا لم تسقط الامطار ، تعذر الحصول على المياه فى هذا الموقع .

جديـــــــدة :

وهى عبارة عن هضبة صغيرة محصورة بين جبلين ، فوقها قرية صغيرة كثيرة المياه يانعة البساتين مليئة بالحدائق ، تمورها وقثاؤها وشمامها وبطيخها كثير ، حلو المذاق .

والقائمون من الجديدة يصلون إلى (بدر) ، ومنها إلى (قاع البرو) ، ثم يتجهون نحو (رابغ) . وتوجد عدة قرى =

= عامرة بين قرية جديدة ووادى خضر . كما ان ناحية بدر تكثر فيها المياه الجارية والبساتين وارفة الظلال والحدائق ذات المحصول الوفير .

قـــاع الـــبرو :

وهو عبارة عن واد رملى منخفض يخلو من المياه . وإذا كانت رابغ هى الأخرى واديًا رمليًا ، إلى ان قربها من البحر جعل مياه الآبار العذبة تتدفق إذا ما حفرت الآبار فى أى موقع من المواقع . وتكثر حدائق النخيل والبساتين فى وادى رابغ هذا . كمايكثر فى هذا الوادى نوع من السمك الذى يسمى (علف الغنم) . وهناك طائفتان تقطنان رابغ : إحداهما (روى) ، والأخرى (روى جماع) وكانت ترسل لهم صرة خاصة بهم .

والقوافل المتحركة من رابغ تصل إلى (طارق) ، ومن طارق تتجه إلى (عقبة السويق) .

بـــلاد الطـــارق :

تقع قرى بلاد الطارق فى الجهة الشمالية من مرحلة طارق ، والبلاد المذكورة عبارة عن مجموعة من القرى والمزارع العامرة بأشجار اللوز ، تقع فوق قمة جبل عال .

وعندما ينزل الحجاج فى استراحة طارق ، يفد عليهم أهالى قرى بلاد الطارق ليبيعوا لهم السمن والزبد والجبن والحبوب المنوعة .

عقبـــة السويـــق :

وتقع على طريق (خليص) . وعلى الرغم من ان المسافة التى بينها وبين استراحة طارق كلها جبال صخرية صلبة صعبة الاجتياز ، إلا ان المسافة التى تبدأ من عقبة السويق فى اتجاه مكة عبارة عن أرض سهلة منبسطة ، ولذلك تتمتع ببساتين جميلة ، وبها بئر وماء جار وبحيرة صغيرة .

ولما كان اعراب زبيد وهم أسوأ قبائل العرب يسكنون فى هذه النواحى ، فقد خصصت لهم الدولة صرة خاصة بهم لكى لا يعتدون على القوافل ، وينهبون متاعها .

والقوافل المتحركة من عقبة السويق ، تواصل سيرها حتى تصل إلى المرحلة المسماة (عسفان) .

عســــفان :

وهى من الآبار النبوية المأثورة . وتكثر الآبار فى هذه المنطقة ، ويطلق على بعضها (بطن مر) . ويقع مدرج عثمان فى الطرف الشرقى لبطن مر هذه .

وتصل القوافل قرية أبى عروة بعد مغادرة مرحلة عسفان ، ثم تدخل القوافل مكة المكرمة كانت تقطع القوافل المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فى مائة وست ساعات . وكانت تدخل مشارف مكة فى أوائل ذى الحجة . أو تقوم من عسفان حتى تصل إلى طريق البرقا ، ثم تصل إلى مكة المكرمة عن طريق وادى المر يعتبر الطريق الذى يمتد من المدينة المنورة إلى وادى المرمن أصعب الطرق وأكثرها خطرًا ولذلك كانت لا تسكله القوافل إلا نادراً .

أبُـــو عـــــروة :

قرية صغيرة تقع فى حضن الجبل فى الجهة الغربية من الطريق ، وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين .

وهناك طريق آخر يؤدى إلى مكة المكرمة من الشام ، إلا انه غيرمطروق فى زماننا لانعدام المياه والامن فيه . وهذا الطريق المذكور يقع على الجانب الشرقى من الطريق الذى سبق أن عرفناه . والذين يرغبون فى اجتياز هذا الطريق ويخرجون من الشام حتى (أرايانى البصرة) . ومن هنالك يصلون إلى قلعة الأزرق . ومن الأزرق يتجهون نحو (قراقر) . ثم يتجهون منها إلى (قلته) . ومن قلتة إلى (صبيحة) ، وبعدها (تيما) . ومن تيما تتجه القوافل نحو(وادى الصوان)، ثم تسلك الطريق إلى مكة المكرمة عن طريق العلا سالف الذكر . وهناك خمسة منازل فى المسافة الواقعة بين الشام وقلعة أزرق ، ومن قلعة أزرق إلى مرحلة قراقر .

وتوجد بعض الآبار قليلة المياه ، وبعض أشجار النخيل فى هذه المنازل ، ويوجد بين قراقر وقلتة منزلان ، وبين قلتة وصبيحة منزلان آخران . ومن صبيحة حتى تيما ثلاثة منازل ، ومن تيما حتى العلا أربعة منازل . واحتمال الحصول على =
قليل من الماد فى كل منزل من هذه المنازل أمر وارد .

رفتاره كَله روح مصوّر روان اولو   غفَّناره كَله معجزه اسعا بيان اولور (١)

سيدات المدينة ؛ جميعهن يرتدين الملابس الحريرية الزرقاء ، والشباشب ، ويتدثرن بالإيزار الأسود ، ويضعن على رؤوسهن نقابًا ، حريريًا ، تنحصر ألوانه ما بين الأخضر ، والأحمر ، والأصفر . أما الرجال فيضعون على رؤوسهم عرقية « طاقية » شامية ، وفوقها الشال الكشميرى أوالعمامة البيضاء . والجميع – نساء ورجال – يُكحِّلون عيونهم بالكحل .

أشجار الفاكهة التى تكثر فى المدينة:

إن بستان صوقوللى محمد باشا ، وحديقة شيخ الإسلام وغيرهما من الحدائق ،

= ويشتمل هذا الطريق على عشر مراحل . وبين كل مرحلة واخرى سبعة وعشرون ميلا .

وهناك طريق آخر بين مكة والمدينة ، كثيراً ما يسلكه أهل المدينة أنفسهم .

والذين يسلكون هذا الطريق يتحركون من آبار على إلى (سمحان) ، فـ (سمحان) ، فـ (جبل مفرح) فـ (قريش) فـ (قبور الشهداء) . ومن قبور الشهداء إلى (روحا) . ومنها إلى (شعب) ، ومن شعب إلى (تازى) وكان الطريق الممتد من المدينة المنورة حتى هذه المرحلة مخيف وخطر جداً . ثم (حنيف بنى عمرو) ، ومن هناك يمرون بطريق الوادى الصغير الذى يؤدى إلى المكان المقصود .

سمحان :

جبل صغير مثل جبل مفرح يقع بين جبلين شاهقين ، وقد اعتاد الجمالون على أن ينالوا العطايا والهدايا والمنح من الحجاج منذ القدم . عند وصول القوافل إلى هذه المرحلة .

روحا :

ويوجد بها بئر عميق الأغوار .

شعب :

وتقع بين جبلين . وبئرها يقع فى الجهة اليمنى من الطريق .

حنيف بنى عمرو :

واد طويل محصور بين جبلين ، توجد به عدة قرى ، وتوجد بهذه القرى عيون جارية وآبار عذبة المياه وحدائق نخيل . وتسكن هذه القرى قبائل بنى عمرو وبنى سالم الذين يبلغ عددهم الفًا تقريبًا . وهم ذوو شهرة واسعة فى الحرب والقتال ، وخاصة فى رمى السهام . ويعتبرون من أكثر قبائل العرب غنى وثراء .

وادى الصغير :

يقع منزل وادى الصغير عند حافة جبل . وهو يتمتع بعيون جارية ومياه عذبة وأشجار للنخيل ذات محصول وفير . وماؤه أعذب وأحلى من مياه بدر وبنى حنيف .

وتقيم فى هذا الموقع طائفة من الاشراف الزيدية الذين يقومون بحماية المارين والعابرين من هجمات البدو وغاراتهم . ويتقاضون صرة من الدولة فى مقابل ذلك . « المترجم »

(١) وترجمته : [تنبعث الروح فى القادم الوله   ومجيئه يُبيِّن معجزة السماء]

والبساتين عامرة بأنواع الفواكه الطازجة ؛ فبالمدينة سبعة أنواع من البلح ، والتمر ، وأنواع متعددة من التفاح ، والعنب ، والخوخ ، الذى يشبه وجنة الحسناء . والمشمش ، والبرقوق بها كثير ، وليمونها فى حجم رأس الإنسان ، وبها عدة أنواع من النارنج ، والليمون الحامض ، وأشجار التين ، والزيتون ، والرمان ، والشمام ، والبطيخ. ولكن لماكانت منطقة المدينة منطقة صخرية ، فإن حقولها قليلة . وكل حبوبياتها تأتى إليها من مصر ، والطائف ، والحجاز . وبها ورد أحمر ليس هناك شبيه له فى غيرها من البلاد . وعداه ؛ فهناك الزنبق ، والقرنفل ، والفل ، والياسمين ، والنرجس ، والبنفسج ، وغير ذلك من الزهور الفوَّاحة . وبلح المدينة ، وتمورها خاصة تتفوق على مثيلاتها فى شتى أنحاء المعمورة .

* * *

أماكن الزيارة والعبادة التى تقع خارج المدينة

أولاً : زيارة البقيع التى تقع فى شرق قلعة المدينة :

يجب على الزائر أن يتوضـئ أولاً ، ثم يتـجه نحـو البـقـيع من باب القلعـة المؤدى إليـهـا وهو يـردد : « السلام عليكم يا أيها المؤمـنون .. » ثم يقـرأ سـورة ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① ﴾ (*) . ثم يسير حوالى مائتين خطوة لزيارة الخليفة سيدنا عثمان ، وما أن يقترب حتى يبدأ الدعاء بقوله : « السلام عليكم يا خليفة رسول الله ، ثم يقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة . وكان سيدنا عثمان قد عُيِّن خليفة وهو فى الرابعة والثلاثين (١) من عمره ويتصل نسبه رضي الله عنه بنسب الرسول الكريم ﷺ وكنيته « أبو عمر » ، ولد فى مكة وقتل فى المدينة ، وسُمى بـ « ذى النورين » وذلك لزواجه بإبنتى النبى الشفيع رضي الله عنهما .

صاحب النورين هو ظل الرحمن	**مجمع البحريـن بعلمه وحلمه**
مجمع الفضائـل جامع الفرقان	**صـدف در المعرفـة هـو عثمـان**

كانت مدة خلافته إحدى عشر سنة ، وسنه ،عندما تولى الخلافة تسع وستين سنة ، وكان استشهاده رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ = ٦٥٥م ، وهو مدفون بالبقيع ، ودمه القانى الطاهر مغطى بالحرير الأخضر .

ثم تأتى زيارة « أم سلمه » وهى « رضي الله عنها » إحدى زوجات النبى ﷺ . وقد توفيت عن ثلاث وستين سنة . ويأتى مرقد الحكم ابن العاص بالقرب من سيدنا عثمان . ثم أبو سعيد الخضرى وهو مدفون بالقرب من سيدنا عباس ، وثم جابر بن عبد الله الذى خاض تسعة عشر غزوة بجوار النبى ﷺ . وقد كان رضي الله عنه عالمًا فاضلاً ، ومدفون بالقرب من السيدة عائشة ، ثم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو شقيق سيدنا على كرم الله وجهه . ثم الإمام زين العابدين ، وهوالإمام الرابع ، مدفون تحت قبة الإمام الحسن ؛ والأخير هو ابن سيدنا على . رضي الله عنهم أجمعين .

(*) سورة التكاثر آية ١ .

(١) بعد قليل من الأسطر يذكر المؤلف نفسه أن سيدنا عثمان قد تولى الخلافة وهو فى التاسعة والستين من عمره . كما أن مدة خلافته ثنتا عشرة سنة وتوفى عن حوالى اثنين وثمانين سنة . [المترجم]

« الحسن والحسين هالتين ... رضي الله عنهما » .

كما أن العباس بن عبد المطلب « عم الرسول » مدفون أيضاً تحت هذه القبة . وكذا الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين ، والإمام جعفر الصادق إبن الإمام محمد الباقر .

وعباس ، والإمام حسن ، والإمام محمد الباقر ، والإمام جعفر الصادق مدفونون جميعاً فى البقيع تحت قبة ثمانية الزوايا . ولقد قرأنا سورة « يس » على أرواحهم جميعاً .

وفى مواجهة هذه البقعة الطاهرة يقع مسجد سيدنا على ، وهو مسجد صغير بدون منارة . وداخل هذه البقعة أيضاً يرقد عقل إبن أبى طالب ، وهو شقيق سيدنا على ، وكذا الإمام نافع صاحب القراءة ؛ وبالقرب منه ترقد والدة سيدنا على السيدة عصيه ، وعلى القرب منهم الإمام مالك صاحب المذهب المالكى ، ومدفون بالقرب منه الواثق بالله العباسى ، وعلى مقربة منه السيدة « أم صفية » .

وآل بيت رسول الله جميعاً فى البقيع ، ومدفونون داخل قبة واحدة ، إلا أن السيدة عائشة ، وأم حبيبة ، وبعض جوارى الرسول يرقدن بالقرب من مرقد عائشة . وبالقرب من قدمى عائشة « رضي الله عنها » نرى هذا التاريخ :

(أمر بتجديد هذا المرقد المبارك لحضرة الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها السلطان سليمان خان بن سليم شاه إبن بايزيدخان بن محمد خان خلَّد الله ملكه سنة خمسين وتسعمائة) .

وتحت نفس القبة ؛ ترقد أم كلثوم ، بنت النبى الكريم ، والسيدة رقية . كما دفنت السيدة زينب ، وأم هانئ ، أم المؤمنين ، وبالقرب منها ثلاث جاريات من جواري الرسول الكريم ، وعلى مقربة منهن ، ترقد السيدة حليمة السعدية ، والدة الرسول فى الرضاعة ، وأخته فى الرضاعة وهى السيدة سَلَمه ، والجارية بركة ، التى انتقلت إليه ﷺ من والده ، وكانت تقوم على خدمته وهو لم يزل في المهد ، ويسمونها « أم أيمن » وهى مدفونه بجوار السيدة حليمة .

وكانت أم المصطفى ﷺ قد توفيت فى الطريق وهى متجة من المدينة إلى مكة . وقد دُفنت السيدة آمنة هنالك .

ويقول بعض كتاب السيرة الثقات ، أن الرسول ﷺ قد أخرج رفاة جسدهاالطاهر فى السنة السادسة للهجرة حيث كانت ترقد ، وأحضره إلى المدينة المنورة ، ودفنها تحت القبة التى ترقد فيها والدته بالرضاعة .

ولقد قرأنا على أرواحهن الطاهرة سورة النساء ، وتأسينا بهن ، وبمن فى حضرتهن من الصحابة الميامين .

وهنا فى البقيع أيضًا يرقد أبناء النبى ، وفلذات كبده ، أولاً ؛ إبراهيم وأمه ، مارية ، والقاسم ، والطيب ، والطاهر ، وجميعهم أبناءه ﷺ من خديجة الكبرى . والثابت أن تسعة من أبناء الشفيع ، قد توفوا فى حياته ﷺ إلا السيدة فاطمة الزهراء ؛ زوجة سيدناعلى كرم الله وجهه ، فقد شهدت وفاة المصطفى ، وهى فى عصمة على ، ووافاها أجلها بعد حبيبها ، ووالدها بستة شهور فقط .
« بيت »

فليكن سلامًا كثيراً إلى آل بيته

وليكن مرقدهم روضة من رياض الجنه

وهنا يتم الحديث عن زوجات الرسول وأبناءه

الصحابة الكرام :

ومن الصحابة االكرام المدفونين فى البقيع ؛ حضرة سعيد الأخضرى ، وعُمَر بن عُمَر البربرى ، وزوجة سيدنا أبى بكر الصديق ، ووالدة السيدة عائشة ، والسيدة رُقيه ؛ كريمة رسول الله ﷺ ، وحضرة سهيب الرومى ، والسيدة صدِّيقة بنت جابر اليمنى . وسعد بن أبى وقَّاص . وقد رأيت أنا العبد الحقير إلى ربه مقامًا آخر له بالقرب من جسد يعقوب على الطريق بين الشام والقدس كما أن له مقامًا آخر فى الإسكندرية بمصر .

وفى المدينة ؛ وتحت قبة سعد بن أبى وقاص هذه ، مدفون معه سعد بن زيد بن عمر . وبالبقيع مَدْفن زيد بن ثابت الأنصارى وعبد الله بن سلام الأنصارى ، وعلى مقربة منهما كعب بن عمر الأنصارى ، وأُبَى بن كعب .

وفى ركن آخر من أركان البقيع يرقد كل علماء الروم .[1] (علمـاء الأناضـول) الذين توفاهم الله فـى هـذه الديار أمثال چلب مصلح الدين أفندى والسيد ابراهيم المدنى المدفون بالقرب من سيدنا عباس والكاتب محمد أفندى ومولانا سنان النهجى ومصطفى ابن قره داوود . والشيخ خير الدين خضر بن الإمام أحمد الأماسى وهـو أيضاً على مقربة من حضرة سيدنا عباس ، وكذا العربى الشيخ محمد عَّراف فهو يرقد ها هنا بين هؤلاء الصحابة الكرام .

وهنا ختام الكلام عن زيارة البقيع

* * *

(١) علماء الروم : المقصود بهم العلماء الذين نشأوا فى الاراضى العثمانية التى آلت إليهم من بلاد الروم أى من بلاد الدولة البيزنطية .

قريـة مسجد قباء : «قبـة الإسلام»

هى قرية ذات حدائق ، وبساتين غنَّاء . بها مائتين منزل ، وتعتبر منتجع ومنتزه أهل المدينة . بها جامع «قباء» وقد بناه سيد البشر ، ﷺ كالدرة الفريدة ، يُصعد إليه بسبع درجات ، فى فنائه النخلة التى غرسها المصطفى بيديه الطاهرتين ، وكذا شجرة «السدرة» . وتحت هذه الشجرة بئر ماء ، ومَنْ تيسر له صلاة ركعتين فى المحراب النبوى . بهذا الجامع تُستجاب كل دعواته . وكان النبى الأمين ﷺ قد بقى ثلاثة أيام فى هذا الموقع عند هجرته الأولى من مكة إلى المدينة . وقد أمر ﷺ ببناء مسجد فى هذا الموضع ؛ كان صغيراً ، فى بادئ الأمر ، ثم أعاد بناءه وتوسيعه بما تيسر له من غنائم فى غزوات تبوك ، وأحد ، وحنين . طول هذا الجامع من الشرق إلى الغرب مائة وعشرون خطوة . أما عرضه فستون خطوة . وبداخله قباب مُقامة على أربعين عموداً ، وعلى المحراب نُقشت هذه الآية الكريمة : ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ (*) وعلى المنبر ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ (**) كما كُتبَ على المحراب . ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ** ﴾ (***) .

وفى الركن الشمالى من هذا الجامع يوجد محراب آخر ، كان الرسول الكريم يتعبد فى موضعه ، ويتلو فيه آيات الكتاب ، ويسمونه «المحراب المُكْشف» حيث كان بهذا المحراب ثقب ، صغير ، مفتوح تجاه مكة المكرمة ، وكان الرسول الكريم دائمًا ما ينظر منه ناحية مكة ، شوقًا إلى موطنه الأصلى ، ومسقط رأسه الطاهرة .

ومسجد سيدنا على يقع ناحية القبة من هذا الجامع . ويتسع مسجد سيدنا على هذا إلى حوالى خمسين رجلاً .

وما أن تتجه من هذا الموقع ناحية القبلة ، وتسير نحو خمسين خطوة ، حتى تجد نفسك أمام مسجد السيدة عائشة . وفى مواجهة الطريق تمامًا يوجد «بئر أديش» ، وكان الرسول ﷺ ، قد بدأ فى حفره بشخصه الكريم ، ثم اكتمل هذا البئر على يدى

(*) سورة البقرة آية ١٤٤ .

(**) سورة النحل آية ٩٠ .

(***) سورة التوبة آية ١٠٨ .

الصحابة الميامين . ومَنْ يشرب من ماء هذا البئر مدة أربعين يومًا ،يُشفى بإذن الله من كل أسقامه وكنت أنا العبد الفقير قد أُصبت بمرض «الخفقان» من جراء شرب ماء بارد ، عندما كنت أتصبب عرقًا خلال فرارى وهروبى بعد هزيمة أردل "Erdel"(١) التى منينا بها أمام الكفار . والحمد لله ، والشكر له فبعد أن شربت من هذا الماء ، بضع أيام ، وبعد أن اغتسلت به عدة مرات ، شُفيتُ ، وعوفيت من هذا الداء بعون الله . وتُسقى الحدائق والبساتين المجاورة من مياه هذا البئر .

وتكثر فى هذه المنطقة زراعة الليمون ، والنارنج ، ويُحكى أن سيدنا عثمان عندما كان خليفة ، حضر إلى هذا المكان ذات يوم ، وبينما كان يتوضئ من هذا البئر ، سقط من يده خاتم النبوة ، وبالرغم من كل أعمال البحث التى بذلوها ، فلم يستطع أى شخص أن يجده . وتطير الناس من ذلك ، ورددوا أن عثمان بفقده خاتم النبوة ؛ قد فقد طالعه . وقد استشهد سيدنا عثمان بعد أربعين يومًا من فقده خاتم النبوة .

حديقة صوقوللى :

حديقة كروضة من رياض الجنة ، تستحق الزيارة ، والمشاهدة ، ومَنْ يشاهدها بقصورها المزدانه ، ودواوينها المزركشة ، ورياحينها الفواحة ، ينشرح صدره ، وتُروى من مياه البئر السابق الإشارة إليه . وهى مليئة بالفل ، والنسرين ، والورود المختلفة الألوان ، وإن كان يغلب عليها اللون الأحمر . وبها قصور غاية فى الرقة ، والإحتشام .

ثم على الزائر أن يتوجه بعد ذلك لمشاهدة النخلتين اللتين غرسهما النبى الأمين بيديه الكريمتين . ويجب على الزائر أن يُصلى ركعتين لله هناك .

وهناك داخل حدائق المدينة ؛ بئر يسمى «بئر عروة بن الزبير» مَنْ يشرب منه

---

(١) هزيمة أردل : "Erdel"

تقع ضمن حدود رومانيا الحالية . وكان اول اتصال للعثمانيين بها فى زمن مراد الأول ، حينما أراد سنة ١٣٩١م + ٧٩٤هـ التوجه ضد ويدين ، ثم كانت الحملة الثانية سنة ١٤٢٦م = ٨٣٠هـ والحملة الثالثة سنة ١٤٣٢م = ٨٣٦هـ . استطاع ملك المجر هونياد أن يوقف الهجمات العثمانية ، إلا أن الجيش العثمانى دخلها بقيادة خادم شهاب الدين باشا . وتوالت الحروب العثمانية عليها بعد عصر محمد الفاتح – ساد الهدوء والسلام المنطقة بعد سنة ١٦٦١م وارتبطت بسياسة صداقة مع الدولة العثمانية فى زمن عائلة كوبريلى التى تولت الصدارة بسياسة صداقة مع الدولة العثمانية فى زمن عائلة كوبريلى التى تولت الصدارة إلا أنها – وبالدسائس الغربية – بدأت فى قطع وانتهاك هذه السياسة ودخلت بالكامل تحت سيطرة النفوذ النمساوى بعد معاهدة كارلوفچه سنة ١٦٩٩م = ١١١١هـ . وتحولت أردل إلى ولاية نمساوية فيما بعد . (المترجم)

ينتفخ ، ثم بئر قزاعة ؛ وهو قريب من البئر السابق ، ويُقال أن سيدنا ابراهيم هو الذى حفره . وقد توضأ النبى الأمين من هذا البئر .

وداخل بستان نخل الخضرتين ، مياه عجيبة ، ولها خصائص عديدة ، وخاصة للسيدات ؛ فمثلا لو كانت ولادة إحدى السيدات متعسرة وشربت من هذا الماء ، فإن جزءاً من جسمها ترتخى عضلاته ، ويتسع ، وبعدها يرى المعصوم الدنيا . وكذلك من تشرب منه وقت حيضها ، فإن الحيض ينقطع ، وتصبح نظيفة طاهرة . وجميع نساء ، وفتيات المدينة ، يعرفن هذا الحوض ، ويغتسلن فيه . ولذا فإن الآهالى يطلقون على بستان الخضرتين هذا (بستان النساء) ولا يدخله غير النساء قط .

وجامع القبلتين ؛ على بعد ثلاثمائة خطوة ، من الموقع السابق ، وهو ثالث مسجد بناه الرسول الكريم ﷺ . وعلى مسافة مائة وخمسين خطوة منه يقع مسجد سَلْمان الفارسى ، ومسجد سيدنا عثمان على بُعد مائة خطوة فقط من مسجد سَلْمان ، وبالقرب منه يرى الزائر مسجد على « رضي الله عنهم جميعًا » .

زيارة سيدنا حمزة:

لماكان موقع سيدنا حمزة ، يقع خارج المدينة بمسافة بعيدة ، فقد توجهنا إليه فى جمع غفير ، حيث بلغ مائة وخمسين فارسًا ، مسلحًا ، فمرقده رضي الله عنه حيث كانت موقعة أُحد . وتقع أرض المعركة فى الطرف الشمالى منه .

وما زال يهود خيبر يُفعم الحقد قلبهم ، فإذا أُتيحت لهم الفرصة ، لا يتورعون عن قتل أي مسلم . وفى مسيرتنا ، كنا نشاهد النخل وقد إنحنت جزوعه ، من ثقل ما يحمل من أسباط البلح – وعلى بعد ألف خطوة يجد الزائر : « مصطبة الرسول الكريم » ؛ حيث ارتدى عليه السلام درعه فى هذا الموقع ، وهو متجه إلى غزوة أحد . ويجب الترجل عند هذا الموقع ، عند التوجه لزيارة سيدنا حمزة ، ويكون الأجر والثواب بذلك مُضاعف . وقمت أنا العبد الحقير بالترجل ، ووضعت طرف ثوبى فى حزام خصرى ، معطيًا فرسى لغلامى ، وبدأت المسير تحت وهج الهجير ، مرددًا سورة ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① ﴾ (*) ؛ وبعد ساعة وصلنا إلى :

(*) سورة التكاثر آية ١ .

وادى خيمة الرسول :

وقد كان موقع جيش الرسول ﷺ فى هذا الوادى ، وبه إيوان صغير ، وكانت خيمة إحرام حضرته عليه السلام فوق هذا الإيوان . وصلاة ركعتين هنا من السنن المحببة ؛ ففى هذا الموقع صف الرسول جنده ، صفوفًا متراصة . وجعل سيدنا حمزة مقدمته وخالد بن الوليد ميمنته . وقد نويت أنا العبدُ الضعيفُ مع كل الرجال «نية الغزو» واستللنا السيوف واضعين إياها فى خصورنا .

وفى شمال الموقع ، وعلى بعد يبلغ ، حوالى خمسمائة خطوة ، يوجد «إيوان عاشوراء» ، وهو المكان الذى يقوم فيه الشاميون بإعداد طعام العاشوراء (*) وتوزيعه على الحجاج . وإلى جواره يوجد إيوان أمين الصرة . وإيوان الملاّ ، وإيوان شيخ الحرم . وكان صفوة الخلق ﷺ يُشرف هذا المكان كل عام لزيارة سيدنا حمزة ﷺ ، وإعداد العاشوراء .

آداب الزيارة :

أما مزار سيدنا حمزة ؛ فعلى بُعد مسيرة ساعة واحدة من المدينة ، وهو على شكل قبة كأنها مقبرة ، مدخلها من باب يُفتح على القِبلة ، يطل على فناء ، والفناء مفروش بحجارة بيضاء . وتحت هذه القبلة ، وناحية الكعبة فى الفناء ، يرقد ﷺ ، داخل صندوق رباعي الأضلاع ، والصندوق داخل مقصورة رباعية أيضًا . ومَنْ كان يحمل سيفًا ، فعليه أن يضعه داخل صندوق سيدنا حمزة ، وبعد فترة يخرجه ، وسط تكبيرات حارسى المقبرة ، ويتمنطقه ، وسط تهليلاتهم ، فيكسب ثواب الغزوة .

وبجوار رأس سيدنا حمزة ، دُفِن الشريف صالح وهو من ذريته ، فسيدنا حمزة من الهاشميين ؛ هو ابن عبد الملك ، وعم الرسول . أسلم هو ، وسيدنا عمر معًا ، قتل العديد من الكفار فى غزوة أحد ، واستشهد ﷺ ، فى نفس المعركة وتمذق جسده الطاهر .

(*) طعام عاشوراء : طعام يُعد بمناسبة العاشر من محرم من كل عام هجري ، ويتكون من اثنا عشر حبة من الحبوب ، يسوَّى حتى أن ينضج ، ويوزع على الأهل ، والأقارب ، والجيران ، والمساكين ؛

انظر : للمترجم القيم الأسرية بين الأصالة والمعاصرة .. دار الآفاق العربية – القاهرة ١٩٩٩م) المترجم.

وفى فناء الضريح ؛ يوجد بئر ماء. ولحكمة إلهية ؛ فإن تراب هذه المنطقة المحيطة بالضريح أبيض ، مع أن تراب هذه المنطقة بأسرها أحمر ، وسبب هذه الحمرة ، هو الدماء الذكية ، التى سالت بسبب سقوط سن النبى هنا . وإذا ما مسح الزائر أسنانه بهذا التراب ، فإنه يأمن ألم الأسنان ، ونزلات البرد . وقد جُرب ذلك ، فالله على كل شئ قدير .

وعلى بعد خمسمائة خطوة شمال هذه الربوة يقع جبل أحد ، وهو جبل أَمْلَس مرتفع ، جباله ، وصخورة حمراء ، به مغارات كبيرة ، وفى نفس المنطقة ؛ وادى يطلقون عليه « وادى مقتل حمزة » ، وهو مكان مهيب . وقد إختبئ الكفار فى هذه المغارات ، وانقضوا على سيدنا حمزه الذى استشهد ، وهو يقاتلهم . وقد عدنا مسرعين من هذه المنطقة ، بعد أن صلينا ركعتين لله . واتجهنا جنوبًا ، وسرنا نحو مائتى خطوة حتى وصلنا إلى :

مزار ميدان الشهداء:

فقد استشهد فيه أكثرمن ألف من الصحابة ، ولم تُقام لهم أى قباب ، ولكن لبعض من مشاهيرهم شواهد قبور . ولكن عقب أمطار غزيرة ، حدث سيل عارم ، فجرف التراب ، والحصى الموجودة فوق أجساد ما بين سبعين أوثمانين شهيداً ، لدرجة أن أجسادهم الطاهرة ظهرت للعيان ، وما أن سمع أهل المدينة بذلك ، حتى توافدوا ، فرأوا ما قرت به عيونهم ، وإطمئنت قلوبهم ، فقد رأوا الأجساد طرية ، ندية ، وكأن استشهادهم قد حدث تواً . فالبعض دماءهم الذكية ، وكأنها ما زالت تسيل ، والبعض ؛ وكأنه مضطجع ، والبعض مقطوع الرأس ، والبعض بدون أذرع أو سيقان ، والبعض ، وكأنه فى سنة من النوم . وهكذا شاهد الناس جميعًا بعيونهم عظمة الشهادة فى سبيل الله ، والدين . وهفت نفوسهم إلى الشهادة فى سبيل رفعة الدين . وقام المدنيون بتورية هذه الأجساد الطاهرة من جديد ، وأمر شيخ الحرم ، بإقامة جدار طوله أربعمائة خطوة ، ناحية الوادى حتى يمنع وصول السيول مرة أخرى .

وشرط الزيارة هنا ؛ أن تكون وقت السحر ، وأن يكون الزائر عاري الرأس ، حافي

القـدمـين ، ولا يمكـن أن تكـون الزيـارة ظهـرًا ، حـيث أن الأرض ، ومـا عليـهـا ، من رمـال ، وتراب تكون كـالنيران الملتهـبة . وإذا لبس الزائر فى قـدميه خـفًا ، أو ما شـابه ذلك ، أُعـتبـر ذلك مـخلاً بحـرمـة المكان . فـكل هذه الصـحـراء مـرقـد للشـهـداء . والجميـع ؛ صغيراً كان ، أوكبيراً يتحرج من الزيارة بدون وضوء .

وخلال شهرى محرم وصفر من كل عام يُقرأالمولد الشريف [1] هنا ، وعند مقـبـرة سيـدنا حـمزة . يـكتظ المكان بالمؤمنين ، وتجيش نفـوس الحاضرين فى كل عام ، تحت تأثيـر الإنشـاد الدينى ، والدعـاء ، والإبتـهـالات التى تتردد أصـداءها فى المكان كله ، لدرجة أن البعض تخور قواه ، ويلقى ربه من أثر الوُجد الذى تفعم به النفوس ، ويعم المكان ، فيدفن حيث يكون فى صحبة الشهداء .

وهنا تُختم زيارة أماكن الزيارة التى تقع خارج المدينة

---

(١) المولد عـرف الأدب التـركى نوعًا من الشـعـر الدينى ، عُرِف « بالمولد » ، وهى مـدائح نبـوية . وأهم هذه الأعـمـال ؛ هو « وسيلة النجاة » لـ « سليمـان چلبى » [٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م] ، الذى نجح فى التعـبـير عن عـواطفه الدينية ، بطريـقـة صادقة، أقنع بها الطبقات المثقفة جنبًا إلى جنب مع الطبقات الشعبية .

وقد استخدم المولد للدلالة على تلك القصائد التى تُنشد بمناسبة المولد النبوى الشريف ، ومـا يصـاحب الـذكرى من إبتهالات دينية . وقد اختلفت الأراء الدينية حول الإحتفال بالمولد ، فمن يقول أنها بدعة ، ومن قائل أن الإنشاد وقراءة القصائد الدينية ليس بدعة ، وإنما البدعة هو ما يصاحب ذلك من طبل ، وطرق للدفوف وما شابه ذلك ، ومن قائل إنهـا بدعة حسنة ، وأن العرب هـم أول من احتفلوا بمولد النبى ﷺ بزيارة المنزل الذى ولد فيه فى يوم ميـلاده . وأقام الفاطميون الإحتفالات الباهرة فى مصر ، ثم انتشرت حتى شملت العالم الإسلامى .

وبدأ الإحتـفـال بالمولد النبوى ، فى الدولة العثمانية ، يأخذ شكلاً رسميًا ، منذ عـهـد مراد الثالث (٩٨٢ – ١٠٠٣هـ / ١٥٧٤ – ١٥٩٥ م) . وأنه قد أخـذ مكانًا فى تشريفات السلطان منذ سنة ٩٩٦ هـ ، ومـا زال يُنشد إلى يومنا هذا ، فى تركيا فى مناسبات كثيرة خاصة مولد سليمـان چلبى . انظر : [د. نجلاپك اولجاى ، إسلامى تورك آديبالتى ، استانبول سنة ١٩٦٦ س ١٤٠ – ١٥٣] .

ومولد سليمان چلبى هذا ، كتبه مؤلفه وهو فى الستين من عمره ، حين كان يعمل إمامًا لمسجد بورصه ، فى عهد بايزيد الثانى (٨٥١ – ٩١٨ هـ / ١٤٤٦ – ١٥١٣ م) رغبـة منه فى إظهـار فـضـائل الرسـول مـحـمـد ، ومكانتـه بين الرسل .

وعدد النسخ الموجودة فى مكتبات إستانبول ، وحدها ، إحدى وخمسين نسخة ، لموالد مختلفة . وأرجح الأراء حول عدد أبيات هذه القصيدة هى أنها ٣١٧ بيتًا .

وأهم المباحث التى تتناولها القصيدة ، توحيد البارى ، والتماس الدعـاء ، وبيان خلق العالم ، بيان فطرة العالم ، وروح محمد ، وبيان ظهور النبى محمد ، وبيان معجزاته ﷺ ومعراج النبى ، وهجرة النبى من مكة إلى المدينة ، بيان ما يجب أن تكون عليه أمة محـمـد ، ثم بيان بالنصح والارشاد . انظر : [د. الصـفـصـافى أحـمـد المرسى ود. ادريس نصر، دراسات فى الشعر التركى ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م مولد سليمان چلبى ص ٣٥ – ٥٣] .

أوصاف زيارة الوداع:

بعد أن تتم جميع الزيارات و يشترط على الزائر أن يغتسل ، ويلبس ملابس طاهرة نظيفة ، ويدخل بأدب جم من باب «القلعة» وما أن يصل الزائر ، إلى المسجد النبوي الشريف ، فعليه أن يدخل من باب جبريل الواقع ناحية قدمي النبي الكريم ، وعليه أن يقرأ الفاتحة ، والدعاء التالي :

«السلام عليك يارسول الله . » . [وبعد أن ينتهى من دعاءه ، وتضرعاته ، عليه أن يتقهقر إلى الوراء مردداً . . «الوداع يارسول الله . . الوداع . »] . . والسلام .

والحمد لله ، فقد أتممنا زيارة الوداع على هذا لنحو . وكتبت أنا العبد الفقير إلى ربه من الآيات والأقوال ماسمحت به قدرتنا .

والمعروف أن المدينة المنورة تقع على خط عرض ٢٠ْ و ٢٧ دقيقة . وخط طول ١٣ ساعة ، وخمس دقائق .

* * *

أمر حسين باشا قائد القافلة بالمدافع ؛ فأُطلقت ، إعلانًا بالتحرك . وبعد أن أدى جميع الحجاج زيارة الوداع خرجت القافلة من المدينة ، ميممة وجهها شطر المسجد الحرام .. نحو مكة المكرمة . وسارت القافلة ساعتين نحو الجنوب حتى وصلنا إلى أبار على .

آبار سيدنا على :

مكان مسطح واسع ، بالقرب من أودية كبيرة ، وقد قام سيدنا على ، كرم الله وجهه بحفر بئر واسع عذب المياه ، وأصبح وكأنه بستان ، يُستخرج منه الماء ، بالدواليب والسواقى ، وحوله أحواض كبيرة يشرب منها الحجيج ويسقون دوابهم ، ويغتسلون فى مياهها ، ويُحْرِمون اعتباراً من هذا الموقع . وداخل بساتين النخيل ، مكان جميل للتنزه ، والترويح عن النفس . وحول تلك الآبار المتناثرة ، وفى جميع نواحيها أقام أهل المدينة مزارعهم . وفى كل عام ، وخلال موسم الحج ، يُقيم الآهالى حولها سوقًا كبيراً ، يبيعون فيه للحجيج منتجاتهم ، ويتكسب فقراء المدينة ، من تعليم الحجاج شروط الإحرام ، وكيفيته .

ودعاء العمرة على النحو التالى :

(لبيك اللهم عمره .. فيسرها لى ..) .

وهكذا يكون الإحرام ، ولبس الحرير محرم ، وعلى الحاج ، أو المعتمر ، ألا يلبس ثياباً مخيطة أو مطرزة . ويرى بعض الأئمة ؛ أنه من الممكن ، والجائز للفرد ؛ أن يحمل سلاحًا فى ذلك الوقت ، بينما يرى البعض ، الآخر ، أن حمل السلاح ممنوع ، حيث أن الفسق ، والقتل ، وإثارة الشغب ممنوع ، ومحرم فى أشهر الحج .. وعلى الحاج ألا يرتدى الملابس حتى ينحر الذبائح فى منى .. وإن ارتدى ملابسه فعليه أن يذبح أضحية . وعلى مَنْ أراد الحج ينوى بالدعاء التالى :

(اللهم إنى نويت أداء الحج ، فيسره لي ، واقبله مني ..)

ويوجد فى مكان آبارعلى هذا ، مسجد علي كرم الله وجهه ، وله ثنتا عشرة قبة .

ويُؤَدِّى فيه الحجاج ركعتين سنة الإحرام ، والمسجد مفروش من الداخل بالرمل ، وفى هذه المنطقة؛ يرتدى الجميع ملابس الإحرام البيضاء ، وتعلو أصواتهم بالتلبية « لبيك اللهم لبيك » ، وتعج الجبال ، والوديان بأناس وقد تدثروا ، في ملابس إحرامهم البيضاء ، وتصدح تلك الجبال والوديان بتلبياتهم .

أدينا فى نفس الموقع صلاة العشاء ، وأشعلنا المشاعل ، ثم بدأنا نسلك طرقًا ، أكثر تعبيداً ، مارين من داخل القرى التابعة للمدينة . وبعد آبار على هذه ، تبدأ حدود مكة ، وقد مررنا بقرى ذات حدائق وبساتين ، وإستمرت مسيرتنا تنثا عشرة ساعة حتى وصلنا إلى :

منزل مقابر الشهداء:

فى هذا المكان كانت قد وقعت حرب ضروس بين المسلمين وكفار مكة فى عهد النبى ﷺ ، واستشهد فيها أكثر من ألف من الصحابة الكرام .. تنتشر فى المكان النباتات الشوكية .. وقد مكثنا فيه بعض الوقت حيث أحضر البدو ما فى حوزتهم مما يُأكل ، أو يُشرب ؛ لكي يبيعونه للحجيج .

عند السحر ، بدأنا المسير حتى وصلنا إلى « حوض إبن مسعود » الذى كان خاويًا تمامًا من المياه ، ثم مررنا ببركة شيخ الحرم وسبيله . وفى وسط منطقة صخرية ملساء ، توجد قاعة صغيرة تُسمى « مصطبة الغزال » . حيث قد مر الرسول (ﷺ) ، بهذه المنطقة ، فرأى صيادين ، وقد هموا بذبح غزال ليأكلوه ؛ فأنطق الله سبحانه وتعالى الغزال وقال :

« .. يارسول الله ، لابد أنهم سيأكلوننى ، ولى صغار ينتظروننى ، ولابد أنهم يتضورون جوعًا ، وسيموتون إذا لم أعد ، فلأذهب إليهم ، وأُشبعهم ، ثم أعود إلى هنا مرة أخرى ، وليذبحوننى عندئذ ويأكلوننى » .. فيقول المصطفى ﷺ للصيادين .. « اتركوا هذا الغزال ليرضع صغاره ، وأنا كفيل بعودته ، فإذا لم يعد إذبحوننى أنا . بدلاً منه .. » وما أن سمع الصيادون الكفرة ذلك حتى أطلقوا سراح الغزال قائلين ، لنر كيف تكون النهاية .

يصل الغزال إلى صغاره . فيرضعهم حتى الشبع ثم يقول لهم .. [.. يا أولادى إن

سيد العالمين محمداً ﷺ حبيس من أجلى ، فلأخلصه من الكفالة ، ولا يجب أن أحنث فى عهدى .. فليأكلنى الصيادون ..] وينطلق الغزال ، بعد ذلك وما أن رأوه الكفار ، حتى أسلموا جميعًا فى لحظة واحدة .

لهذا ، أطلق الآهالى على هذا المكان اسم « مصطبة الغزال » . صلينا ركعتين فى هذا المكان أيضًا ، ثم مضينا ثلاث عشرة ساعة ، من مقابر الشهداء حتى وصلنا إلى

منزل الـ « جديده » :

هضبة صغيرة محصورة بين جبلين ، قصبة بها ستمائة حديقة من النخيل والأعناب ، خاضعة لحكم الشريف ، بها وادى ، وقد قام بتعميرها رضوان بك ، أمير الحج المصرى ، وفى هذا الوادى سبعة أنواع من أشجار النخيل ، منازلها متينة البناء . به العديد من الورود والمراعى ، وبهذا المكان مياه كثيرة ، أهلها أغنياء جداً . ويوجد جامع صغير لرضوان بك ، وله حمام عام ، كما يوجد سوق صغير ، وأمام الجامع عين ماء يسمونها [عين الزرقا] ، وتكثر العيون بهذه المنطقة ، كما أن بها عيون ساخنة المياه ، تبرد عندما يصبح الجو رطبًا ، وتصير كالثلج ، وفى سوقها تقوم السيدات العربيات بالبيع والشراء ، وهن راضيات مبتسمات ، أغلبهن مليحات . وفى شرق ذلك المكان ، وبين الصخور يوجد مزار الشيخ سعد الدين الرومى [١] . وعلى بُعد ألف خطوة من هذا الوادى توجد قرية عربية بها أربعون أوخمسون منزلاً ، كما أن بها حوض والدة السلطان مراد الرابع وبهذا المكان أيضًا مزار الشيخ صالح . وقد أطلق الرسول ﷺ على هذا المكان إسم « وادى نخل حنين » .

قضينا وقت الظهر فى موقع الـ « جديده » هذا ، ثم ذهبنا بين الحدائق ، والبساتين ، وأحيانًا ؛ بين وديان من الصخور ، متجهين نحو المشرق ، وأحيانًا ، نحو المغرب ، بشكل متعرج ، حتى إقتربنا من « بدرحنين » وكان بالقرب من الطريق . « جبل صاجمان » :

---

(١) الشيخ سعد الدين الرومى : ؟

هل هو سعد الدين أفندى زاده الذى تولى مشيخة الإسلام مرتين فى عصر كل من السلطان محمد الثالث والسلطان أحمد الأول . وابن الشيخ سعد الدين خواجه آفندى شيخ الإسلام ؛ الذى كان مدرسًا فى بروسه عندما ولد إبنه سعد الدين هذا .. وبعد أن اتم دراسته وتحصيل العلوم ، عيّن مولا على مكة المكرمة سنة ١٠٠٠ هـ= ١٥٩١م ؟ (المترجم)

وهو جبل مرتفع قرمزى أي أحمر اللون ، وعندما كان النبى ﷺ متوجهًا إلى غزوة الحديبية ، توقف فى هذا المكان ، ثم صعد إلى ذلك الجبل ، وتوجه إلى الله ، بالدعاء لنصرة جند الإسلام . ويكثر معدن الزمرد بهذا الجبل . فتح النبى ﷺ هذه الديار ، وأرسل الرسل برسائل الفتح إلى حكام المناطق المتاخمة ومنهم « برويز » شاه العجم ، وقد دعاهم جميعًا إلى الإسلام ، وفى الجانب الغربي من هذا الجبل يوجد جبل عرج .

ثم مررنا بعد ذلك بكثير من القري ، التي تمر بها مياه عين الزرقاء ، وتكثر فيها الحدائق ، والبساتين الغناء . فحيثما كان يذهب الرسول ، أو يمضى كانت مياه عين الزرقاء هذه تسيل ، وتمضى إلى ذلك المكان ، من تحت سطح الأرض ، وأينما طلبها الرسول ، كانت تخرج المياه إلى وجه الأرض . « والله على كل شئ قدير » .

قرية صاجمان:

قرية بها ثلاثمائة منزل ، بها حدائقُ ، وبساتينُ ، وجامعُ ، وحمامُ عام ، ومياهها من عين الزرقاء ، تبيع النساء فيها ما يملكون من فواكه ، أو تمور ، يستأجر فيها الحجاج ما يلزمهم من الجمال ، ويبيع أطفالها الخبز الأبيض ، والرقاق المعجون بالزبد ، أو العسل . وما أن تبعد عن الجديده مسيرة ثمان عشرة ساعة حتى تصل إلى قلعة بدر .

وصف قلعة بدر:

فتحها النبى ﷺ بنفسه فى السنة الثانية للهجرة ، حيث قُتل أبى جهل ، ومعه سبعين رجلاً ، من رجاله ، كما أسر كعب بن عمر سبعين مكيًا ، وأحضرهم مكبلين فى الأغلال إلى مجلس النبى ، فأسلموا جميعًا ، وألبس الرسول الأكرم عمامته السوداء لحضرة العباس ، وما أن وضعها ﷺ على رأس العباس حتى قال الصحابة الكرام «لتكن مباركة للعباس» ، مجمل القول أن أبا جهل رأس الكفرة المشركين ، قد قتل ومعه سبعين نفرًا من رجاله وقتل سبعة آلاف كافر ؟! وأسلم ألف نفر ، وقد غضب أبو لهب عندما سمع ذلك فى مكة . وبينما كانت زوجته تحضر الخشب

والحطب إلى منزله ، جلست على صخرة لتلتقط أنفاسها ، وظنت أنها قد وضعت الحطب على الصخرة ، ولكن الحطب يسقط خلف الصخرة ، فيلتف الحبل المربوط به الحطب حول رقبتها ، فتُخْنَق ، وتلفظ أنفاسها ، وهكذا أُهلكت زوجة أبا لهب الذى نزلت فى حقهما سورة ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)** ﴾ (*) وتحت رجاء ، وطلب الصحابة الكرام ، هُدِّمت القلعة لما عانوه من صعاب ، ومتاعب جامة فى الفتح .

وفى جنوب هذا الموقع ، تُقام العبادة فى المحراب ، والصُّفَّة التى أقام الرسول الكريم خيمته بها . ونحو القبلة من هذا الموقع ، وعلى بُعد خمسمائة خطوة ، وعلى جبلٍ ، وعرٍ ، منحدرٍ ، يقع غار النبى .

غار النبى :

دخل الرسول الكريم هذا الغار ، وأخذ يدعو بالنصر المظفر لصحابته الميامين . وقد دُفن بهذه المغارة كل مَنْ نال الشهادة ، وحظى بالإستشهاد فى معركة بدر من الصحابة . قام الرسول الأكرم ، بثمانية وعشرين غزوة ، وكانت غزوة بدر تلك ، وغزوة أُحد ، هما أكبر هذه الغزوات جميعًا .

وجنوب بدر حنين ، يوجد بئر بلا ماء ، وقد أُلقيت فيه جثث الكفرة الفجرة الذين ماتوا فى هذه الحرب ، وكان ذلك بأمر الرسول الأكرم . وظلت جثة أبى جهل النتنة فى هذا البئر السحيق . ولا يُطاق الوصول إليه لما ينبعث منه من رائحة كريهة . ويقال أن أنينًا يصدر منه دائمًا ، ولكننى أنا العبد الحقير مررت من جانب هذا البئر ، ولم أسمع الأصوات .

وصف بدر حنين :

أطراف هذه المدينة الأربع صخور حمراء . خاضعة لقائمقامية [1] الشريف على

(*) سورة المسد ، مكية .

(١) قائمقامية الشريف ؛ قائم مقام ؛ معتمد أو وزير أو مسئوول يحل محل الصدر الأعظم أو الوزير أو الوالى فى الإدارة ، وكان هناك ديوان للقائمقامية وقائمقام فى الآستانه لإدارة الأمور السياسية والإدارية . كما كان القائمقام يتولى =

مسافة من شاطئ البحر الأحمر مسيرة ما يقرب من خمس ساعات . بها نائب لمولا مكة [1] ، وأربعمائة بيت عربى ، وجامع من اللبن المتين البناء ، تتدفق مياه عين الزرقاء فى فنائه ، وبالقرب منه حوض كبير ، وناحية القبلة يوجد أيضًا مسجد ذوقبة . وبها حمام عام ، ومئتا دكان . وفى هذه المدينة يلتقى طريق الحج المصرى [2] بطريق الحج الشامى ويحتفل حجاج مصر ، بغزوة بدر ، فى هذا المكان حيث يشعلون المصابيح والمشاعل ، ويطلقون الفشنك «الأعيرة النارية» . ولما كانت

= الشئون الإدارية وأمور الأوقاف . وفى التقسيمات الإدارية كانت السناجق ، والقصبات تُقسم إلى قائمقاميات لتسهيل أعمال الادارة ، واستتباب الأمن ، واحلال الربط والضبط . ومن هنا كانت قائمقامية الشريف فى مكة لمعاونة الوالى ، والسلطان فى تنظيم أمور الحج وإدارة الحجاز . (المترجم)

(١) مولامكة : منلا ؛ لقب علمي كان يُطلق على من يحوز على رتبة واختصاصات المولوية = المشيخة . ثم أخذ يُطلق على المتعلمين من أبناء الأصلاء والنجباء ، وأصحاب المراكز الإجتماعية الرفيعة . ثم انحصر فيما بعد على العلماء والمشايخ فقط . كما كان يُطلق على كبار المعلمين ، والمدرسين . فمولا مكة المكرمة هو المسئوول عن التعليم ، وأمور الدين ، والافتاء ، والقضاء فى مكة المكرمة . . وكان له مخصصاته الخاصة به . (المترجم)

(٢) طريق قافلة الحج المصري : وهو الطريق الذى كانت تسلكه قافلة الحج المصرى بعد أن ينضم إليها حجاج المغرب وشمال أفريقيا . وبعد إتمام المراسم المعتادة كانت القافلة تقطع المراحل التالية :

بركة الحاج :

وهى أول مراحل قافلة الحج المصرية :

جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المحمل المصرى الشريف ، وسط إحتفال كبير من مصر القاهرة ، ويتجه به إلى (بركة الحاج) ، وهناك يلتقى بقافلة الحج المصرية ، ثم ينضما إلى بعضهما البعض ، ويتجه الموكب بعد ذلك إلى (هدف البويب) .

هدف البويب :

وهو ممر ضيق جداً محصور بين جبلين ، توجد فى طرفه الأيمن من ناحية الشرق هضبة مرتفعة .

ويتجه الموكب نحو منزل (الحمرا) ، بعد أن يغادر هدف البويب ، وقد أقامت السلطات المعنية فى هذا الموقع عدة أبنية وفسقية ماء من أجل الحجاج .

الحمـــرا :

تصل القوافل بعد الحمرا إلي (نخيل غانم) ، ثم إلى (بركة عجرود) .

بركة عجرود :

تعتبر هذه المرحلة المنهل الأول . وفيها نهير يصب مياهه فى الوادى ، وبها خان كبير ينسب إلى السلطان قانصوه الغورى وثلاث فسقيات خصيصًا من أجل الحجاج وهى تقع تجاه السويس ، وتسمى أيضًا عيون موسى .

وتصل القافلة المصرية إلى (منصرف) بعد أن تتحرك بركة عجرود ، ثم تنزل فى استراحة قبيبات) .

منـصـــرف:

وتوجد بهذه المرحلة بعض المنخفضات ويظن البعض أن تلك المنخفضات كان قد حفرها الملوك السابقون فى العهود الغابرة ، للربط بين البحر الأبيض والبحر والأحمر ، وهى التى حفرت مكانها الآن قناة السويس .

وسبب تسمية قبيبات بهذا الاسم راجع إلى وجود عدة كثبان رملية صغيرة فى هذا الموقع . =

قريبة من البحر ، فإنه يأتي إليها أشياء كثيرة من مصر ويعمها الرخاء . اشترى

= قبيبــــات :

بعد أن يغادر الموكب قبيبات يصل إلي (أول التيه) ، وبعدها يحط رحاله فى الموقع المسمى (وسط التيه) الذى يدعى (روض الجميل) أيضًا .

أول التيـــــه :

هو بداية التيه لبنى إسرائيل ، والتيه المذكورة عبارة عن صحراء مترامية الأطراف على جانبها الأيمن جبل الطور ، وعلى جانبها الايسر جبل العريش . طوله وعرضه أربعون فرسخًا ، شديد البرودة شتاءًا ، مرتفع الحرارة صيفًا . لا يوجد فيه ما يحتمى به من البرودة أو الحرارة ، ومياهه معدومة . وقد تاه فيه بنو إسرائيل مدة اربعين سنة ، وظلوا حيارى ذهابًا وإيابًا بين هاتين المرحلتين . ولذلك سميت تيه بنى إسرائيل . ويلى وسط التيه مرحلة (بطن النخيل) وبعدها (وادى التجر) ، وبه ينبوع ماء . وقد أمر السلطان قنصوه الغورى بإقامة حصن وفسقية فى هذا الموقع . وأخيرًا قام أمير أمراء مصر على باشا بتوسيع الحصن والفسقية المذكورة .

ويقوم حراس الحصن المذكور بملء حوض الفسقية بمياه البئر قبيل وصول قافلة الحجاج ، ويدافعون عنه ضد هجمات الاعراب المنشقين الذين يريدون تفريغ هذا الحوض .

وتحط القافلة رحالها قليلا من الوقت فى (أبيار علايا) بعد مغادرة موقع وادى القريض ، وبعدها تصل إلى (عراقيب البغلة) ، ثم تتجه إلى استراحة (الملاحة) ومنها إلى (صقارات) ثم (رأس الركب) فـ (سطح العقبة) .

أبيـــار علايـــا :

وهذه المرحلة عبارة عن صحراء مسطحة واسعة تقع فى نهاية منحدر طويل ، وبها بئران : أحدهما ينسب إلى (بيره) والآخر إلى (علاتى) . ويمتلئ البئران من مياه المطر ، كما يوجد بهذه المرحلة حوض ماء لا بأس به .

رأس الركـــــب :

والقوافل المتحركة من هذه المرحلة تصل بعدها إلي (سطح العقبة) ومنها إلى (منزل) . ومرحلة منزل هذه عبارة عن مطلع حجرى يؤدى إلى مرحلة (ظهر الحجار) ، ومنه إلى (الجرفين) فـ (شرفة بنى عطية) التى تشتهر بكثرة أخشابها ورخصها ، وتتجه القوافل منها إلى (مطلات) ثم تحط الرحال للاستراحة (مغارة شعيب) ، كما يسمى سطح العقبة بعقبة (أيلة) ، وهناك أطلال قصبة كبيرة على أطرافها توجد قرية لبدو قبيلة (الحويطات) .

وإذا كان الحجاج لا يجدون ماء يشربونه فى هذا المنزل الذى يحطون رحالهم فيه ، فهناك على بعد ميل واحد بئر عذب المياه حوله حديقة كثيفة الأشجار .

منزل :

وتمثل هذه المرحلة نهاية الربع الأول لطريق مصر – مكة المكرمة ، ومياهها كثيرة عذبة المذاق قريبة من ساحل البحر ، وتمتد نحو ميلين على الطرف الأيسر من جبل الطور . ويوجد فى نهاية هذا الجبل منحدران ومضيق ضيق ، إلا أن مياهها عذبة وآبارها كثيرة .

مطـــــلات :

تقع هذه المرحلة بين جبلين ، ويقطنها طائفة من جماعة بنى لام .

مغارة شعيب :

وهى تتمتع بحفر ومنخفضات ذات مياه عذبة وأشجار كثيفة من تلك التى تسمى (أثل مقال) . وفى هذا بعض اللوحات التى كتبت عليها أسماء الملوك القدماء .

وبعد مغارة شعيب تصل القوافل إلى (قبر الطواشى) ، فـ (عيون القصب) .

عيـــون القصـــب :

وهو واد كثير المياه ، كثير الغابات ، شديد الحرارة ، ويحكى البعض أن الكثيرين ممن يتواجدون فى هذا المكان خلال =

الحجاج ما يلزمهم ، وملأوا قربهم . وبعد الظهر تحركنا ، وكنا نمضى تارة إلى اليمين ، وتارة إلى اليسار حتى ترائى لنا البحر الأحمر بعد ثلاث ساعات .

= أيام الصيف يتعرضون للموت الفجائى . وبهذا الوادى مكان قريب من الساحل ملئ بالقبور يزوره الناس . ويظن الأهالى أن أحد هذه القبور ينسب إلى أحد أبناء إبراهيم (عليه التحية والتكريم) .

وبعد مغادرة عيون القصب تصل القوافل إلى منطقة (شرم) ومنها إلى مرحلة (مويلحة) ثم إلى (بطن كبريت) ثم تصل القوافل إلي (قبر الشيخ الكفافى) .

شـــــرم :

موضع قريب من البحر ، يسمى الجبل الواقع على طرفه الأيمن (إشارة) .

مويلحة :

تميل مياهها إلى المرارة لوقوعها على ساحل البحر ، قد نزل السلطان قايتباى بهذا الموضع للاستراحة عندما كان متوجهاً إلى الحج ، ولذلك يطلق عليه أيضاً اسم (دار قايتباى) . وما زالت قائمة إلى اليوم .

قبر الشيخ الكفافى :

وهو مدفن شخص يدعى مرزوق .

الشيخ الكفافى :

تصل القوافل إلى منزل (أزلم) بعد منزل الشيخ الكفافى ، ومنه إلى (سماق رخانين) ثم إلي (اسطبل عنتر) فـ (شريت) حيث الصحراء الممتدة الواسعة ، ثم تصل القوافل إلى مرحلة (الوجه) .

أزلـــــم :

تمثل هذه المرحلة نهاية الربع الثاني من طريق مصر – مكة المكرمة وهى عبارة عن موقع منحصر بين جبلين أرضه سبخة ومياهه مالحة وأعشابه مسهلة .

رخانـــــين :

ولما كان هذا الموقع قريباً من الحج ، فإن الحجاج المصريين يبدأون الإحرام من هذا الموقع .

اسطبل عنتر :

مرحلة صحراوية محصورة بين الجبال ، ذات مياه عذبة وأشجار ظليلة .

الوجـــــه :

منزل يشبه الوادى ، به آبار عذبة المياه وحوض كبير . وقد قام إبراهيم باشا والى مصر بتجديد الحوض المذكور سنة ٩٣١هـ ، وهذا الحوض يمتلئ بالمياه عند هطول الأمطار وتدفق السيول .

والوجه قصبة صغيرة تقع فى الجهة الغربية للمدينة المنورة وتحتوى على مائتى دار وعشرين دكاناً وستة أقسام للحجر الصحى وجامع ودائرة حكومية ، وقلعة كانت تحت إدارة المدينة المنورة . وقد انتقلت إدارتها مؤقتاً إلى الخديوية المصرية لوقوعها فى طريق المحمل المصرى ، وتوجد الآن فى حوزة قائمقام مصرى . يستعين بطابور من الجنود النظامية الموجودة فى ينبع البحر وخمسة عشر نفراً من المدفعية للمحافظة عليها .

تصل القوافل المتحركة من الوجه إلى (بئر القروى) ومنها إلى (حرير) فـ (حورا) المشهورة بجفافها وانعدام مائها . ثم تواصل القافلة سيرها إلى (عقيق) وبعدها تنزل فى (صحن بياض) أى الصحن الأبيض .

صحن بياض :

هو منزل رملى كثير الثعابين والحيات مخيف الأطراف .

وبعد هذا الموضع المخيف تتجه القوافل إلى (نبعا) ومنه إلى (طراطير الراعى) فـ (وادى النار) .

وادى النار :

هو وادى رملى وحجرى بين الجبال ، ويطلق الناس على هذه المرحلة (السبع الوعرات) لوجود سبع صخور خطرة وكبيرة فيها .

=

صحـــراء ميمـــون :

صحراء مترامية الأطراف ، شاسعة لا نهاية لها ، لو تخلف فيها إنسان عن قافلته ، فإنه يمضى ، ثم يمضى ، وتكون عودته منوطة بحظه الميمون ، لذلك أطلقوا عليها وادى ميمون ، تشرق الشمس ، وتغرب فى تلك البيداء ، أشعتها تحرق الإنسان من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وفى الأثر ؛ أن حجاجاً تحولوا كالفحم ، أو الشواء وهم فى إحرامهم . وعلى المشارف الشرقية لهذه الصحراء يعيش العديد من عشائر البدو وقبائلهم كبنى موال وبنى جان وغيرهم وغيرهم الكثير وبقدرة الخالق ، تتحول جمال الحجيج ، فى هذه الصحراء ، وكأنها التنين ، أو كحيات من ذوات الرؤوس السبع ، تخوض فى رمالها ، متخطية كل الصعاب ، قافذة كالغزلان .. وبعد أربع عشرة ساعة وصلت القافلة إلى :

ســـبيل ميمونـــة بنـــت الحـــارث :

وهى من أهل بيت رسول الله ، ولما كانت هذه الصحراء تعود إلى عائلة ميمونة تلك ، فقد أطلقوا عليها وادى ميمونة ، وما زالت معمورة السبيل تخضع لإشراف ونظارة مَنْ يتولى الشرافة فى مكة . ولا تطل استراحة القافلة ها هنا ، بل تحركنا نحو القبلة عقب إطعام الجمال ، والدواب .. يالها من صحراء خطرة لا أمن ، ولا أمان فيها ، ولكن كانت أوامر الشريف وتحذيراته للبدو واضحة حيث حذرهم [.. لوضاع للحجاج فى هذه الصحراء شيئ فلسوف أسلخ جلودكم ..] لذلك مضينا بسلامة الله ، وقضينا سبع ساعات حتى وصلنا إلى قرية .... وهى قرية معمورة

= **نبعـــا :**

وهذه المرحلة ذات مياه عذبة وفيرة ويطلق عليها أيضًا : (فقاع الحجار) .

وتتجه القوافل من وادى النار إلى (حجرا) إحدى توابع ينبع ، ومنها إلى (جبل حمر) فوادى تيما . ثم تصل المواكب إلي جبل الزيت .

جبل الزيت :

يطل جبل الزيت على ينبع ، ولهذا يستقبل حاكم ينبع المحمل الشريف فى هذا المكان ويتقدم جمل المحمل حتى السجادة المفروشة ثم تؤدى ركعتان للصلاة حسب العادة .

وتتجه القافلة التى تخرج من جبل الزيت إلى (ينبع) ومنها إلى قرية (عديبية) فاول (دهنا) . ومن هناك إلي (واسط) ومنها إلى بدر ، ومن بدر إلي صحراء (خيب البز) الواسعة ، ثم إلي (عتيق) القريبة من ساحل البحر ، ومنها إلى عقبة (ودان) . وتستمر القوافل من عقبة إلى (رابغ) ثم تواصل سيرها فى الطريق المعروف تجاه مكة المكرمة . « المترجم »

تُسقى من عين الزرقاء ، بها مائتين منزلاً ، وبساتين ، وحدائق غناء ، يبيع سكانها منتجاتهم على قارعة الطريق ؛ تمورها ، وشمَّامها ، وبطيخها كثير . لم نتوقف هنا ، بل تابعنا سيرنا ، ومن الطريف أن النعام ، والغزلان ، والآرانب البرية ، كانت تدخل بين الحجاج ، ونحن فى هذه الصحراء ، فيصطادونها فى سهولة ، ويسر ، وكأنها هدية من الله . . وفى نهاية هذه الصحراء يوجد :

جبـــل طيبـة ســلطان :

منطقة عذبة المياه ، معتدلة الهواء ، كثيرة المرعى ، لم نتوقف بل مضينا ، واستمرت مسيرتنا وسط الصحراء يومين ، وكان هذا الجبل ما زال باديا لنا . وقد نفقت جمالٌ كثيرة ، وتُركت غيرها بعد أن أصابها الإرهاق ، والتعب فى هذه الصحراء ، كما أصيب كثير من الحجاج بالإرهاق ، وحل بهم التعب ، من جراء شدة الحرارة . وحمداً لله ، وشكراً فقد وصلت قافلة الحج الشامى سالمة إلى قرية. . . . . بها مائتان وتسعون منزلاً ، وحماماً عاماً ، وحدائق نخيل ، وبساتين وفيرة الإنتاج . أقبل إليها جميع الآعراب ، المحيطين ، لبيع منتجاتهم . وأخيراً ، وبعد ثمان عشرة ساعة وصلنا إلى :

منزل قصبة ربيعـة :

وهى تحت حكم الشريف ، وبها نائب عن موللا مكة ، وبها جامع ، وخان ، وأكثر من مائة بئر ماء ، وبسبب قربها من البحر فإن مياهها تميل إلى الملوحة . . ولا تصل مياه عين الزرقاء إلى هنا . ويُحْرِم حجاج القافلة المصرية فى هذا المكان . وقد مروا قبلنا بثلاثة أيام . ولما كانت القافلة تسير بدون توقف قط ، فقد نفق سبعون جملاً ، وعشرة خيول من التعب ، والإرهاق ، وعدم النوم ، أو تركها الحجيج ، لعدم مقدرتها على السير .

قـاع الــبرو أو عقـبة السويــق :

غرقت كل الحيوانات فى الرمال ، وغمرها العرق ، وترجل الجميع ، وأخذوا فى السير فى بحر الرمال ؛ خطوة يصعدوا فيها مطلعًا ، وأخرى ينزلوا فيها منزلاً ، وكبَّر

الجميع «الله اكبر .. الله اكبر» حتى تجاوزوا العَقَبَة» [١] ، ولكن بقى بين الرمال ما بين سبعين ، أو ثمانين حيوانًا ؛ فكان البدو يأخدونها على الفور من بعدنا ، ولكن مَنْ كان ينظر إلى ذلك !! فلم يبق سوى أربعة أيام للوصول إلى عرفات ، بينما بقيت أمامنا خمس مراحل . وبالرغم من أن رضوان بك أمير الحج المصرى قد أوقف ألف قرش لإزالة رمال تلك «العقبة» إلا أنها ما زالت منطقة مخيفة . فيها هلاك الحيوانات .

وعلى يمين هذا الطريق ، جدار أو نصب مكتوب عليه العبارة التالية : (جدد هذا المضيق ونظف فى زمن السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان سنة ١٠٤٨) وقد أقام هؤلاء السلاطين جداران على جانبى هذا الممر الضيق مسافة سير ساعتين لحجز الرمال ، ولكن بالرغم من ذلك لم تسلم الجمال من مخاطر الرمال ، ويبقى بها سنويًا مئات منها ، وتاريخ الحائط (بنى على يد أمير الحج رضوان باشا سنة ١٠٥٦ بأمر من السلطان ابراهيم خان) [٢] .

وعبرنا أيضًا هذا المكان ، وعلى مسافة أربع عشرة ساعة من «حفرة رابعة» وصلنا إلى :

قلعة البُركة :

توقفت القافلة هنا . وهى قلعة جميلة مربعة الشكل مقامة على صخور مستوية على مسيرة نصف ساعة ناحية الشرق . بناها سلطان بنى هلال سنة ٨٧١ فى زمن الإسكندر . وقد خاض «مالك صُمْحَان» "Malik Sumhan" من بنى

---

(١) مطلع خطر محاط بالصخور من كل جانب ، حتى أصبح كالممر ، أو المضيق الضيق ، تملئه الرياح ، بالرمال ، مما يجعل السير فيه صعبًا . «المترجم»

(٢) السلطان ابراهيم خان : [١٠٢٤ - ١٠٥٨ هـ = ١٦١٥ - ١٦٤٨م]

كان هو ولي العهد الذكر الوحيد فى العائلة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الرابع ، وهو شقيق السلطان مراد الرابع هذا ؛ وهما ولدي السلطان أحمد الأول والسلطانه مهبيكر . كان فى الخامسة والعشرين من عمره عندما جلس على كرسي الحكم .

ولد سنة ١٦١٥م = ١٠٢٤هـ فى مدينة استانبول . وقد قضى عمره فى جناحه محبوسًا حتى توليته العرش .. ولهذا كان عصبى المزاج ، اعتلى السلطنة سنة ١٦٤٠م = ١٠٥٠هـ وفى سنة ١٦٤٤ = ١٠٥٤ هـ عزل الصدر الأعظم قره مصطفى باشا وعيّن مكانه محمد باشا . ثم قُتِل فى ١٨ آغسطس سنة ١٦٤٨م بعد ان أُنزل عن العرش فى الثامن من نفس الشهر . رغم عصبيته كان محبًا للخيرات . (المترجم)

عنتـر حـربًا ضـروس فى هذه القلعـة ، ثم انتـقلت القلعـة إلى أيـدى بنى هاشـم «الهاشـميين» ثم فتحها سيدنا على كرم الله وجهه فى السنة الثالثة للبعثة . وفى غـرب المكان حوض كبير تقدر أطرافه بستمائة خطوة ، ولا مثيل لهذه البركة فى طريـق الحج ، مياهها تأتـي من عين الزرقـاء ، وناحية القبلة من هـذا الحوض يوجد مسجد منخفـض القبـة ، على محرابـه نقشت العبارة التاليـة : (أمـر السلطان مراد بن السلطان أحـمـد بإنشـاء هـذه البُركة سنة ١٠٤٨ ، فلتقرأ الفاتحة من أجـل رضـاء الله ....) .

وبالقرب من هذا المكان قرية ، يحضر جميع البدو إليها كل ما يملكون ويبيعونه فى مزاد علنى ، وهى مطروقة من الحجاج ، تحركنا من هنا ، ومضينا سبع ساعات تارة بين الرمال ، وتارة أخرى بين الغابات حتى وصلنا إلى « عسفان » . ولم نتوقف ، بل مررنا ، وهكذا بعد أن قضينا إحدى وعشرين ساعة من البركة الجميلة دخلنا إلى قصبة وادى فاطمة .

منزل قصبة وادى فاطمة :

قصبة تقع أسفل سفح ، بها مائتان بيت عربي ، بها جامع على حافة الوادى ، أطرافه محاطة بالأشجار السامقة الطول ، تتدفق مياه عين الزرقاء فى فنائه فقط ثم تختفى . وقد تدفقت مياه عين الزرقاء هذه بين مكة والمدينة على إثر دعوة الرسول الأكرم . فبينما كان النبى الأمين متوجهًا إلى الشام للتجارة ، كانت عين الزرقاء تتدفق فى طريقه وأينما إتجه ، وهى فى الحقيقة معجزة كبيرة ؛ لإنها تدفقت بناءًا على رغبة النبى الكريم ، متخطية الكثير من الجبال ، والصخور ، والصحارى ، وقد قدَّم الرسول الكريم ﷺ هذه الصحراء كجهاز للسيدة فاطمة ، فى السنة الثانية للهجرة . ومن هنا أخذت هذا الإسم . ويستقر الحجاج الذين يفدون من شتى بقاع الدنيا شهرًا فى مكة المكرمة ، فينسون متاعب الطريق ، ومصاعبه . وعشرات الآلاف من الحيوانات الخاصة بالحجاج ، ترعى وتتغذى على أعشاب هذه الصحراء ، ولو تغذى أي حيوان على أعشاب هذه الصحراء عشرة أيام فقط ، فإنه يصبح سمينًا ، فوادى فاطمة وادٍ مثمر معطاء .

صفـــة النجـــاة = ســاحة النجـــاة:

قاعة صغيرة مبنية من الحجر ، فبينما كان الرسول الحبيب متجهًا نحو الشام هو ، وبعض أصدقائه ، لما لقيه من عناء على يد المشركين ، أرسل المشركون أمثال أبو لهب ، وأبو جهل ، رجلاً يدعى « سراقة » خلفه لقتله وأعطوه ما طلب ، من مال مقابل ذلك . وبينما كان سراقة يود أن يجهز على النبى الأمين بسيفه فى هذا المكان ، فيسقط سراقة على الأرض بحصانه ولكن بدعاء النبى يغوص الفرس فى الرمال ، عندئذ يتوجه سراقة إلى الرسول بالرجاء أن يدعو الله له بالنجاة قائلا ، [ولأحارب أعداءك فى مكة ، وأعمل فيهم سيفى] ولما نجاه الله بدعاء الرسول ، أسلم على الفور ، وما أن عاد إلى مكة فى مُعية الرسول (ﷺ) ، تعجب الكفار وسألوه قائلين :

(ما هذا الحال ، أين رأس محمد ؟) فيرد عليهم قائلا : « أيها الملاعين إن رأسى أنا فداء رأس محمد وقد جئت لأطيح برؤوسكم » ، وقَتلَ سبعةً منهم ، وأحضر رؤوسهم إلى الرسول الحبيب هنا فى وادى فاطمة هذا ، وأصبح ملازمًا للرسول ، ولم يفارقه لحظة . . وقام سراقة ببناء هذه الصفة قائلاً ؛ لقد نجوت من غضب الله . وقمت أنا آوليا العبد الحقير بالتجول والطواف بهذه المنطقة مع عبدين من عبيدى ، بعد أن استأذنت من حسين باشا . وبعد ست عشرة ساعة وصلنا إلى :

منـــزل مقـــام العمـــرة:

يتوقف الحجاج هنا دون أن يُنزلوا أحمالهم . عبارة عن عشر منازل وعشر دكاكين تبدو عليها معالم الفقر ، يخرج كل آهالى مكة لاستقبال الحجيج ها هنا ، ويشرحون لهم شروط الإحرام والعمرة . وهنا يجب الاغتسال أولاً . ولتسهيل اغتسال الحجاج ، أمر عمر باشا والى مصر سنة ١٠٧٣ هـ= ١٦٦٢م بإنشاء بركة كبيرة لدرجة أن القوارب تتجول بها . كما أمر ببناء حمامات ، وميضات ، وأسبلة واستراحات . ويُملئ هذا الحوض بالمياه التى تُسحب عن طريق الدواليب ، والسواقى التى تجرها الثيران . وعلى الذين أحرموا فى بئر على ، ثم ارتدوا ملابسهم ، مزمعين ذبح الأضاحي، عليهم أن يغتسلوا هنا . كما أنه من السنة المرعية صلاة ركعتين هنا . بعد

ذلك على المحرم ألا يقتل قملاً ، أو برغوثًا ، وألا يحك جسمه بأظافره ، فتلك سنة . ويُحَرم الفسق ، أو القتل ، أو الشجار تحريمًا قاطعًا ، وإذا لم يغتسل الحاج المُحرِم فيجب عليه تجديد وضوءه ، وهذا فرض . وبمجرد لبس الإحرام يجب على المحرم أن ينوى قائلاً .. « اللهم إنى نويت العمرة .. » وإذا كان مقصده الحج فقط ، فيقول .. « اللهم إنى نويت الحج .. » وتستغرق المسيرة إلى الكعبة الشريفة ، مدة ساعة واحدة . ويتوجه القادم لأداء طواف القدوم الذى يُعد الفرض أو النُسك الأول . وبقدر طاقة المرء ، يؤدى العمرة ، فكلما أكثر من الأداء نال الثواب وأتم الحج . والسعى بين الصفا والمروة ، واجب ، ويحل بعده حك الرأس ، وتقصير الشعر ، وبعد النزول من عرفات وذبح الآضاحى ، والقيام بالطواف الأخير ، يجب عندئذ الحلق ، وتقصير الشعر ، وهناك من يتمسك بعدم القص على أنه سنة . وعلى طريق العمرة ؛ يوجد عمودان كبيران على جانبى الطريق ، وعلى كل عمود ثلاث قباب صغيرة مكتوب عليها بالخط الكوفى «إنها من بناء أبى بكر» ، ومَنْ يدخل من هذين العمودين ، يكون قد دخل حرم مكة المكرمة .

وعند هذا الموقع ينتظر حسين باشا ، وشيخ مكة ، وقد إمتطى كل منهما صهوة جواده ، وقد مر من أمامهما : أولاً ؛ خارموش باشا أمير الحاج الشامى ثم جند الشام، ثم جنود الباشا ، وهذه هى الأصول ، والقواعد المرعية ، منذ القدم وقد قامت الفرقة الموسيقية ، المرافقة للباشا ، بالعزف لمدة نصف ساعة ، متواصلة واستغرقت هذه المراسم ساعتين ، وكنا أحيانًا نسير فوق الرمال وأحيانًا فوق الحصى والحجارة .

مرحلة وادى فاه Fah :

ولما كنا قد دخلنا مكة ، قبل عرفة بيومين ، فنزلنا فى معسكر الباشا المقام هنا وقضينا به اليوم الثامن ، وقد أمر بنحر سبعة جمال ، وأربعين رأسًا من الضأن قربانًا ، حيث كان جميع الحجاج ، قد فقدوا الأمل فى الوصول ، قبل حلول الموعد لهذا العام .

وقد قَدِم جماعات ، وأفواج عديدة ؛ من العلماء ، ومشايخ مكة ، وأشرافها والتقوا بالباشا ، وقد لقى كل منهم من الإحترام ، والتبجيل حسب مقامه ،

ومكانتـه . ثم قَدم بعـد ذلك أوزبـك بك [١] ، أمـيـر الحج المصـرى ، وأمـيـر جـده ، بقلاجى محمد بك [٢] ، وقواد المعسكرات [٣] السبعة الكبار ، ومعتمدوها [٤] ، وجاوشيتـهـا [٥] وقواد المعسكرات السبعة الكبار [٦] ، وچورباجيوها [٧] ، واوداباشيوها [٨] ، ودخلوا عليه ، فرقة ، فرقة ، وشربوا الشربات .

---

(١) اوزبك بك : كان قائداً للقوات العسكرية المصرية التى توجهت إلى الحجاز لقمع الفتن التى قام بها الشريف سعد عقب توليه ولاية جدة سنة ١٦٦٩م = ١٠٨٠هـ وعندما اشتدت القلاقل صدرت الآوامر إلى والى الشام صارى حسين باشا بالتوجه إلى الحجاز وتـولى قيادة الجيوش العثمانيـة والقضاء على هـذه التحركات ، وتامين قوافل الحج وقد تمكن حسين باشا من احتواء الشريف أولاً حتى انتهاء موسم الحج .. ولكن الشريف تمكن من الهرب عندما شعر بما يدبر له . «المترجم»

(٢) بقلاجى محمد بك أمير جده : عمل أميراً على جدة . وكان له قصره في القاهرة . رآه آوليا چلبي عندما زار القاهرة وتحدث عنه عندما تحدث عن القصور التى تحيط بالأوزبكية . (المترجم)

(٣) آغوات المعسكرات = اوجاق آغالرى ؛ مصطلح عسكرى يُطلق على قادة معسكرات الإنكشارية ، ورئيسهم يُطلق عليه آغا الانكشارية وكان يُستخدم بدلاً منه فى بعض الاحيان «أركان المعسكر» اى اركان قوات الإنكشارية ، وكانت الرتب التى تلى آغا الانكشارية كما يلى :

١- سكبانباشى . ٢- كاتب الإنكشاريه . ٣- معتمد = كتخدا الانكشارية ، أى وكيلها . ٤- آغا استانبول . ٥- آغوات الاناضول والروميلى ، ٦- كاتب الفضلاء . ٧- إمام الآغا . ٨- قواد الميسرة . ٩- قواد المشاة ، ١٠- قواد كلاب الصيد الفرسان . ١١- فرسان الكيان . ١٢- معتمد الميسرة . ١٣-قائد حاملى الرسائل والبريد . ١٤- معتمد اى كتخدا البريد . ١٥- رؤوساء البلوكات . ١٦- رؤوساء العنابر . ١٧- ضباط الخدمات .

وكانوا يعينون جميعًا بناءاً على تقرير وتوصية آغا = قائد الانكشارية . «المترجم»

(٤) الكتخدا ؛ كتخدا : Kethüda : مصطلح يُطلق على المعتمد اوالوكيل الذى كان يرعى شئوون الوزراء أو كبار رجال الدولة ، أو الأغنياء نيابة عنهم ... معتمد وكيل وفى النواحى الإدارية كان يعاون الصدر الأعظم أو الوزير أو الناظر المختص فى تسيير أمور الدولة . فى البداية كان من خواص الصدر الأعظم ورجاله ، ثم أصبح من رجال الدولة وموظفيها وكان يطلق عليه كتخدابك ، وفى عهد السلطان أحمد الثالث تولى نظارة الداخلية ، وعاوَن الصدر الأعظم فى أمور الدولة .

تم إلغاء هذا المنصب فى عهد السلطان محمود الثانى ١٢٤٤ هـ = ١٨٢٨ م . وأُحل محله نظارة الملكية فى سنة ١٢٥١هـ = ١٨٣٥ م .

أما فى المعسكرات ؛ فكان عنوانًا او رتبة تُمنح لكبار ضباط الإنكشارية ، وكان لكل سلاح معتمد . وهو ما يوازى فى العصر الحديث «قائد السلاح» . وكان يعاون آغا الإنكشارية فى الأمور العسكرية . ولما كان تنشئته وتعليمه يتم داخل المعسكرات ، ففى بعض الفترات التاريخية فاق نفوذه نفوذ آغا السلاح نفسه . يعمل له حساب من قِبل كل قواد المعسكر الآخرين . وهو واحد من ديوان قائد عام قوات الإنكشارية . «المترجم»

(٥) چاووشلر = الجاويشية "Çavuslar" مفردها چاوش . وهو إسم كان يُطلق على احد الموظفين الذين يُستخدمون فى الأعمال المختلفة . وهو مصطلح إدارى فى بادئ الأمر ، وكان يُطلق عليهم «چاوشان اركان عالى» .

هذه وظيفة قديمة فى التاريخ العثمانى ، وكانت مهمة الجاويشية موجودة لدى البيزنطيين والسلاچقة وفى بداية الدولة العثمانية كانوا الجاويشية هم الذين يكلفون بالمراسلات ، والمباحثات السياسية من قبل سفراء الدولة . كما كانوا =

ثم جاء كتخدا الشريف سعد [1] بحصانين مطهمين ، وستة من الغلمان الحبشيين ، الحسان ، والجواهر النفيسة ، والأقمشه النادرة ، والعود ، والعنبر ، وحمولة خمسين جملاً من المأكولات ، والمشروبات ، وقبل يد الباشا ، فأشار له ، إلي مكانه طالباً منه الجلوس ثم قال :

= يكلفون بالتفتيش وكتابة التقارير عن أمور الدولة . ثم أنتقلت هذه المهام فيما بعد إلى رؤوساء الحجاب . وأسندت المراسلات إلى وظائف أخرى . وأصبحت مهمة الجاويشية فيما بعد محصورة على الخدمة فى ديوان السلطان فقط ؛ بحيث كانوا يتقدمون ركب السلطان وموكبه وهو يتفقد شئوون المدينة ، ويقومون بالوقوف أمام خيمة السلطان عند الخروج إلى الحرب ، وأثنائها . . أو يقفون فى إحترام بالغ عند عزف النوبة أمام معسكر السلطان .

كان الجاوشية يحتلون المرتبة الثانية بعد التشريفاتية فى قانون محمد الفاتح .

كان يُطلق علي رئيسهم « چاويش باشى » اى الباشجاويش اى رئيس الجاوشية . وقد أُلغى هذا اللقب سنة ١٢٥٢هـ = ١٨٣٦ م وأُحل محله لقب « ناظر دعاوى الديوان » . وكانوا ضمن تشكيلات السراى العثمانى . « المترجم »

(٢) المعسكرات السبعة : ويقصد بها معسكرات الإنكشارية السبعة ، وكانت كل أورطة تتكون من سبعة ضباط يسيّرون أمورها وهم ؛ جورباجى ، أوضه باشى ، وكيل خرج ، بايراقدار ، حامل العلم ، أقدم القادة ، رئيس الطهاة ، رئيس السقاة . « المترجم »

(٣) چورباچيلر ؛ مفردها چورباجى ؛ = "Çorbaci" : لقب عسكرى يُطلق على ضباط البلوكات التى تكون الجيش العثمانى . وكانوا من المشاة فى الجيش ، وكانوا عبارة عن واحد وثلاثين بلكًا يكونون سلاح العجمى أوغلان اى سلاح أولاد العجم اى أولاد غير الترك . وكان يطلق عليهم آحيانا لقب البيادة ، أو اليبا ، وعلى رئيسهم ياياباشى اى باشيايا أو باشبياده أو سربيادكان .

كما كان يُطلق على رؤساءهم أيضًا بلوكباشى أى رئيس البلوكات . كما كان يُطلق عليهم أحيانا « صوباشى » . وكانت لهم خيولهم الخاصة بهم ، وملابسهم الخاصة بهم أيضًا .

ولا علاقة لهم بالچوربة أى الحساء على الاطلاق بل هى عادة شرقية قديمة أن يتسمى ضباط الجيش بمسميات أدوات الطبخ دون أن يكون لهم علاقة بها ؛ فمدير الأمن هو الصوباشى اى القيم على أمور المياه . . وقد تبدل هذا اللقب سنة ١٢٤١ هـ = ١٨٢٥ م عقب الغاء الانكشارية وحلَّ محله « آغا الأورطة » .

وظل يُطلق هذا اللقب على الأشخاص المكلفين بتسيير أمور الولايات التى كانت مرتبطةً بقوات الإنكشارية ، . . كما كان يُطلق على كبار التجار المسيحيين ، وخاصة فيما بين الشعب . « المترجم »

(٤) أوضه باشيلر = اوضه باشى = "Odabasi" : مصطلح عسكرى كان يُطلق على واحد من ضباط الانكشارية ، وكان يعاون الجورباجى فى ادارة مهام فرقته . ويعادل رتبة ملازم فى العصر الحديث وهو المنوط به حفظ الامن داخل المعسكر، وبين عنابر الجنود . وهم الذين يقومون بمهمة اداء التعظيم والتحية فى العروض العسكرية ، وينام فى نفس العنبر مع جنوده ، وعند الحرب تكون خيمتهم فى وسط المعسكر العام . ويجلسون فوق السجادة الملاصقة للعمود الأساسى فى الخيمة ، ويجلس بقية الأفراد حولهم فى حلقات مستديرة .

أما داخل السراى ؛ فيطلق هذا اللقب على رئيس آغوات القصر الداخلين ،هو المكلف بخلع ملابس السلطان ، وإلباسه إياها . ولذلك فهو يُعتبر واحد من المقربين جداً من السلطان . وهم يتبعون رئيس حرس السلطان . ويختار بدقة من بين خدم السراى ، وخصيانه اي من الطواشية . له مخصصاته اليومية ، والسنوية ضمن خزينة ملابس السلطان . بالرغم من انه من بين أصحاب العرضّ ، أى من بين الذين لهم حق المثول بين يدى السلطان وعرض بعض الأمور عليه . ألغى هذا اللقب مع التغييرات التى تمت على السراى مع عهد التنظيمات الخيرية سنة ١٢٥٥ هـ = ١٨٣٩ م .

(١) كتخدا الشريف سعد : أى معتمد ، ووكيل الشريف سعد الذى تولى الشرافة أربع مرات متقطعة منذ ١٠٧٧ – ١٠٨٤ ؛ ١١٠٣ – ١١٠٥ ؛ ١١٠٦ – ١١١٤ ، ١١١٦ – ١١١٦ هـ .

(لما لَمْ يحضر جناب الشريف ، فما حال حضرته ؟) فاعتذر المعتمد قائلاً : (إنه يدعو لكم بالخير.) فقَبِل الباشا ، هداياه ، وودع الكتخدا قائلاً : «بلغ جنابه سلامنا» . ثم أصدر آوامره قائلاً :

«ولتكن قوات البيادة (١) ، والخيالة (٢) ، والسكبان (٣) ، والصاريجة (٤) ، على أتم الإستعداد . فليؤدى آغوات الداخل (٥) وآغوات الخارج (٦) التحية) .

---

(١) البياده : "Piyade" : قوات المشاه فى الإنكشارية العثمانية . ثم تم تجهيزها بالبنادق . وكانت تشكل عنصراً مهما فى القوات النظامية فى العصر العثمانى . (المترجم)

(٢) الخيالة : الفرسان .

(٣) السكبان : "Sekban" : فرقة من فرق الجيش الإنكشارى ، كانوا فى بداية تكوينهم فى عهد السلطان محمد الفاتح برعاية ، وتدريب ، وتربية كلاب الصيد . ثم انخرطوا فى صفوف الجيش المذكور ، وآضحوا من عمدة المشاة فى الجيش العثماني ، وكانت اورطتهم موزعة على ٢٥ بلوكًا . وعلى راس كل بلوك ضابط ، ورئيسهم كان يُسمى سكبان باشى . (المترجم)

(٤) الصاريجة : Sarica" ؛ مصطلح عسكرى كان يُطلق على الجنود المتمردين الذين ظهروا فى الآناضول ، وينسبون إلى صاريحه باشا . كانوا سبب نكبة أحلت بالبلاد خلال فترة حكم السلطان محمد الفاتح ، ولهذا السبب أصبح هذا اللقب يُطلق على كل الجنود الذين يرفعون راية العصيان والتمرد . (المترجم)

(٥) ايج آغـــالر : Ig Agalari : مصطلح يُطلق على الذين يعملون فى خدمة السلاطين العثمانين داخل قصورهم ، وسراياتهم وهم أنفسهم مَنْ يُطلق عليهم (آغوات الآندرون) أى آغوات الداخل .

هم أربعة أنواع : ١- رئيس الآغوات ، وكان بمثابة رئيس الحرس المكلف بحراسة بوابات السراى . وهو أعلى رتبة بين ضباط السراى . ،كان يُختار فى بادئ الأمر من الطواشية البيض ، ويوجد تحت إمرته ما بين ٣٠ - ٤٠ غلامًا من الذين يُطلق عليهم «غلمان الباب» . وهم يتلقون الأوامر من رئيس آغوات الأبواب الاربعة . وكان يُطلق عليهم أيضًا آغوات المفتاح . ثم آغا البشكير ، وآغا الشربات ، وآغا الابريق .

وهؤلاء أعلى الرتب داخل السراى ، وآغا الباب يكون فى رفقة السلطان دائمًا . ولا يتخلف عن مرافقة السلطان إلا إذا توجه إلى الصيد ، أو فى النزهات البحرية ، فيظل هو فى السراى للحراسة .

ثم يتلوه فى المرتبة رئيس خزينة السلطان وهو المكلف بوضوء السلطان ، وفرد سجادة الصلاة ، وتفقد نظافة المكان وأمنه قبل فرد السجادة ، والهدف من ذلك هو توقى وضع السم للسلطان . وفى نفس الوقت هو رئيس خدم الخزينة السلطانية .

أما ثالث آغوات السراى فى الكيلار باشى أى رئيس طباخى السراى . وهو المكلف بوضع الأطباق وأدوات المائدة للسلطان ويشرف على المجموعة التى تعمل على خدمة السلطان عند تناول الطعام .

أما الآغا الرابع الذى يعمل داخل السراى فهو آغا السراى وهو المكلف برعاية القسم الخاص فى السراى ، والغرف والصالونات وتحت إمرته ما لا يقل عن أربعين نفراً من الاغوات . وعلى هذا المنوال ؛ كانت طائفة منهم وعلى هذا النسق تعمل فى خدمة الصدر الأعظم ، والوزراء ، والولاة ، والقادة .

كما كان فى السراى اصحاب وظائف أخرى مَمَنْ يعملون على راحة السلطان ، وخدمته .. فهناك من يحافظ على ملابسه ، وقفاطينه ، وركابه ، وعدا معاشاتهم الشهرية ، فقد كانت لهم مخصصاتهم السنوية ، التى تعادل ما يقدم إلى آغوات الخدمة الخارجية . «المترجم»
=

ثـم وصلوا إلى بيت الله محـرمين ، وطافـوا سبعـة أشـواط ، طواف القـدوم ، ثـم زاروا مقام ابراهيم ، وأتموا طواف القدوم بالسعي بين الصفا والمروة ، سبعة اشواط .

وفجأة وصل الباشا إلى مخيم الشريف سعد ، فأطار ذلك صواب الشريف . فقال سعادة الباشا مطيبًا خاطره ، ومسريًا عنه :

(لقد شرفتم مخيمنا صباحًا .. ولكم خلعه سلطانيه [1] من سلطاننا صـاحب السعادة وفرو سموري ، وخط شريف [2] يتعلق ببقاءكم في مكانكم ... فلندخل سويًا إلى مكة بالموكب المحمدي ، ولنصعد إلى عرفات معًا) .

= (٦) طيش آغالرى : Dis A´galari : مصطلح ادارى يُطلق على صنف من كبار رجالات الدولة وموظفيها . وكان يُطلق عليهم أيضا « بيرون آغالر » أى آغوات الخارج . وهو يُقابل أو يضاهي لقب آغوات الداخل . وكان على رأسهم آغا الانكشارية ثم يتلوه العزب ، والسباهية ، والسلحدار وصاحب العلوفة ، وآغوات قوات المقدمة أى القوة المهاجمة فى مقدمة الجيش . وهم مَنْ يمكن أن نطلق عليهم قوات الاستطلاع فى العصر الحديث ..

أهمهم هو آغا الانكشارية فهو بمثابة رئيس اركان الجيش ، وقوته الضاربة ، فهو قائد المعسكروأعلاهم رتبة . ثم جاء منهم الوزراء . وكانت لهم أهميتهم الخاصة لموقعهم فى الجيش ، يومية الواحد منهم ٥٠٠ آقچه ، عدا المخصصات اللازمة لتربية وتدريب المئيات من الخيول اللازمة للجيش بفرسانها .

يتلوه فى الأهمية آغا الغرب ؛ وكانت قوات الغرب فى عصر السلطان محمد الفاتح وعند فتح القسطنطينية ١٤٥٣م مايزيد عن ثلاثين ألف مقاتل . كان لهم السباهية ، والسلحدارية ، والعلوفجية « التموينات » وجميعهم من فرسان الخيَّالة . وكانوا عبارة عن أربعة طوابير ، العلوفية ، والغرباء « العزبان » عن اليمين واليسار ، والآخرين فى الوسط . يوميه الآغا مائة آقچة . كما أن لهم مخصصات سنوية ما بين ١٦ - ١٧ ألف أقچة كعلوفة . « شعير »

أم الصنف أو الصف الثانى من آغوات الخارج ؛ منهم رئيس المدفعجية ، ورئيس الجبخانجيه = المسئوول عن الذخيرة والمفرقاعات ، ورئيس العربجية . أى المسئول عن عربات جر المدافع ، ورئيس الفرقة الموسيقية .. موسيقات المعسكر . وكانوا يبلغون جميعًا اثنى عشر فردًا ويُعتبر أمير الأطبل . ومربى الصقور ، وكلاب الصيد أيضًا من آغوات الخارج .

وبإختصار فإن كل من يعمل بالخدمة خارج السراى يمكن أن ينطبق عليه أى آغا الخارج . « المترجم »

(١) الخلعة السلطانية : مصطلح يُطلق على الجبة ، أو القفطان الذى يُلبس فوق الملابس . وهو فى الغالب قفطانًا يُقدم من السلطان إلى مَنْ قدَّم خدمة خليلة للدولة من كبار موظفيها .

كما أنه يُطلق على ما يلبس فى المراسم الرسمية من الملبوسات ، وكان يُهدى من السلطان أيضًا ، ومَمَنْ كان السلطان يتطلطف عليهم بالخلع السلطانية ؛ الصدر الأعظم ، والوزراء ، ورؤساء الجند ، وشيخ الإسلام ، وشريف مكة .

كانت الخلع من الفراء الثمين ، أو الجوخ أو القماش الغالى القيمة .. وهى عادة اسلامية عرفتها الحضارة الإسلامية منذ صدر الإسلام .

ظلت هذه العادة معمول بها فى الدولة العثمانية حتى أُلغيت فى عصر السلطان محمود الثانى وحلَّ محلها تقديم ساعة مرصعة أو طبق من الذهب ، أو غليون مرصع وما شابه ذلك . (المترجم)

(٢) خط شريف : مصطلح إدارى كان يُطلق على الأمر الصادر من طرف السلطان بصدد أمرمعيَّن أو بشأن تعيين شخص فى وظيفة معينة . فلم تكن هناك ضرورة أن تخرج جميع الأوامر بخط يد السلطان بل كان الكتبة أوالكتَّاب هم الذين يحظون الأوامر ، ثم يُوقع فقط من قبل السلطان . وكانت الأوامر تُكتب على ورق خاص بالسراى ، وتكون عليها طغراء السلطان .
=

فعاد إلى الشريف هدوءه ، وصوابه . وبعد أن شربوا القهوة ، والشربات قدم الشريف إلى الباشا هدية عبارة عن ؛ عشر زجاجات من العنبر ، وثلاث مسبحات من اللؤلؤ ، وعلبه من الجواهر الصغيرة ، وعشرة بقشات «صرات» من الأقمشة ، وثلاثة غلمان حبشيين . فما كان من الباشا ، إلا أن أخرج من حزامه خنجراً ، مرصعاً بالجواهر ، ومنطقة فى خصر الشريف سعد . وكان الشريف شخصية جذابة ، كريم جوَّاد ، أسمر اللون ، وهنا ودّع الباشا ، ومكث هو فى خيمته .

موكب عساكر مصر والشام فى مكة المكرمة :

فيما يلى أسباب تعيين حسين باشا ، وزيراً ، وتحت إمرته ثمانية آلاف جندى :

قبل الآن بسنة ، وبالضبط فى سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ م كان حسن باشا كتخدا عنكبوت أحمد باشا مكلفاً بإعمار الحرمين الشريفين ، وتأمين أمنهما ، وجمع أموال الصرة ولم يستطع حسن باشا التعامل بحسم مع مواقف الأشراف ، أو التعامل والتعايش معهم ، وخلال السنة المذكورة وبينما حجاج المسلمين ، فى طوافهم حدث شغب مما دعى الحجاج للبقاء فى المسجد الحرام ، محتمين به ، وقد أُغلقت كل الأبواب ، فصعد آلاف من أشقياء الأشراف المسلحين ، إلى جبل أبى قُبيس ، ومنارات مكة ، ومدارسها ، الملتفه حول الحرم ، وأمطروا الحجاج بوابل من الرصاص ، فُجرح سبعمائة حاج ، واستشهد مائتان ، وامتلئ الحرم الشريف بجثث القتلى ، وقُتل حسن باشا نفسه . وسلبت أمتعة الحجاج ، والجند ، ونُهبت حاجياتهم ، وبينما جند مصر ، وعساكرها عائدون إلى ديارهم قام الشريف حموده [1] بإعمال السيف فيهم فى مكان يُدعى «نار» "Nar" .

وما أن سمع السلطان بهذه الكارثه الفاجعة ، حتى عيِّن حسين باشا ، وزير الشام

= وهناك بعض المعاهدات أو الأوامر التى كان السلطان يخط بيده ملخصها ، ثم يقوم الكتاب بكتابتها .. ويوقعها السلطان .. وكان من المعتاد ارسال خط شريف إلى شريف مكة سنويًا لتثبيته فى مكانه ، أو تولية غيره .. «المترجم»

(١) الشريف حموده :هو الشريف حمود بن الشريف عبد الله الذى يَبدأ به فرع العباد له كان يحكم مكة مع الشريف بن زيد سنة ١٠٧٧هـ = ١٦٦٦م . ولما نشب الخلاف بينه وبين الدولة العثمانية اقام فى ينبع ، وقام بمقاومة القوات المصرية التى بعثت بها الدولة ضده . ولما اشتد عليه الضغط فر فيما بين البدو ولكنه فى سنة ١٠٨١هـ = ١٦٧٠م عقد الصلح مع الشريف سعد ، وانسحب الى الطائف . وتوفى هنالك سنة ١٠٨٥هـ = ١٦٧٤م . (المترجم)

قائداً لثمانية آلاف جندى ، ولم يجعل هذا الخبر ينتشر . وفى الصباح التالى خرج أمامه ثلاثة آلاف جندى مصرى . وقد كان العسكر جميعًا ، مدرعين من رأسهم ، إلى أخمص أقدامهم ، وكانت الطبول المصرية تصدح ، من كل مكان . وبينما هؤلاء الجند يصطفون هكذا ؛ فى شكل بديع محتشم ، سار جند الشام ، فوجًا ، فوجًا ، وقد إمتطى الفرسان ؛ صهوة جيادهم العربية الأصيلة ، من الجلفة ، والطريفى والصقلاوى ، والمصفحة ، والكَالفدانى . وقد تدثرت قوات المحمودية [١] بأطقمها المذهبة ، والمطرزة بالذهب ، وقد أمسك الفرسان ببيارقهم من ناحية ، ومن ناحية آخرى بألجمة خيولهم . ثم مر خارموش باشا ، بخمسمائة من فرسانه ، على نغمات فرقته الموسيقية ، ومن خلفهم الفرسان التتارية [٢] ، ثم أعقبهم الآغوات بملابسهم الناصعة ، وقد أمتطوا صهوة جيادهم الكُحَيْلاَنيه ، ومن خلفهم رؤساء القاپجية [٣] .

---

(١) قوات المحمودية : مصطلح عسكرى يُطلق على القوات النظامية الجديدة التى تشكلت فى عهد السلطان محمود الأول. وتسلحت بالاسلحة الحديثة ، وقضى بها على الإنكشارية فيما بعد . (المترجم)

(٢) طاطار = تاتار Tatar : مصطلح إدارى يُطلق على حاملى رسائل البريد قبل تأسيس إدارة البريد والبرق فى الدولة العثمانية . وكان يطلق عليه « اولاق » = حامل الرسائل وموصلها . أيضًا . وهذا يختلف عن « ساعى » البريد ، فالساعى هو الذى يقوم بتوصيل الرسائل والمكاتبات الخاصة. ثم حلَّ مصطلح التاتار على كل مَنْ يقوم بآعمال البريد . وتطلق عليه بعض المعاجم العثمانية « ساعى سريع الحركة ينقل الرسائل » .

كانت تشكيلات البريد = التاتار ، تنطلق من العاصمة استانبول إلى سائر الولايات والبلدان ، لنقل الرسائل ، وقد قُسمت الطرق إلى مسافات ، ومراحل كانت فى كل مرحلة توجد « منزلخانه » يترك فيها التاتار حيوانه سواء أكان خيلاً أو بغالاً .

وكان فى كل دائرة ، أو نظارة ، أو وزارة عدد من التاتار ؛ قد وصل فى بعضها إلى ٥٠ – ٦٠ تاتاريًا ..

وكان التاتار يتحرك من العاصمة استانبول بالفرمان الذى يصدر له من الباب العالى إلى حيث توجه الرسالة . فمن استانبول إلى بلغراد ومن اسكدار حتى بغداد . وكانت الآهالى تجتمع فى المحاكم الشرعية فى المدن التى يصل إليها التاتار لقراءه ، والسماع إلى الفرمان أو الأوامر ، والتعليمات التى أحضرها .

كما كان الولاة يرسلون معهم تقاريرهم وكذا الأموال التى يبعثون بها من الولاية إلى العاصمة أو العكس .

كانت أوامرهم مطاعة فى كل المنازل التى ينزلونها ، ولا مراد أو مخالفه لما يقولونه وكانت تنفق من سرعتهم بضع حيوانات ، كما كانت القطعان تُجر تحت سياطهم . ولا مانع من شنق القيم على محطة البريد إذا ما تأخر من إعداد الدواب اللازمة .

كانت لهم ملابسهم وقيافاتهم الخاصة بهم والتى يتميزون بها ، وكانت أغطية الرأس الـ « قلباق » الخاص بهم ممنوع على اى طائفة أخرى أن تلبسه .

وكان رئيسهم فى أي دائرة حكومية يُطلق عليه «آغا التاتار» . وهو المسئوول المباشر عن كل مايتعلق بالبريد . « المترجم »

(٣) قاپجى باشى : قپوجى باشى ؛ رئيس حراس البوابات : مصطلح إدارى يُطلق على آمر ، أو ضابط الحراسة المكلف بحراسة بوابات السراى . وكانوا يقسمون إلى قسمين ؛ « دركاه عالى ، أى الآعتاب العالية ، والتانى، باب همايون » أى =

وبعد كل هؤلاء ، سار الباشا فى هيبة الغضنفر ، وقد تدثر بفراءه السمُّورى الغامض اللون ، وفى خصره كنانته ، وعلى رأسه العمامة السليمية ومن خلفه آغواته تهتز الأرض والسماء من وطأة أقدام خيولهم الكحيلة . وفى الصفوف الخلفية سار وراء الباشا السلحدارية [1] ، والچوخدارية [2] ؛ بملابسهم ، ومعداتهم ، التى تبعث فى

= باب السلطان . وكان عدد المكلفين بالخدمة عليهما حوالى خمسمائة حارس فى آواخر القرن السادس عشر الميلادى . ولكن من كانوا على آعتاب الدركَاه العالى وحدة سنة ١٠٧٧ هـ قد بلغوا أربعين بلوكًا .

لا يعرف بالضبط فى التاريخ العثمانى متى تم استحداث هذه القوات ، ولكن بما أن ذكرهم قد مر فى قوانين محمد الفاتح فمعنى ذلك أنهم منذ اوائل الدولة العثمانية .

وكان أحدهم هو الذى يحمل الرسائل السريةأو المهمة من العاصمة إلى والى أية ولاية . وهم الذين يستقبلون سفراء الدول الاجنبية الذين يقدون فى مهمات إلى الدولة العثمانية .

كانوا ينتقلون بين اربع درجات اعلاها هى القابوچى باشى «أى رئيس حرس البوابة» ولكنهم وصلوا إلى ست رتب فى عصر محمد الثالث . وكان من مهام رئيس الحرس هو إحضار الإبريق والطشت أمام الصدر الأعظم لغسل يديه بعد تناول الطعام فى ديوان الهمايون .

بلغ بعضهم رتبة الوزارة ، ثم أصبحوا قوة من قوات النظام الجديد بعد إلغاء الانكشارية ، ثم اصبحوا هم الذين يناط بهم عمل الركاب السلطانى . .

فى عهد السلطان محمود الثانى اى فى سنة ١٢٤٤ هـ = ١٨٢٨ م حددت لهم مهامهم ، وملابسهم وساعات الخروج مع السلطان .

فى سنة ١٢٤٧ = ١٨٣١ م تقرر رفع راتب مَنْ يخرج منهم على المعاش إلي ثلاثمائة قرش شهريًا .

كانوا يكلفون بالخدمة فى الضواحى وكثير من الولايات الاخرى وخاصة الحرمين الشريفين .

تكونت منهم بلوكات ، وكان لهم كتخداهم اى معتمدهم . ووكيلهم ، وكانت لهم عنابرهم الخاصة بهم . «المترجم»

(٢) السلحدارية ؛ سلاحدار "Siláhdar" : لقب يُطلق على واحد من كبار رجال السراى . وكان يوازى له من كبار رجال السراى . وكان يوازى له لقب «سلحدارى شهربارى» . ويوازى أيضًا «سلحدار آغا» اى آغا السلحدار اى الآغا حامل السلاح . وفى بداية الامر كان من الأركان الخواص ، وثانيهما ، أما الأول فهو «رئيس القاعة الخاصة» . وكان السلحدار من المقربين للسلطان ولهذا السبب كانت من الوظائف المهمة .

وخلال المواكب الإحتفالية والمراسم كان يسير خلف السلطان مباشرة على الجانب الأيمن وقد امتطى صهوة جواده المطهم ، وهو فى كامل ملابسه المرصعة .

قد استحدث هذا اللقب فى عصر يلدبرم بايزيد = بايزيد الصاعقة ، ويُبين قانون محمد الفاتح ان هذا المنصب كان مهمًا منذ ذلك التاريخ . . وكان صاحب هذا المنصب يتلقى تعليمًا ، وتنشئة جيدة مسبقة فى السراى الهمايونى .

كان صاحبه يتدرج فى مناصب سابقة حتى يصل إلى هذا المنصب . وكان منذ عهد السلطان مصطفى الثانى أى ١١١٠ هـ - ٩٩ / ١٦٩٨ م يصدر بشأنه فرمان خاص بمن يتولى هذا المنصب مما زاد من قيمته .

وكان من حقه أن يشرف ، ويفتش على كل الوظائف والمهام داخل السراى .

وكانت تمنح لهم رتبة الوالى على بعض الولايات المهمة مثل مصر وغيرها كنوع من الإحسان السلطانى ؛ كترضية أو كمكافئة ، أو أن يُعيِّن احدهما قبطانًا بحريًا أو قائدًا للإسطول ، بل وصل بعضهم إلى الصدارة ، ومَنْ لم ينل رتبة الوزارة فقد كان ينال الاقطاعات ، والزعامات والتيمارات الشاسعة . ومَنْ كان منهم ينال هذه العطايا فقد كان يعيش طوال حياته مرفهًا . =

النفوس الحشمة والهيبة ، فى نفس الوقت ، ومن بعدهم رئيس السقائين وقد حمل فى يده مطرة « قربة » من الجوهر الخالص ، ثم ثمانية من الشطار [1] وقد علقوا فى خصورهم أحزمة من الفضة الخالصة ، والبُلَط الفولاذية ، وعلى رؤوسهم طاسات ذهبية ، وفى أعقابهم ، أمير الاسطبل [2] وقائد بلوك الحرس ، والإمام والمؤذن كل على صهوة جواده .

كما كان الباشا قد إرتدى درعه كذلك ، وكان يمضى فى تئودة ، وهو يلقى بالسلام ، والتحية على من إصطفوا على الجانبين ، ويرد عليهم تحياتهم . وكانت الصفوف الخلفية تشمل بقية السلحدارية ، والچوخه دارية ، وحوالى مائتين من الآغوات ؛ وقد ارتدوا ملابسهم المزدانة بالقصب والقشيب ، ثم

= ومن كان يُعين سلحداراً ، كان يمنح مبلغًا نقديًا تحت مسمى « عجميلك » قد وصل فى القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى ١١٦٠٠ آقچة .

وكان السلحدار يُختار من بين الشخصيات العلمية وقد وصل منهم ما لا يقل عن عشرين شخصية بمنصب الصدارة العظمى .

كان يُطلق على رئيسهم « سلحدار آغا » أى آغا السلحدار . كما كان من بين تشكيلات الانكشارية بلوكًا يُطلق عليه « بلوك السلحدار » وكانت قواته من الخيَّالة والفرسان . كما كانت هناك خزينة خاصة تحت حراستهم ملاصقة لدائرة السلطان، ولدائرة الأمانات المقدسة فى سراى السلطان ، وكانت تُحفظ فيها الأشياء القيمة إلى جانب أسلحة السلطان .

وهم الذين كانوا يؤمنون طريق الجيش عند التوجه إلى الحرب . ومن القوات المهمة المرافقة لموكب الحج والمحمل المتجه إلى الحرمين الشريفين ، وتكون هذه القوات تحت إمرة أمير قافلة الحج الشامى . « المترجم »

(٢) چوخه دار = Cuhadar : مصطلح يُطلق على الشخص الذى كان يقوم على خدمة السلطان فى إعداد ، وتنظيف وتلبيس الأحذية .

ثم توسع حتى شمل مَنْ يقومون باسدال الستائر وفتحها فى السراى ، وقصور الوزراء وكبار رجال الدولة . ولما كانوا يلبسون الجوخ فقد أُطلق عليهم الإسم مشتقًا مما يلبسون « أى آصحاب الجوخ » .

ومَنْ يقوم بهذه المهمة فى المقاسات العسكرية يطلق عليهم « پارده چاويشى » أى جاويش الستارة . وكانوا يتولون أعمالاً أخرى إلى جانب أعمالهم هذه . وكانوا يمرون ضمن المواكب والإحتفالات كنوع من الزينة ، والبهرجة وإظهار للثراء . ثم انتقلت هذه الوظيفة إلى سائر الولايات . كما كانوا يتواجدون فى رفقة قادة الجيوش فى وقت الحرب ، وفى معية أمير قافلة الحج . « المترجم »

(١) الشطار : جمع شاطر

مصطلح يُطلق على قسم مِنْ الذين يكونون فى معية السلطان العثمانى وكانوا يسيرون فى كوبة مطنطنة حول السلطان بملابسهم المزركشة زيادة فى الأُبهة . وكان هناك مثيل لهم يسيرون حول الصدر الأعظم ، أو الوزراء . وكانوا مرتبطون بالتشكيلات الملحقة بالسراي . ويمكن اعتبارهم الحرس الخاص للصدر الأعظم ، والوزراء فى بعض العصور . ويطلق على رئيسهم « شاطرباشى » الباششاطر . (المترجم)

(٢) أمير الأسطبل : آميرى آخور : لقب يُطلق على المسئول عن الإسطبل السلطانى ، وكان هو المنوط به إعداد الجنول للسراى ، وللسلطان . ويُعتبر من كبار القواد ورجالات الدولة . والمقربين إلى السلطان . (المترجم)

الكتخدا ، والخزنـه دار [١] وفرقة الموسيقى المكونـة مـن ثمانية أطقـم ، وهـى تصـدح بموسيقاتهـا العسكرية . وكـانت مكة ذاتهـا ، البطحاء تصـدح هـى الآخـرى بتلك الموسيقى . ومن خلـف الفرقـة الموسيقية رئيـس الطبـاخـين ، والذوّاقـة [٢] بأعلامهـم ، وكتخـدا الاسطبل ، والسرَّاجـين ثـم السقَّائين ، والجمَّالـة ، وحملـة المشاعـل . ومـن بينهـم جاوشية إثنى عشر آلايًا [٣] من المشـاة ، وقـد امتطـوا صهـوة جيـاد ، مزدانة ، آعرافهـا بزينة براقة ، وقـد ارتدوا هـم أنفسـهم الملابس الحريرية ،

---

(١) خـدينة دار = الخـازن ؛ Hazinedar : مصطلح مالى ، وإدارى يطلق على القيِّم على الخزينة التى تُحفظ فيها الاشياء القيمة والمجوهرات الخاصة بالسراى ويراسهم مَنْ يُطلق عليه خزينه دار باشى اى الباشخزينه دار او الباشخزنه دار . وهو اللقب الذى كـان يطلق على رئيس خزنة السلطان فى السراى . وهو من أهم الشخصيات فى السراى ، أو فى قصر الحكم فى الولايات . وكان من الضباط الكبار فى السراى . وهو المسئول عن الموظفين الذين يعملون تحت إمرته . ومن ضمن وظائفه إلى جانب الحفاظ على الخزينه ، فهو يباشر فرد سجادة الصلاة للسلطان او الصدر الأعظم الخ كما يهتم بقفازات السلطان ، وحمايتـه من أى ضرر قـد يكون كـامن فى هذه الاشياء . وفى الأيام الاخيرة من حياة الدولة العثمانية انحصرت هذه الوظيفة فى سراى طوب قبو فقط .

كانوا يذهبون فى رفقة أمير الحج وهم المناط بهم حفظ الهدايا التى تُقدم إلى الحرمين الشريفين ، والأشراف ، والسادات والمجاورين والعلماء فى مدن الحجاز فى موسم الحج «المترجم»

(٢) الذواقة = چشنه كير ؛ = چشنى يار : Çesniyar : هو المكلف بتذوق سائر الأطعمة قبل تقديمها داخل السرايى . . وهم مخصصون للعمل داخل قسم الحريم فى السراى . وكانوا يقسمون إلى مجموعتين ، إحداهما يتولون الخدمة العامة والاخرى للخدمة الخاصة داخل قسم الحريم . وكان كل قسم مكون من سبع وظائف يعملون داخل السرايا . وكان وهم ؛ الخزينة دار صاحب الخزينة ، الابريقدار = صاحب الإبريق وحامله . اوسطى الكيلار ، اوسطى الغسيل ، الأوسطى القهوجى ، اوسطى الصناديق = صناديق الحلي والملابس » وكان الذواقة على رأسهم جميعًا . ومنوط به سلامة السلطان أو الصدر الأعظم ، أو الوزير ، أو الوالى أو مَنْ يقوم بخدمتهم . وكان الذواقة مع اوسطى الكيلارهما . المسئولون عن الطعام والشراب فى السراى أو الوالى ، أو أمير الجند ، أو قافلة الحج ، وكانوا جميعًا يمرون فى المواكب بملابسهم المميزة لهم .

وكان كلاهما يظلان بالقرب من المائدة حتى رفعها . ومناط بهما اعدادها ، وتذوق الطعام والفاكهة ، والشراب قبل تقديمها . «المترجم»

(٣) الآلاى : Alay : مصطلح عسكرى يُطلق على جماعة أو مجموعة متجانسة تمر فى موكب ما ، وأصبحت تطلق على العرض العسكرى . أو الموكب الذى يمر أمام السلطان ، أو الملك ، أو الرئيس فى أيام معينه . ومن أهم الشخصيات فى المواكب أمير الآلاى ، وقائد الآلاى ، وأمين الآلاى . وكاتب الآلاى .

وكذلك أخذ يطلق على مجموعة فى التشكيلات والتنظيم العسكرى ؛ فالآلاى ؛ يضم المشاه ، والخيالة والمدفعية ، ومن نظم الجيش العثمانى ان الآلاى يتكون من أربعة طوابير مشاه ، وخمس بلوكات فرسان ، وست بطاريات مدفعية فى كل بطارية أربعة مدافع بأطقمها .

وإن كان هذا التشكيل قد طرات عليه الكثير من التغييرات على مر العصور . واضيف اليها فى العصر الحديث ؛ إمام الآلاى ، ومفتى الآلاى ، وجاويش الآلاى . وكان لكل آلاى علمه الخاص به يرفعه عند المرور فى الموكب او العرض العسكرى . «المترجم»

والمخملية ، والمكونة من شلوار أطلسى ، وعمامات خَرْطاوية ، وقد أمسكوا فى أيديهم صولجانات فضية ، وكانوا يمرون من بين الصفوف من حين لآخر للإشراف على حسن اصطفاف الجنود .

لقد مر موكب الباشا ، وآغواته ، وبعد ذلك اختلط الجنود المصرية والشامية ببعضهم ، وأُطلقت الفشنكات فرحًا ، وإبتهاجًا ، وضجت كل النواحى بأصوات البنادق ، التى انطلقت فى كل مكان .

وبعد أن عبر الموكب مَطْلَعًا ، ترائى للجميع آعيان مكة ، وأشرافها ، ومواكب الشريف سعد شخصيًا برجاله الحفاة ، العراة ، الرؤوس ، وقد وقفوا على يمين الطريق للتحية بملابسهم البيضاء ، ولم يضعوا على رؤوسهم عماماتهم الخضراء .

فيحكى أنه عندما كان قايتباى سلطانًا على مصر حضرت شقيقته إلى مكة ، ولكن شريفها لم يسمح لها بالزيارة ، والطواف ما لم يأخذ ثلاثة آلاف دينار ذهبى ، كما تقاضى من كل حاج عند الطواف مائة دينار . وعند عودة شقيقة قايتباى ، أراد مقابلتها ، ولكنها رفضت اللقاء معه ، ولما سألوا عن السبب قالوا :

(آلا تخاف من السلطان قايتباى . . حتى تطلب من شقيقته ثلاثة آلاف دينار ؟ فقال هو بدوره – إن كان قايتباى قادراً ، فليحضر بعشرة آلاف فارس ، وليسترد هذه النقود إن استطاع . وما كان من شقيقة قايتباى إلا أن قطعت على نفسها عهداً آلا تكلم آخاها ما لم ينتقم لها منه) .

وعلى الفور أعد قايتباى إثنى عشر ألف فارس ، وسار بهم نحو مكة . وقبض على كل الآشراف ، واسترد أموال الحجاج ، وبعث بسبعمائة شريف إلى مصر ، ومنعهم من « لبس العمامة الخضراء ، أو ركوب خيول لها ذيول ، أو إرتداء أى نوع من الآخذية . بل عليهم أن يمتطوها ، وهم حفاة الأقدام ، وألجمتها من الحبال العادية » . واستبقى ثلاثة أشراف فقط فى مكة ؛ أحدهما الشريف الكبير ، والثانى شريف الميمنه، والثالث شريف الميسرة . وهكذا ، وفى مكان العرض المتواضع رأيت بنفسى الأشراف ، والمكيين على هذا المنوال السابق شرحه . وفى هذا العرض كان يوجد الدراويش الزيديين . وحوالى مائتين من جنود الشريف العراة .

وصل موكب حسين باشا إلي وادى « أبطح » ومر بالمكان المسمى « المعلا » ، وعلى جانبى الطريق إصطف مئات الآلاف من الحجاج الذين وفدوا من شتى بقاع العالم الإسلامى ، وكانوا يرددون « حفظك الله يا وزير السلطان » أما النساء فقد كن يُطلقن زغاريدهن المدوية من مقام الحجاز . وما أن مر الموكب من منطقة المعلاً هذه حتى بدت للجميع مدينة مكة المكرمة . وعلى كل حاج ، أو عابر لمنطقة المعلا هذه أن يقرأ سورة ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② .... ﴾ (*) لإن آلاف من الصحابة الكرام مدفونين بها . ولما بدت مآذن ، ومنارات مكة المكرمة ، للعيان ، علت أصوات جند الإسلام جميعًا بالتلبية مرددين « لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ... » فالإكثار من التلبية مستحب .

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة لسنة ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١م ، هذه أقام معالى الوزير حسين باشا معسكره فى منطقة المعلاً هذه .

وادى المعلاً :

هنا أخذ الجند يطلقون البنادق ، والمدافع ثلاث نوبات متتالية ، حتى دوت الوديان ، والسماء مرددة أصوات تلك الطلقات . ثم إنعقد الديوان (١) بعد ذلك . ثم أصدر الباشا أوامره وتنبيهاته التى بُلغت إلى الجنود الشاميين ، وإلى جنده عن طريق الجاوشية ، بأن يكون الجميع فى وضع الإستعداد وأفتى أرباب المذاهب الأربعة ؛

(*) سورة التكاثر الآيتان ١ ، ٢ .

(١) الديوان = Divan : أصلاً فارسيه ، انتقلت إلي اللغة العربية مع بدايات الفتح الإسلامى ، ويستخدم فى معانى مختلفة؛ فيجتمع فيه أهل الحل والعقد لتسيير أمور الأمة سواء من النواحى السياسية ، أو العسكرية ، أو المالية ، أو الإدارية ، أو العدلية ، أو المالية .

فى النواحى المالية ؛ يعنى دفتر قيد الدخل والمنصرف فى كل المصالح الإدارية ، أما اداريًا فيطلق على الهيئة أو الجماعة التى تدير الأمور بالدولة ؛ فهناك ديوان الرئاسة ، وديوان الوزارة ، وديوان الولاية ، وديوان الإمارة ، وديوان الحرب ... وقد عرفته كل الدول الإسلامية .

أما الديوان فى الأدب فله مجال آخر .

وكان لكل ولاية ديوان خاص بها ، يرأسه الوالى ، ويتكون من أركان الولاية للبت والنظر فى شتى أمورها . وحتى كان للديوان ترجمانه للقيام بمهام الترجمة فى الولايات التى يتطلب فيها الأمر ذلك . وكان ديوان الحرب ينعقد تحت رئاسة السلطان ، كما أن ديوان قافلة الحج كان يضم كل الشخصيات المعنية ، ويرأسه أمير قافلة الحج . « المترجم »

« ألا يُحرم الجند ، ويكفى أن يلبسوا ملابسهم مقلوبة وأن تجولهم ، وهم يحملون سلاحهم سنة » . وهكذا ، بهذه الكيفية أدى الجنود طواف القدوم ، وسعوا بين الصفا ، والمروة مؤدين العمرة .

وفى اجتماع الديوان قال المجتمعون « ان الشريف ينوى العصيان ، ومن المناسب عزله ، وتعيين الشريف أحمد مكانه » . ولكن الباشا اعترض على هذا الرأى قائلاً :

- أيها الآغوات .. أيها البكوات .. أرجو الإنتباه ، إلى أنه لو حدث ذلك الآن .. فإن جميع خلق الله هنا سيداسون تحت سنابك خيول البدو .. فلا تقولوا مثل هذا الكلام » . وما أن قال ذلك حتى تعجب المصريون والشوام .

وقام الباشا بالتوجه إلى مقام الشريف سعد ، وسلّمه رسالة السلطان ، وأنعم عليه بفراء من السمّور . فما كان من الشريف ؛ رداً على هذا الإنعام ، وبناءاً على طلب الباشا منه إلا أن يكون فى خدمة حجاج بيت الله الحرام ، وأن يتوجه إلى منى وأن قدم إلى الباشا القهوة العربية ، والشربات ، وماء الورد ، وأهداه مجوهرات ثمينة ، وفرسين كُحَيْلَيْن ، وقطاراً من الجمال الهجين ، وعلى صهوة كل منهم غلاماً حبشياً عاد الباشا إلى خيمته ، وعلى الفور توجه إلى منى ، وعرفات . وصعد إلى عرفات فى موكب عظيم ،

وإلى عرفات ، ومنى وحيث يُقيم الباشا معسكره ، يفد البدو والإعراب من كل صوب بأغنامهم ، ويتسابقون فى تقديم الهدايا إلي الباشا . وكل الآشراف يعيشون فى بزخ ، وترف ، وذوق ، وصفاء على عرفات ، فهم جميعاً من أهل الذوق ، وحب الحياة . فمرتباتهم تأتيهم بلا تعب ، أو كد ، ويعيشون على مايأتيهم من هدايا ، من كافة أنحاء العالم الإسلامى ، والأشراف أناس مسرفون جداً ، فكل شريف منهم يُنفق مالا يقل عن أربعة ، أو خمسة آلاف دينار ، ذهبى ، منذ خروجه من مكة إلى وصوله إلى عرفات فقط ؛ ففى مكة يتم التعامل بالعملات الذهبية ، والفضية فقط .

وفى يوم التلبية ؛ يتوجه أولاً جند مصر إلى عرفات ملبين ، ثم يمر الجنود الشاميين بالمحمل الشريف [1] . وهما تمام وصول مواكب كل من مصر ، والشام ، ومكة إلى عرفات .

---

(١) المحمل الشريف : مصطلح إدارى يُستخدم للدلالة على الوسيلة التى كانت تستعمل لحمل ، ونقل الصرة =

وقد نزلت آية كريمة ، من قبل رب العزة ، والجلال ، بواسطة جبريل الأمين ، على الرسول الأكرم ؛ عن مناسك الحج ؛ التى علّمها ﷺ للخلفاء الراشدين ، والصحابة الأخيار ، واخلافهم المحترمين [1] .

وطبقًا لما يذكره المفسرون ، فى كتب التفسير ؛ فإن هناك سبع وسبعون آية كريمة ، نزلت عن مكة المكرمة . وفيما يلى كيفية آداء فريضة الحج :

يصل الحاج إلى مكان الميقات حيث يغتسل ، ويُحرم ، ويجب أن يتخذ لنفسه مطوفًا أى مرشداً ، ثم يمر بمكانى المعلا ، والأبطح ملبيًا .

والأبطح مكان به بساتين ، وقبور ، ومنه يَدخل الحجيج إلى مكة . وهنالك ، داخل السوق توجد تبتين ، حادتين . ومن هنالك تبدو مآذن مكة . ويعبر الحاج من ذلك الموقع ، وكذلك سوق الصفا والمروة ، وهو يدعو متجهًا ، نحو الحرم الخارجى ، لباب السلام . وعليه أن يدخل من باب السلام مبسملاً . وباب السلام هذا يُفتح صوب المشرق ، وعلى عتبته يوجد حجر نفطي أى يميل لونه بين الأسود ، والأخضر ، وعند الدخول من هذا الباب ، فعلى الداخل أن يطء هذه العتبة بقدمه اليسرى ،

= وستارة الكعبة الشريفة والهدايا المقدمة من الخليفة ، أو السلطان ، أو الوالى ، أو الحاكم إلي الحرمين الشريفين ، وأهل الحجاز عامة ، خلال العصور الإسلامية السابقة . وغالبًا ما كانت هذه الأشياء تُحمل على الجمال ؛ ولو كان السلطان أو والى مصر يُشيِّع بنفسه المحمل عند سفره من استانبول ، أو القاهرة ، أو الشام ، وكانت تتم مراسم تسيير المحمل مع آلاى الصرة فى اواسط شهر شعبان من كل عام ، وسط احتفالات شعبية ورسمية بديعة .

وكان كل والى يتولي شئون المحمل ورعايته خلال مروره عبر ولايته ، ثم يتم استقباله من قبل امير مكة وواليها وقوادها ، وآغوات الحرمين فى كل من المدينة المنورة ، ومكة المكرمة وسط حفاوة بالغة . وقد أفرد الحديث عنه فى المقدمة . «المترجم»

(٢) آيات مناسك الحج :

١ – ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ سورة البقرة آية ١٨٩ مدنية .

٢ – ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ﴾ سورة البقرة آية ١٩٦ مدنية .

٣ – ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ سورة البقرة آية ١٩٦ مدنية .

٤ – ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ ﴾ سورة البقرة آية ١٩٧ مدنية .

٥ – ﴿ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ سورة البقرة آية ١٩٧ مدنية .

٦ – ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ سورة التوبة ، آية ٣ مدنية .

٧ – ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ سورة الحج ، آية ٢٧ مدنية .

٨ – ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ سورة آل عمران ، آية ٩٧ .

ويسير مسافة ثنتا عشرة خطوة ، فتبدو له كعبة الله ، وقد توسطت البيت الحرام ، وهى مزدانة فى كسوتها السوداء . وباب السلام مكون من ثلاث ضلف متجاورة ، وما أن يدخل الفرد من هذا الباب حتى يُسمى باسم الله ، ثم يلبى سائرًا ، داخل الحرم حوالى مائتى خطوة .

ومعنى التلبية : « عندما بنى سيدنا ابراهيم الكعبة أمره الله تعالى قائلاً : يا إبراهيم قل لعبادى ليأتوا إلى بيتى ، مَنْ يؤمن بى إلى يوم القيامة . فبلغ سيدنا إبراهيم أمر الحج ، هذا ، إلى أبناء آدم ، فقالوا لبيك .. يامَنْ دعاك الله ، وجعل الحج من نصيبك ، فيجب ألا تكف عن التلبية ، وألا تُسقطها من لسانك .. فأنت ضيف الله مدعو من قبل الرحمن :

(من كان له نصيب فى الكعبة فرحمة الله له فالحق يدعو مَنْ أَحَبَّه إلى بيته) [1] .

* * *

إن طواف الوداع ، يُسمى ايضاً طواف طواف "صادر" ومناسكه كمناسك طواف القدوم، أو طواف الزيارة .. وكما سبقت الاشارة يتم الطواف سبعة أشواط ، ثم الصفا والمروة ، ثم الدعاء المعهود ، وتمني العودة والدعاء لذوى القربي .. ومَنْ سألنا الدعاء بأن ينالوا ما نُلنا .. وبعد الحلق أو التقصير ، يتم خلع الاحرام .. ولا تجوز العمرة بعد أداء طواف الزيارة .. ولكن خلال طواف الزيارة لك أن تجلس في الكعبة المشرفة ما طابت نفسك بالجلوس . وبطواف الوداع هذا المشار اليه تكون مناسك الحج قد اكتملت .. وخلال هذه المدة يمكن أن تهب الدعاء . والحج إذا كنت نويت الحج عن أحد – لِمَنْ أردت من الاهل ، أو الاستاذة أو أولياء النعم .. ولابد أن تكون علي ثقة من تمام اركان الحج حتي تنال القبول .. ويكون الحج مبروراً .. ومن المعروف أنه بعد النزول من مني وأداء طواف الوداع هذا فيحق لك بعدها التوجه إلي المدينة ، أو جده ، أو ينبع .. والذين ينوون التوجه إلي مصر يكونون قد أدوا طواف الوداع .. ولكن يجب في هذا الطواف السكينة ، والهدوء ، وعدم السرعة مثلما يحدث في الطواف السابق .. بل يكون علي تؤوده .. وحتي السعي بين الصفا ، والمروة يجب أن يكون علي مهل هذا الطواف ، واجب علي كل صادر أي مغادر ، ولكنه غير واجب علي المكيين والمقيمين .. ولكن لو أدَّوه فهو ثواب ، ومهما كانت قدرتك علي شرب ماء زمزم .. فاشرب .. وأشرب علي نِّية ما تَشرب من أجله واصبب من ماء زمزم – قبل المغادرة – علي شعرك ولحيتك ، واغسل وجهك ، ولو أمكنك الغسل بنية الاستشفاء ، فهذا أيضاً جائز .. ولكن لا يجوز الاغتسال ، والتطهر به في غير مكانه ، أو موضعه .. وبعد ذلك قَبل أعتاب واستار الكعبة .. وإذا كان متاح لك دخول بيت الله الحرام ، فادخله ولكن بعض الفقهاء ؛ يرون أنه من الافضل عدم الدخول .. ولكن مَنْ يكتب له الله أن تلمس قدماه أرض داخل الكعبة، فكأنما قد لمست أو لامست قدماه كل بقاع الدنيا .. وقد منح الله هذا الفضل للخادم الحقير إلي ربه .. وسجدت تحت المزراب الذهبي .

يحرص الزوَّار ، والمودعون أن يلمسوا ، أو يمسحوا وجوههم ، وصدورهم فى جدران الكعبة ، وتزداد هذه الرغبة فيما بين باب الكعبة ، والحجر الأسود ويحاولون

جهد طاقتهم تقبيل الحجر الأسود ، ويتعلقوا بأستار الكعبة .. ومُعَلق بالأستار ثنتا وأربعين حلقة .. وقد رُبطت أطرافها أي أطراف الكعبة بهذه الحلقان .. بينما التعلق بهذه الحلقان ، وحتى تقبيل أطراف ستائر الكعبة .. والتمسح بكسوة الكعبة الشريفة ، وتقبيل الجدران .. ليست سنة مفروضة .. أو واجبة ، أوحتى مستحبة .. ولكن محبة الخدمة فى بيت الله ، والعمل تطوعاً، ومحبةً ؛ لا يخلو هذا من ثواب .. ولكن تقبيل الحجر الأسود سنة محببة عن رسول الله « ﷺ » حتى أنه ؛ يُروى عن حضرة عمر ، ﷺ أنه قال .. « ياحجر لولا أننى رأيت رسول الله يُقبلك لما قبلتُك .. » . وبهذا يكون طواف الوداع قد تم .. وبعد ذلك مهما تطوَّفت بالبيت العتيق تْطوَّف .. ويُستحب مثل هذا الدعاء فى خِتام طواف الوداع ﴿ اللهم لا تجعله آخر العهد من بيتك الحرام ... وإن جعلته فعوضنى عنه بالجنة يا أرحم الراحمين ﴾ .

« وعلى هذا المنوال أتممت أنا العبد الحقير طواف الوداع ، والحج .. فليتقبله جناب المولي العزيز .. والسلام .. »

* * *

عندما أصبح الشريف بركات شريفاً ، دخل إلى المدينة المكرمة وسط إحتفال عظيم . وجاء إلى الحرم الشريف ، وجلس عند الدرجة الثالثة ، أسفل منبر رسول الله « ﷺ » . وجاء جميع الأشراف ، والشرفاء ، والمشايخ ، وأهل الوفاء من الأئمة ، والخطباء ، والعلماء ، وجميع الآعيان الكبار ، وعلى العموم ؛ حضر الجميع ، الكبير والصغير ، إلى الحرم الشريف ، وبايعوا الشريف بركات . ونادى المنادون فى كل مدينة مكة باعطاء الأمان لخلق الله ، ومنح آمان آل عثمان لجميع خلق الله ؛ وبشروا الناس بأنهم سيكونون فى أسعد حال . واستمر الإحتفال ، والإبتهاج ثلاثة أيام ، وثلاث ليالي ، وزيَّن كل الناس مساكنهم ، ومتاجرهم ، ومحلاتهم ، وطالب المنادون الآهالي بأن يزينوا دكاكينهم .. وما أن سمع الآهالي ذلك ، حتى ردَّدوا ﴿ العظمة لله ﴾ وما هي إلا ساعات حتى تحولت المدينة ، بداية من الجامع الشريف والطرقات العامة إلى محفل يمج بالنشاط ، وتم تنظيف وتطهير الشوارع والطرقات ، وكل شخص من الاهالى حسب مقدرته ، قام بتزيين منزله .

وفتحوا أبوابهم ، وشرعوا فى زيارة بعضهم البعض ، وزيارة حجاج المسلمين وزيَّن كل واحد من الآهالى باب بيته أو دكانه بآحلى أنواع الزينة ، وعلَّقوا القناديل والثريات حتى تشعشعت المدينة بالأضواء المتلئلئة . وأُشعلت آلاف القناديل والشموع ، والمصابيح ، والفوانيس فى جميع الأسواق السلطانية = الرئيسية . وعلقت آلاف ، بل مئات الآلاف من المشاعل ، والشمع الكافوري حتى تبددت ظلمة الليال ؛ وأصبح الليل مضيئاً كالنهار تماماً ... واستمرت الصحبة . كما يكون الحال فى ليلة القدر – حتى الصباح .. ولما كانت مدينة مكة مدينة منورة ، فأضحى نور على نور .. وقام كل آصحاب الحرف بتنظيف دكاكينهم .. وجمَّلوها بالمفارش والطنامس ، وأخذوا فى السمر والتسامر مع بعضهم البعض ، ومع أحباءهم .. وتبادلوا شتى أنواع المشروبات كالشربات ، والشاي ، والقشير ، والسحلب ، وقدموا المهلبية ، والقهوة . واللبن الخالص والعَيْران . [1] .. وكانت هناك أمام بعض الدكاكين ، أو أمام بعض الخانات مطربون ، ومقرؤون ومضحكون .. وغوازى ،

(١) العَيْران : لبن خض يُضرب بالملح ، ويُشرب ، ويُقدم مع الطعام ويستحب فى فصل الصيف واشتداد الحرارة . لبن منزوع الدسم يضاف إليه الملح ويشرب بادراً . «المترجم»

وفتيات عفيفات ، بأصواتهن الملائكية يتغنون بالموال الحزين .. أو بالقصائد الغزلية .. وترقص الراقصات والراقصون .. والكل يُطلق «الحي .. هو» [1].
وتشمل المكان نغمة روحانية بحيث لا يتمالك الحضور نفسه عن التكبير وآرباب التجارة .. كان كل منهم يعرض ما لديه من بضائع رائجة .. وفى سوق لحسا = الاحساء ، سوق اللولي = «اللؤلؤ ..» كما يسمونه .. ويؤدى إليه طريق عام .. أو هو نفسه طريق عام .. سوق طويل المتاجر على الجانبين ، جميع دكاكينه كشباك السمك ، قد نُسجت من شبك رقيق .. وتمتد على الطريق بمصلوبات جميلة .. والسوق كله مزيّن .. ومعروض فيه وعلى الطريق الرئيسى شتى أنواع الحرير الأخضر .. والقمحى = البني الفاتح واللون البحري أى الأزرق فى زرقة البحر .. كما تعرض القطيفة .

كما توجد فى دكاكين بائعى الجواهر الألماس ، والياقوت اللعل = الأحمر والزمرد ، والفيروز = البيروز ، والعقيق ، واليمنى [2] والصمغ الجبلى وزبرجد عين الحور ، وعين السمك . وكل أنواع المجوهرات الغالية الثمن قد عرضها آصحاب المحلات فى عروض مبهجة ... حتى حوّلت شمس مكة المشرقة إلى شموس مشعشعة . ولما كانت أشعة شمس الدنيا تسقط عليها لم يكن يستطيع المرء أن ينظر إلى الأشعة المنبعثة عنها .. ولم يكن ليجرأ أن يفتح عينيه تجاهها .. وكانت العيون النرجسية تقف أمامها مبهورة ..

أما فى سوق العطارين ؛ حتى فى حالة عدم العبور ، فإن موارد العود ، والعنبر الخام ، والعود الملبَّس ، والمسك ، والكافور المسكي ، والسنبل الهندي ، والسنبل الخيطاى تفوح روائحها .. وتعبق المكان ويصبح رأس ، ودماغ كل انسان معطر .. أما فى سوق السلقرى ؛ فإنك ترى الورد ، والفل والسنبل ، والصندل ، وماء الورد والعطر السلطانى ، والياسمين ، والبنفسج ، والحناء .. كلها تفوح منها الروائح التى تُعيد روح الشباب إلى الإنسان .

---

(١) أكبر الظن أن الرحالة يقصد حلقات الذكر ؛ بما كان يجرى فيها من انشاد دينى ، وذكر وتراتيل ، ويجتمع فيها ارباب الطرق الصوفية ، وفى حلقات الذكر كانوا يطلقون بشكل جماعى ، ومتكرر «الله .. هو .. الحي هو ...» المترجم

(٢) اليمنى : غطاء رأس . أو تاج يوضع على الرأس ، أو تلبسه العروسة فى ليلة الزفاف ، ويكون من القماش المطرز ، أو الذهب أو الفضة المشغولة ، والمنقوشة بالموثيقات اليمنية . وهومشهور فى بلدان الجزيرة العربية . ويطلق أيضًا على حذاء الجلد حفيف ، مدبب الطرف الأمامي ، ورقيق الحواف . «المترجم»

وما أن يفرغ جميع الحجاج من الطواف والسعي بين الصفا والمروة حتى يمكثوا بعض الوقت فى واحد من هذه الدكاكين التى يُرحب أصحابها بهم قائلين « أهلاً .. وسهلاً .. » ويعظمونهم .. ولابد أن ينثروا عليهم من ماء الورد ، والعطر ، والبخور المائي .. ولابد أن يشعلوا الكثير والعديد من البخور ، والعنبر .. كما أنه من المعتاد أن ينثروا ماء الورد على الغادين والرائحين فى الطريق العام أمام دكاكينهم .. وذلك لأن أمر معاش أهل مكة منوط بالحجاج .. كما أن حضرة جناب الشريف قد أصدر تعليماته ، وتنبيهاته بحسن رعاية الحجاج .. لكل هذا يحرص أهل مكة على إرضاء الحجاج ، وجلب خاطرهم . خاصة وأن عدداً كبيراً من الحجاج كان قد قُتل داخل الحرم الشريف .. كما حدث نهب وإغارة على متاجر بعض التجار .. أما هذه السنة .. وفى داخل المدينة كان كل الناس يخرجون المشروبات ، والمأكولات تعبيراً عن المحبة ، وعرضاً للبيع ؛ وكان البيع والشراء ميسراً . كما أن كل يوم ؛ كانت تُطبخ فى المطبخ الخليلى أنواع متعددة من الحلويات ؛ كالمهلبيات ، والزولابيات ، وسكر النبات والحلويات الحموية ، وألوان متعددة من الأطعمة النفيسة وكانت تُقدم للغريب ، وكل الغرباء لدفع الجوع عنهم .. كما كانت تُقدم أنواع معقولة من الأشربة المعروفة كشربات الورد والليمون ، والبنفسج ، والفراولة ، والتوت ، والحمص ، والصندل ، وكان الشربات يُقدم من كل المنازل ، وكل الدكاكين لكل مَنْ يريد أن يشرب دون أن يُسأل عن درهم أو دينار . وهكذا .. فإن آلاف آلاف المسلمين الذين جاءوا ليؤدوا هذه الفريضة تحت هذه القبة الزرقاء طاعة ، وطواعية منذ آمد بعيد ، وهم يسعدون بهذه التلبية .. وتطيب نفوسهم ويشعرون وكأنهم فى الفردوس الموعود .

وإذا كان الحبيب النبى قد كرَّمه الله بالرسالة ، وهو فى الأربعين من عمره ، فإن من بواعث المحبة لحضرته ، أن الله سبحانه لم يجعل الحج مطلقاً ، بل ربطه بالقدرة ، والإستطاعة ﴿ .. مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١)

وبالسلام أتممنا نسك الطواف والزيارة ..

* * *

(١) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

منذ الخلفاء الراشدين ، والعباسيين ، والأمويين وكل الخلفاء الذين تعاقبوا ؛ وهم حريصون على أن يمنحوا خطاً شريفاً لكل مَنْ هو مشرف بالإنتساب إلى نسل النبي ، وإذا ما أصبح هذا الشريف مسناً .. فهو يكون حكيماً ذلك الوقت أى قاضياً .. وكان إذا ما أبرز هذا الخط الشريف ؛ كانت تُفتح أمامه كل الحدود ..

ولما تم الفتح المبين لمصر لصالح الشاه سليم سنة ٩٢٣هـ أعطى عهداً .. وكانت طوال آيام سليم شاه ، وفى كل آيالة مصر يُقرأ هذا العهد .. وظل هذا القانون متبعاً حتى بعد سليم ، وأقره سليمان فى قانونه .. مفاد ذلك .. أن كل شخص ؛ يُحسَّبُ، ويُنسَّبُ الحسن والحسين .. أو يكون منتسباً إلى السادات الكرام، ويكون مسناً فيكون حكماً أي قاضياً .. ولكن مَنْ ينطبق عليه هذا الشرط ، ويكون حكماً لابد له أن يكون مأذوناً ، أي مسموحاً له من قِبل آل عثمان . فعندما فتح الشاه سليم مصر سنة ٩٢٣ كان شريف ذلك الزمان هو حاكم مكة وقاضيها .. حتى أن إبن شريف مكة قد جاء إلى مصر بمفاتيح الكعبة المشرفة وسلم المفاتيح إلى السلطان سليم وآنذاك كان كل مِنْ أبو السعود الجارحي ، وحضرة الكفافي ، على قيد الحياة – فسألا سليماً قائلين (يا سليم هل أنت خادم الحرمين الشريفين) . وكان ذلك يوم جمعة . وقام ابن كمال باشا بالخطبة فى ذلك اليوم فى مصر .

خلاصة الكلام قد أحسن السلطان عليهم بالحكومة .. ولكن كان شرطه الأول ؛ إذا ما توفى فينتقل الحكم إلي الكبير .. وهكذا .. ولكن إذا ما ظهر عصيان مفاجئ .. فإن العزل والنصب يكون فى آيدي آل عثمان .. وتنتقل إلي آصحاب الاستقامة ولداً عن والد . وصاحب الاستقامة يكون هو الشريف ، وتجدد له البراءة كل سنة .. ولابد أن يكون على وفاق وحسن مودة مع وزراء مصر .. وأن يعملوا على خدمة الحجاج المسلمين .. ومَنْ يحوز هذه الشروط الأربعين يكون شريفاً .. ويتوجه إلى مكة .. وعلى هذا المنوال .. وطوال التاريخ .. وهم فى رعاية السلاطين المسلمين . والشريف الذى يُصبح حاكمًا يُمنح ألف دينار ذهبي من السلطان كخاصة همايونية . ويُحضر هذا المبلغ إليه أمير الحج المصرى . ويخصص نصف جمرك بندر جده ، وينبع البحر ، وينبع البر للأشراف .. ويتولى ضبط وإدارة ذلك نفر من قِبلهم فى كل مكان من هذه

الإدارات . وبعرض خاص من سنان باشا [١] فاتح اليمن ، يأتى الخط الشريف [٢] وما زال سارياً حتى الآن [٣] ويخصص لهم سنوياً مائتي كيسه . ويأتيهم من الهند، واليمن ، والعجم ، والمغرب والحاصل من كل بلاد المسلمين ما يُماثل خزينة مصر خمس مرات ذهباً، ويُقدم إليهم ما يَقْرب من ثلاثة آلاف جندي من العرب والأروام = «الترك» وسيطروا على مقاليد الحكم . وفى مرات عديدة يكون لهم الآلاف من العبيد البدو العرايا .. ولكن ليست لهم علوفه [٤] . وكان يدين لهم بالطاعة جملة الآعراب البدو ، ويقسموا لهم على «نصرة السلطان الشريف الهاشمى» . وإذا لزم الأمر يحضرون إلى المحكمة ويقسمون على ذلك برأس الشريف قائلين « ... بحق رأس الشريف». كما كان للشريف عبيد يطلقون البنادق العثمانية ذات البيارق الإثنى عشر. يحبون طائفة الأروام ، لأنهم قوم شجعان. ووجهاء.. ليس للأشراف أطواغ [٥] أو أعلام ، ولكن لهم رايات تشبه علم رسول الله . وكذلك لهم فرقة طبل ، ودار ضيافة = مكرمه.. وقاضى بمخصصات شيخ الحرم . ولكن لم تُمنح لهم الإجازة بذلك ، وذلك لكثرة العصيان فى الماضى.. ومنذ أن شاروا ضد حاكم مصر قايتباى ، وهم يركبون خيولاً بدون ذنْب كتأديب لهم . وإلى الآن ، وصرة كل الأشراف ثنتا وستون ألف دينار ذهبي . وأن أمير الحج المصرى ، وأمين الصرة يُحضران كل سنة هذا المقدار من الذهب ، ويوزع على الجميع. كما أن لهم جرايات من الغلال تأتي من مصر .. هذه الجراية توزع سنوياً على عشرة آلاف وستين من الرجال والنساء .. هذا إلى جانب الصرة ، والعطايا والخلع الفاخرة التى تأتى من طرف السلطان ويُحسن بها عليهم .. إن مثل هذا الإحسان لم يكن له مثيل لآهالى مكة فى زمن

---

(١) سنان باشا : تولى الصدارة العظمى خمس مرات فى زمن كل من مراد الثالث ، ومحمد الثالث وينسب إلى الجنس الآلبانى . قام بضم العديد من البلدان إلى أملاك الدولة العثمانية ، تولى ولاية مصر سنة ٩٧٧هـ ثم قاد الحملات العثمانية على اليمن ، والهند ، وعاد منها بغنائم كثيرة ومنح لقب «غازى» لهذا السبب . توفى سنة ١٠٠٤ هـ عن عمر جاوز التسعين . «المترجم»

(٢) الخط الشريف : هو المرسوم الذى يصدره السلطان بصدد أمر معيّن ، أو بتكليف احد موظفى الدولة بمهمة معينة ، ومحددة . «المترجم»

(٣) المقصود هو السنة التى حج فيها آوليا چلبى وهى سنة ١٠٨٢هـ .

(٤) علوفه : مبالغ مالية ، وكمية معينة من القمح والدشيشة ، والبتن كانت تُخصص لبعض الفئات من العسكريين ، والمدنيين والمشايخ فى الدولة العثمانية «المترجم»

(٥) الطوغ : طرة من شعر الخيل ، كانت تُعطى فى العصور التركية المختلفة للأمراء والقادة كل حسب رتبته . «المترجم»

الأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين ، والأكراد = الأيوبيين ، والتركمان = المماليك ، والجراكسة .. ولكن منذ سليم الأول والسلطان سليمان وقد شملت الصرة ، والصدقات ، والإنعامات سيدات الأشراف وجواريهم .. إن صرة آهل مكة ، وأهل المدينة تأتى من مصر ، وحتى الذين يقيمون فى مصر من أهل هاتين المدينتين المقدستين فإنهم تابعون لهذه الصرة ؛ لأن هذه الولاية صحراء بيداء ، والغلال التى تأتيها من الطائف ، والحجاز ، وعباس لا تكفى سكانها على الرغم من أن آراضيها شاسعة .

* * *

يقع على الجانب الشمالي لمدينة مكة «جبل ناقيه» على مسافة ستة عشر منزلاً . وعلى البعد منه شمالاً تقع آراضى الشام . وفى الجانب الغربي وعلى مسافةثمانية عشر منزلاً «مرحلة» يتم الوصول إلى المويلح . وما بعدها مشاع لآراضى مصر . وعلى الجانب الجنوبي ، وعلى بعد مسيرة إثنتى عشرة ساعة تقع جدة على شاطئ البحر ، وما بين الجنوب والشرق ؛ طريق مسيرته أربعة أيام ، وهو مُشاع لليمن . وفى الموقع الذى يقع عليه ، والمسمى يلملم يُحرم حجاج بلاد اليمن ، وفى الجانب الشرقي ، وعلى بُعد عشرة مراحل ، وعند الوصول إلى «نهر القاع» أي عند الوصول إلى نهر دجله تكون حدود كل من لحسا ، والبصره ، وفي الإتجاه نحو الشمال الشرقى تقع بلاد آهل السيدة زبيده زوجة الخليفة هارون الرشيد .. وهى على بعد مسافة ست أو سبع مراحل . وهى مناطق بساتين بغداد . وعلى الطرف الشمالى لمدينة عباس تمتد أرض الله الواسعة ، صحراء ، بيداء ممتدة .. وحتى نهر الفرات ، وعند الوصول إلى قلعة آناخ "Aneh" وقلعة سلمى "Selma" وقلعة الحلة "Hille" ، والكوفه تقع صحراء التيه .. وهى تيه بلا حدود .. وسبب ذكر وبيان هذه الحدود أن القرى ، والقلاع ، والقصبات الواقعة فيما بين هذه الحدود هى تحت تصرف حضرة الشريف ، وخاضعة له . ويُنصَّب عليها حاكماً = قاضياً من طرفه .. ولا يجرؤ أى فرد آخر على التدخل فى شئوون هذه المناطق . وفى كل سنة يخرج الشريف مع جملة عساكره للدوران ، والتفتيش على الحجاز ، والطائف ، ووادى قدى عباس . وليس على الآراضى التى تحت سيطرته أي تيمار [١] أو زعامة [٢] أو أمانة [٣] . أو مقاطعات [٤] إلا جده ، وينبع البحر فعليهما .. فمنهما ؛ للشريف والخادم جده عائلات منهما . وليس لهم أي للآشراف علاقة بحكومة = إدارة جده ؛ فيسيطر عليها لواءاً مصرياً من طرف والي

---

(١) تيمار ، اقطاعية كانت تُعطى للعسكر .

(٢) زعامة = زعامت ، مساحة أكبر من الأراضى كانت تمنح لكبار العسكر .

(٣) آمانة = آمنت : مساحة من الارض ، او إدارة رسمية تُمنح لشخص ماعلى سبيل الامانة فى مقابل مبلغ معين ولفترة زمنية محددة .

(٤) مقاطعة = مقاطعه : مساحة من الارض كانت تمنح فى مقابل مبلغ معين نظير خدمات محددة ويشترط زراعتها.

مصر أو وزيرها . وهو يسيطر على جده بمن معه من القوة التى يبلغ قوامها خمسمائة فرداً . والسلام.

أوصاف مولوية مكة المكرمة:

وفقاً لقانون فتح مصر منذ الخان سليم الأول ، ومكة مولوية = مشيخة ، بمخصصات قدرها خمسمائة آقچة = « بيضا » يومياً . ومهما كان حكم الشريف مطاعاً ، ونافذاً على القرى والقصبات المشار إليها فإن حكم المولا = الشيخ ، نافذ عليها أيضاً .. وكان للمدينة المنورة مولوية = مشيخة آخرى . وله مخصصاته ، ومراسلاته الخاصة به . وكانت تخصص له دنانير من صرة مصر . ولتغطية تكاليف المعيشة كان يخصص له مائتي أردب من الغلال كصدقة . وكانت تسير فيها الأمور حسب الشرع النبوي الشريف، ولكن لبُعد المسافة .. ومرور الزمن ، تعرضت المشيخة منذ زمن السلطان محمد الرابع إلى تغيير يقضى بأن مَنْ يتصدى للخطبة فى عرفات ، ومَنْ يُعزل من المشايخ ويأتى إلى الآستانة دار السعادة ، يكون فى استقباله مولا اسلامبول ، وإلى أن صدر القانون الحالى ، كان هناك اعتبار واحترام لمولوية المكرمة ... ولكن فى السوق السلطاني = العام فَتَدُخل آهل الخرافة غنيمة . وتتحول الأمور التى لا قيمة لها لدى معدومي القيمة ذات قيمة؛ كذا .. تفقد الآشياء القيمة قيمتها فى أيدي الذين لا يعرفون قيمة الآشياء .. وبناء عليه بالرغم من كل القيم الموجودة بها أي بمكة المكرمة .. فقد تحولت إلى قضاء .. وآضحت هى وقضاء ينبع ، وقضاء بدرحنين ، وقضاء عباس تدار عرفياً من طرف حاكم جده وآغواتها .. وكان الآغوات الجداويون من عبيدى مصر .. وحدثت حروب بين حسن باشا ، قائد جده ، داخل مكه ، حتى أنه هو نفسه قد استشهد . وقام الشريف المسمى حمود بإعمال الرماح ، والسنان فى عساكر مصر ، ومئات الحجاج بالقرب من ينبع . ولقد ارتكب من الفظائع ، والمساوئ مما انعكس على وزير مصر الكتخدا ابراهيم باشا [1] ، فقام هو بدوره بإعلام الدولة بما حدث ، فأصدر السلطان خطاً شريفاً بمقتضاه توجه « قاپجى باش» إلى مصر ، وجمع ثلاثة آلاف جندى من مصر ، وثلاث آلاف من

---

(١) كتخدا ابراهيم باشا : كان والياً على مصر خلال رحلة آوليا چلبى الى الحجاز ومصر ، وقد شمل آوليا چلبى برعايته بعد وصوله إلى مصر . «المترجم»

جنود الشام ، وتجمعوا في سَنَتنا هذه ، وإنتقموا من الآشراف لحجاج المسلمين ، وأخذوا بثأر القائد العثماني الذي قتلوه .. وفر الشريف سعد . ونُصِّب مكانه الشريف بركات شريفاً .. وسعدت مدينة مكة بذلك، وساد الأمن والسكون جملة الحجاج ، والمجاورين ، وضيوف الرحمن ، أما الثلاثة آلاف جندى المصريين ؛ فقد بقي نصفهم في جده والنصف الآخر ظلوا في مكة المكرمة بكل ما يلزمهم من مأكولات ، ومشروبات ومعهم ست قطع من المدفعية الشاهانية ، بكل تجهيزاتها ومعداتها الكاملة ، وذخيرتها ، وظلوا لحراسة بيت الله الحرام ، والحفاظ عليه .. كما كانوا يمكثون طوال وقتهم وعمارة المدارس الواقعة على جوانب الحرم الأربعة .. كما تحصنوا بسطوح المباني ، والمدارس حول الحرم .. بحيث صار فوق الأسطح ما يوازى نفراً ، أو نفرين للحفاظ على كل بدن يدخل الحرم . وتحول الحرم الشريف كالقلعة ، بالرغم من أن هناك قلعة عظيمة في وسط مدينة مكة المعظمة . ولو كان بها مدافع لصارت قلعة مستحكمة تماماً .

من المعروف أن الحرم الشريف في السابق كان صغيراً، ومتواضعاً جداً ولكن تم توسيعه بما توالى عليه من الآعمال الخيرية لبعض السلاطين السابقين ؛ وأصبح الحرم الشريف واسعاً جداً .. ولكن في سنة ٩٥٩ هـ ، ذات ليلة رأى السلطان سليمان عليه الرحمة والغفران حضرة رسول البشرية (ﷺ) في المنام .. وخاطبه الرسول الكريم متفضلاً : (يا سليمان .. سينعم الله عليك بفتح بلجراد ورودس وألف وسبعمائة وأربعين من القلاع الصغيرة والكبيرة ، وتوسَّع دولة آل عثمان .. فإنهض .. وبأموال هذه الغزوات وغنائمها ، أقم قلعة متينة في القدس الشريف ، ورباطاً حصيناً ، في مدينتي المنورة هذه .. وانشأ حول كعبة بيت الله الحرام من جوانبه الأربعة حصاراً منيفاً .. إجعله فسيحاً مبنياً على المتانة ..) .. استيقظ سليمان من نومه فوراً .. واستبشر بفتح هذه القلاع .. وبأمر الله تيسر له فتح القلاع الحصينة .. ومنْ أموال الغنائم ؛ بنى قلعة في كل من القدس الشريف ، وطيبة الطيبة . وبعدها صرف عشرة أمثال أموال خزينة مصر .. وأقام المباني العظيمة حول الحرم بحيث أصبحت كالقلعة المنيفة ..وسنبيِّن على قدر الإمكان جميع التواريخ للمباني التي تمت .

ليكن معلوماً للإخوان ذوى العقول ، أن مكة المكرمة ، وبيت الله الحرام تقع داخل وادٍ ضيق ومحدود يسمى «بكه» ، ودائماً إذا ما سالت الأمطار من الوديان السبعة المحيطة بها ، فإنها تتجه نحو هذا الوادى ، وتغرق الحرم .. وكان الملوك السابقون لا يجدون لذلك حلاً . وفى كثير من السنين كان الحرم من كثرة الأمطار يتحول كالبحر ، وكان حجاج المسلمين يخوضون وسط آمطار الرحمة للطواف من أجل أداء الفرض ، لإن الإنس ، والجن لا يمكن أن يتخلوا عن الطواف . ولقد كلف السلطان سليمان القانوني المعمارسنان محمود باشا [1] بأن يجد وسيلة تحول دون إغراق الحرم الشريف ، والكعبة المشرفة بمياه أمطار الرحمة . وعيَّنه معتمداً لذلك ، فظل سنان باشا يجدد ، ويوسع فى الحرم مدة سبع سنوات ، وعلى جوانبه الأربعة جعل تسعة وثلاثين باباً كبيراً .. وجعل العتبات السفلى لهذه الأبواب عالية ، يُصعد لها بخمس أو ست درجات من الحجارة الصلدة ، ويُنزل منها بعشرة أو إثنتي عشرة درجة. وكانت الآبواب عالية فوق هذه السلالم ، وحمداً لله ، فمنذ ذلك التاريخ ، وقد تخلص الحرم الشريف ، والكعبة المشرفة من هذا الخطر الذى كان يتهدده . ولكن باب السلام هو الباب الوحيد الذى يخلو من السلالم فى الطابق الداخلي ، ولكن عند الطابق الخارجى فإن باب السلام يعلو عن سطح الأرض بسُلَّم مكوَّن من ست درجات . وجميع الأبواب هكذا دائراً ما دارا ذات سلالم . أما البيت الشريف فإنه يقع داخل منطقة صخرية منخفضة ، وجوانبه الأربعة وكأنها قلعة ، ومن الثابت أن السبل قد ضرب الحرم حتى فى أيام الرسول «ﷺ» وكان الصحابة الكرام يخرجون المياه بآياديهم الشريفة خارج الحرم .

وخلال خلافة الزبير بن العوام ، أُقيمت للبيت الحرام عتبات طويلة ، وبالرغم من ذلك فقد دخلت مياه أمطار الرحمة عدة مرات آخرى إلى داخل البيت الشريف .. ولو لم يقم سليمان العظيم بما قام على الوجه السابق شرحه ، لما تخلص البيت العتيق

---

(١) المعمار محمود سنان باشا : من كبار المعماريين الذين تتلمذوا على يدى قوجه سنان باشا . وقام بتنفيذ اعمال معمارية كثيرة على مستوى الإمبراطورية العثمانية .

من سيلان مياه السيل العرم . فرحمة الله عليه .. ولسوف نُسَجِّل لكل سلطان فى حينه ما قدَّمه من حسنات ، وخيرات للحرم الشريف .

أما عن باب السلام ؛ فهو ذلك الباب الفسيح الذى يُشترط على كل الحجاج المسلمين أن يدخلوا إلى الحرم الشريف منه . وهو باب عالٍ يمتد بإرتفاع ثلاثة أدوار فوق بعضها البعض . وفوق عتبته العليا ، نرى بخط القره حصارى أحمد چلبي التاريخ التالي ، وقد كتبه على رخام أبيض بالخط المذَهْب . والتأريخ هكذا :

(أمر بتعميره مولانا السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن سلطان سليم خان أيد ظله سنة ٩٥٩) كما يوجد فوق البناية العليا ، هذا التاريخ (عمَّر الله قبلتنا سنة ٩٥٩) .

أوصاف أبواب الحرم الشريف:

لقد أطلق الناسُ إسماً على كل باب من أبواب الحرم ، وحول الحرم الشريف الذى هو كالقلعة الضخمة تسع وثلاثون باباً فى جهاته الأربع . ولكن فى بعض الأماكن يوجد ثلاثة أبواب فى نفس المكان وسنبِّين كل الأبواب الموجودة كلٍ باسمه ، ورسمه ..

أولاً الحرم الشريف يقع على زوايا أربع ؛ على الجانب الشرقي أربعة أبواب ؛ أولهم « باب السلام » . وهوعبارة عن ثلاثة أبواب متجاورة ، وصُاَف الأبواب متقنة الصنع ، مغطاة بالنحاس الأصفر الباب الثاني ؛ هو باب « بنى شيبه » . وهم النسب الطاهر الذى ما زال مفتاح البيت الشريف عندهم . وهو أيضاً عبارة عن ثلاثة أبواب متجاورة . كما يوجد بابان آخران على الجهة الشرقية . آحدهما هو « باب النبى » . ومكانه كان بيت الرسول المصطفى ، وعندما تم توسيع الحرم الشريف ، أصبح بيت المصطفى داخل الحرم ، وقد بنوا مكانه هذا الباب ، ولهذا يُسميه الناس « باب النبي » . وبالقرب منه يقع « باب الجنائز » . وهو عبارة عن بابين متجاورين . وله أحزمة غاية فى الصنْعة والإتقان . أما الباب الثالث فهو « باب العبَّاس » . وكان مكانه هو بيت العبَّاس « ﷺ » ، وقد ضمَّه سليمان حيند "Süleyman Hanid" إلى الحرم ، وأقام مكانه باباً . وهو باب مضيئ ، ولطيف ، والأبواب الثلاثة مشرقة .

أما الباب الرابع فهو ؛ « باب على » كما يُسميه الآهالى أيضاً « باب بنى هاشم » . وبه تتم أبواب الجهة الشرقية . وفى الجهة الجنوبية تقع سبعة أبواب . أولهم يسمونه « باب الأسواق » . الباب الثاني هو « باب الصفا » . ويسمى أيضاً « باب بنى مخزوم » . ولماكان الصفا يبدأ من عنده لهذا سموه « باب الصفا » . الباب الرابع هو « باب جناد » . وهو عبارة عن بابين متجاورين . و « باب المجاهدية » هو الباب الخامس فى الجهة الجنوبية . أما الباب السادس فهو ، « باب العجلان » . وهو عبارة عن بابين متجاورين ؛ أولهما هو « باب أم هانئ » . هو غاية الغاية فى الدقة ، والصنعة . وكلا البابين متجاورين.

وعلى الجهة الغربية ؛ ثلاثة أبواب . أولهما « باب ابراهيم » أما الثالث فيسمونه « باب العمرة » . وهو باب صغير ، وغير مرتفع . أما الثانى فهو « الباب العتيق » . وهو باب غير مرتفع ، يميل إلى الغرب . والباب الرابع ، والكبير هو « باب زياد » . . وهو عبارة عن ثلاثة أبواب متجاورة . أما الباب الخامس فهو « باب الدرية » وهو بالقرب من منارة باب السلام . وهكذا ، هذه هى أبواب الحرم الشريف على جوانبه الأربعة . وبالحساب جملتها تسع وثلاثون باباً . ومهما كانت المسافة التى بين كل باب وآخر . . فإن التهوية والضياء ساطعة . وعلى كل باب من الأبواب ؛ وفوق عتبته العليا نُقشت بعض الآيات الكريمة ، وتواريخ ، وأسماء أصحاب الخيرات الذين أقاموها ، أو رمموها . . .

***

أوصاف أبواب الحرم الشريف ومابينها من الخطوات :

أولاً باب السلام عبارة عن ثلاثة أبواب متراصة . . يُدخل منه إلي الحرم . ويتم التوجه ناحية الجانب الغربى من تحت القباب والدواوين ومن بين الأعمدة اللامتناهية . وبَعْد العبور ، وعلى بُعْدِ خمسين خطوة يطل « باب زياد » على الشمال ، ويُنزل إلى الحرم من فوق سلالم حجرية مكونة من ثلاث عشرة درجة . ومن ناحية السوق ، يُصعد إليه هكذا بثلاث عشرة درجة حجرية . وهو باب عالٍ غاية فى الإرتفاع . لإن ماء أمطار الرحمة كثيراً ما كانت تُحدث سيولاً فى هذا الجانب. وفوق كمر الباب

الأوسط من هذه الأبواب الثلاثة ، وبخط القره حصارى وعلى المرمر نقشت هذه الآية : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) ﴾ [١] .

وعند الدخول من هذا الباب إلى الداخل ، يوجد حرم صغير مُزَيّن بالأعمدة المتراصة ، والمتوازية فى الجوانب الأربعة . وهو أيضاً متصل بالحرم الكبير . ويتم العبور آيضاً ، من باب زياد هذا ، إلى الجهة الغربية من تحت القباب . وعلى مسافة عشرين خطوة من باب زياد تكون « دار الندوة » . ويسميها البعض « باب اليهود » حيث كان فى زمن الجاهلية ، فى هذا الحي دير - « معبد » لليهود . ولقد تهدم بعد الرسالة المهدية المحمديَّة . وفى ناحية معتمة يوجد باب صغير . ويُنزل إلى الحرم الشريف بثنتا عشرة درجة .. ويُصعد إليه بمثلها من الضاحية . ويمكن التجول من هنا ناحية الغرب من تحت القباب أيضاً .. وبعد مسيرة مائة خطوة ، يوجد « باب الباسطية » . يُفتح أن ينظر إلى ناحية الشمال . ويمكن الدخول منه إلى الحرم الشريف بسلَّم حجري مكوَّن من اثنى عشرة . درجة ، وطرفه البعيد مُطَعَّم .. ليس له سلالم . وعلى العتبة العليا لهذا الباب ، نَرى على لوحة من الرخام الخام ، وبالخط الجلي المذهب الجميل هذه الآية : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾ [٢] .

ومنه آيضاً يتم العبور من تحت القباب إلى الناحية الغربية . وعلى مسيرة خمسين خطوة ، نجد الباب العتيق المطل على الجانب الشمالي ، ويُنزل من الحرم باثنتي عشرة درجة ، أرضه مسطحة ، ليس بها سلالم . وفوق كمر هذا الباب ، نرى لوحة ذهبية مثبتة ، ومكتوب عليها ﴿ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴾ وعند الخطوة العشرين من ناحية الجنوب بعد العبور من تحت القباب ، يكون باب العمرة ، وهو باب مكشوف . وينزل إلى الحرم بسلالم حجرية من عشر درجات . خلفه محشو .. وعلى كمر هذا الباب بالخط الجلي كتب القره حصاري بالمذهب نص الآية التالية من سورة البقرة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الحجر آية : ٤٦ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٩٦ .

للملك قايتباى . ولكن لما كانت أرقامه مخلوطة ، فلم أتمكن من تسجيلها .
وأيضاً يتم التوجه ناحية الشرق ، من هذا الباب وتحت القباب ، وعلى بعد عشرين خطوة يكون «باب حزور» . وهو عبارة عن بابين متجاورين .. وهو من النحاس الأصفر المصري البديع . منقوش نقشاً بديعاً .. بحيث أن عمالقة آسطوات وآساتذة زماننا يقفون آمامه حيارى .. وعلى جانبه الجنوبى باب مكشوف منقوش . وينزل إلى الحرم بسبع درجات تكوّن سلماً .. لأنه اعتباراً من باب ابراهيم ، وآحجار الحرم طريق عام ، محال أن تُعرض للسيول . ولهذا فيتم النزول والصعود من هذه الأبواب بالسلالم . وفوق هذا الباب ، وبالخط الكوفي نقرأ مايلى :

[**بسم الله الرحمن الرحيم .. ياسيدى يامبدئ ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل ﴾**] [1] كما نجد بالخط الجلي الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [2]. وبعد الآية نجد هذا التاريخ :

(أُمر بعمارت هذا الباب الشريف فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر الدنيا والدين والسلطان ابن أبو [3] سعيد سنة أربع وثمانة مائه) .

ومن تحت القباب أيضاً ، وناحية الشرق وما بين الشرق والجنوب . وعلى بُعد خمسين خطوة يقع باب أم هانى . ويطل ناحية الشرق . وهو عبارة عن بابين متجاورين .. ويقع هذا الباب في أحد أركان الحرم وزواياه .. وينزل إلى الحرم بسبع درجات حجرية هو باب لطيف الصنعة . كما أنه مستراح الحجاج ذوى الحاجات ، وتهب عليه رياح الصبا ، ونسيم الصباح .. ويجد فيه الإنسان روحه من طلاوة النسيم .. وفى هذا المكان .. كان بيت السيدة أم المسلمين الست أُم هانى زوجة رسول الله ﷺ .. وكان الأمين جبريل ينزل بالرسالة فى سنوات النزول على الحبيب المصطفى فى هذا المكان .. كما أن الأمين جبريل قد دعى الرسول الكريم إلى المعراج من هذا المكان الطاهر .. وقد وصل الحبيب المصطفى من هذا المكان إلى القدس الشريف بالبراق حيث عُرج به إلى السموات العلا .. وكان قاب قوسين أو أدنى ، حيث كلّم البارئ الخالق .. ثم عاد مرة آخرى إلى هذا المنزل الطاهر ، منزل أُم هانى .

---

(١) سورة القصص آية : ٨٥ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .

(٣) فى نسخة قصر بغداد «أبو» غيرموجودة .

وهذا مسطور فى كل كتب السير .. والذى قام بضم هذا البيت الطاهر إلى الحرم الشريف هو سيدنا الزبير « ﷺ » . ولهذا فإن النسيم الجميل ورياح الصبا لا تنقطع عن باب أُم هانى . وعلى العتبة العليا لباب أُم هانى ، مكتوب بالخط الجلي المذهب على ا لرخام الأبيض الخام هذه الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ .. إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [1] .

ومن تحت القباب آيضاً ، وناحية الشمال ، وبعد مسيرة ثلاثين خطوة نجد باب مدرسة العجلان . وهو باب يطل ناحية الشرق . ويُنزل إلى الحرم بإثنتى عشرة درجة . وعلى العتبة العليا وبالخط الجلي ، وباللون الأبيض ، نرى الآية التالية مسطرة : **بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴾** [2] .

ثم نجد بعده « باب جياد » وباب الجهادية والذى يطلقون عليه كذلك باب الرحمة . وهو يطل على الناحية الشرقية وفوق عتبته العليا بالخط المذهب الجلي كتب القره حصارى : **بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ .. فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ .. ﴾** [3] . ثم نجد هذا التاريخ [٩٨٣٠٠٠] .

ومن هنا ، وبالاتجاه ناحية الشمال ، وبمسيرة ثلاثين خطوة يكون الباب السادس ، وينزل إلى الحرم بسلالم حجرية مكوَّنة من عشرة درجات . وفوق كمر هذا الباب نرى هذا الآية محفورة :

﴿ ...... وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾ [3] وبعده ، وناحية الشرق أيضاً ، ويوجد خمسة أبواب متجاورة ، ومكشوفة ، أوسطها هو أتقنها ، وأبدعها صنعاً ، وآعلاها . ويُقال أنه كان باب جامع السلطان حسن [5] فى مصر . وعلى جانبى هذا الباب ، يوجد على كل جانب بابان مختلفان .. ويُنزل من هذه الأبواب

---

(١) سورة الفتح الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة الروم آية : ٥٠ .
(٣) سورة النساء آية : ٩٥ .
(٤) سورة ص آية : ٣٠ .
(٥) السلطان حسن : من المماليك الاتراك الذين حكموا مصر ، ومن سلالة قلاوون فهو ناصر الدين محمد بن قلاوون ، ترتيبه التاسع عشر بين مماليك مصر ، تربع على عرش مصر سنة ٧٤٨ هـ . استمر فى الحكم ثلاث سنوات ثم اعتكف للعبادة . هو صاحب الجامع الشهير القاهرة . توفى سنة ٧٦٢ هـ . «المترجم»

الخمسة إلى الحرم بسلالم حجرية عريضة ، وطويلة . وله عشر قوائم متناثرة . . وفوق كمر الباب الأوسط الكبير ، مكتوب بخط القره حصارى بشكل ساحر ، ومعجز ، هذه الآية الكريمة من سورة البقرة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ..** ﴾ وعلى الباب الثانى : «**فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما**» [1] .

وعلى باب آخر ، أيضاً : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)** ﴾[2] .

وعلى البابين الرابع ، والخامس مكتوب تكملة الآيات الكريمة ، ومن أبواب الصفا هذه حتى الوصول إلى الطريق حوالى خمسين خطوة داخل المحلات . ومن باب الصفا إلى الداخل ، ومن تحت القباب وبالاتجاه ناحية الشمال ، وبعد مسيرة عشرين خطوة نجد «باب البغلة» . وهو عبارة عن بابين متجاورين ومكشوفين ناحية الشرق . ويُنزلا إلى الحرم بعشر درجات لكل منهما . ولا ترى العين فوقهما أي خطوط . . وبالسير تحت القباب لمسافة عشرين خطوة فى اتجاه الشمال يكون باب «بنى شيبه» . وهو مكشوف ويميل ناحية الشمال فى الجانب الشرقي . وفوق كمراته ، نقرأ بالخط الجلي ، المذهب وفوق رخام أبيض هذه الآية الكريمة .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)** ﴾ [3] .

أما باب حضرة على « ﷺ » فيقع بعد مسيرة ثلاثين خطوة ناحية الشمال ، ومن تحت القباب . . وهو عبارة عن ثلاثة أبواب بجوار بعضها البعض . . ويُنزل إلى الحرم منه بسلالم مكوَّنه من عشر درجات . ولا توجد أى كتابات على عتبته العليا . . وبالسير تحت القباب أيضاً يتم الوصول إلى باب حضرة عبَّاس « ﷺ » . وهو باب مرصع دقيق الصنع ، ومكوَّن من ثلاث أبواب متجاورة . . وهو يطل ناحية الشرق . . ويُنزل منه إلى الحرم بثمانى درجات . وبرواق ضيق يصل

---

(١) سورة البقرة : آية ١٥٨ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٣ .

(٣) سورة الإنسان : آية ٦ .

إلــي باب « بنى شــيبــه » . . وحـتى الوصـول إلى « بـاب بغلـة » . نـرى بطـول ثمــانين خطـوة ، وفـوق هذه الأبواب الثـلاثـة قـصـيـدة عـربيـة ، مكتـوبة بالاسلوب القــره حـصارى ، وهـى بالخط الجلي المذَّهـب . . وفيـمـا بين هـذه الكـتـابة المنمـقـة ، يُسـجل سـوَّاح العالم هذا التاريخ :

﴿ أمر بتعمير سلطان مراد خان عز نصره ﴾ .

وعلى الرغم من آثار تـعدِّيات القيـزيلبـاش [١] المنحـوسين على هذا الجـدار إلا أننا نســتطيع أن نقـرأ اسم ذى الجـلال ، واسـم الرسـول واسم الخلفــاء الأربعــة . وهذه الكتابات بالذهب الخالص المصفى . وبمرور الآيام ، تهدم هذا الجانب ، فأمر السلطان مراد خان الثـالث بترميـمـه وتجديده . وهو الذى أمـر بكتابة هذا الخط الطويل ، وله تأريخ .

﴿ **خير مساجد الله** ﴾ . البعض يقول قد سقط التاريخ ، والبعض يقول إنه تاريخ هذا اليوم . . وهناك تاريخ آخر :

(**جدد المسجد الحرام مراد دام سلطانه وطال آوانه سنه**) وما أن تسير عشرين خطوة آخرى تحت قـباب الحرم ، حتى تصل إلى « باب النبي » ﷺ . وهو يطل على الشرق عبارة عن بابين متجاورين يُنزل إلى الحرم بست درجات . وفيـما بين هذين البـابين ، نرى هذه الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [٢] . وبعد نهـــايـة الآية نرى هـذا التـــأريخ (**أُمر بتـجـديـد باب النبى أيَّام مـولانا السـلطان ملك الأشرف** [٣] **سنة ٩٣٥**) .

وبالسير أيضاً تحت القباب ، ولمسافة ثلاثين خطوة ناحية الشمال نصل إلى « باب

---

(١) القيزيلباش : رافضي ، بلادين . وهم طائفة من غلاة الشيعة . وقد توغلوا بين المسلمين الاتراك ، والاكراد ، ويتصفون بالعناد ، والتزمت . تداخلت معتقداتهم ببعض الطرق الصوفية المشبوهه . يكثر تواجدهم حوالي نهر قزوين وبحيرة وان فى تركيا . « المترجم » .

(٢) سورة التوبة : آية ١٨ .

(٣) الملك الأشرف : من اشهر سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وامتدت آياديه الخيرة إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي ، وخاصة مكة المكرمة ، والمدينة المنورة . « المترجم »

المدرسة» . ويسكن فيها أمير الحاج المصرى [1] . وهى مدرسة عظيمة ، وعالية . ولكن بابها صغير جداً ، لا يعرفه كل انسان ، ولكنه يؤدى إلى شارع الصفا ، والمروة . يُصعد إليه بسلالم مكوَّنة من خمس وعشرين درجة . ومنه بمسافة عشرين خطوة شمالاً يتم الوصول إلى باب السلام ، وحول كل هذه الأبواب من الخارج وفى محيطها كمرات أخرسة مقامة على أعمدة . وأمام كل باب صفَّات مختلفة . وتحيط هذه الصفَّات حول الحرم . وبعض الغرباء والمسافرين يسكنون فى هذه الصوفات = الأروقة . ويقع باب السلام على إحدى زوايا الحرم الشريف والواقعة فى الجهة الشرقية . وعلى الزاوية = «الركن» الآخرى باب عمر ، وهى تلك الزاوية الغربية . أما باب أم هانى فيقع على الزاوية الثالثة ، وعلى الزاوية الرابعة يقع باب البغلة . والسلام .

ولكن إذا ما أضفنا إلى هذه الأبواب السابق بيانها ، بابين للمدارس يُصبح جملة الأبواب الكبيرة والصغيرة واحد وأربعين باباً . أما داخل الحرم ، وحول الكعبة فتبلغ المسافة ثمانمائة خطوة . وداخل الحرم ، وخارجه سلالم حجرية بلغت درجاتها مائتين واثنين وخمسين درجة . والمسافة من الداخل أي من زوايا الحرم الشريف من الداخل من باب السلام حتى باب العمرة ثلاثمائة وخمسين خطوة .

* * *

---

(١) أمير الحاج المصرى : منصب كان يتولاه واحد من العسكريين أو القضاة أو المشايخ ، ويكلف بمهام احضار قافلة الحج المصرى إلى البلاد الحجازية والعودة بهم فى أمن وسلام . وكانت له مخصصاته بعد ان كان منصباً شرفياً دينياً . يمثل الدولة أثناء موسم الحج . «المترجم» .

يوجد ثمانين عموداً مربعاً عادياً ، مائة وخمسة وثمانين عموداً من الرخام الأبيض. ومن باب العمرة إلى باب أم هانى مباشرة مائتين وخمسين خطوة ، وبها خمسة وعشرين عموداً سداسياً عادياً = عملياً ، ومائة وخمسة وثمانين عموداً أبيضاً من الرخام والآحجار ذات القيمة ومن باب أم هانى حتى باب البغلة ، حيث كتبت أسماء الخلفاء الأربعة الراشدين بماء الذهب الخالص مسافة ثلاثمائة وعشرين خطوة ، فى هذه المسافة مائة وثمانية وخمسين عموداً من الرخام الأبيض ، ومن باب البغلة حتى باب السلام مائتين خطوة ، فى هذه المسافة ستة أعمدة سداسية الزوايا ، مختلفة الأطوال والإنحناءات . وعدا ذلك مائة وخمسين عموداً من الرخام الأبيض الخام . . وغيرها من نوعيات آخرى بحيث وصل مجموعها مائة وخمسة وثلاثين عموداً . وباختصار جملة الآعمدة الصغيرة ، والكبيرة ٦٧٨ عموداً موذوناً . ولكن الحرم الشريف الذى أمر ببنائه السلطان سليمان خان ، داخل أركانه الداخلية دون أي انحراف ، بحيث تكون هذه المسافة هى أطراف حرمي الكعبة قد بلغت ألف ومائة وعشرين خطوة واسعة .

ومن الأعمدة المذكورة ٢١١ عموداً ؛ منها ٦٢ عموداً فى الجانب الشرقى ، وتأتى فى مواجهة بيت الله الحرام . و ٨١ عموداً فى الجهة الشامية ويسميها البعض الجهة الشمالية و٦٤ عموداً فى مواجهة باب العمرة ، وستة من هذه الآعمدة من حجر الصوان . والباقى من الرخام الخام .

أما الجانب المواجه للركن اليمانى ؛ ففيه ٣٣ عموداً اسطواني الشكل ، واحد منها عملياً أي عادياً من حجر الصوان . والباقي من الرخام الأبيض . وعند باب إبراهيم ١٥ عموداً اسطوانياً ، أحدهم من حجر الصوّان . وأيضاً أمام باب إبراهيم يوجد عمود واحد شمسى من الحجر الأصفر . ومجموعها ٢٤٠ عموداً . بعضها اسطواني ، وبعضها مسدس ، وبعضها مثمن الشكل . وثلاثة أعمدة طول كل منها ثلاثة أذرع من الصخر الأصفر المصقول ، ويسمونه لذلك الحجر الشمسي . وما عدا هذه الأعمدة التى ذكرناها ، فيوجد فى الجانب الشرقى من الحرم ٣٠ عموداً اسطوانياً ،

وعلى الجانب ٧٦ عموداً اسطوانياً . وفي أركان المسجد الشريف أربعة اسطوانات وبداخل الحرم أمام باب الندوة ٣٦ عموداً إسطوانياً . ومن عند باب ابراهيم إلى باب زياد ١٨ عموداً اسطوانياً .

وفوق كل هذه الآعمدة التى ذكرناها فى الحرم الشريف عليها نقوش وزخارف شطرنجية الشكل ، وعليها من علامات الرونق ، والبهاء ما يجعلها ، كل واحد منها وكأنه قوس قذح أو قوس من أقواس النصر . وكلها من إبداعات المهندس المعماري العظيم سنان رحمة الله عليه . وكان يجلب لأقواس النصر هذه الآحجار ذات القيمة العالية من شتى البقاع البعيدة لعلمه ، ومعرفته بها .. وكلما أمعن الناظر النظر فيها اكتشف بها ، وفيها علماً ، وورونقاً ، وأبهة يبعث الدهشة والإنبهار . «مصراع» : ﴿مقام عجيب لطيف ذى بنيان متين﴾ .. سنة ٩٧٥ .

وما أن ترى ذلك حتى تدعو كل الشفاه مرددة «عمَّرك الله» وجعل شوكة عزك مرفوعة .

* * *

أوصاف القباب الكبيرة ، وبيانها :

أولاً ؛ على الجانب الشرقى من الحرم الشريف أربع وعشرين قبَّة عظيمة . وعلى الجانب الشامى ست وثلاثين قبة ، وعلى الجانب الغربي أربع وعشرين قبة ، أما الجانب الجنوبى فتعلوه ست وثلاثون قبة . وهناك قبة أيضاً عند المنارة الموجودة فى الركن اليماني ، وست عشرة قبة فوق منطقة دار الندوة ، وخمس عشرة قبة عند حرم باب ابراهيم ، وهذه القباب العظيمة تذكرك بقبة السماء العظيمة ، ومجموعها مائة وخمسين قبة بديعة الصنع . وعداهذه القباب فسائر الآعمدة لها قباب صغيرة . وبيانها هى الآخري كما يلى :

على الجانب الشرقى ٣٨ قبة ، وعلى الجانب الشامي ٥٩ قبة ، وعلى الجانب الغربي ٤٣ قبة ، وأما الجانب الجنوبي فتعلوه ٦٤ قبة وعلى باب السلام قبتين . وعلى ركن المسجد الشريف هناك قبة ، وعلى باب الزيارة لدار الندوة ٢٤ قبة تاجية وعلى باب العمرة قبة تاجية . وبحساب هذه القباب التاجية المنحنية ٢٣٢ قبة تاجية . وعدد المصلوبات ٥٦ مصلوبة . وحول الحرم الشريف دائراً مادار جدران تجعله وكأنه قلعة شامخة .

* * *

أوصاف أبدان الحرم الشريف :

أولاً يقع على الجانب الشرقى للحرم الشريف ١٦٢ شَرفَه ، ٢٧ منها مبنية من الرخام الأبيض . ووسطهم واحدة هى أعلى الجميع ، مائة وخمس وثلاثين منها من الحجر الشمسى . وعلى الجانب الشمالى ثلاثمائة وأربعين شَرفه ، ثمانٍ وسبعين مبنية من الرخام الأبيض .. ثلاثة من جملتهم عالية ، والبقية من الحجر الشمسى . وعلى الجانب الغربي مائة وأربع اثنان وعشرين منها من الرخام ، والباقى من الحجر الشمسى . ومن ناحية باب زيارة دار الندوة مائة وإحدى وتسعين شَرفه . وعند باب ابراهيم مائة وست وأربعين جداراً ، وكلها مزينة . وكلها من الحجر الشمسى ، وبحساب كل هذا يتضح أن هناك ثلاثمائة جدار وشرفه ، اللهم احفظنا .. ساعة الحصاد يمكن أن يصعد فوق سطح خمسة أو ستة آلاف مسلح بالبنادق ويكون السطح بمساعدة هذه الشَرفات مساعد ، ومناسب لمثل هذه الحرب . فهذه الجدران ، وهذه الشرفات تجعله كالقلعة .. ولكن جبل أبى قبيس محيط به ، وقريب جداً ، بحيث يستطيع من يلقى بالحصى بيده لا يسمح لأى شخصى أن يسير فى الحرم . وقد حدث خلال الحرب التى درات مع حسن باشا المشار إليه ، فإن أعداداً غفيرة من الناس قد قُتلوا بالرصاص المطلق من جبل أبى قُبيس هذا .. ولهذا السبب فإن السلاطين السابقين قد حصَّنوا الحرم الشريف من جوانبه الأربعة . وبنوا حوله المدارس دوراً فوق دور – وسوف نتحدث عن هذه المدارس فى حينه – وكل نوافذها تطل على الحرم الشريف ... وخلاصة الكلام فإن تعفير الوجه على هذه الآعتاب الشريفة سعادة ما بعدها سعادة .

* * *

ليكن معلوماً لأصحاب القلوب المحبة ، والمشتاقة لرؤية الحرم الشريف الذى تحدثنا عن بعض أوصافه السابقة ، بأن هناك سبع منارات خالدة حول الحرم الشريف فى جهاته الأربع . ويتلى ، ويؤدى منها الآذان المحمدي للصلوات الخمس صبحاً ومساءاً وأقدم هذه المآذن هى تلك التى تجاور باب العمرة ، والتى يسميها الناس « منارة باب العمرة » . وقد شرع الآذان منها فى بادى العصر . ولكن يؤدى الآذان حالياً من المقصورة التى تعلو بئر زمزم ، وكمن أول من ابتدأ ذلك شيخ من آحفاد بلال الحبشي . وكان محط أنظار ، وبؤبؤعين المؤذنين . وعلى كل منارة من منارات الحرم الشريف السبع ، هناك سبعة رؤساء مؤذنين يستطيع كل منهم أن يؤدى الآذان على المقام الحجازى [1] . وفى وقت الصلاة تجدهم جميعاً يؤدون الآذان بصوت رخيم .. فتصبح به وكأنك تسمع لترانيم داود [2] الحزينة . وهم بهذا الصوت يعلنون عن أوقات الصلوات الخمس .. والله عالم .. وعليم بأن المؤذنين جميعاً حينما يرددون « الله أكبر .. الله أكبر » أن السكينة والراحة تنزل على قلوب جميع الحجاج الذين جاءوا ملبين .. ومكبرين .. ويهب الجميع لأداء الصلاة فى جميع الزوايا ، والأركان .. ولكن التمجيد الأول يُتلى أولاً من منارة باب السلام ، والتمجيد الثانى يُقرأ من منارة باب ؟ وما آحلى أن يتنافس المؤذنون فى ساعات الليل ، ووقت السحر وهم يرددون بصوت ملائكى عالٍ **(الصلاة والسلام عليك يارسول الله)** أو عندما يترنمون بـ « الصلاة والسلام عليك يارحمة للعالمين ويا شفيع المذنبين ..) .. فكل من يسمع هذه الدعوات النورانيه يزداد حباً ، وشوقاً للصادق الأمين .

ويعتقد أن منارة باب العمرة هى أقدم منارات الحرم الشريف ، وأول من أقام هذه المنارة هو الخليفة العباسى الثاني أبو منصور الدوانقى ! ويقول البعض أنه هو الذى أضاف طبقتها الثانية . ومنارة باب السلام هى المنارة الثانية ، وجددها مثل سابقتها هو سليمان خان . والمنارة الثالثة هى منارة باب علي وبانيها الآوائل هم آل العباس أي

---

(١) مقام الحجاز : مقام فى الموسيقى الشرقية .

(٢) ترانيم داوود : وهى الترانيم التى كان يعزفها سيدنا داوود على المزامير . وتسمى اختصاراً مزامير داوود . ولها موقع دينى مميز ».

العباسيين ، وبالتحديد المهدى العباسى ، وبعده ، وبمرور الأيام تهدمت ، فأمر سليمان خان ببناءها من جديد على طابقين من الحجر الأصفر .. وكان أمره أن تكون منارة رائعة . ومن يتفحصها فكأنها شجرة السرو السامقة . والمنارة الرابعة .. وهى أيضاً من بناء المهدي، وهى كذلك بمرور الآيام تهدمت ، فبناها بعده حاكم الموصل وهى ذات شرفتين .. وعند باب زياد أقام الملك أشرف برسباى [1] أحد سلاطين مصر منارة . وهى طبقتان . غاية فى الإبداع ، والصنعة .. وهى منارة سرمدية . والمنارة السابعة ، هى اعلى المنارات جميعاً ، وأكثرها ارتفاعاً .. ولا مثيل لها .. وقد صرف المهندس المعمارى الذى أبدعها فيها جهداً ، بحيث جعلها شيئاً مختلفاً ؛ فى الفن ، والابداع عن كل الأُخريات .. وصدق مَنْ قال **(من لم يره لم يعرف)** . وعلى هذه المنارات السبع ، لا يصعد الأربعة عشر مؤذناً .. بل الآخرون يوقدون عليها القناديل فى الليالى المباركة .. وكل هذه المنارات ، ما عدا الإحدى والعشرين طبقة ، مطلية بالذهب حتى قمتها . ويوقد حول كل منهم القناديل ، بحيث يصير حول كل واحدة خمسة أو ستة طوابق من القناديل المشعشعة بالضياء . وتصبح المنارة وسطها وكأنها شجرة السرو السامقة الإرتفاع . وتظل على هذا المنوال إلى أن يغادر مكة المكرمة حجاج بيت الله الحرام . ويبلغ عدد القناديل المضاءة خلال موسم الحج الشريف حوالى ثمانية آلاف قنديل فتحول المكان ليلاً وكأنه نهار مشرقة شمسه ، ساطعة سماءه..

وإذا كنا فى هذه المقتطفات السابقة قد أحطنا علماً بأبواب الحرم ، وأعمدته ، وإيواناته .. ومناراته .. فمن الجدير أن نلقى بعض الإجتهادات حول بيت الله ، الكعبة المشرفة التى هى مهجة الفؤاد ، وكما تتوسط الحرم الشريف ، فإنها تسكن ، وتتربع فى سويداء القلب لدى كل المسلمين الذين يقصدونها ملبين ومكبرين .

* * *

(١) الملك أشرف برسباى : من ملوك وسلاطين المماليك فى مصر . وله باع طويل فى عمل الخيرات ، وما زالت مآثره المعمارية تشهد على عظمة عصره .

فصل فى إجلال وإكرام
بيت الله الحرام .. وبيان جميع أحواله

أولاً ؛ إن الحقير إلى ربه آوليا منذ أن وعي الدنيا ، وشب عن الطوق وأصبح فى عمر الشباب ، وهو يتمنى من كل قلبه ، ورروحه أن يكون مولعاً بالسياحة ، وطالباً للرحلة ؛ وأنه كلما أمعنت النظر فيما ترى عيناى ازدادت رغبتى فى ذلك ، وأكون طوعاً للمكان .. وأظل محبوس الفؤاد بالبلاد التى نزلت قدماي بها . وأُمعن النظر فى سمائها ، لأرى نجومها السَّيارة ، وأُشاهد بروجها برجاً ، برجاً .. وأقطع لذلك المنازل وأطوى المراحل . وأُسابق رياح الصبا فى قطع الديار حتى أصل إلى موطن الحبيب المصطفى .. وقد قضيت وقتاً طويلاً آحياناً فى الذكر ، وأحياناً فى قراءة المدائح النبوية ، وأحياناً فى تلاوة القرآن الكريم .. وأحياناً فى السير والمشاهدة ، والتطلع إلى كل ما يقابلنى فى المدن العظيمة ، والقلاع القديمة .. وأعبر الأنهار ، واتخطى الجبال والوديان وكنت كلما تواتينى الفرصة أرجع إلى علم الهيئة = «الفلك» وكتب الآطالس الجغرافية .. وأبذل الهمة فى تدوين ما رأيت ، وتوثيق ما كتبت ؛ وأتخذ من همة الأوائل نبراساً أهتدى به ... وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى أتممت الحج فى سنة ١٠٨٢ هـ وطفت ببيت الله العتيق .. وإلتزمت – بعد الإطلاع على بعض الكتب المعتبرة ، وأوصاف مكة المكرمة ، – أن أُدون بعضٍ من أحوال مكة ، وتجرأت على ذلك بعون الله .. وبالله التوفيق.

أولاً ؛ خلق الله السموات والأرض من العدم يلفظ «كن» فيكون ، ثم استوى على العرش ، وفقاً للآية الكريمة .. ﴿ ... **فى ستة أيام ثم استوى على العرش** .. ﴾ ويسترسل المؤلف فى الحديث عن خلق السموات والأرض وما فيها من جبال ، ومياه .. ويفصل القول فى الجبال ويُبين أن أعلاها على سطح الأرض مائة وثمان وأربعون جبلاً .. وهم منبع المياه .. وأن جبريل الأمين بأمر من الله سبحانه وتعالى حوَّل سبعة من هذه الجبال إلى رماد فى قبضته .. ومن تراب هذه الجبال السبعة أقام سيدنا ابراهيم عليه السلام الكعبة ، وبناها .. وفى مكانها ذكر لهذه الجبال السبعة . ويقول أن سبب تسميتها بالكعبة لأنها مربعة الشكل . ويقول وأن سبب وصفها بالحرم ، هو تعظيم من الخالق لها .. وأورد المؤلف الآحاديث الواردة فى حق الكعبة المشرفة ... ثم يستعرض ما

تعرضت له الكعبة المشرفة أثناء طوفان نوح عليه السلام .. والأسباب التى من أجلها فرض الله سبحانه وتعالى زيارة مكة والطواف بالبيت الحرام تعظيماً وإكراماً لأنه سبحانه وتعالى قد أنزله من الجنة ليكون مقام عبادة لسيدنا آدم بعد نزوله الى الأرض.. وكلّف الله سبحانه وتعالى آدم بأن يجعله بيتاً معموراً وأمره هو وحواء بالطواف حوله .. وقد طاف آدم ومعه الملائكة حول البيت الحرام .. ولكن بعد الطوفان أصبح مزاراً لبني آدم ، وفرض الله عليهم الطواف حوله .. ويقول المؤلف .. أن بيت الله الحرام الذى أنزله الله من الجنة ، وأثناء الطوفان عرج إلى السماء – بأمر الله – وخلال العروج انفصل عنه جزء يسير فى حمرة الياقوت .. وحسب رواية آخرى أنه أى الجزء الذى انفصل عن البيت الحرام أثناء العروج كان كلؤلؤة بيضاء وأن سيدنا جبريل الأمين هو الذى قام بدفن هذه اللؤلؤ فى جبل أبى قبيس وأن الله سبحانه وتعالى قد أمر سيدنا ابراهيم بإعادة تعمير وإعمار بيته الحرام بعد الطوفان ، وقد تم ذلك بتعاليم من جبريل الأمين الذى أمره أن يبنى الكعبة من حجارة الجبال السبعة المحيطة .. وكان سيدنا إسماعيل آنذاك فى الثالثة من عمره المبارك .. ولكنه كان يساعد والده الحنون ، فكان يحمل الحجارة الصغيرة الخفيفة . أما سيدنا اسحاق فكان فى الثانية من عمره ، بينما كان سيدنا ابراهيم قد بلغ المائة من عمره أثناء بناء الكعبة ، وخلال هذا البناء ؛ آخرج جبريل الأمين الحجر الذى كان قد دفنه فى جبل أبى قُبيس ، ووضعه فى موضعه الحالي حيث زاوية الركن اليماني . ومما رواه الشيخ الترمذي ؛ عن ابن عباس ﷺ :

قال رسول الله ﷺ ؛ الحجر الأسود من الجنة ، وهو أشد بياضاً من اللبن ، فسودته خطايا بنى آدم ..) ... وبعد أن أتم سيدنا ابراهيم بناء الكعبة تلى الآية الكريمة ..

(ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) كمانزلت مئات الآيات الكريمة فى شأن البيت الشريف. وسوف تحرر فى حينها .. [1] .

* * *

---

(١) لم أُحاول مناقشة ما أوردة المؤلف من آراء .. حفاظاً على الجو العام الذى حاول ان يحيط به ما كتبه بهذا الصدد .

مضى الزمان وقام جد الرسول الكريم قصي بن كلاب بتجديد البيت الحرام ، بعد سيدنا ابراهيم عليه السلام .. وظل على هذا الحال حتى بعثة النبي « ﷺ » . وخلال عصيان قوم قريش تهدمت بعض آجزاء مكة ، ومنها بعض آجزاء الكعبة ولكنهم خوفاً من الله تجمعوا جميعاً ، ورمموا الكعبة ، وعمَّروها . لأنهم قد أصابهم القحط لماخرَّبوها... بحيث وصلت بهم الأمور أن أكلوا لحم ا لميتة ، وجفت مياه زمزم .. فأدرك قوم قريش أن الله قد أنزل بهم العذاب .. فذهبوا في الحال إلي عبد المطلب .. وطلبوا منه أن يصطحبوا معهم محمداً ، وتوجهوا إلى جبل أبي قبيس للإستسقاء وطلبوا من محمد أيضاً أن يدعو معهم .. فتفضل بالقول لهم . ما لم تعمروا البيت الحرام فلن يرضى الله عنكم . فاقسموا جميعاً قائلين يامحمد .. لو أُنزل علينا المطر ، وأُغثنا فنعاهدك .. ونعاهد الله أن نعمر الحرم .. وتعهدوا بذلك .. فرفع المصطفى في حضور عبد المطلب يديه الكريمتين .. وقال انظروا يا آل قريش إن الغيث سينزل بعظمة الله ، وبقدرة الخالق وعظمته أمطرت السماء ، بحيث ارتوت الجبال والوديان بماء الحياة .. مما جعل سائر قبائل آل قريش يحبون محمداً وبذلوا الهمم في تجديد الكعبة المشرفة . وكان عبد المطلب آنذاك في العشرين بعد المائة من عمره .. وهو جد الحبيب المصطفى .. وكان حضرة المصطفى قد بلغ الأربعين .. ولما بلغته رسالة النبوة، كان يباشر عملية بناء مكة ، وأصبح البناء عظيماً ، وأفخم مما قام به الجد قصي .

وحين ذاك توفي عبد المطلب ، ودفن بالقرب من المعلا . وكان سلطان قريش ، وكبيرهم . وبعد النبي « ﷺ » قام أمير المؤمنين أبو بكر الصديق ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحضرة عثمان ، وحضرة عليٍّ ، وحضرة معاوية ، وحضرة الزبير بن العوام والحجاج يوسف الظالم ، ومن آل العباس أبو جعفر المنصور ، والمهدى العباسى والأشرف شعبان خليفة الموصل ، والملك أشرف بارسباى ، ونور الدين شهيد ، ويوسف صلاح الدين ، والسلطان برقوق ، والسلطان فرج ، والسلطان قايتباى .. لقد قاموا جميعاً بتجديد وتعمير بيت الله الحرام ، وترميم الكعبة المشرفة . ومن آل عثمان قام كل من ؛ السلطان سليم ، وسليمان خان ، والسلطان

مـراد الثالـث والسلطان أحـمـد ، والسلطان مـراد الرابع فـاتح بغـداد ، وكـذا السلطان ابراهيم .. ولقد قام كل هؤلاء الخلفاء ، وظل الله فى الأرض من الملوك ، والسلاطين ، والأمراء بتوسيع مكة المكرمة ، وترميم الحرم المكي ، والكعبة المشرفة ؛ بحيث فى كل مرة ، خليقاً بأن يكون بيت الفردوس .. وما زال يرمم ، ويتم تعميره .. ومن يوم إلى يوم وسيظل إلى يوم الدين بيتاً معموراً .. «عمَّره الله إلى انقراض الدوران» . وما زال إلى اليـوم الصيـد، والقنص حرام داخل حـدود مكة ، ومـا زال الحشـيش والنبـاتات المخدرة لا تنمو بها .. وآحجارها لا تُخرق ولا تصير جيراً .. ولا تُقطَّع أشجارها ، وطيورها .. وحمامها ، ويمامها وقف رسول الله .. لا تروَّع .. ولا تخوَّف .. بل تحط أسراباً .. أسراباً بين الحجاج ، ولا تخاف هى من أحد ، وأحياناً تحط على رأس حاج ، وآحياناً على ظهر ، أو أكتاف آخر .. ولكن لحكمة غريبة .. فهناك الآلاف ومئات الآلاف من الحمائم واليمائم ، ولكن لم يثبت أن واحدة منها قد حطت على سطح الحرم ، أو طلعت فوقه .. ولكن النسر الأبيض والذى يسمونه **Cayluk** فيـأتى إلى سطوح مكة ، ويمكث بها .. ولكن غيره من الطيور ، وكل ذوى الجناح فلا تُحلق حتى فى أجواء مكة ، بل إذا ما اقتربت تعود أدراجها .. وهذا سر من أسرار الله العجيبة ، فكأن الطيور هى الآخرى تعرف شرافة مكة ، وتشرفها .. وتعرف معنى الخشوع .. ولا يجوز بأي حال من الآحوال الفسوق ، والجدال فى الحرم بل هذا حرام ، ومحرَّم .. ومَنْ يجادل فيه لا يعمِّر .. وللحرم الشريف مجموعة من المميزات ، والخواص ؛ أولاً ؛ لو دخله كافر يُسلم ، و لو جاهر بالكفر يُقتل .. وكذا اليهودى .. وإذا ما دخل الظبي ، أو الغزال الحرم فلا يُذبح .. ولا يتعرض له آحد . . .

* * *

أوصاف الإحرام للحرم الشريف :

أولاً : فى الجهة الشمالية اعتباراً من منطقة وادي فاطمه ، ومن المكان المسمى عمره أربعة آميال من مكة ، وتدخل هذه المسافة فى حرم مكة المكرمة . وعلى طريق جده بعشرة أميال .. ويمتد حتى منتهى جده .. وإلى أن تصل طريق الطائف إحدى عشر ميلاً .. وعلى طريق اليمن ، وحتى منطقة « يلملم » أربعين ميلاً .. والقادمون من اليمن أو جهاتها يحرمون فى يُلملم .. وعلى طريق العراق ، وإلى أن يتم الوصول إلى المكان المسمى ، ستة أميال . وعلى حدود كل طريق .. وحيث يتوجب الإحرام قد تم إقامة بناء يُنار لمسافة ميل حتى يُدْرَك من منارته حدود الحرم هذه العلامات قد وضعها عدنان ، ثم آضاف هارون الرشيد ، وولده الخليفة المأمون الكثير من الآثار والأبنية الأثرية إلى حرم المدينة ، وآثناء خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي .. وعندما تم فتح مدينة طليطله فى ديار الأندلس ، ولما توجه إليها بألف قطعة من السفن ، وتغلبت على آهلها ، وَجد كنز سيدنا سليمان .. وداخل العجول الذهبية ، وجد ياقوتا أحمراً ، وزمرداً ، والماساً لا حصر ، ولا عد له .. ووجد الكثير من الأزيار المليئة بالذهب الخالص .. فبنى فى دمشق الجامع الأموى ، وأقام فى مكة العديد ، والكثير من الزينات حتى أصبحت ، وكأنها جنة عدن . وفى البداية أقام من سبعة قناطير من الذهب الخالص مزاباً لمياه الرحمة « المطر » .. ولكن لثقله كان يسقط من حين لآخر . وبعده ، وفى زمن السلطان أحمد كُلّف درويش محمد ظلي والد العبد الحقير بإبداع مزراب آخر . وبينما كان فى الآعتاب العالية قام والدنا بإعادة بناء مزراب ماء الرحمة ، وخلال تلك كان والدنا هو أمين الصرة ، وقد قاموا بوضع المزراب الجديد فوق سطح الكعبة الشريفة . وحتى أنا العبد الحقير قد رأيت هذا المزراب ، وكذلك رأيت ما خطه بيده الكريمة من خطوط بديعة .. ولكن لم يكن كل ذلك يصل إلى مرتبة ما بناه الوليد بن عبد الملك . وقد كان ماصنعه درة مصافة .. وقام عبد الملك بتوسيع الحرم الشريف ، وترميمه ، وأصبح طول مسجد الحرم ثلاثمائة وسبعون ذراعاً مكياً .. وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً مكياً – ولكن الحقير لم يستطع حساب الذراع ولم أقم إلا بالقياس بالخطوة . وقد سطرت ذلك سابقاً ، وإن كان حساب الذراع المكي أقل من الخطوة .. وكان ذلك الحساب مساوياً لما قمت آنا به بالخطوة تقريباً .

* * *

فصل في أوصاف صفات البيت الحرام
وفتح مكة بيدي الرسول عليه السلام

إن الكعبة الشريفة ، شرفها الله تعالى ، كما سبق القول مقامة فى وسط الحرم الشريف الذي فى وسعة الصحراء . وهى مربعة الشكل ، مبنية من حجر الصوان الزيتونى اللون ، ولكنه يميل إلى الصفرة قليلاً . البناء متين ، وفى زوايا الآحجار توجد أحجار ناصعة البياض مجلاة كالثلج فى حجم الصندوق الصغير ، ومن مستوى الأرض تمتد إلى آعلا ، وإلى قدر علو المباني المكيِّة ، وتصل إلى أربعة وعشرين ذراعاً مكياً . أرضها ثلاثة وعشرين ذراعاً ، وشبراً واحداً .. وارتفاع جدارها سبعة وعشرين ذراعاً ، ومدار الحِجْر خمسة عشر ذراعاً ، ويسمونه الحطيم .. وعلى الجهة الشمالية من الكعبة الشريفة يقع مزراب ذهبي ، تجرى فيه مياه أمطار الرحمة ، وتحت الحطيم يمر هذا الخط من الركن العراقى إلى الركن الشامي . ولكن هذا الحطيم كان قد خْلِع فى خلافة الزبير بن العَّوام ، فأعاد بناءه ، وألحقه بالبيت الشريف ، وجعله فى مساواة مباني مكة ، وجعل على جوانبه الأربعة نوافذ ، وشبابيك عليها بلور ، وزجاج مختلف الأنواع من المورانى ، والنجفى وبمختلف الألوان . وفتح الباب الشريف الذى كان مسدوداً عن الركن اليماني ، وجعل للبيت الحرام كالأول إثنا عشر باباً ، وصرف عليها أموال كثيرة ، بحيث جعل خارج الحرم ، وداخله مزداناً بشتى أنواع النقوش ، والزخارف . بحيث من يراه . يُرتل الأية الكريمة ﴿ .. **هده جنات عدن فادخلوها خالدين** ﴾ (*) بحيث من يدخله من باب لا يوجد الخروج من الباب الآخر ، بل يتمنى لو ظل مخلداً فيه . والذين يطوفون بالبيت الحرام ، يدخلون من باب ثم يخرجون من باب آخر بعد الطواف ... ومنذ أيام خلافة الزبير بن العوام والأمور تسير على هذا المنوال . وبعده .. عندما تهدمت الكعبة خلال حصار الحجاج الظالم لمكة المكرمة بعساكره الذين لا حصر ولا عدَّ لهم ، والذين بلغوا ما يزيد عن ثمانين ألفاً حسب بعض الأقوال .. ولقد وضع الحجاج المجانيق فوق جبل أبى قبيس ، وأخذ فى ضرب الكعبة ، والحرم حتى تهدمت الكثير من مبانيه .. وأخيراً تخلى الزبير بن العوام عن الحرب .. وسلّم مفتاح مكة للحجاج بعد أن أخذ الأمان .. ولكن الحجاج الظالم لم يدع عهده ، وعلّق الزبير بن العوام عند باب السلام ..

وصعدت روحه إلى بارئها وإن ظل جسده معلقاً .. ولما وصل الحجاج إلى مراده ، أُنزل جسد الزبير من حيث صُلب ، وتم دفنه .. ولم يشأ أحد من أهل الزبير أن يرجو الحجاج فى شيئ .. حتى أن والدة الزبير بن العوام ﷺ كانت على قيد الحياة .. فلم تشأ أن ترجو الحجاج ، وظل الزبير مصلوباً .. حتى أنها ذات يوم كانت تمر بالقرب من الجسد المصلوب ، فنظرت نحو ولدها ، ومضت . وكذلك .. فإن شيخ الزبير ظل يخطب ، ويعظ الناس ، وهو على المنبر ، ولم ينزل قط . وكل من كان يعبر أمامه كان يستمع إلى مواعظه .. ولما علم الحجاج بذلك ، اعتبره رجاءاً ، فأمر بأن يُنزل الزبير ، وأن يُغسَّل ، وحضر صلاة الجنازة عليه فى المسجد الحرام .. ودخل الحجاج إلى ناحيته بالقرب من التابوت ، وطاف سبع مرات حول جسد الزبير . ودفنوه فى المعلا . وبعد ذلك ؛ أمر الحجاج الظالم بأن تُقرأ الخطبة باسم خليفة الشام الخليفة مروان الحمار . ثم أصبح الحجاج الظالم يوسف خليفة على مكة والمدينة ، والكوفة ، والعراق ، فخلع الحطيم من حيث وضعه الزبير بن العوام ، وأمر ببناء جدار الحطيم كما كان فى عهد صاحب الرسالة ﷺ . وعلى جدار الحطيم مكتوب بخط جميل :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ .. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] .

وهذه الآية بخط القره حصارى مكتوبة على الرخام الأبيض ، وقد كُتبت بقدر قامة الرجل – وتتضح عند النظر بامعان ، وإلا فلا يلحظها كل إنسان . وجدار الحطيم أحد طرفيه عند الركن العراقي ، والآخر عند الركن الشامي . والبسملة عند هذه الزاوية . كما أن الحجاج قد جدد بناء أحد جدران الكعبة ، والجدران الثلاثة الأخرى بناهم ابن زياد . وقام الحجاج الظالم بسد الباب اليمانى الذى كان قد فتحه الزبير . وهو الذى وضع الباب الذى يطل على الجانب الشرقي حتى الآن . وهذا الباب ، باب كامل وبديع ، فى علو قامة الرجل . والرجل قصير القامة ، يجد مشقة فى تقبيل عتبة البيت الشريف .. هذا الباب طوله ستة أذرع مكيِّة مضافاً إليها إحدى عشر إصبعاً .. وعرضه ثلاثة أذرع وإثنى عشر إصبعاً .

---

(١) سورة النور : آية ٣٦ .

بيان فى بداية الخيرات والكسوة الشريفة لمكة المكرمة

بداية ، الحجاج هو الذى أتم باب الكعبة ، وهو الذى أمر بإعداد كسوة لها من الديباج .. وفي الزمن القديم قام التُّبع اليمانية يعنى السلاطين اليمنيون القدامى بكسوة الكعبة بالحصير سنوياً .. وكان المأمون بن هارون الرشيد طوال مدة خلافته يكسو الكعبة المشرفة بكسوة من الديباج .. وبمرور الآيام خربت الأوقاف التى كانت موقوفة عليها ، إلى آن قامت السيدة شجرة الدُّر [١] زوجة الملك الصالح نجم الدين الآيوبي بإعداد كسوة سوداء مطرزة بخيوط الذهب من آدناها إلى آعلاها .. وألبستها للكعبة المشرفة .. ومنذ ذلك الحين أُطلق على الكعبة (كعبة الله) وقد يسَّرت عليها الكثير من الخيرات العظيمة . ولم يتيسر لأحد من الملوك أن يُسيِّر إلى مكة بمثل ما سيرته هذه السيدة شجرة الدَّر . وقد علم الحقير ، أنه عندما كان ابراهيم باشا الموسطارى حاكماً على مصر عيَّن ناظراً لكسوة الكعبة . وأوقف الكثير من الآماكن ، والقرى المعمورة لهذا الهدف ، بحيث كان ريعها السنوي مائة وسبعين كيسه مصرية [٢] . وكان أمين الأوقاف وناظر الكسوة يشترون عشرين قنطاراً من الحرير ، ويصبغونها باللون الأسود ، ويشترون عشرين أوقية من الذهب الخالص ، وألفين ديناراً من الصيرمة = « خيوط الذهب » الإفرنجية . ويقوم بتشغيلها وتطريزها مائة وخمسون نفراً من أمهر الصنَّاع فى قصر يوسف بمصر المحروسة ، وفى غرة الشهر المولود [٣] ، تُقام الورش ، ويغزلون – يبرمون الصيرمه ، ويشرعون فى الشغل ، ويعملون على مدار ثمانية أشهر كاملة ، وفى اليوم الأول من شوال يحضرون إلى مقام الوزير نموذجاً من إبداعهم ، ويتم عرضه ، وعرض مهاراتهم .. فإذا كانت ممتازة ، وبلا نظير ، يُنعم عليهم بالإحسانات الوفيرة ، والتى بها تقر أعينهم ، وتطيب

---

(١) شجرة الدَّر : إحدى ملكات مصر فى العصر المملوكى الأيوبى ، وترتيبها التاسع بين الملوك الآيوبيين . تولت الحكم سنة ٦٤٨ هـ وتلقبت بـ « ملكة المسلمين والدة خليل » . « المترجم »

(٢) الكيسة المصرية : وكان ذهبها ذهباً خالصاً . وعياره هو الذى تُقاس عليه بقية السكة المضروبة من الذهب فى الدولة العثمانية ، والدول الإسلامية .

(٣) الشهر المولود : أى بداية الشهر الذى يولد فيه الهلال ويكون محدداً لبدأ اعمال الكسوة .

نفوسهم ، ويُخلع عليهم بالخلع القيِّمة .. وهم يستحقونها .. وأشغالهم رائعة . ويعلم الله ؛ أن مَنْ لم ير شاغل هؤلاء الأُسطوات المهرة ، فكأنه لم ير شيئًا على سطح الأرض كلها – فهى لا يمكن وصفها ، أو التعبير عنها بالكلام ، بل لابد من التمتع بالنظر والإمعان . وكما يقول الشاعر :

(شنيدن كه بود مانند ديده ..) (*)

فلذلك ، فأنت محتاج للمشاهدة والرؤية .. وجملة النقوش (**لا اله إلا الله محمد رسول الله**) . وكما سبق السبك فى أوصاف الكعبة الشريفة وحرمها .. فإن الكسوة المشرفة تستحق هذا القدر من الأوصاف والألقاب .. ولكن ؛ كسوة هذا العام فإن أمير الحج المصرى هو الذى نال شرف اسدالها ، ووضعها على الكعبة الشريفة . وقدم تم تثبيت أطراف الكسوة بالحلقات النحاسية المثبتة أسفل جدران الكعبة دائراً ما دار ، والتى يبلغ عددها ثنتا وأربعين حلقة .. وكل منها سُمْك الذراع .. ولشدة لمعانها ، وصقلها فكأنها من الذهب الخالص .. هذه الكسوة المشرفة لا تخترقها الرياح .. ولأجل ذلك فإنها قد رُبطت بهذه الحلقات بإثنى عشرة قنطاراً من الحبال المجدولة ، والمشغولة بالخيوط البيضاء ، والحمراء .. وتُحيط ببيت الله ، وتجعل الكعبة الشريفة ظاهرة ، وبادية من مسافة بعيدة – بحيث يُبهر الإنسان ، ويبهت .. وحتى أن الستين ألف حاج الذين يمسحون بها وجوههم ، ويعفرون بأريجها جباههم ، لا ينالون منها إلا كل الخير .. وفى الطرف الآعلى من الكسوة بكرات مثبتة بحيث يمكن بها رفع الكسوة بقدر قامة الرجل حول الكعبة من جوانبها الأربعة . ووسط الكسوة المشرفة شريط مشغول بالذهب الخالص ، وكأنه يحتضن بيت الله . وهو يُحيط به دائراً ما دار .. وهو بعرض ثلاثة أشبار . وقد نقشت الآية الكريمة التالية ؛ بخيوط الذهب الخالص فوق هذا الحزام :

(فى بيوت اذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه) هذه الخيرات العظيمة العجيبة تأتى فى كل سنة جديدة من مصر ، وتُقسم الستائر القديمة قطعاً قطعاً ، وتُرسل هدايا إلى كل الملوك ، والسلاطين ، والأمراء المسلمين .. وهم بدورهم يُسارعون فى إرسال العطايا ، والهدايا ، والصرة الشريفة . ويوجد فى كل الديار أقسام ، وقطع من هذه

(*) (لا يمكن ان يكون السماعُ شبيهاً بالرؤية) .

الستائر .. وتبركاً ؛ تُفرش فوق نعش الميت وهم يحضرونه فى الجنازة حيث مثواه الأخير . ولكن منذ أيام السلطان سليمان القانونى ، وقد صدر فرمان الشهريار ، والبعض يُسميه خط الحج الأكبر – وهو يُحتم أن تُرسل الكسوة ، والحزام ، وستارة باب الكعبة من قبل سلاطين آل عثمان . وظلوا يرسلونها .. وأما ستارة باب الكعبة والخاصة بآل عثمان ، فكما هو محرر ، فهى بقدر القامة .. وعرض ستارة الباب المشرف ليست كنزة = ضيقة ، كذلك . هى من الحرير الخالص المتعدد الألوان ولكن نسبة الذهب لا تساوى نسبة الحرير . بل متناثر ، متألق ، يضفى رونقًا ، وبهاءاً يليق بستارة باب بيت الله الحرام ؛ بحيث أصبح لا نظير له . وضلفتي الباب المشرف هى من الذهب الخالص ، وهذا الباب أيضاً من شغل وتصنيع المرحوم والدنا .. وقد شاهدت ، ورأيت ذلك بنفسى محرراً فى كتابته .. وعلى ضلفتى هذا الباب المشرَّف كتابة ذهبية .. وبينها هذا التاريخ :

(تما بخير مولانا السلطان البرين ، وخاقان البحرين سلطان احمد خان عز نصره سنة عشرين وألف . .) .

كما أن هناك كتابة فضيَّة مذهبة ، ولكن لإزدحامها وتداخلها فى بعضها البعض يصعب النظر والقراءة . وقد اكتفينا بهذا التاريخ .. وحقاً أنه باب فى غاية الروعة .. ومفاتيح باب الكعبة منذ أيام الرسول « ﷺ » وهو فى أيدى « بنى شيبه » . وللآن وهو تحت تصرفهم ، وهم مثل آل بلال الحبشى قد دعا لهم الرسول المصطفى بعدم الإنقراض لنسلهم ، وذريتهم إلى أبد الآبدين .. وما دامت الأفلاك تدور ولذلك فهم مازالوا يتناسلون جيلاً بعد جيل : بحيث لا يمكن أن تمر بمكة المكرمة بدون أن تلتقى بأحد من ذرية آل بلال وآل شيبه . وآحياناً يفد إلى مكة المكرمة بعض العظماء ، وتتوق نفوسهم الدخول إلى بيت الله المشرَّف .. فيرجون الشريف فى ذلك ، فيصدر حضرته فرماناً لإبن شيبه بذلك ، وخلال موسم الحج يفتح باب الكعبة مرتين أو ثلاث .. وماء زمزم متصل بالجدار الأيمن للكعبة المشرفة .. ومن باب الكعبة يُنزل بسلم ، وهو سلم خشبي سميك مكوَّن من عشرة أقدام . عرضه ثلاثة أذرع . وعند فتح الباب الشريف يُسحب رويداً ، رويداً .. ويتصل بعتبة الباب بروز يصعد منه بعض الحجاج ، وبعض ذوى الجرأة ، والسرعة يقفزون دون النظر إلى السلالم

ويدخلون إلى الكعبة ، ولكن الحجاج الذين تتسم حركتهم بالبطئ ، ويصعدون ذلك السلم ، ويدخلون البيت الحرام .. ولكن كثير من الناس يُهلكون اللهم عافنا ، فالسبعون ألف حاج يزاحمون بعضهم بعضاً . ولذلك فإن العبد الحقير ، لم يتيسر له هذه السنة دخول البيت الشريف ، خوفاً من هذا الزحام . ولأن بعض الفقهاء لم يرضوا بذلك ، وقالوا بجواز الطواف من الأطراف . وكان كذلك ، لأنه لم يكن هناك موضع لقدم داخل الحرم ، ولا يُشترط الدخول داخل البيت الشريف .. ولو كنت مجاوراً ، فيجوز لك أن تدخله خلال شهرى ، رجب ، وشعبان عند فتحه فيهما .. ولكن العبد الحقير ، تمكن من النظر بعشق ووله إلى الداخل من الباب الشريف .. فزاد شوقى ، وعشقي ، فتجولت بنظري فى البيت الشريف ..... ثم عرجت إلى سطح البيت الشريف ، ففى الركن الشمالي ، يوجد غطاء ، وكأنه مربع الشكل ، ففتحته ، وصعدت فوق السطح ، كانوا يرممون ، ويعمرون السطوح ، وكان بداخل البيت العتيق ، كما هو موجود فوق ستائر الكعبة ، مسطورة عبارة ﴿ **لا إلـه إلا الله محمد رسول الله** ﴾ وعليه ستائر من الحرير الأحمر ، وليست سوداء..... وعلى بعض الآعمدة كتبت كلمة « الحنَّان » وعلى آخر كُتب « المنَّان »... وبه بعض الثريات ، ولكنه ليس مزخرفاً أو مبهرجاً كسائر المساجد ، والجوامع .. لأنه بيت الله .. وليس للزخرفة ، والزينة .

إن بعض الآعيان والعظماء من حجاج المسلمين يدخلون إلى داخل الكعبة الشريفة.. ويقبلون الآعتاب آلاف المرات .. وكم هى من عتبة بديعه .. فبياضها فى بياض اللبن الحليب . أو كأنها قد صنعت من الحليب .

بعد ذلك صعدت من السلالم السابق ذكرها . يضعون من ماء زمزم فوقها ، فتقف المياه ، ولذلك فقد آقاموا فوقه ، مزراب من الذهب لماء الرحمة من فوق سطح الكعبة المشرفة ؛ فتدخله المياه ، فتجرى منه المياه نحو الحطيم .. حيث كان مكان سجود الرسول ﷺ حين إمامته للصلاة ، وقد وضعوا علامة كالسجادة حيث كانت رأس حضرته ، وهى صخرة مربعة لونهاأخضر سوماكى ، تنزل عليه المياه المتدفقة من المزراب الذهبي .. وهكذا فإن مياه الرحمة تتدفق حيث كان يسجد الحبيب المصطفى .. وتُحيط بجوانبه الأربعة جدران الحطيم المذكور .. حوالى خمسمائة

خطوة . وهو عبارة عن جدار دائرى . . وإمام مذهب الإمام الأعظم ، وكما كان الحبيب الأعظم إماماً ، ويسجد داخل الحطيم ، فإن إمام المذهب يسجد ويؤم الصلاة منه . وموضع سجوده يقع تحت المزراب الذهبي وعلى جانبي هذه الصخرة السجَّادة الخضراء ، يوجد شمعدان من الفضة المطعمة بالذهب قد قامة الرجل ، وداخل كل شمعدان تمتد شمعتان فى طول الرجل وسمك جسده ، وهما من الشمع الكافورى . . وتوقدان ليلاً ، وسط مائتي فانوس تُضاء ، فيتلألؤ الضوء فى كل الأجواء . ويُقيم آلاف الحجاج المسلمين عبادتهم فى هذا الجو المشحون بالضياء والرجاء فى رحمة الله .
وهذا المكان مكسوة أرضيته بالرخام الأبيض الناصع وهذا المكان ، مع فرش البيت الشريف دائراً ما دار مائة وسبعين خطوة . وجدران الحطيم بارتفاع ذراع مكسوة بالرخام الأبيض من ناحية جدران الكعبة . حتى تحفظ الجدران عند انسياب أمطار الرحمة . ويُحلى هذا الرخام الحلقات الإثني والأربعون التى تُثبت فيها أطراف ستائر الكعبة . . حقاً إنها حلقات نُحاسية ، ولكنها مجلاة ومصقولة بحيث مَنْ يراها يظنها من الذهب الخالص . . وكل منها كأنه طوق انسان . وهى تحيط بزوايا الكعبة الشريفة الأربع . في البداية ، زاوية ، أو ركن الحجر الأسود على الجانب الشرقي ، وفى الشرق أيضاً واتجاهاً نحو الشمال « الشمال الشرقى » الركن العراقي . . وعلى الجانب الشمالي الركن الشامي ، وأما الركن اليمانى فيقع على الجانب الجنوبي مرتبطاً بالشرق حيث الحجر الأسود .

* * *

أولاً ، الحجر الأسود ، يعلو عن أرضية الحرم بمسافة زراعين ، وهو يميل إلى السواد «أسمر» . وكأنه خال أو شامة الكعبة .. قد وصفه آلاف من المؤرخين .. وهو فى سمرة فاتحة .. هو خال مكة ، وشامة على وجنتها .. «بيت» :

(كعبة قبله م سنك جما لكدر حجر الأسود آنده خالك) (*)

وقدوصفه الكثيرمن الشعراء وشبهوه بخال أو شامة المحبوبة الحقيقية . حقاً .. إن مبنى الكعبة كله مبنيّ من البياض ، والآحجار التى فى يَنْعَة الخضروات . ولكن هذا الحجرالأسود على جبينها الشرقي فكأنه خال وهو بالفعل قد أشرق على مكة كلها فأضاءها ، وشرَّفها هو حجر مجلي ، ومصقول ، فصٌ نادر من فصوص الكون الغامضة هو مجر مدوَّر . ويفسره البعض على أنه من حجَّارة سجِّيل ، والذي نزل ذكرة فى سورة : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ...** ﴾ .

ويستشهدون بالآية الكريمة على ذلك . ومن المعروف أن أبرهة الملعون قد أراد هدم كعبة الله الشرفة . فقدم إليها .. وتذكر بعض كتب السير أنه كان يُريد هدم الكعبة ليأخذ الحجر الأسود . وأنه أى أبرهه قد هدم الكعبة وألقى بكل حجارتها فى البحر عند جده .. وأنه قد تمكن من خلع الحجر الأسود من مكانه ، وفى هذه الآثناء أرسل الله عليهم طير الآبابيل ، فرمتهم بالحجارة التى جاءت بها من سجيل ، فأهلكتهم جميعاً بفيلهم .. ومنْ بعدهم تم تعمير وإعاده بناء الكعبة الشريفة . ولكن لم يتم الحج فى السنة التى خُلع فيها الحجر الأسود من مكانه . نهض آل هاشم ، وآعادوا بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود فى مكانه .. ولكن القرامطة الملاعين ، قد نزعوا الحجر الأسود من مكانه ، وآرادوا آخذه من مكة المشرفة ، والكعبة المعظمة ، ولكن وهم يُحضرونه نَفَق منهم سبعون جملاً .. ولما كان الحجر الأسود قد تكسرت بعض أجزاءه .. فعند إعادته إلى مكانه تم صب الآجزاء التى أصابها التلف بالفضة الخالصة . وما زال إلى الآن ، فإن الجزء المُغطى بالفضة هو المتاح للتقبيل .. والحجر الأسود أكبر قليلاً من رأس الإنسان ، وهذا هو المسطور فى كل كتب التاريخ .. وليست هناك

(*) الترجمة : إن جمالك هو كعبة قبلتى والحجر الأسود شامتها) «المترجم»

حاجة لتأكيد ذلك ، ولكن نحن نرجع فقط إلى الآسانيد التى تُؤيد أن النبي ﷺ قد قَبَّل الحجر الأسود . وكان الحبيب المصطفى يؤم الصلاة من الحطيم .. ويعد مكان السجدة ، هناك إشارة على يمين هذه الصخرة السجَّادة الخضراء لقراءة الفاتحة على روح أم الأنبياء أُمنا هاجر . والكل يقرأ الفاتحة ويدعو عندما يرى هذه الأمارة . ويستفاد مما يروى عن عائشة الكبرى ، وعائشة الصدِّيقة ﵄ أنهما سألتا رسول الله ﷺ بما معناه ، هل مكان الدعاء ، ومكان السجدة التى يُرمز له بالحجر الأخضر .. هل يرمز إلى شيئ ما .. فتفضل عليه السلام قائلاً إن السيدة هاجر أُم الأنبياء مدفونة هنا فى هذا المقام .. وهذا مثبت بما روى عن أم المؤمنين خديجة ، والسيدة عائشة ﵄ . وأن جميع أهل مكة من آصحاب الكتب المعتبرة يشهدون بذلك . ومِنْ بين الأحجار التى كان يجلها الرسول ﷺ فى مكة كان الحجر الأسود ، والملتزم الذى يقع ما بين الحجر الأسود ، وباب البيت الشريف . وقد كان فى زمن الجاهلية ، في الوقت الذى لم يكن فيه قضاء ، أو حَكَمْ . كانا المدعى ، والمدعى عليه يأتيان إلى هذا المقام ، ويضعان أيديهما على حجر الملتزم هذا .. فإن كان ظالماً ، كان يرتعد ، ولا يضع يده على الحجر ، وإذا تجرأ ، ووضع يده ، وهو ظالم ، كان يهلك فوراً . أما المظلوم فكان يجد الخلاص ، والبراءة . وفى هذاالمقام ؛ يُقبل دعاء الخير ، ودعاء الشر .. ومَنْ يلمسه ، أو يرفع يده ويحلف كذباً ، فيرى العقاب فوراً . ومما يجد الإعتبار ، والإحترام من قِبل حضرة شفيع المؤمنين هو ذلك المكان المسمى « معجنه » وهو منخفض صغير بالقرب من باب البيت الحرام = الكعبة وبالقرب من الركن العراقي ، ويسمونه أيضاً مقام جبريل .. ففى هذا المقام الشريف وبينما كان الخليل ابراهيم يبنى بيت الله الحرام كانت تطأ قدماه الطاهرة هذا المقام ، وكان يخمِّر فيه التراب العنبري ، والطين المسكي الذى يبنى منه البيت العتيق .. ولهذا أطلقوا عليه المعجنة . ومن السنة المؤكدة صلاة ركعتين فى هذا المقام . وهو منخفض صغير مربع الشكل . وداخل مقام المعجنة هذا ، وآعلى من حجر أساس البيت الشريف بذراعين ، وعلى حجر جميل أزرق اللون مكتوب بالخط الجلي ، العبارة التالية :

(أُمر بتجديده ايّام مولانا السَّلطان قيتباى مدَّ ظله) وهنا ؛ تتم أَوْصاف ، وأشكال مكة المكرمة .

* * *

في بيان
أسماء بيت الله الحرام

إن أسماء الكعبة الشريفة مسجلة ، ومسطورة في جميع التواريخ ، والكتب المعتمدة ، وكثير من السِيَر .. ومما أصبح معلوماً لدينا أن أصحاب البلاغة ، والفصاحة قد سطروا في كتبهم ، وآبانوا في سجلاتهم الأسماء الشريفة لأشرف بيت قد وُضِع للناس ؛ أولاً ؛ اسمه القديم ، بيت الله ، ومكة المكرمة ، والبيت الشريف ، والكعبة الشريفة .. والبيت الحرام ، ومكة الشريفة ، والبلد ، والقري . و Auruz ومعطّشة ، وفاران ، ومقّدسة ، وقاوس ، وقرية النمل ، وجبابذه ، والخطيم والوادى ، والحرم ، والعرش ، وبرره ، وصلاح ، وفطام ، وزبحه وطيِّبه ، وناسه ، وبيت ميعاد . وقد ذكر ابن عبَّاس ﷺ في تفسيره لكلمة « معاد » أنها المراد . في الآية الكريمة التي نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (*) فالمقصود والمراد هنا هو مكه . وغير ذلك ؛ فمن المعروف أن الفيروز آبادى رحمة الله عليه ، وقد ألَّف رسالة لآسماء مكة المكرمة ؛ وقد جمع فيها ثلاثمائة وسبعين اسماً لمكة المكرمة . ولكن خير ما يقال أن المصطفى ﷺ ، كان يُعبر عنه بالمسجد الحرام ، حيث تفضل بالقول :

(قال عليه السلام ؛ صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . .) . وهذا حديث صحيح ، وغيره قد ذُكِر مئات الآحاديث الشريفه ، ورواها الرواة عن البخارى ومسلم ، كما أن هناك المئات من الآيات التى تذكرها صريحة أو تلميحاً إليها مثال . . (. . ببكة مباركاً وهدى للعالمين . .) وكثير غيرها من الآيات المحكمات .

* * *

(*) سورة القصص : آية ٨٥ .

فى بيان المقامات
والأبنية الموقرة التي داخل الحرم الشريف
وعلى الجوانب الأربعة للبيت العتيق

أولاً ، يطلق المسلمون علي وادي الحرم الذي يطوف فيه الحجاج المسلمون حول البيت المشرف "الوادى الابيض" فهو عبارة عن ساحة مفروشة بالرخام الابيض المجلي . وهى ضمن الحرم الشريف الكبير ، وهو يحيط بالبيت العتيق من الجوانب الاربعة ، ويحتوى الكعبة ، والحطيم الشريف ، يحيط بالمكان ثلاثة وأربعون عموداً من النحاس الأصفر إلا إثنين فقط فهما من الرخام المصنَّع البديع . وهذه الآعمدة النحاسية هى من مآثر السلطان سليمان خان القانوني ، كل عمود بطول ثلاثة رجال ، وهي من النحاس المصقول . وقد سمعت من قوزى على آغا صاحب الركاب بأن السلطان سليمان خان قد كلَّف الطواشي سليمان باشا بتصنيع الإحدى والأربعين عموداً هذه من نحاس مصر ، وكانت مدافعاً معَّدة لحرب اليمن ، ولكن سليمان خان انشغل بحروب أنغروس ، ولم يتوجه إلي اليمن ، وتمكن سليمان باشا من فتح اليمن والكثير من مدن الهند مثل دو آباد ، وأحمد آباد ، وعدد من النبادر والمراكز بمئتي قطعة من السفن التى أبحرت من بحر السويس . وقد ظل يُقاتل ويناضل لمدة ستة أشهر كاملة، حتي تمكن من استخلاص هذه المناطق من أيدى البرتغاليين الكفرة ، وضمها إلى ممتلكات آل عثمان وتمكن من أسر تسع آلاف من البرتغاليين ، واستولي علي إحدى وأربعين سفينة منهم ، وترك فى قلاع المدن ، والبنادر المفتوحة العديد من الأبطال الصناديد من جند آل عثمان ؛ وأرسل سليمان باشا بالرسل والمبشرين إلى السلطان سليمان خان يبشره بهذه الفتوحات .. وبعد العرض علي حضرة الشهريار ، أرسل إليه خطاً شريفاً مفاده (ياسليمان باشا أنت قَربيَ ، فاقم فى القلاع المتينة التى فتحتها جامعاً .. واقطع = اضرب السكة فى كل القلاع التى فتحتها باسم سليمان ، ولتقرأ في بلاد الهند الخطبة باسمى ، وارسل من السكة المضروبة لخزينتي ، وخزينة الدولة.. وسلِّم زمام القلاع التى فتحتها في الهند لآخى الخاقان.. وليحضر بكل الحب ، والإحترام إلي آعتاب دولتنا ..) وما أن وصلت هذه الآخبار إلى سليمان باشا حتى قال (الأمر والطاعة ، فالأمر امركم) وأمر على الفور بسك العملة ، وقراءة الخطبة باسم

آل عثمان ؛ ووهب القلاع التى فتحها فى الهند إلى سلطانها .. وعاد من الهند منصوراً ، ومظفراً ، ومحملاً بأموال فرعون "قارون" . وقام ايضاً بفتح سبع مرافئ في اليمن .. وربطها ببندر جده بالإسطول الهمايوني . ثم عاد إلى جده مظفراً ، ومعه السفن التى غنمها من الكفار ، مع آموال فرعون = "قارون" التى لا حصر ولا عد لها .. ثم توجه منها إلى مكة المكرمة ، وقام باداء فريضة الحج ، وقام بنصب المدافع النحاسية التى استخدمها في هذه الحرب لتكون زينة فى المسجد الحرام .. فرفعها فى جوانبه الأربعة . أو أنه نصبهم من أجل المصلحة .. وهم ليسوا بأعمدة – هذا ما تفضل به وذكره المرحوم قوزى على آغا . والحمد لله أن تيسرلى رؤيتها بعد أربعين سنة . وحقيقة الحال ، فجميعها مدافع نحاسية شاهية . لا تعلوها أي أبنية .. قواعدها مثبتة على منصات من الرخام ، وفوهاتها إلى آعلا .. ولكن لما كانت الفوهات مسدودة فلا يستطيع الفرد مهما بلغ من الإدراك أن يدرك أنها مدافع .. وهذه الآعمدة المنصوبة متصلة ببعضها البعض بأذرع حديدية فى سماكة ذراع الرجل .. وبتناسق فإن ما بين كل عمود وآخر خمس خطوات متساوية وعلى كل عمود قد نُقش عَلَم مُذَهب .. وقد زينت الآعمدة بالقناديل .. وكل الحجاج المسلمون يطوفون من داخل هذه الآعمدة النحاسية . وهم حدود الطواف . ولا يكون الطواف من خارجها ؛ لإن هذه الآعمدة قد أُقيمت علي آخر حدود قد سارت فيها قدمي الحبيب المصطفي أثناء الطواف .. وما بين هذه الآعمدة ، والكعبة المشرفة مفروشة بالرخام الأبيض .. وما عدا ذلك ، فليست الأرضية مفروشة أو مكسوة بالرخام . بل هى مكسوة او مصبوبة بقطع من الصخر الأسود . والرصيف ليس مكسواً كذلك ، بل مفروش بالحصى ... ولا يتمكن الإنسان من السير عليه بهدوء وسكينة . وهذه الآحجار الصغيرة ، والحصى هى كما هى ، وظلت على ما هى عليه منذ أن بنى الخليل ابراهيم البيت الحرام ... وقد تركها القائمون على المسجد تبركاً ، ويكتفون بتطهيرها .. ولحكمة إلاهية ، فلهذا أيضاً فائدة فلو فرشت أرضية الحرم فى أماكن الطواف كلها بالرخام الأبيض ، فإن الآماكن المفروشه لا يمكن السير عليها ، والطواف منها لشدة الحرارة فالآحجار تخفض الحرارة ، ويمكن الطواف فى هدوء وسكينة فى فترات القيظ . ولكن البيت الكبير ؛ أولاً من الكعبة المشرفة وحتى باب الصفا ، وبعرض ثلاثة أذرع مكسوة بالرخام الخام الطبيعي ، ومثل هذا حتى باب

البسيطية ، وآخر حتى باب الزيادية ، وثالث حتى باب السلام ، وما عدا ذلك فمفروش أى مصبوب بقطع حجرية . ومن بين الأبنية المقامة داخل الحرم الكبير المقام الحنفى .. وما بين البيت العتيق والمقام الحنفى خمسين خطوة ، وهو محفل عالٍ كالقصر ، يُصعد إليه بسلالم حجرية ، مقامة على آعمدة موزونة . وعلى جوانبه الأربعة حواف ، وكأنها شبكة مصنوعة من الرخام الأبيض الخام ، وعلى جوانبه الأربعة أيضاً طاقات = وتيجان مقامة على أعمدة بيضاء . وعليها نقوش بديعة خطت بأنامل بهزاد ماني . والثقف عبارة عن قباب مغطاة بطبقة فضية . ويمكن أن يؤدى الآذان منها عشرون مؤذناً حنفياً .. هى كالقصر العالي عظيم التهوية . وقد قام العبد الحقير بختم القرآن فى هذه المقصورة .. وتلوت دعاءاً طويلاً من البحر الطويل وقد آصغى آلاف الحجاج لهذا الدعاء فى احترام وسكينة ... وكانت تهتز الأرجاء عندما تتردد من أفواههم "آمين" وآهدينا آلاف ومئات الآلاف من الأدعية لولي النعم، وذوى القربي من الوالدين والآقارب ، والأساتذة الأفاضل .. وإلى روح المغفور له ملك أحمد باشا ، وإلى روح الدفتردار زاده محمد باشا ، وسيدي أحمد باشا وجا نبولا طزاده مصطفى باشا ، وإلى روح القبطان = قبودان حسن باشا والمولوي محمد باشا ، ودرويش محمد باشا ، وسياوش باشا ، وفضلى باشا ، والسردار على باشا .. والحاصل توجهت بالدعاء إلى كل الوزراء والمعارف ، والذين تشرفت بمعرفتهم عند الغزو ، وفى الغزوات التى حضرتها .. وتذكرت أرواح كل الشهداء .. فدعوت لهم، ووهبت حصة من ثواب ختم القرآن الذى أتممته إلى أرواح سادتنا والذين عملوا لرفعة ديننا .. وكان الحجاج جميعاً يؤمنون ، مرددين آمين ... آمين .. وناحية الزاوية التى يطل عليها المنبر الشريف لهذا المحفل الحنفى ، نقرأ هذا التأريخ :

داورى جم عظمت خان محمد يعنى
عدل داديله اديانديردى ملوك سيفى
ديدى تاريخك آنك أهل مدينه كورجك
قاتى آعلا كَوزك اولدى بو مقام حنفي
"سنة ١٠٦٣" (*)

(*) الترجمة : «السلطان محمد خان هو ملك ملوك العظمة =

وعلي يمين هذا المقام الحنفي ، يقع مقام الإمام مالك ، وهو في مواجهة الركن اليماني . . . وهو قصر تحتانى ، وليس بمرتفع . له ثقف منقوش ، مقام على عمدان . يُقيم به مؤذنوا المذهب المالكي . يقيم أئمتهم الصلوات فيما بين الركن اليماني والركن الشامي . والناس يقتدون بهم ، وعلي يمينه ، وفي مقابلة = مواجهة الحجر الأسود مقام إمام المسجد الحرام وهو بدوره مقصورة خفيضة الإرتفاع ، ويقيم فيها سائر المؤذنين ويقيم الأئمة إمامتهم عند الحجر الأسود . . وجماعاتهم من بني البشر ذوى السحنة السوداء . وهذا المقام أيضاً له سقف مقام على اعمدة والسقف منقوش، والقبة مغطاة بالرصاص . . وداخل هذا المحفل يسكن الآغوات الطواشية خدَّام البيت الشريف ، وهم يتجاوزون المائتين ، وهم من الآغوات الطواشية السمر السحنة ؛ ومعظمهم ؛ الواحد منهم خدم مابين ثلاثين أو أربعين سنة فى الآعتاب العثمانية ، وحصلوا على الصيت والسمعة الطيبة . . وكان يُطلق سراحهم ، ويسعدون بالخدمة في بيت الله الحرام . وعلىٰ الجانب الأيمن من مقام الإمام هذا ، وعلى مسافة ثلاث خطوات ، نلحظ القصير العالي لبئر زمزم . وفوقه بناء عال هو مقام الامام الشافعي . وهو يقع فوق ماء زمزم تماماً ، وأكثر علواً من سائر الأبنية ، وهو محفل الرسول ﷺ كان عليه الصلاه والسلام يتعبد دائماً فى هذا المكان ، وهو متوجه نحو مقام ابراهيم الخليل . ويُصعد إليه بسلالم ، هو قصر لطيف . ومكان عبادة محبب إلى النفس . . مقام فوق أعمدة متناسقة ، ومنقوش بزخارف ومذهَّبات بديعة الصنع ، والألوان . وجميع مؤذنو الشافعيه يؤذنون ويقيمون صلواتهم فيه . وكان الإمام الشافعي يُقيم إمامته فى مكان المعجنة السابق ذكره . . وكان فى البداية أولاد بلال الحبشى قد شرعوا فى الآذان من هذا المقام . . كما كان اتباع المذهب الشافعى يقيمون الصلاة فيه ، وأعقبه في ذلك الامام الحنفي ، ثم الإمام المالكي ثم من بعدهم الإمام احمد بن حنبل كان يُقيم الصلوات هنا فى هذا المقام . ولما كان هذا المقام الشافعي مُقام فوق مياه زمزم ،

= ايقظ بعدله سيف الملوك
قال لاهل المدينة فليرى التاريخ
فاعلى أدواره ، واضحى جميلاً هذا المقام الحنفي
سنة ١٠٦٣ هـ»

ففيه ثقب ، أو فتحة ، يتدلي منها دائماً دلو .. ومَنْ تاقت نفسه للشرب من ماء زمزم فما عليه إلا أن يُدلي بالدلو إلى بئر زمزم ، ثم يسحب الدلو مملوءاً ويشرب .. وجماعة الصلاة فى هذا المقام مكتظة ، وهذا الحكمة من حكم المولىٰ . . .

* * *

أوصاف عين الجنة ،بئر مياه زمزم:

تقع عين الجنة هذه داخل بناء مربع الشكل تحت المقام الشافعي المذكور . . . على الجوانب الأربعة ، أربع نوافذ ، اثنان يطلان على بيت الله الحرام ، والآخران يُطلان علي المنبر الشريف . للبناء باب ، يقع داخل الحرم الكبير ، مفتوح ناحية الشرق ، له ضلفتان . . . ولكنه باب صغير . وفوق كنار هذا الباب ، مكتوب بالخط الجلي الجميل، وبماء الذهب هذا التاريخ :

(سلطان البرين وخاقان البحرين قلت تاريخه بلفظ قد بنى الزمزم محمد خان سنة ١٠٨٣) .

بينما أن السلطان محمد الرابع ، كان قد جدد باب السعادة هذا ، وأمر بتسطير هذا التاريخ . وبئر زمزم يقع في وسط هذا البناء العالي . وعلى فوهه البئر ، فم من الرخام الأبيض فى قد الرجل ، ويحيط به أو محيط البئر يحيط به إثنا عشر رجلاً . .
وحول فوهه البئر سوار من الحديد دائراً ما دار ، ولأن الناس تسحب منه يومياً مئات الآلاف من دلاء الماء نهاراً وليلاً منذ أن كان . ولو لم يكن من الحديد هكذا لتفتت فوهة البئر . ومنذ أن عُرِف وقد وضعوا على فوهة البئر هذا الحديد . . . ويقف أربعة رجال شداد فوق الفوهه ، وعن طريق البكرات الموجودة فى جهاتها الأربع يسحبون الدلاء . . وهكذا ليلاً ، ونهاراً يدب العمل والحركة لإخراج ماء زمزم لسقاية حجاج بيت الله الحرام . والحجاج أيضاً يشربون من ماء زمزم حتى يذهب الظمأ . . ويتلون هذا الدعاء وهم يشربونه :

(اللهم أرزقنى علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل شيء . . ومن خشيتك . .)
ويشربون بنية صفاء القلب والشفاء من كل داء ، ودفع العطش ، وبعدها يصبون الماء

من أعلي رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم .. وفوراً تجف ملابسهم من شدة الحر ، وطوال الليل والنهار ، وفى الصبح والمساء ، ولعدة مرات تملئ مئات الآلاف من القرب، والجرار، والزمزميات ، ومختلف الأواني المتعددة الأشكال ، والأحجام .
ويقف أربعون نفراً من الاشداء وقد خضبوا أيديهم ، وأرجلهم بالحناء ، ويتبادلون سحب المياه ، فى كل نوبة أربعة منهم ؛ فلا يمكن أن يتحمل أربعة أنفار فقط سحب المياه طوال الوقت ، ولذلك فهم يتناوبون على العمل ليلاً ، ونهاراً . ولحكمة إلاهيه..
فآلاف الآلاف من الدلاء تُسحب صبحاً ، ومساءاً ولا ينقص الماء قط بقدر قطرة واحدة . إنه حقا ماء ذلال ، باعث للحيوية والنشاط . فيه شفاء لكثير من الآلام..
ولا تساويه مياه الدنيا فى لذته . ومَنْ يحتسيه فكأن رأسه . ودماغه قد شُحِن بالمسك والعنبر .. ولو شرب منه المرء عشرات المرات ، أو عشرات الأوقيات فلا يُصيبه أي ضرر علي الإطلاق ... وأذا كانت مياه الدنيا كلها تخلو من الرائحة ، ففى الصباح الباكر تشم منه رائحة الورد ، وما أن نصل إلى وقت الظهر ، ومنه إلى وقت العصر ؛ حتى تسوده رائحة البنفسج .. وحتى وقت الغروب تتنسم منه رائحة الياسمين وحتى وقت العشاء تتصاعد منه رائحة الهندباء . وحتى أنا العبد الحقير تسللت دون علم الرقباء ، فى وقت الشفع .. فرأيت الماء ينساب كالذبد .. فشربت منه ، فكان فى لذه اللبن الحليب.. وفاحت رائحته الزكية فعطرت دماغى .
وهم يملئون القماقم ، والضرب ، ويحضرونها هدية ، وتبركاً إلى كل بلدان العالم الإسلامي . وفى العديد من المرات يحضرونها إلى الآلاف من الولايات . وهذا الماء الطاهر مفيد جداً لمنْ هم من ذوى الطبيعة البلغمية ، ومعتدل للإنسان الصفراوي ، ولو شرب بمقدار محدد لبعض الطبائع ، فتُشاهد فوائده ، ونفعه . ولكن ، كأي فإن الإفراط فى الاستعمال يخلو من الفائدة . ولكن ماء زمزم يشفى بأمر الله من الداء الذى شرب بنية الشفاء منه . وخلاصة الكلام ماء زمزم لما شرب له . أي أنه شفاء لكل داء . حتى أن بعض بلغاء الشعراء زار الكعبة ، وهو محطم الخاطر ، فشرب من ماء زمزم ، فوجد فيها الشفاء . فترنم بهذه المقطوعة :

(يقولون ليلى بالعراق مريضة

فياليتنى كنت الطبيب المداويا

عليَّ إذا لاقيت ليلى بخلوة

زيارة بيت الله برجلاى حافيا)

حقاً ؛ لو شرب منها الإنسان باعتقاد ، وعقيدة صادقة ، فلابد من أن يجد فيه الشفاء ؛ لإن مياه زمزم هى معجزة سيدنا اسماعيل . وقد كُتب فى ذلك الكثير والكثير من الأقوال ، ولكن القول الفصل هو :

فى وصف طلوع ماء زمزم:

إن سيدنا ابراهيم ، بينما كان إبنه اسماعيل ما زال فى المهد ، انشغل ببعض الأمور، وترك أمنا السيدة هاجر مع ولدها اسماعيل ، وسافر بتكليف إلهى إلى مكان آخر ، إستبد العطش بسيدنا إسماعيل ، فأخذ يضرب الأرض بقدماه .. بينما أُمه تهرول بين الصفا والمروة بحثاً عن قطرة ماء . وما أن عادت حتى رأت البلل يبدو تحت قدمي وليدها .. ثم ظهرت عينا ماء تحت قدميه .. ولما رأى « بنى جرهم» وهم من العبرانيين هاتين العينين ، قالوا لهما بالعبرية « Jem Jem » وعُرِّبت إلى زمزم ولكن القول الأرجح هو أن حضرة اسماعيل ، وهو ما زال فى المهد صبيا ، كان مستريحاً فوق الأرض ، فاستغرق فى النوم .. وبينما الآحلام تداعب خلده ، آخذ يلعب برجليه الكريمتين .. وكلما أُصطدمت قدماه بالأرض وهو يداعبها .. ظهرت عينا ماء بأمر الله.. وسالت المياه حوله ، وكادت أن تُغرقه ، فبدأ اسماعيل فى الصراخ ، والبكاء ، وكانت السيدة هاجر فى هذه الآثناء تهرول بين جبلي الصفا والمروة بحثاً عن الماء فلما سمعت الصوت ، هرولت نحو وليدها .. وما أن وصلت .. فماذا رأت ؛ اسماعيل يكاد يغرق فى الماء .. فهرعت لنجدة فلذة كبدها .. وأخذته فى آحضانها .. وحمدت الله آلاف المرات على ظهور الماء .. فشربت أُمنا هاجر .. وقالت باللسان العبري بدلاً من كلمتى الحمد لله « زمزم » . وها هو دعاء أُمنا هاجر ، زوجة ابراهيم ، يعنى أُم حضرة اسماعيل ؛ وهو باللغة العبرانية :

(حابان حوژايژ زمژم ژولو بنها ژوم بدژ ژوژ اژلم ژق ژطژا ژيداژ دوسان فلو اژا حوژ ريواژى) .

وأكملت دعائها قائلة :

(ژباش نداژ طوژ مژا ژلم ژلم ژيدايژ قلم ژبا براژ فر فلار ژيبا) .

وخلاصة معنى الدعاء العبري . . « ياإلهى امنح الجمال لطائفة النسوة اللائى يشربن منه ، واجعلهن محبوبات ، واشمل برحمتك كل الخلايق العجزة ، وأمنح مَنْ يشرب منه من أبنائي تاج النبوة ، واشملنا برحمتك وامنح به الشفاء من كل داء » .

حقاً . . إن ماء زمزم مفيد جداً لطائفة النسوة ، ويجعلهن محبوبات جداً ، وجملة من يشربن منه يتصفن بحسن الخَلْق ، والخُلُق . وهن مشهورات بذلك فى العالم ، ومَنْ يشرب منه ؛ فكأنه تناول من مختلف الأطعمة ، فماء زمزم يدفع الجوع ، كما يذهب العطش ، يقوى الجسد ولقد آحاطت أُمنا هاجر جوانبه الأربعة بالتراب ، فصار كالخليج .

ويقول بعض المؤرخين ، أنه عندما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا ابراهيم ببناء البيت العتيق . . فكر الخليل أن التراب يلزمه الماء . ولهذا آجرى الله سبحانه وتعالى ماء زمزم بالكيفية السابقة حتى يتمكن الخليل ابراهيم من خلط التراب بالماء ، ويتمكن من البناء . ومن هنا كانت المعانى المتعددة للآية الكريمة ﴿ . .**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (*) . ولتحقيق هذا فى هذه البقعة المقدسة ، آجرى الله سبحانه ماء زمزم . . . ويقولون ، والعهدة على الراوي ؛ أن الرسول الكريم قال ﷺ . . رحم الله أم اسماعيل لو تركت ماء زمزم لكانت جارية . . وعلى الجانب الأيمن من ماء زمزم ، وبجانب الجدار الخارجي ، يوجد سلم متصل بالبيت الشريف . . وتصل منه إلى مقدمة البيت الشريف . . وجميع الحجاج ، يصعدون منه ، ويدخلون البيت الشريف . وعلى الجانب الأيمن من هذا السلم يوجد باب السلام العتيق .

* * *

(*) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

باب السلام العتيق:

إن باب السلام هو الباب القائم فى الحرم الشريف ، ولم تحدث فيه أية توسعات ، وتدور حوله فى الحرم الأعمدة النحاسية التى سبق الحديث عنها . وللآن فإن باب السلام هو قوس عالٍ ، وكأنه كمر إيوان . وهو كقصر بجوار بئر مياه زمزم . وعلى جانب آخر منبر رسول الله ، أما الجانب الأيمن من باب السلام فهو غير متصل بأي مكان . هو عبارة عن كتله من الرخام الأبيض الخام وسط الحرم الشريف ، هو منبر متقن الصنع بحيث لا يوجد له مثيل فى الممالك الإسلامية ، هو منبر متقن الصنع بحيث لا يوجد له مثيل فى الممالك الإسلامية ؛ ويعجز اللسان عن وصفه . وقبة المنبر قطعة فنية من يراها لا يملك نفسه من ترديد عبارة سبحان الله . حقا إنه منبر لا مثيل ولا نظير له ، وفى كل يوم جمعه يزينون حول مقام الخطيب بالرايات ، والبيارق ، والأعلام الخضراء .. وبعد أن ينادى على الصلاة ، وتطلق الصلوات على النبى « ﷺ » مرتين من المنارات السبع ، فإن خدَّام الحرم الشريف جميعاً ، يلتفون حول الخطيب مصاحبين له منذ أن يخرج من قبة قدم النبى وهم يطلقون التوحيد الإلهى .. ويسير الخطيب بكامل الوقار ، والأبهة ، وقد تدثر بالرداء المحمدى ، وفى يده سيف لامع ، يتقدم على مهل ، وأمامه العلم النبوى الشريف .. وحملة العلم يسيرون وهم يوحدون ، ويصلون على النبى ، ويدعون للخلفاء الراشدين ، ويفردون سجادة الإمام أمام المنبر ، فيتلى الآذان المحمدي وينطلق جميع المؤذنين فى نفس واحد ، من مقصورة ماء زمزم مرددين (اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، وسلم) . وهم يطلقون تصلية بلال الحبشى ، وأولاده ﷺ أجمعين . وبعدها ، يصعد الخطيب وفى يده السيف القاطع إلى المنبر . ويقدم خطبته . وبعد أن يتمها ؛ أولاً ؛ يحمد البارى ويشكره على نعمه ، وثانياً ؛ يُصلى على المصطفى صاحب الرسالة ، وثالثاً ؛ الدعاء للخلفاء الراشدين الأربعة ، ورابعاً ؛ يدعو لآل عثمان ، وخادم الحرمين الشريفين مولانا ملك العرب والعجم السلطان ابن السلطان الغازى محمد خان الرابع ، فاتح بلاد الأيوار وفاتح كج كيوار ، وفاتح جزيرة إكريت ، وفاتح بلاد الأردل ، وفاتح پانووا وفاتح وارات ، ويصل حتى سليم الأول فاتح مصر وموقف خيراتها على الحرمين الشريفيين ، وبلاد الحجاز .. وهكذا ، يتدرج فى ذكر سلاطين آل عثمان فيعرف بكل سلطان ومآثره ، بحيث أن المستمع يعرف من هم سلاطين آل عثمان ، ويركز على شوكة ،

وسطوة آل عثمان الذين يسروا الحج ، وسيروا المحمل ، ومكنوا سبعين ألف حاج من التجمع ، والوقوف فى عرفات وبحيث يحيط المستمع بقوة ونفوذ آل عثمان ، وخدماتهم لدين الإسلام . ثم ينزل الخطيب من على المنبر ، ويؤدى ركعتى صلاة الجمعة ويتم التوحيد ، والتسبيح الأكبر بجوار المنبر . وبعد ذلك يشرع بعض الحجاج فى الطواف . ولا تؤدى صلاة الجمعة فى أي مكان فى مدينة مكة المكرمة إلا في الحرم المكي الشريف ، ويتوافد عباد الله عليه مبكرين بحيث يمتلئ الحرم بأفواج ، وأمواج المصلين . وآمواج آخرى تلتف وبحيث يصير الحرم وسطهم .. ولما كانت لا تجوز الصلاة وجهاً لوجه ، إلا أنهم فى هذا الحرم الشريف ، وبعد أن يلتفون حوله فيصبحون فى حلقات تواجه بعضها البعض . وهدفهم ، ومرادهم جميعاً هو السجود فى الحرم .. إنه منظر رائع ، وعجيب ، ومكان عبادة يُؤثر النفوس المؤمنة . ويبعد هذا المنبر عن البيت الشريف = الكعبة بعشرين خطوة ... وفيما بين المنبر وماء زمزم وإلي الأمام :

* * *

مقام حضرة ابراهيم:

يعنى البيت الذى كان يُقيم فيه سيدنا ابراهيم قبل أن يبنى الكعبة الشريفة . ولقد كان الخليل ابراهيم يسكن فيما بين قبيلة بنى جرهم . وقد سكن هذا المكان ومن هنا يسمونه مقام ابراهيم . مقصورة أو قصر مربع . تُحيطه شبكة نحاسية ، والمقام مغطى بالرصاص .. وعلى الجانب الشرقى يطل باب لطيف يسمح بالسير ، وأمام هذا الباب يوجد دلهيز = دهليز ، مقام فوق عمود لطيف ، وقبته عبارة عن لوحة فنية ، نقوش السقف فيها بوكالمون ، زخارفها من الذهب . أعمالها الفنية بديعة الصنع ، ونموذج رائع للفن الإسلامي بوباتها .. أي ألوانها زرقاء ، وحمراء ، على مينا مختلفة .. وكأن كبار الفنانين ؛ ولى جان . وبهزاد ، وآغارضا قد تركوا أقلامهم ، وفرغوا منها فوراً . ولقد أمر السلطان ابراهيم خان بتجديد وترميم مقام الخليل ابراهيم هذا ، وجعله منبعاً للسحر والإبداع . وعليه تأريخ ولكن لم أتمكن من تحريره ؛ ولم يتيسر الوقت بعد ذلك ، لذلك ، وداخل مقام ابراهيم هذا صندوق مربع مغلف بالذهب .. ومنقوش عليه نقوش بديعة ، مَنْ يراها يظنها نقوش صينية . وهذا

أيضاً قد أُحضر من قصر يوسف فى مصر ، وقد أحضره أمير الحاج وصندوق مقام ابراهيم تغطيه ستائر وهو من خيرات السلطان أحمد خان .. مذهب بسبع أوقيات من الذهب ، وكذا بسبع اوقيات من الفضة الخالصة ، وقنطارين من الحرير الطبيعي ، وقد نُسجت جميعها طبقة فوق طبقة .. وطُرِّزت بنقوش غاية فى الإبداع ، والتزيين . وعلى جانب منها ؛ نقرأ :

(لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله) . وداخل كتابة اخرى ، نقرأ الآية : (.. **مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**) [1] .

هذه الكتابات كلها بالخط المذهب ، وكلها مسطورة فوق حرير اسود وقد نقشت بالصيرمة . وداخل صندوق يوجد آثار القدمين الشريفين لسيدنا ابراهيم . وعليهما ماء الورد ، أو تفوح منهما رائحة ماء الورد موجة إثر موجة .. وجملة الزوَّار يدخلون هذه القبة ، ويمرغون وجوههم بماء الورد هذا .. ويتلون دعواتهم فى همس ، وخفوت..

إن كل هذه الأبنية المذكورة تقع داخل الحرم الكبير وعلى الجوانب الأربعة للبيت الشريف . وأمام باب بئر ماء زمزم ، وفي الناحية الشرقية ، وعلى بعد ثمان خطوات فقط ، يوجد مقام .. قدم النبي ..

* * *

مقام قدم النبي :

قبة عالية ، بيضاء ، مقَامةَ فوق جدار مربع الزوايا . ليست مغطاة بالرصاص ، بل مدهونة بالجير الأبيض .. داخل هذه القبة محراب مختصر . على يساره ، وداخل دولاب مربع الشكل ، يوجد صندوق ، داخله أثر القدم للنبي المصطفى ، وقد وضح فوق حجر أسود ومن تجاويف القدمين الشريفين يَنبثق ماد الورد بروائحه الزكية . وجملة الحجيج يمرغون وجوههم ، فتشع وجوههم بالنور . وداخل هذه القبة هبات من المئات من آصحاب الخيرات عبارة عن فوانيس ، وقناديل مذهبة ، ومطلية .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٥ .

وشماعد ، ومباخر ، ومزاهر لماء الورد .. وبحيث صارت أكواماً .. أكواماً .. كما توجد شمعدانات مزدانة بالجواهر ، وقناديل وثريات من الفضة الخالصة . والله وحده هو الذى يعرف حسابها . كما يوجد العديد من الفوانيس التى جاء كل منها من بلد ما كهدية ، وكلها فوانيس رائعة فخيمة .. يقوم خدَّام الحرم كل ليله بإشعالها بالشمع الكافوري ، فيزدان الحرم بنورها ، وتزدان هى بوجودها داخل الحرم . وقبة قدم النبى هذه لها باب مكشوف أى مطل على الشمال داخل الحرم . وعلى بعد عشر خطوات ، وعلى شمال هذه القبة توجد قبة آخرى .

هى قبة منخفضة ، مبيضة أى مدهونة بالجير ، تُستخدم كمخزن للزيت ، ولهذا فهى دائماً مغلقة ، ومهما كان عدد القناديل . والأسرجه داخل الحرم الشريف ، وداخل مدينة مكة كلها ، فجميعها تُسرج ، أى تأخذ زينتها من هذه القبة ، وتُنير المسجد الحرام . وعلى الجوانب الأربعة لهذه القبة توجد الآلاف من أكواب الماء من أجل ماء زمزم . والعديد من الدوارق ، ويسمونها ذورق الصفا . تُملئ بماء زمزم ، وتوضع فى مهب الريح ، وما أن يلمسها ، ويداعبها الهواء حتى تتحول إلي قطع من الثلج ، وآلاف الدوارق عبارة عن أكواب ذات فوهات ، وكل واحدة منها من عطايا آصحاب الخيرات . وقد حررت بالخط الأحمر فوقها أسماء الواهب لها وما أن تُكسر إحداها حتى توضع الاخرى فوراً وآصحاب هذه الخيرات يبعثون بها ، أو يحضرونها مع الصرة والعطايا التى تُقدم للحرمين الشريفين من شتى بقاع العالم الإسلامي .. ويقوم الواقف ، أو الواهب بملئ هذه الأكواب ، والدوارق وتقديمها لحجاج الله المسلمين.. إنها ضمن الخيرات ، والصدقات الكثيرة المستترة . وليكن معلوماً لإخوان الصفاء ، أنه ليس هناك داخل الحرم ، عدا المبانى والمقصورات التى سبق ذكرها ، سوى هذه الآكواب والدوارق. ولكن على جوانب الحرم الشريف الأربعة الكثير من المدارس، فهى بالمئات . وجميع نوافذها تفتح ، وتطل على الحرم الشريف، والكعبة المشرفة . وكل شخص يقتدي بأئمة المذاهب الأربعة ، وهم فى دورهم . والدور ، والمنازل ، والمدارس طوابق ، وأدوار تعلو بعضها بعضاً . ولكن من باب داوود حتى الوصول إلي باب السلام وبمحاذاة جدار الحرم طريق عام رئيسي . ومن باب الصفا ، وضواحيه ، وما بين الصفا ، والمروة يقع السوق السلطانى = الرئيسي . وفى هذا الطرف لا توجد أي مدارس عدا مدارس ، وخانات ، ودور أمير الحج المصري .

أوصاف فتح مكة المكرمة
بيدي حضرة سيد الكونين ورسول
الثقلين، وشفيع من فى الدارين ﷺ

إن أوصاف البيت الشريف التى حررناها هي مسطورة في كتب التاريخ ، وتتناول البيت العتيق منذ هبوط آدم عليه السلام ، وما بعده . وتتناول ما دارحول البيت المعمور من حروب ، وجدال ، ونضال للتمكن منه ، والسيطرة عليه . فكل ذلك تُسجله كتب التاريخ . ولكن ما أُسجله هنا ؛ أن حضرة صاحب النبوة فى السنة السابعة عشر من الهجرة إلي المدينة ، قاد بذاته الطاهرة من طيبة الطيبة ، أربعة وسبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار وحاصر مكة المكرمة .. وفتحها عنوة ، وبقوة ساعديه من المنكرين ومشركي قريش ، وغنم كل أموالهم . وكل كتب المآثر الإسلامية تتحدث بالتفصيل عن هذا الفتح المبين ، الذى شرف المسلمين ، ورفع راية الإسلام . وما أن دخل الرسول الكريم مكة المكرمة حتى أسلم بين يديه الكريمتين ؛ أبو سفيان بن حرب ، وحليم بن جرام ، وبديل بن ورنا ، وعكرمة بن أبو جهل ، وعبد الله بن سعد بن الصرح ، وأبو قحافة والد الصديق أبي بكر والذى كان مكفوف البصر. وقد آحضره ، إبنه وتشرف بالإسلام بين يدي الرسول الكريم . وفى يوم فتح مكة خلع الرسول على خالد بن الوليد ، وعينه قائداً على رأس الجيش المتجه إلى بلاد الروم ، وسلَّمه علم الرسول « ﷺ » . وتوجه بن الوليد على رأس أربعين ألفاً من الصحابة الميامين إلي قيصر الروم ، وفتح الشام الشريف ، وهزم الروم شر هزيمة ، وغنم منهم الغنائم الوفيرة التى فاقت طاقة الآلاف من البعير ، وذلك بعد أن أعمل فيهم سيفه وسيوف صحابته . ثم عاد إلى المدينة المنورة تحف به آكاليل الظفر والإنتصار .. وكانت هذه هي بداية غزوات الروم . وبعد هذه المعركة أطلقوا على خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » .

ويسجل مؤرخو العالم الكيفية التى أصبحت بها الكعبة معمورة ؛ فبعد هبوط سيدنا آدم ، جعل الله سبحانه وتعالى مكة المكرمة مهبط أديم الأرض ، وبعث به إلي البيت المعمور . وأنزل رب العزة والجلال بيتاً من الياقوت الأحمر ليكون مكاناً لعبادة آدم عليه السلام ، وبقي آدم يعبد ربه فى هذا البيت المعمور ، ويدعوه سبحانه وتعالى

قائلاً : (اللهم أجعل لى عماراً من ذريتى) . وأستجاب الله لدعاء سيدنا آدم ، وعمرت مكة يوماً بعد يوم . وخلال طوفان نوح عليه السلام ، رفع الله البيت المعمور إلى جنة المأوى وبعد الطوفان ، وفى زمن سيدنا ابراهيم .. وأستجابةً لدعوة سيدنا آدم السابقة ، قام الخليل ابراهيم بإعادة بناء البيت العتيق ببركة هذا الدعاء . وجاءه النداء من الباري سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ (١) .

فسأل سيدنا إبراهيم ربه ؛ ياربي ومَنْ يسمع صوتى ، فخاطبه الحق سبحانه ؛ منك الآذان ، وعليَّ البلاغ . وعلى الفور صعد خليل الرحمن إلى ذروة جبل أبى قبيس ، وبدأ فى الآذان فى الجهات الأربع ، .. ياعباد الرحمن .. لقد بني ربكم بيتاً فتعالوا وأعبدوه ، تعالوا للحج والطواف .. وأسْمَع الله تعالى صوت النبي ابراهيم لكل المخلوقات ؛ بين السماء والأرض ، وحتى العلقة ، والمضغة فى أرحام الأمهات .. فردت جميع المخلوقات مرة ، ومرتين – وآلاف المرات «لبيك اللهم لبيك» . مرددة وملبية . وكلما زادت التلبية ، زاد الحج يسراً وتسهيلاً .. ومَنْ لم يسمع الصدى يُحرم من الحج ، ولكنه يُيَسر بالوكالة ؛ ويكون كمن أدى الحج .. وقد كتب بعض المفسرين هذا ، وأيدوه .. وهكذا عُمِّرت الكعبة الشريفة ببركة دعاء سيدنا آدم ، وبصوت آذان سيدنا إبراهيم .. وها نحن نُشاهد آلاف الحجاج يلبون النداء فى كل عام ، وستظل معمورة إلى أن يتوقف العالم عن الدوران . وستعمر دائماً بحجاج الله من المسلمين :
« بيت »

(هر كمه كعبه نصيب اولصه خودا رحمت ايدر سودكي كيشي حق خانه سينه دعوت ايدر) (*) .

* * *

(١) سورة الحج : آية ٢٧ .

(*) الترجمة : (كل من كانت الكعبة من نصيبه يرحمه الله وعليه ان يدعو مَنْ يُحب إلى بيت الله) .

أوصاف عمارات الخيرات والحسنات في مدينة مكة، والأسواق التي تزين بلدة بكه

زينهـا الله تعالى إلى انقراض الدوران وأيد ملكه ليكن معلوماً لإخوان الصفاء ، والأحبة الأوفياء ؛ أن مدينة مكة المكرمة تقع في سبعة أودية فيما بين منتهى سبعة جبال ، وهى مدينة طولية ؛ تمتد من الشمال إلى الجنوب . ولكن أكثر الآثار المبنية ؛ تقع في الوديان السبعة . وداخل هذا الوادى الممتد ثلاثة طرق رئيسية ، وهى طرق عظيمة العلو . . وفى الجهة الشمالية ، وإلى أن نصل إلى المعلا ، طريق عام كبير ، وفى نهايته « حمده » . وبجواره نصل إلى الحى الذى يسمونه « شَبكَه » . وفى الناحية الجنوبية ؛ وعلى طريق اليمن ، ينتهى عند المكان الذى شهد المولد الشريف لسيدنا حمزه . ولكن هذه المدينة العظيمة تُعمر سطح الجبل الذى يسمونه « جبل جزل » ، وما يزيد عن نصف سطح جبل أبى قُبيس . . وما بين هذين الجبلين وأعلاهما مسكون ، ومعمور . ويطلقون على جبلي أبي قبيس ، وجبل جزل « الأخشبان » . ومن باب المعلا صعوداً ، إلى أن نصل إلي باب « ماحنه » بالتمام والكمال أربع آلاف ومائتين خطوة كاملة ، ومن هنا حتى نهاية المدينة ثلاث آلاف خطوة . وأيضاً من باب المعلا إلى باب الشبكية ، ومنها ، وعن طريق المرعى وحتى السويقية ، ومنها وإلى باب الشبكية ثانيةً ألف ذراعاً مكياً . وعدا هذه الطرق الرئيسية يوجد إثنى عشر شارعاً صغيراً . وكلها محلات ودكاكين ، وآسفلها السوق السلطاني = الرئيسي ، والشوارع التى تتخلل السوق تقع كلها على أرض مستوية ، ورملية . ليس بها أرصفة ، أو تعبيد للطرق أما الآحياء التى فوق الجبال ، فالطرق المؤدية إليهاكلها مطالع ، ومنازل وصخرية ؛ وهى طرق عامة طاهرة ونظيفة جداً . وجملة المحاريب الكبيرة ، والصغيرة الموجودة داخل مدينة مكة تبلغ سبعمائة وأربعين ، محراباً ، والبقاع ، وبيوت الخلفاء الراشدين ، ومنازل الصحابة الكرام ، فلقد عدَّت كلها ، وتدخل ضمن هذا العدد . ولكن صلاة جماعة الجمعة تُقام فى المسجد الحرام ، ولا تُقام فى أي بقعة آخرى فى هذه المدينة المقدسة .

* * *

بيـــان مساجـد مدينــة مـكة :

أولاً . . المسجد الذى يقع بالقرب من بئر جبير ، ويسمونه مسجد النبي ، وهو مزار للناس جميعاً . . وفوق جبل النبي يقع مسجد عمر بن الخطاب ، وبالقرب من (باب العجلة) يقع المسجد الذى شهد مولد جعفر بن أبى طالب . وفى « زقاق مرمق » مسجد بيت أبى بكر الصديق ، ودار سيدنا عباس ، وبالقرب من جبل القيصعان يقع معبد الجنيد ، ودار ابراهيم بن آدم . وكانا يسكنان فى هذين المسجدين .وفى مواجهة جبل « حجون » داخل مدينة مكة ، يوجد مسجد الحق ، ومسجد زايت ، والأخير له مئذنة خفيضة . وهناك مسجد ركوب حضرة رسول الله ، حيث إمتطى راحلته عند الهجرة إلى المدينة المنورة ، وهو يقع على طريق المدينة ، وهومسجد عظيم ويُطلق عليه « مسجد الركوب » . وعند الإتجاه من المكان المسمى « التنعيم » إلى ناحية القبلة . تجد مسجد السيدة عائشة الصِّديقة ، رضي الله عنها ، وهو مسجد صغير . وهو مزار للخاص والعام على طريق الاتجاه إلى الحرم الشريف . وبعده عمارة = مطعم الخاصكية ، وبالقرب منه مقام السيد أحمد البدوي ، وهومسجد ذو منارة منخفضة وجماعته كثيرة . وهو مسجد مُضيئ . . ومُشْرِح الصدر . .

* * *

في بيان الأماكن المستجابة الدعاء في مكة المكرمة والمقامات العالية، والمساجد المقامة في البيوت الشريفة

أولاً ، المطاف الشريف ، والملتزم ، ومحراب رحمة النبي ، وداخل بيت الله المعمور، وزمزم المبارك ، والحجر الأسود ، ومقام خليل الرحمن ، وقدم النبى ، وبجوار المنبر النبوي ، والصفا والمروة ، والمسعى ، وعرفات ومزدلفة ، ومسجد ابراهيم الخليل، ومِنى ، والجمرات ، وجبل السَبِر ، ومسجد الكبش ، ومسجد الخيف ، ومسجد النحر ، ومسجد مشاعر الحرم ، ومحل نزول سورة المرسلات ، وبيت أم المؤمنين خديجة الكبرى . ومن المعروف أنه بعد ميلاد النبى بخمس وعشرين سنة ، أنه وغلامها ميسره قد هاجر إلى الشام للتجارة بأموال السيدة خديجة ، وأنه كان يتاجر فى مدينة البوصره بالقرب من الشام . وقد حقق أرباحاً وفيرة فى تجارته ، وعند عودته إلى مكة كانت السيدة خديجة فى الأربعين من عمرها ، فخطبته لنفسها ، وأصبحت زوجته عليه الصلاة والسلام . وكانا يسكنان فى هذا البيت الشريف ، ومقام دار حزران ، وقبة المختفى التى كان يستتر بها الرسول المصطفى حتى لا تراه عيون الكفار ، ولهذا السبب سميت قبة المختفى . وهو مقام مبارك . وكذا جبل أبي قبيس ، وجبل النور وحبل سَبِر ، وجبل حراء ، ومسجد البيعة ، وقد سبق مدحه ، وهو بالقرب من دكان سيدنا أبى بكر الصديق ، ويسمونه « سلام هاجر » أيضاً .. وهو حجر جليدى . وجميع الحجاج يستلمون هذا الحجر ، ويحرصون على زيارته ، هو حجرمنير ، ومجلى . وسبب ذلك ، كما ذكر فى السند ، أن صاحب الرسالة وهو فى جهاده ضد المشركين ، وبينما كان يمر من المكان ، فإذا بكوكبة من المشركين تأتي فى مواجهته ، وعندما اقترب مشركو مكة من النبى قال ﷺ مخاطباً الصخرة (السلام عليك ياصخرة الله) وبأمر من الله وقدرته سبحانه وتعالى ، نطق الحجر ورد السلام قائلاً : (وعليكم سلام الله) . ولماوصلت إلى أسماع المشركين كلمات الحجر ، تحولوا عن الطريق العام . وبالقرب فى هذا المكان ، وفى المقابل من هذا الحجر بنى جدار آخر ، وفيه حجر جليدي أيضاً . وجميع الحجاج أيضاً يتسلمونه ، ويسمونه (حجر فوت) وهو حجر منخفض . وكان سيدنا رسول الله يستند عليه بكوعه .. وذات مرة تردد

الرسول فى أن يعبر من هذا المكان ، فسمع صدى صوت يصدر من هذا الحجر بأمر الله يقول له (فوت يارسول الله) ولهذا مر عليه الصلاة والسلام من بين المشركين فى أمن وسلامة . ولهذا السبب يسميه الناس (حجر فوت) . كما أن بيت سيدنا عباس من المزارات ، وعلى يسار جبل شبر هناك غار يُسمونه مغارة الفتح ، وقد اعتكفت السيدة عائشة الصديقة فى هذا الغار ، وبعض صلحاء الأمة يدخلونه تبركاً ، ويتعبدون فيه ، وللآن يسمونه ساحة عائشة ، ويتعبدون فيه . وجبل أبي قُبيس وأحيانًا يُسمى « جبل صدمه » . وهو جبل صغير منير ، وجميع أهل الثغر ، وأهل مكة يعتقدون أن سبعين من الرسل مدفونون فيه ، وكنا فى جماعة مكونة من عشرين نفرًا حين توجهنا لزيارته ، ولكن لم نر فيه أي أثر لبناء ؛ ولكن به بضع مغارات عظيمة ، أبوابها مسدودة ، وقد تلونا هناك سورة يس الشريفة ، ثم عدنا إلي مكة ، وبالقرب من سوق منى يوجد « مسجد الإجابة » ، وهو أيضاً من الاماكن التى يُستجاب فيها الدعاء .

* * *

مكان سجدة سيدنا النبي :

بينما كان صاحب الرسالة ما زال صبياً ، ضرب مكة باكملها قحط عظيم ، وقد توجه كل آل قريش إلى هذا المكان لدعاء الإستسقاء ، وكان حضرة عبد المطلب بين الحضور ، فرفع يديه نحو السماء قائلاً . . يارب بحق ماء وجه هذا اليتيم محمد أغثنا . . وأنزل علينا الماء . . وعندما سمع محمد هذا ، سجد لله ، وعند سجوده أثرت يديه الكريمتين فى الحجر وما زال الأثر بادياً حتى الآن . وقد أقاموا حوله جداراً كالمحراب . وهو محط زيارة جميع الآنام ؛ ويلزم فيه الصلاة ركعتين . وفى مقام مكان السجدة هذا حُفرة بقدر قامة الرجل وبداخلها صخرة . وعلى الجانب الغربي لصخرة هذه الحفرة علامات تقسيمها إلى إثنى عشر قسماً ، وفقاً للبروج . . وفى غرة كل شهر ، فلابد أن يظهر الهلال ، ولا يمكن أن يختلف ، وهذه معجزة عجيبة ، وحتى لو كان الجو ملبداً بالغيوم فلا يحول ذلك دون ظهور الهلال . ولمكة مُوَقِّتوها ، يدخلون داخل هذه الصخرة وينظرون منها ، فلابد أن يكتشفوا ظهور الهلال .

وجامع المهد هذا هو مسيرة ومنتزه ، ومستراح أهل مكة . . . ومن الثابت أن الأمطار التى تهطل على سفوح جبل أبى قبيس تنزل إلى الصهاريج الموجودة . وفى الجهة الشمالية من جبل أبى قُبيس هذا ، وعلى بعد مائة خطوة يوجد مطلع وفى نهايته تقع آعتاب تكية الشيخ اسماعيل ، وهى تكية عظيمة . مرتبط بها ثمانين أو سبعين نفراً من الفقراء ، وقد أُقيمت على شاكلة قُبتين متجاورتين ، والشيخ نفسه مدفون تحت واحدة منهما ، وهو من صحابة رسول الله ، ولها باب يطل على الناحية الغربية ، وعلى القرب منها مَضْيَفة . وبعض الحجاج مع أهل مكة يأتون إلى هذه التكية ؛ ويتفرجون على المدينة ، ويشاهدون معالمها لإنها هى أيضاً تقع على مرتفع عالٍ ، يطل على كل المدينة . . ومن الناحية الشمالية لهذه التكية يتم النزول إلى وادى السيدة آمنه بنت وهب بعد خمسمائة خطوة كاملة .

* * *

أوصاف دار سعادة السيدة آمنه بنت وهب ؛ يعنى أم حضرة رسول الله :

إن حضرة صاحب الرسالة قد اشتاق للخروج من رحم أُمه الفاضلة فى سنة ٨٨٢ من بعد وفاة الإسكندر ذو القرنين . وفى اللحظة التي خرج فيها إلي الحياة كان فى موسم نيسان = الربيع ، وفى ا لعشرين من هذا الشهر ، أي في الليلة الثانية عشر من شهر ربيع الأول . وكانت ليلة الإثنين ، وبميلادة « ﷺ » أصبح العالم كله ضياءاً ، وتحطمت كل الأصنام التى كانت على وجه الأرض ، وانطفئت كل نيران المجوس ، وتصدع إيوان كسرى ، وقبة الآياصوفيا ، وقبة القيزيل ألما . ولم يبق على سطح الأرض معبد ، أو دير إلا وأصابه التصدع ، وشملت سحابة خضراء ذلك البيت الشريف . . وظلت هذه السحابة اللطيفة تُغيم فوق المصطفى طوال حياته المديدة ، والتى إمتدت إلى ثلاث وستين سنة كريمة . وكان ﷺ أينما اتجه ، تحوم حوله ، وتُظل عليه تلك السحابة ذات اللون الآخضر ، بل ، وكان ذلك الغيث الأخضر ينهمر حيثما يكون عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن ينزل إلى الأرض ، بل كان مطر رحمة ، وكان بأمر الله ، وبإشارة منه عليه السلام ، كانت تلك السحابة تظل معلقة على مكان ما ، وكان مطرها ينزل برداً وسلاماً كلما اشتاق إليه الرسول المصطفى . وحسب

قول الشيخ محمد ابن اسحاق لقد مرت ٦٧٥٠ سنة منذ زمن سيدنا آدم وحتى ميلاد المصطفى و ٤٤٩٠ سنة من النبي نوح ، وحتى ميلاد المصطفى ، ومن سيدنا ابراهيم الخليل وحتى ميلاد الحبيب ٣٠٧٠ سنة . ومن حضرة سيدنا موسى إلى مولده الكريم ٣٣٠٠ سنة ، ومن زمن سيدنا داوود إلى ميلاد سيدنا المصطفى ١٢٠٠ سنة . ومن الإسكندر حتى ولادته ﷺ ٨٨٢ سنة . ومن زمن سيدنا عيسى حتى مولده « ﷺ » ٦٠٠ سنة . وهذا قول صحيح . وقد تحرر ذلك فى تواريخ القبابطة ، وتاريخ اليونان ، وتواريخ الرومان وكلها تواريخ معتبرة وكان هذا البيت الشريف الذى ولد فيه عليه السلام ملك موروث للسيدة الوالدة ، وهى السيدة آمنه بنت وهب. أما والدته بالرضاعة ؛ فهى السيدة حليمة من قبيلة بنى سعد . وكل من سيدنا حمزه ، وأبو سلما بن عبد الله المخزومي ، وعبدالله بن جحش السيدي كانوا قد رضعوا من السيدة حليمه السعدية ، ولذلك فهم إخوة المصطفى بالرضاعة . ووالد المصطفى هو عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مورَّه بن كعب ابن لـؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضير . وكل هؤلاء هم أمراء القبائل القرشية ؛ وجده الثامن والعشرين هو سيدنا اسماعيل ، والجد التاسع والعشرين هو الخليل ابراهيم عليهم السلام ؛ وينتهى نسب سيدنا ابراهيم إلى عذرا ، وعندما بلغ صاحب الرسالة السادسة من عمره السعيد توفى والده عبد الله بن عبد المطلب فى مكان يُسمى (دار التابعة) بالقرب من المدينة عند عودته من تجارته فى الشام . وكان عمره ٢٥ سنة . ولما توجهت السيدة آمنه بنت وهب من مكة إلى المدينة بصحبة غلامها لتسلم الأموال التى انتقلت إليها من آهلها ، وكان سنه عليه السلام آنذاك سبع سنوات ولما تسلما الميراث ، وعند عودته مع السيدة والدته إلي مكة توفيت هى أيضاً فى المكان المسمى ابن يمام . وكان حضرته قد بلغ السابعة من عمره السعيد . وأصبح بذلك يتيم الأم أيضاً . وقام أقرباء السيدة آمنه بنت وهب باحضار جسدها الطاهر إلى مكة .. وتقول إحدى الروايات أنها دفنت حيث توفاها الله . وأن حضرة صاحب الرسالة – بعد الهجرة – هو الذى آخرج جسد السيدة الوالدة من المكان المسمى « أبو انام » ، ودفنه فى البقيع .

وبعد ذلك أحضره أقارب والدته بأمواله إلى مكة ، وكان حضرة عبد المطلب هو

جده .. فسلموه عليه السلام إليه . وبعد أن بلغ سن الأربعين ، جاءته النبوة . وقد وهب هذا البيت الذى انتقل إليه من أُمه إلى عقيل بن أبى طالب ، وانتقل هو عليه السلام للعيش فى دار خديجة الكبرى ﵂ . وبمرور الأيام ، اشترت السيدة حيزاران والدة الحجاج يوسف الظالم من ورثة حضرة عقيل بن أبى طالب عندما جاءت إلى الحج . ثم تم شراء هذا البيت اللطيف من ورثة الحجاج .. ومحبة فى رسول الله قام الملك المظفر شمس الدين يوسف عليه الرحمة بتوسيع هذا المسجد ، والذين يؤدون فيه الصلاة يدعون للجميع بدعاء الخير .

* * *

أوصاف حرم بيت الرسول الكريم :

قبة عالية مغطاة بالرصاص داخل وادي أمينة . لها باب يطل على الناحية الشمالية ، يُنزل إليها بسلالم مكونة من عشر درجات تقع وسط مكان منخفض . هى قبة منيرة . وما أن تدخل من الباب حتى تجد حرماً مربعاً ، هو أيضاً يقع تحت القبة . وبعده يوجد باب آخر فى الداخل ، هو باب الآعتاب السعيدة . الباب مكشوف على الناحية الشرقية ، والحرم مفروش بسجاد حريري قيم ؛ كما أنه ميدان رَحب ، بحيث تصل رحابته إلى خمسمائة خطوة ، مسجد لطيف وواسع . والقبة مزينة بمختلف النقوش والألوان بحيث أنها تحاكي قبة الأفلاك ومن ميدان المحبة وحتى وسط القبة ، ترى منبراً بديعاً ، وفوقه قبة منيرة . وجوانبه الأربعة مسطورة بالزخارف والديباج .. وله باب صغير مرصع ، ومطعم بالذهب طبقة فوق طبقة . وله قفل ، ومفتاح من المجوهرات من خيرات السلف الصالح من السلاطين ، وبجوار هذا المنبر المنيف ، وعقب الباب سجادة حريرية مطرزة ، يجلس فوقها خدَّام بيت رسول الله . وهم الذين يقومون بفتح الباب الشريف بالمفتاح المجوهر عند قدوم الحجاج والزوار للتبرك ، والزيارة .. ويقوم الزائرون بتلاوة الدعوات والتوسل إلى الله طالبين الشفاعة. وفى المكان الذى تشرَّف بنزول صاحب الرسالة من رحم الأم الطاهرة، قد وضعوا حجراً مباركاً ، داخل الحفرة الصفراء . وقد أثر جسده الشريف فى هذا الحجر .. وهومنخفض يتسع لجلوس رجل فى داخله جلوساً متربعاً ،

وعند حفر هذا المنخفض المبارك ، كانت تشع من هذا الحجر روائح الورد ، والكافور ، ومملوء بماء القاضي . وجميع الزوار يمرغون وجوههم في هذا الماء الوردي . وجميع الخدم ينثرون من المباخر الذهبية ، والفضية الخالصة روائح المسك ، والعنبر . والعود ، وبحيث تتعطر رؤوس كل الزوار في هذه القبة المنيرة المعطرة . وقد قام أفندينا حسين باشا بنفسه بإحراق العنبر الخام لمدة ساعة كاملة ، وبحيث أُفعمت القبة بالأدخنة الطيبة ، والروائح الفواحة ، والجميع يرى أنه من المناسب تقبيل هذا الحجر تبركاً حيث أنه هو مهد الرسول المجتبى . وهذه القبة الطيبة مزدانة بالثريات والنجف البديع الصنع ، والمزين بشتى أنواع المجوهرات القيِّمة . وكذا بالقناديل الرائعة ، وكلها توقد ، وتُضاء ليلاً ، وتجعل المكان كله نور على نور . وفى الركن الواقع على يمين هذا المقام يوجد منبر خشبي رائع الصنع ، بديع النقش . إنه منبر صغير ، ولكنه نموذج بديع .. وفى الجهة التى تقع على يسار هذه القبة يوجد محراب صغير . وكل انسان يحرص على صلاة ركعتين فى هذا المحراب .. ويُستحب فيه الدعاء للوالدين وعلى الجدران الأربعة لهذه القبة لوحات متنوعة للخطاطين المبدعين ، ومحبي رسول الله والعاشقين له .. ومن بين هذه اللوحات قصائد مدح نبوي ، و (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقد قمت أنا العبد الحقير أيضاً بتسطير الإسم المحمدي عليه السلام على الطراز والشكل القره حصاري . وعلى شمال هذه القبة ، وعلى علوٍّ قامة رجلين توجد نوافذ .. وبعض الناس وهم يمرون من الطريق العام ينظرون إلى العتبة الشريفة من هذه النوافذ ، ويتوجهون بالدعاء الخيِّر . ويحرصون على ذلك عند عبورهم ، لأن هذه العتبة المباركة تقع على الطريق العام ، ولهذا المسجد منارة ذات شرفة واحدة من الآعمال القديمة هو جامع شامخ ، ولكن لم يثبت أن أُقيمت فيه صلاة الجمعة ، لأن منبره صغير ، ولأنه لا يجوز ، ولا يصح أن تُقام صلاة الجمعة فى هذه المدينة المباركة إلا فى المسجد الحرام فقط .. « والسلام » . وإلى الشمال من هنا .. وداخل سوق الجواهرجية يوجد :

* * *

مزار بيت حضرة فاطمة الزهراء :

هـو البـيت الذى سكنه صاحب الرسالة مع السيـدة خـديجـة الكبرى بعـد أن تم اهداء البـيت الذى وُلد فـيه عليه السـلام إلى عقـيل ابن عـبد المطلب . وقـد وُلدت السيـدة فـاطمـة الزهراء فى هذا البيت السعـيد ، وأمها هى خـديجة الكبرى .. وقد تَزوجت بسـيـدنا على ﷺ فى السنة الثانـية للهجرة النبوية ، وكان سيدنا علي قـد بلغ العـشرين مـن عـمـره .. وكـانت السيـدة فـاطمة فى الثـامنـة عـشر من عـمرهـا السعيد . وقد تم الإحتفـال بالزفاف فى المدينة . وبعد الفتح وهب المصطفى « ﷺ » هذا البيت إلى السيـدة فـاطمـة . وقـد سكنتـه مع سيـدنا علي ﷺ . وهــذا البــيـت الطاهر يقـع أيضـاً على الطريـق العـام . وهو عبـارة عـن قبـة عـالية مكونة مـن ثـلاث قطـع ، وله بـاب مكشـوف ناحيـة المشـرق .. ويُنزل من هـذا البـاب بسلالـم مكونة من عشـرة درجـات إلى الداخل ، قبابه مطلية بالجير الأبيـض ، ولـه أعـلام خاصـة بـه خضراء اللون . وعـمدانها نُحاسيـة . له فناء صغـير ، وعلى جـانب القبلـة من هـذا الفناء ، يوجد مسجد على صُفَّـه ، له محراب من الآشغال القديمة . وهذا المسجد أيضـاً مطلي بالجير ، وليست لـه منـارة .. وَتحـت إحـدى القبـاب العـاليـة ، كـان كل من حضـرة الإمام الحسن والإمـام الحسـين يتلـون القـرآن الكريم تحتهـا ، والرحلات التـى كـانا يستخدمانهـا ما زالت هنـا . ويقـولون أنهـا تلك كـانا يستخـدمانها فـى ذلك الزمان . وهـذه القبـة مفروشـة بالسجاد الحريرى المختلف . وهـذه القبـة المتصلة ببيت حضرة السيدة فاطمة قبه مزخرفة ، بديعة النقش . وهى أوسع تلك القباب . وهى أيضـاً مفروشة بالسجاد الحريري المطـرز القيم ، ومن خيرات المرحـوم السلطـان قـايا . وليست بهـا نوافذ على الجانب الخفـيض . ولكن الجـوانب الأربعة مكسوة ، ومغطاة بالقيـشانـي الصيني . وبخزائن الكتب الموجودة أجزاء ، ونسخ مختلفة من المصحف الشريف .. وهذه الخزائن كلها مغطاة بالزجاج والبلور ، والنجف المختلف النقـوش ، والأنواع . ولهذه القبـة العالية ، وترتفع حتى منتصفها قبة المنـبر .. وهى قبة صغيرة حـادة ، مكسوة بالكامل بالنقوش ، والزينة .. وتزدان هـذه القبـاب بشتى أنواع الثريات ، والقناديل ، والشـمعدانات ، والمعلقـات التى تزينهـا . وفـى كل ليلة جـمعـة ، فـإن آهل مكة ، وآصحـاب السلوك من المشـايخ والمتـصوفة يأتون إليـهـا ،

ويقيمون الليلة فى التلاوة ، والذكر والتوحيد ، وفى كل سنة يحتفلون بمولد السيدة فاطمة .. وخلاصة الكلام فالمكان مكان زيارة للخاص والعام .. وهو قريب من منزل والدة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

* * *

بيت حضرة سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه :

عبارة عن مسجد صغير له قبتان . وفى حرمه الصغير شجرة نبق عظيمة الحجم . وهو مثل مسجد بيت السيدة فاطمة فلا منارة له . وعلى الجانب الأيمن ، وتحت القبة أيضاً ، لوحة منقوشة مثل المنبر ، وله قبة حادة . وهى أيضاً مغطاة بالنقوش والزينات الجدارية . ولقد ولد فيها سيدنا علي بن أبى طالب حينما كان النبى ﷺ فى السادسة والثلاثين من عمره السعيد . ولما بلغ السادسة والثلاثين من عمره أدار حرباً ضروساً مع معاوية بن أبى سفيان بخصوص الخلافة ؛ ولهذا السبب أضطر إلى الهجرة من المدينة إلى الكوفة ، وسكنها .. ويلقبونه فى بلاد العراق (أسد الله الغالب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..) وإليك هذا المثنوى :

(اوج احسان ومكرمت بدر
ولي الدين وعالى القدر
يار رابعدر علي بي ولي
مشكلِ دين بونكلة اولدى جلي
سندى مسندى آچوب اولدر
وازو صوفرا وفتوت اولدر) (*)

(*) الترجمة : (.. بدرٌ هو اوج الإحسانِ والكرمِ
ولى الدين وعالي القدر
علي الولي هو الخليفة الرابع
انجلت به صعاب الدين
هو السند المسند الواضح
هو عضد القوة ، والفتوة)

كانت بداية خلافته وهو فى سن الخامسة والثلاثين ، ومدة خلافته ثلاث سنوات ، وتسعة أشهر ، وسنة استشهاده كانت السنة الأربعين بعد الهجرة النبوية . كانت مدة عمره السعيد ، ثلاث وستون سنة ، استشهد على حين غرة ، وهو يتعبد فى جامع الكوفة على يدى الآثم الشقي عبدالله بن ملجم . هى آعتاب عالية قديمة .. كل الحجاج العجم يحرصون على زيارة هذه الدار اللطيفة ؛ ومَنْ لم يزرها يُعتبر حجه ناقصاً .. وكل خدَّام هذه الآعتاب من العجم .. ويغدق العجم فى عطاياهم هنا .. هو مسجد شريف مزخرف ، وطاهر .. وعلى بعد ثلاثمائة خطوة فى شمال هذه الآعتاب الطاهرة يوجد

بيت حضرة سيدنا أبى بكر الصديق بن أبى قحافة :

بعد الميلاد السعيد لحضرة الرسول المجتبى بسنتين وُلد حضرة أبو بكر الصديق (العتيق من النار) فى هذا البيت العتيق . هو قبة صغيرة . سكنه النسل الكريم للصديق الوفي ، فى الفناء شجرة نبق . وفى الجهة الجنوبية من مدينة مكة المكرمة ، وبالقرب من جبل عمر يوجد

* * *

بيت عمر بن الخطاب ﵁ :

منزل فى غاية الصغر ، وُلِد فيه حضرة سيدنا عمر بعد ميلاد النبي « ﷺ » بثلاث سنين . وقد قام ﵁ بيديه الكريمتين فيما بعد بعجن الطين ، وإعادة بناء هذه الدار اللطيفة . وهى ما زالت مسكونة ، يقطنها الناس حتى الآن .. ومسجد عمر يعلو جبل عمر ، ولا تُقام فيه الجماعة ، ومن فوق هذا الجبل تُشاهد مدينة مكة جيداً .

* * *

بيت حضرة عثمان ﵁ :

سكنه حضرة عثمان عندما بلغ الحلم ، ما زال معموراً ومسكوناً ويقطنه الناس

إلى الآن ، وقد سكنتا هـذا البيت الشريف كل من حفصه بنت عمر ، وزينب بنت عمر . وكانت حفصه بنت عمـر من حفظـة القرآن الكريم . وقد استفاد، وجمع ، واستمع منها كثيراً حضرة عثمان – جامع القرآن – عند جمعه لآيات الذكر الحكيم . وتنبع من هنا سبب تسمية (قراءة حفص) وبالقرب من باب عباس يوجد

* * *

بيت حضرة عباس ؛ ﷺ :

مازال يشكل جداراً للحرم . وعند باب النبى يوجد

* * *

بيت عائشة الصديقة ؛ ﵂ :

هي أُم المؤمنين . منحهـا إياه حضـرة أبو بكر الصـديق على طريق الجهـاز ، وقـد سكنتـه فى رفقـة الرسـول المصطفى ﷺ . هـو عند باب شـيبـه ، وقـد ضُمَّ فى أيام سليمـان خـان إلى الحرم الشريف . ويسمـونه باب شيبه .. ويسمـونه أيضاً باب أُم هانى، وبيت الرسـول ، وقـد سكنت السيـدة أُم هانى هذا البيت الشـريف وهى فى كنف الرسـول « ﷺ » . ومن المحقق أن المصطفى قـد عـرج من هذا البيت فى رحلة الإسراء والمعراج .. وقد أمر سليمان خان له بباب لطيف وبديع . وما زالوا يطلقون عليه باب أم هانى إلى اليوم .

* * *

بيت أبى سفيان :

ولـد إبنـه فـى هـذا البيت بعد ميلاد النبـى بتاريـخ أربـع وثلاثـين سـنة . كـما ولـد أيـضـاً معـاذ ابن جبل مـع مـعاويـة فى هـذا البـيت وهـو بالقـرب من حـمـام النبـي .

* * *

بيت أنس بن مالك :

منزل صغير ، وبدون قبة ، يشكنه خدَّام مكة المكرمة .

* * *

بيت عبد مناف :

هو من الجدود الكبار لحضرة صاحب الرسالة ، كما سكنه أيضاً جده عبد المطلب، هو كالجامع ، ولكن ليس له محراب . وقريب منه يوجد

* * *

بيت حضرة الزبير :

هو بيت فى أحد أركانه سبيل ماء .

* * *

بيت حضرة اسماعيل عليه السلام :

لقد تملك أبو سفيان أيضاً هذا البيت . وفى هذا البيت تزوج حضرة سيدنا إسماعيل من فتاة مكية وعاش فيه . وأنجب فيه الأولاد والأنساب . وكان يُطلق على آل مكة آنذاك « قوم جورهم » وقد أتوا أولاً من اليمن ، وتمكنوا من مكة . وكانوا قبيلة . ورزق سيدنا إسماعيل بغلام من هذه الفتاة التى تزوج بها منهم . ويطلق على ذريتهم العرب المتعربة . وفى البداية استمع أولاد حضرة سيدنا إسماعيل إلى اللغة العربية ، وأشتهروا بها . . وأشتهرت بينهم . . فقد كان سيدنا إسماعيل ووالده سيدنا الخليل ابراهيم يتكلمون العربية . حتى أن جميع الصحف ، والصحائف المنزلة من جانب الحق سبحانه وتعالى على سيدنا ابراهيم كانت كلها باللسان العربى ، حيث أنها لسان الحق . وقد أنزلت بعض مفرداتها باللسان الفارسي. وبعض المفسرين يقولون أن اللسان الفارسى ، والپارسي ، والغازى هو اللسان العبري . حتى قال تفسير الديلمى . (سأل رسول الله ﷺ ميكائيل عليه

السلام ، هل يقول الله تعالى شيئًا بالفارسية ، قال ميكائيل نعم يا محمد .. يقول الله تعالى فى صحف ابراهيم عليه السلام .. چه كتم يا اين مشت خاك ستمكاران چنرانكه بيام ام (قال النبى عليه السلام) (من طعن حركة الغازى فهو كافر بالله..) .

كما يقول بعض المفسرين بأن اللسان الفارسى هو لسان أهل الجنة . وحتى أن مفتى الثقلين كمال باشا زاده أحمد أفندى قال .. قال رسول الله ﷺ (أكثر لسان أهل الجنة العربية والفارسية والدرية) وكان صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام يتكلم الفارسية . ويسمونها أيضاً البارسية ، والغازية .. وهى لسان لطيف ، ونقى.. وهى من اللغات المشتركة مع اللسان العبري فى القدم . ولكن مفرداتها ليست بكثرة ، وبلاغة وفصاحة اللغة العربية . وتنقص الحروف الفارسية ثمانية آحرف عن تلك التى تُستخدم فى العربية . ولهذا فإن اللسان الفارسى لا يتمتع بمعجم لغوي كبير كاللسان العربي . والحروف الغيرمستعملة فى اللسان الفارسى هم :

(يوق سكز حرف آهل فرسد ديللرنده بيخلاف ثا وحا وصاد وضاد وط وظ وعين وقاف) [١] وتزيد الحروف الفارسية أربعة آحرف هم الـ "ا" و الـ "ثر" و الـ "چ" والـ "كَ" ولكن حقا اللسان الفارسي ظريف ولطيف . ولكن آيات القرآن الكريم قد نزلت على اللسان العربي . والفصاحة ، والبلاغة وقفاً على أهل مكة واليمن . ولكن ما زال اللسان العبري مستخدماً فى بلاد البربر ، وبلاد الفرنج ، وبلاد القرمانق ، وفى ولاية بغه نسكى . وهذه البلاد تقع فى محازاة خط الإستواء داخل مصر . فلقد سكن سيدنا ادريس ، وسيدنا "K,affak" فى سواد أرض أسوان . وجملة السكان من العرايا ومن ذوى السحنة السمراء . وكلهم يتحدثون باللسان العبري ، وحتى لما بُعِث لهم سيدنا K,affak . سمع منهم هذا الشعر الذى كلامه كالدرر :

– سن بوجيهانه كَلمه دكن ،	- Jaji beriji
– مادر رحمه كَيرمه دين ،	- Jolo bend ha jom jebji

(١) الترجمة : (لا خلاف على انه لا يوجد ثمانية آحرف فى لغات الفرس الثا ، والحا ، والصاد ، والضاد ، والطاء، والظاء ، والعين والقاف).

– عرش وكرسي اولنمه دن ،	- Haba Jijem Sem jibji
– اولدى نصيب يازدى قلم ،	- S,at jesim jet jibji
– حام باباسى نوحه طوفان ،	- Ham jud johuj dujba
– اولدى عذاب بولدى آمان ،	- Besat surab jedi jujiba
– نوحه بَلي ديه ن لسان ،	- Hoj rivaji zis nida
– قورتولديلر قورتولديلر . . » [1]	- Felaj riba Felariya

والفاظ هذه المقولة مستخدمة ، ومنتشرة فى ولاية طومطوراق فى مدن دونقلا ، وسنّاره ، وقفّان وفي مدينة رمپلث الجمال وكلها مدن فى بلاد البربر . ولكن غوازى مكة المكرمة أيضاً يتغنون بهذه الأبيات بصوت عالٍ ، ويرقصون على الدفوف فى حفلات الختان وليالى الزفاف .. وعند سؤال العبد الحقير عن ذلك ، قالوا أنه باللغة العبرية ولكن الناس لا يتكلمونها ، ولا يتعاملون باللسان العبري . وأنهم منذ أيام حضرة سيدنا إسماعيل وأبناءه واللسان العربي هو الذى ذاع ، وأصبح أكثر شيوعاً على وجه الأرض ، ولكن أهل مكة كانوا يتحدثون اللغة العبرية كلسان فصيح ، ولذلك فإن جميع البدو والعربان خارج مكة يعتبرون أهل من العرب المتعربة ، وينتمون إلى بنى جرهم . وحضرة صاحب الرسالة قد دعى لأهل مكة ، صبحوا آصحاب ملك ، وتجارة .. ولكنهم آصحاب قناعة . ولقد تفضل حضرة كعب الأحبار فقال عن أهل الحجاز (قال خلق الله القناعة بالحجاز فقالت القناعة أنا معك) وفى الحقيقة ، وحسب ما رأيت من أحوالهم ، فهم فى كمال القناعة . ومنبع ثراءهم من تجارتهم ، ومما يُغدق عليهم من الصرة ، والهبات السلطانية ، فقد بنوا فى مكة

---

(١) الترجمة : (قبل أن تأتي أنت إلى هذا العالم
وقبل أن تدخل إلى رحم الأم
وقبل أن يكون الكرسي والعرش
شاء القدر وكتب القلم
وصار الطوفان لنوح والدحام
ولما صار العذاب ، وجد الآمان
وقال اللسان لنوح «بلى»
لقد أُنقذوا .. لقد نجوا)

ومنَى المبانى الفخمة ذات الأدوار العالية ؛ الدور فوق الدور . بحيث لا يوجد مثيل لها حتى فى المدن الكبيرة . وقد تمكنا من زيارة العديد من هذه المبانى ، وشاهدنا ما لا يقل عن مائة وست وأربعين بيتاً شريفاً مما سبق الحديث عنها . . وقد صلينا فى بعضها ركعتين لله . . وقرأنا فيما دخلناه الفاتحة على ارواح الصحابة الكرام . . ووهبنا ثواب ما قرأنا مما تيسر من القرآن على آرواح السلف الصالح ، ولقاء ما تيسر لنا من المعرفة ، والعلم . . ونتوسل إلى الله بالرجاء وحسن القبول .

إن كل البيوت ، والخانات ، والمساجد ، والنكايا ، والقصور الخاصة بالأمراء ، والآغنياء ، والتجار ، ومتوسطى الحال ، وحتى الفقراء منهم والتى تقع داخل مدينة مكة كلها مدهونة بالجير الأبيض ، مما يضفى على المدينة كلها رونقاً ، وجمالاً . . ويزيد من بهاء الشكل إلى جانب بهاء الروح . . . وعدا ما ذكر من البيوت ، والمساجد ، والقصور ، وسرايات الأشراف والأمراء ؛ فإن هناك داخل مدينة مكة مائة وست وسبعين مدرسة ؛ وكلها تُحيط بالحرم الشريف من جهاته الأربع . . .

* * *

جميع المدارس مباني عالية .. وحول الحرم وحده ؛ وعلى جوانبه الأربعة يُوجد أربعون مدرسة عظيمة ، أولهم مدرسة باب السلام ، ومدرسة السلطان قايتباى ، والمدارس الأربع من مآثر السلطان سليمان خان .. والمدرسة السليمية ، والمدرسة المرادية والمدرسة المحمودية ، والمدرسة الخاصكية ، والمدرسة البرقوقية ، والمدرسة الفرجية ، والمدرسة الغورية ، ومدرسة باب زياد ، والمدرسة الداوودية ، والمدرسة الإبراهيمية ، والمدرسة الباسطية والمدرسة العمرية ، والمدرسة الأم هانية ، ومدرسة أمير الحج ، ومدرسة السقاباشي = رئيس السقائين ، ومدرسة أمين الصرة ، ومدرسة شيخ الحرم ، ومدرسة صوقوللى محمد پاشا ، ومدرسة سنان پاشا ، وجميع هذه المدارس من مآثر المعمارى القدير سنان باشا الذى ظهر فى عصر السلطان سليمان خان ، ومن مبانيه المعمارية الرائعة .. وفى مواسم ، الحج يُقيم حجاج المسلمين فى هذه المدارس ، ويكون للمدرسين والطلبة والبوابين وظائف معينة .. فيقومون بالإرشاد ، وتأجير الشماسى . وداخل مدينة الكعبة ثمانٍ وسبعين تكية خاصة بالمشايخ الكبار . تكون جميعها مشحونة بالضيوف والمجاورين ، ولكن آعلاها مقاماً ، وأروعها هى آعتاب حضرة مولانا (*) فهى وكأنها جنة إرم ، فهى دار للمولوية . كما أنها مكان مريح لمن يريد السماع وملجأ لذوى الحاجات والفقراء . مليئة بالورود ، والمقصورات البديعة ، والنافورات وآحواض المياه ، والأسبلة ، ومزدانه بالسلسبيلات . وجميع ظرفاء مكة ، وآرباب المعارف فيها ، والآدباء يجتمعون فيها .. ويقضون فيها وقتاً جميلاً ، فى صفاء نفسي ، وسكينة روحانية . ويؤدون آيين ومراسم المولوية فى هدوء ، وسعادة . وقد قام الدرويش محمد هندى اللاهورى ببناء هذه العتبة الطيبة من أمواله الخاصة . وقد أصبح هو شيخها بإجازة من الشيخ مولانا زاده محمد أفندى فى قونيه . ولكن فى وقت رحلتنا فقد كان الواعظ ، والناصح هو غمجى على آغا زاده فرهاد چلبي ، وكان شيخاً للسجادة . وقد أكمل مع قراءة القرآن المثنوى المعنوي الذى يُعتبر تفسيراً للقرآن ، وبه أكمل سائر الفنون ، هو عالم متصوف ،

(*) يقصد مولانا جلال الدين الرومى صاحب الطريقة المولوية انظر هامشه . «المترجم»

غواص فى بحر المعارف . وذات شريفة . وحتى عندما وصل سردارنا = قائدنا العظيم ولي نعمتى حسين باشا بعساكره الذين هم كالبحر المتلاطم إلى مدينة مكة المكرمة ، فإن الشيخ المذكور قد دعى القائد العظيم إلى استراحة = منامة المولوية . وقد مكث بها مع جملة خدمه الخاص . وخارج التكية كانت تُقام الخيام المريحة وكان سائر الحجاج ، والعساكر أيضاً يقيمون فى الخيام المنصوبة ، ويظلون فى وادى أبطح عشرين يوماً ، وعشرين ليلة .. ويظلون فى صحبة ، وضيافة ، ومحبة الشيخ المذكور . وتكية المولوية تكية معمورة جداً ، تكية عشّاق ، مجمع آهل العرفان .. غاية فى الإنشراح .. هى تكية درويش العالم . وفى مقدمة السوق المصرى ، وبجوار دار مرق = «المطعم» الخاصكية ، نجد آعتاب الشيخ عبد القادر الجيلانى .. تكية عظيمة ، ومبنى متين . نعمها مبذولة على الغائد والرائح .. وبالقرب من السوق الشامي توجد تكية الشيخ على ، وتكية بابا خراساني .. وتكية جلال الدين أكبر أحد سلاطين الهند .. وهى تكية معمورة ، تسير على نهج الطريقة القادرية .. يسكنها سائر فقراء الهند . وهناك تكية حسن الراعي وتكية السيد أحمد البدوى، وتكية بهاء الدين النقشبندي .. وتكية ابراهيم الدسوقى ، وتكية حاجى بكتاش ولى ، وعلى الناحية الشمالية على قمة جبل أبى قُبيس العالية نجد تكية الشيخ اسماعيل الجلوتى ، وقد سبق تحرير آوصافها ... وهى تكية رائعة ، نموذج فريد لتصوير معالم العالم ، هى عتبة جميلة ، تُملئ الزائر بالهدوء والسكينة .. وقد كانت تكية الشيخ الجلوتى منزلاً ، أو داراً شريفة ، للمرحوم الإمام حسن .. وما زال على قيد الحياة ، وقد تشرفت بالصحبة معه ، وتوسلت بهم فى الدعاء ، وقد قام سعادة الشيخ عبد الرحمن المغربي بتحويل منزله الشريف إلى تكية ؛ وهو صاحب علم وكرامة فى المذهب المالكي ، ومرشد حصيف كثير المريدين ، عالم عامل .. ورجل كامل الخلق ..

كذلك فى المدينة المباركة ثلاث وخمسين وكالة تجارية كل واحدة منها كالقلعة المنيفة ؛ أدوارها متعددة .. ويسمونها كل واحدة منها مكونة من مائة أو مائتين محلاً، أو دكاناً ، وحجاج وتُجار الآقاليم السبعة يقومون بالعمل كمرشدين فى هذه الوكالات وتجد فيها جميع المجوهرات من شتى أنحاء العالم . وبآسعار معقولة ويتم فيها البيع والشراء فى يسر وسهولة .. وأهم هذه الوكالات وكالة الشام ، ووكالة

حلب ، ووكالة العراق ، ووكالة الهند ، ووكالة اليمن ، والوكالة الحبشية ، والوكالة المصرية ، ووكالة جده .. وعدا هذه الخانات الكبرى ، هناك مئات من الخانات ، والدكاكين والمحلات الآخرى .. ويقوم آصحابها فى مواسم الحج بإيجارها .. وفى مواسم الحج يتم فيها البيع والشراء .

* * *

آوصاف العمارات الخيرية فى مكة المكرمة ، وعيون المياه والأسبلة الموجودة فى مدينة الميعاد أي مكة المكرمة

ليكن معلوماً للإخوة الذين يتحلون برداء الوفاء أن مدينة مكة المكرمة أرض يابسه محصورة بين سبعة جبال صخرية ، ولهذا فليس من الممكن أن يكون آهالى مكة من أصحاب الثراء اعتماداً على مقومات الأرض ذاتها .. وما أن تنتهى مراسم الحج حتى يعود الحجاج كل إلى وطنه . وحتى فى زمن خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، بعد أداء الحج جعل المنادين ينادون فى الناس ، لمن يريد أن يكون مجاوراً فى المدينة المقدسة لابد وأن يكون له نفع للمدينة . ولذلك فإن كثير من الحجاج من شتى الدول لم يُقم في المدينة .. ولم يتمكن أحد من ذلك إلا فى زمن خلافة هارون الرشيد – من العباسيين– فإن الكثيرين من أهل بيت زُبيدة زوجته ، بعد أن أتموا فريضة الحج ظلوا بالمدينة وظلوا مع عساكرهم مجاورين بها .. وكانت هناك عيون جارية ، فى الجبل المحصور بين جبل عباس ، وجبل أبطح ، ويقع فيما بين فى الجهة الشرقية والشمالية من جبل عرفات ، ويسمونه جبل مهيب .. وكانت تكثر فيه العيون الجارية ، فأجرت منه السيدة زُبيدة المياه ، بعد أن قام الكثير من أمهر العمال ، والفرهاديين [١] بحفر الأنفاق والوديان ، ونقب الجبل ، فجرت فيه العيون الكثيره ، وبحيث تتجمع فى مكان واحد ، وبناءاً على علم الهندسة ، جُمعَّت المياه فى هذا المنخفض ، ثم أُجريت عبر العديد من الممرات حتى وصلت إلى جبل عرفات . وهناك بنوا بركتين عظيمتين لتجميع المياه .. وأجروا منهما المياه إلى جميع مشاعر الحرم وبالقرب من مِنى أقاموا بركة كبيرة أيضاً .. ومياهها تجرى داخل سوق مِنى ، عابرةً من المكان المسمى « مسجد البيعة » . وأحدثوا فى الأبطح بركتين كبيرتين . وإلى جانب مياههما الجارية، أقاموا أيضاً داخل مدينة مكة بركتين عظيمتين . ومُليئتا هما أيضاً بالمياه .. هذه العيون تجرى مياهها العذبة الزلال داخل مدينة مكة ، وتدفع عطش أهل مكة

---

(١) الفرهاديين : نسبة إلى فرهاد صاحب الأسطورة الفارسية المشهوره باسم « فرهاد وشيرين » . والتى حفر فيها فرهاد ممراً فى الجبل لكي يسير فيه اللبن لتشرب منه المحبوبة ، ولما انتهى منه علم بخبر زواج المحبوبة ، فالقى بالفأس الذى كان يحفر به الجبل إلى أعلى ، فسقط فوق رأسه ومات شهيد الحب » ، المترجم

ويطلقون عليها «عيون زبيدة» .. ومن هذه العيون عُمرِّت مكة وأصبحت وكأنها مدينة تقع على نهر .. وأصبحت يانعة عامرة (عمرها الله إلى انقراض الدوران) .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال ، أو يسأل سائل .. بينما تجرى مياه زمزم داخل مدينة مكة ، فكيف يعانى آهاليها من نقص المياه ..؟ والواضح على الفور أن ماء زمزم يدفع العطش ، ومَنْ يشرب منه مرة تكفيه لمدة أربع وعشرين ساعة .. ولكن للأغراض الأخرى كسائر الحمامات والتطهر ، فإن استعمال ماء زمزم فى ذلك ممنوع تماماً .. لإنه يُستخدم من أجل الإستشفاء ولا تجوز به الطهاره ، لدرجة أن المكيين يشتمون بالشتائم المغلظة واحد من ولاية قره مان ، ويسمى ناطراش القره مانى لأنه تطهر بماء زمزم ويلقبونه بالقره إيمانى = «أي ذو الإيمان الأسور» . ولذلك فإن طائفة الأتراك مزمومة جداً فى نظر آهل مكة .

وعدا ذلك ، ومن خيرات السيدة زبيدة أيضاً ، أن هناك قرية تُسمى جده على الطريق فيما بين مكة ومدينة جدة ، أوصلت من عيون المياه الجارية فيها ؛ المياه إلى بندر جدة ، بواسطة الجداول والمواسير مما ساعد على إعمار مدينة جده أيضاً .. ولكن بمرور الزمن ، والإهمال خُرِّبت مجارى هذه الخيرات .. وعندما كان يمر من هذه المناطق بعض ملوك الدول وسلاطينها ، كان الأهالى يتضرعون إلى الله وسائلين هؤلاء النجدة ، فقام السلطان سليم خان عليه الرحمة والغفران بصرف الكثير من المال من خزينة مصر ، وأمر بترميمها ، وتنظيفها ، وتعميرها حتى عاد إليها العمران ، ودفع بذلك أيضاً عطش حجاج بيت الله الحرام .. والجميع يذكر صاحب الخيرات بالدعاء له ، وطلب الغفران . ومن المقرر والواضح أن الكثير من العمارات ، والمباني ، والخانات ، والقصور ، والسرايات العالية أن بكل منها سبيل ماء .. وكل الأسبلة مزدانة ، ومنقوشة ، ومهتَّم بها . وسبيل «فيزلر آغاسى» من الأسبلة الرائعة ، البديعة البنيان ، له قبة عاليه مزخرفة . على جوانبه الأربعة ترى الزخارف ، والنقوش البديعة؛ وكأنه قصر من قصور الصين العجيبة . وعليه تأريخ مكتوب بالخط الجلي المذهب ولكن من شدة الزحام لم آتمكن من القراءة ، والتسجيل . ويتصل بهذا السبيل عشرون عيناً ، تتدفق من صنابيرها المياه ، فتمنح الحياة والنماء من حولها ، وجميع المياه تجرى إليها من «نهر عرفات» . وداخل السوق السلطاني تقع قرية ، تجرى

فيها المياه . ومن الثابت أن عيون المياه ، وينابيع الحياة التى تجرى فى كل الخانات ، والحمامات ، والمساجد ، والأسبلة ، والبرك كلها من خيرات السلطان سليمان خان . . كما أن خيرات المعمار سنان ، وصوقوللى محمد پاشا ، وخاصكية سلطان ، وسائر السلف الصالح من الملوك والسلاطين تمتد ، وتنتشر فيما بين مكة وعرفات ؛ وأن جميع هذه العيون ، والأسبلة ، والينابيع تستمد مياهها من نهر عرفات .

وبالقرب من جبل عمر هناك چشم = عين = سبيل السلطان سليمان خان . ينزل إليه بسلالم مكونة من ثلاثين سلَّمة حجرية . عين فيها الماء سلسبيلا ولكنها خربت بمرور الآيام . وفى حوالى سبعين مكاناً من السرايات والقصور العالية آبار ، وعيون ذات صهاريج تستقى مياهها من العيون السابقة ، وكلها مبذولة المياه فى أوقات الحر والقيظ . ومياهها عذبة صالحة للشرب . وفى سبعمائة دار من دورمكة وخاناتها آبار مياه عذبة تمنح الحياة لطالبيها . . لأن مدينة مكة تقع فى وادٍ غير ذى زرع إلا أن مياهها بهذه العيون والأسبلة ، والأبار كثيرة . . ولكنها جميعها ليست عذبة ولذيذة . وكان من الممكن أن تُغمر المدينة كلها بمياه زمزم العذبة اللذيذة . . ولكن لحكمة إلاهية ، فإن لكل بئر ، وعين منها طعمه الخاص به ، وجعل لبئر زمزم خاصيته ، وميزته الخاصة به حتى يجعله معجزة سيدنا اسماعيل ؛ فلا مثيل لماء زمزم فى خواصه ، وأوصافه . . وعيون كل المسلمين معلقة به .

إن داخل مدينة مكة يحتوى على بركتين عظيمتين . . وكل واحدة منهما وكأنها خليج متلاطم الأمواج . . يستقى منهما – لآلاف المرات – آهل مكة ، وحجاجها السبعين ألفاً ، ومئات الألاف من دوابها الكثيرة . . أحدهما هى البركة المصرية ومحيطها ثمانى مائة خطوة ، وعمقها ثمانية باعات . أما البركة الشامية ؛ فمحيطها خمسمائة خطوة ، وبعمق إثنين وعشرين ذراعاً . وفي ناحيتها الشمالية ، بستان نخل طيب ، ينتهى ببناء لطيف ، ويجعل منه وكأنه منتزه ظريف يُستحب السير ، والتنزه فيه . كما أن به أشجاراً لا شبيه لها . . وفيما بين البركة المصرية ، والبركة الشامية هاتين يوجد أربعون مقهى . . وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر ، ففى كل واحدة ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين . . ولكن هذه المقاهى ليست أبنية مصنَّعة ، بل هى مبانى عادية . . مبنية من الآخشاب كالاكواخ ، ومفروشة

بحصير من عسف النخل .. وعدا هذه المقاهى العادية ، فإن هناك سبعون مقهى آخرى أنيقة ، ومزدانة بالزخارف ، والنقوش .. وهذه المقاهى الآخيرة معمورة .. فى بعضها بعض الرواة والقصاصين ، وفى بعضها عدد من المداحين ، والشعراء ، والمطربين، وفى البعض الأخر بعضٍ من المقرئيين والسَّمار .. وفى البعض الأخر بعضٍ من الغوازى السمر ، البكر ، المخففين ، والبعض الأخر مكتَظ بالجاريات الحبشيات . هذه المقاهى تُقدم أشربة كالشاى ، والقهوة ، والسحلب ، ولبن ، ومأكولات حلوة ؛ مثل المهلبية .. وبعض الأشربة والمأكولات الخفيفة الأخرى . وتُقدم فى فناجين خطائية ، وفاغفورية . وفى مكة المكرمة المقاهى هذه هى مجمع العرفان والأدب .

* * *

أوصاف الأسواق المزينة:

جملة الدكاكين الموجودة فى داخل مدينة مكة المكرمة ألف وثلاثمائة دكاناً .. وكما سبق وأن ذكرنا فقد تزينت كلها بمناسبة اجلاس الشريف بركات . كما تَزينت كل الأسواق السلطانية = «الرئيسية» لهذه المناسبة . وما زالت أماكن هذه الأسواق تكون عامرة فى مواسم الحج ، فكل ما يخطر على البال ، أو يأتى إلي العقل تجده فى هذه الأسواق ، فمن المجوهرات الثمينة ، والأحجار الكريمة ، والسجاد الحريرى ، والأقمشة الفاخرة التى تأتي من اقاليم الدنيا السبعة تجدها هنا معروضة للبيع ، والشراء .

السمة العامة فى الأسواق أن البائع والمشترى يضعون أيديهم فى بعضها البعض ، ويبدأون فى البيع ، والشراء ، والمساومة . ولا يسمعون فرداً آخراً بما يتحدثون فيه ..

كما أن هناك فى مكة المكرمة أسواق متخصصة ، فإلى جانب السوق المصرى الذى تُباع وتُشترى فيه المنتجات المصرية ، والسوق الشامى ، والسوق اليمنى ، والسوق العراقي .. والسوق الهندى .. فإن هناك أسواق مجمعة حسب النوع ؛ فهناك سوق الحبوب التى تأتي من مصر والشام ، واليمن ، وسواكن ، ودهلك ، وزيلع . ولكن هذه الحبوب لا تأتي فى مواسمها . وجميع الأسواق نظيفة ، وطاهرة . وطعامها نظيف ، وجميع أطعمتها . وأشربتها ممدوحة ، وتلبى مختلف الاحتياجات، والأذواق . كما أن بها بعض الأطعمة الخاصة بآقاليم معينة .

ولما كان سيدنا رسول الله «ﷺ» لديه ميل لآكل الهريسة ، فلهذا تكثر الدكاكين التى تُقدم هذا الطعام تبركاً به ، واقتداءاً بما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام . وهذا النوع من الطعام توجد عائلات تتوارث طبخه أبنًا عن آب ، وأباً عن جد . وسيد الأطعمة هى الهريسة . والذين يروجون لها يستشهدون بآحاديث شريفة بهذا الصدد . وفعلاً فإن هذا الطعام لذيذ ، ومقوي ، وسريع الهضم .

وتمتلئ الأسواق بشتى أنواع الفاكهة ، وإن كان أكثرها رواجاً هو البطيخ .. وتأتى جميع الفواكه من الشام ومن مدينة عباس ، وتصل خلال يومين . وبطيخ ، وشمام ، وخوخ مدينة عباس لذيذ ومشهور كما يأتي إلى مكان الأسواق فى مكة الكثير من

الفواكـة التى تأتى من الطائف كالعنب ، والرومان .. ويشتـهر البلح ، والتـمور فى آسواق مكة ، وتتعدد مصادره . كما أن بعض حدائق مكة ؛ كالتى فى المعلا والأبطح ينزل بعض من فواكـهـا وخضـرواتها إلى أسواق مكة . وداخل مدينة مكة خمسة عـشـر بسـتـاناً ، مـعظم حـاصـلاتهـا من البلـح والتـمـر ، والليـمـون واللارنج والنبق ، والعنَّاب . ولما كانت معظم هذه البساتين في قصور ، وخانات الأشراف فيكثر فيـهـا الصـحبة ، وجلسات الأدب ، والسمر . عدا سبعين حديقة آخرى أو ثمانين وكلها بساتين ومزارع نخيل . وأجمل ما فى هذه الحدائق ، والرياض والبساتين شجر النبق .. والنباتات العطرية مثل الورد بشتى أنواعه ، والنسرين والبنفسج ، والرياحين المختلفة ، والهندباء . وعطورنبات الهندباء = عشب القاضى وماء الورد ، وماء البخور لا مثيل لها فى الربع المسكون من العالم .

* * *

أوصاف حمامات مكة المكرمة :

يوجد فى داخل مدينة مكة المكرمة حمامات عامة ، وخاصة . وأجملها قاطبة الحمام الذى أقامه صوقوللى محمد باشا فى الحي الذى يحمل اسمه ، وهو بناء لطيف، غاية فى الإبداع المعماري ، وهواءه نظيف ، مفروش بالرخام بالكامل ، وبه نقوش وزخارف بديعة . وهناك حمام آخر بديع ولطيف ، وهو من خيرات سنان باشا فاتح اليمن ؛ وهذا الحمام ثماني الأضلاع ، ومضيء ، ونظيف . عدا هذين الحمامين الكبار ، فإن هناك مائة وخمسة وأربعين حماماً فى القصور والسرايات الخاصة بالأشراف وهى خاصة بأهل البيت ، وعياله .. ولا يدخلها عامة الناس ، ولا يستحم فيها آهالى الحي . بل هى وقف على الأهل والآقارب . وهناك من العمالة من يقومون بكنس الشوارع الرئيسية ، وتنظيفها .. ويرشون أمام الحمامات ويحرقون مخلفاتها .. ولكثرة هذه الحمامات .. فقد انعكس ذلك على كل آهالى مكة ؛ فمظهرهم جميعاً لائقاً ، نظيفاً .. وكأنهم ليسوا من بنى البشر ، حقاً ، إنهم يستحقون الإنتساب إلي رسول بنى البشر ، فوجوههم جميعاً تتسم بالبشر ، وتعلوها الإبتسامة.

* * *

ليس بخافٍ على أهل العقول ، أن آق شمس الدين زاده حمدي چلبي فى كتابه المسمى (قيافتنامه) قد كتب عن أهل مكة يقول أن شمائل وصفات أهل مكة أنهم سمر البشرة ، وبعضهم احمر اللون = آشقر ، وبعضهم أسمر الوجه ، والمكيات غزلانية العيون حلوة الطبع ، ذات عينان حلوتان .. صبوحة الوجه ، بسَّامة الثغر ، وضَّاءة الجبين .. تصرفاتها تدل على أنها تصرفات الحسيب النسيب الذى ينتسب إلى آل هاشم .. ولكن بسبب شدة الحرارة ، والماء والهواء ؛ فإن آهل مكة نحاف البنية الجسدية ، ضعفاء .. ولذلك فهم ليسوا من أهل الحرف ، وليست لديهم القدرة على الآعمال الثقيلة ، أو المهن التى تطلب جهداً عضلياً كبيراً . فهم يفضلون مهنة التجارة ، والبعض منهم يكتفى بالتعيُّش على الصرة ، والعطايا السلطانية .. ولما كان آغلب سكان مكة من ذوى الطبيعة السوداوية ، فلذلك هم لا يأتلفون بسرعة مع الآهالى الوافدين للحج والزيارة ، بل يستخدمون الكلمات والعبارات الجافة ، فى البيع والشراء ، وتصدر عنهم عبارات يُستَشف منها الغضب ، والحدة .. ومن السنة المتبعة فيما بينهم أن المشترى لأى سلعة أو متاع ما لابد وأن يسأل عن سعرها .. فإن قال التاجر مثلاً بعشرة قروش . فإن قال المشترى بثمانية قروش ، فعلى الفور يغضب التاجر المكي . ويرفع السعر عن الثمن الذى قاله أول الأمر.. ولكن فيما بينهم ، فإنهم يتصافحون .. ويتساومون بالإشارات المعهودة فيما بينهم ، وبدون أي كلام كالإشراقيين ، ويتبايعون على الفور بالسعر الذى قيل فيما بينهم أول الأمر ، فهم لا يحبون الفصال والمساومة فيما بينهم ، إنهم حقاً ، يتورعون عن الحرام ، يتسمون بالنظافة ، والطهارة – فجملتهم من العرق الطاهر ..

وقد حدث فى عصر قايتباى سلطان مصر ، وبسبب حركة عصيان ، قام قايتباى بإرسال إثني عشر ألفاً من الفرسان ، وهاجم مكة على حين غفلة ، وقبض على سائر الأشراف ، ونفى الكثيرين منهم خارج البلاد ، وقبض على سبعة من الأشراف والسادات المكيين .. وأخذ العهد والميثاق من كل أهل مكة .. وجعل التجار ، ومَنْ لم يتدخل فى العصيان يتعمم بعمامة بيضاء . وأن يركب الأشراف الذين شاركوا فى العصيان خيولاً لا ذنب ولا ذيل لها .. وأن يركبون الخيل وهم حفاة الأقدام ..

ومـازالـوا على هـذا العـهـد والآمـان .. ولكن بمرور الزمـان عـاد الآشـراف إلى مكة وسكنوها وامتلئت بهم . ولكنهـم لا يتعممون على الإطلاق بالعمائم الخضراء مثل الزمن السـابق .. ولكنهم يرتدون الملابس المصنوعة من أفخر الأقمشة الهندية .. والجـبب المصنوعـة من الصـوف المختلف الأنواع . كـمـا أن البـعض منهم ، ومنهن يستعملون الشيلان الهندية والكشميرية ، واللاهورية الفاخرة . وتصلهم هذه من الصرة الهندية التى تفوق فى قيمتها مايصلهم من صرة آل عثمان . ولكن غلال آل عثمان تفوق سواها .. الجميع يرتدى السروال ، والبدو يرتدون القمصان = «الجلباب» . النسوة يرتدين الياشمك ويضعن على صدورهن الشال بشكل دائم .. وكسنة محببة منذ رسول الله فهن يكحلن عيونهن ، وكذا الرجال ، ويخضبون اللحى ، والأيادى ، والأقدام بالحناء .. ولا يتناولون الطعام الزفر ، فهم يفضلون القهوة. والفول ، والزيتون ، والتمور ، والحلوى ، والخوشاب ، والأرز والحساء . والشوربة ، وفى العادة يبتعدون عن الأطعمة الدسمة ، لأن الجو الحار تصعب عملية الهضم . ولبعدهم عن هذه الأطعمة الدسمة ، فهم أقوياء ، حتى وإن بدت عليهم النحافة ،.. ولذلك لانرى أطباء فى مدينة مكة ، ولو أتى إليها طبيب فإنه لا يستقر بها لعدم الكسب ، وقلة الدخل .. وفوراً يُغيِّر الديار .. وبسبب هذا الحر ، فإن آهل مكة يصومون أيضاً ستة أشهر عن الجماع .. وهناك وادي يسمى وادى عباس .. هو شبه مصيف يذهبون إليه يوماً ، ولا يوقدون فيه ناراً .. ومَنْ هم تُجار .. وبعض الأثرياء ، وعلية القوم على المذهب الشافعى ، وبعضهم على المذهب اليزيدى أو الزيدى .. وفيه نكاح المتعة جائز .. وهو أن يتزوج الرجل نظير مبلغ معيَّن ، ولفترة محددة ، إذا كانت هناك أسباب تدعوه لذلك . وكان هذا فى مكة منذ الزمن القديم.. ولذلك كان أهل يُقدحون أي يزمون لهذا السبب ، ولكن فى العصر الراهن.. لم يقف العبد الحقير على مثل هذه الأحوال .. بل كانت كلها أقوال .. وافتراء على أهل مكة .. بل هم أصحاب مذاهب ملتزمة ، وطاهرة . وصبيانهم ، وأطفالهم فى غاية الأدب ، والذكاء ، والنجابة .

إن أهل مكة لا يحبون مجاورة المجاورين من الروم ، وأن أهل بلاد الروم يجدون الذوق والصفاء فى المدينة المنورة ، حيث أن أغلبهم يسكنونها .. كما أن الأشراف

ليست لهم سطوة أو نفوذ على المدينة مثلما هو الحال فى مكة المكرمة . كما أن تراب مكة طاهر ، ونظيف ، ولطيف .. أليس مخلوطاً بماء زمزم . إنه تراب التونيا ، الذى يفوق العنبر فى طهارته وفواح رائحته .

* * *

أوصاف نساء مكة المكرمة :

إن نساء مكة الطاهرة ، يتمتعن بجمال ، ولطافة ، وخفة روح ما يجعلهن كحوريات الجنة . هن ملائكيات المظهر ، على سماهن ملاحة البشر ، ما يجعلهن يتبخترن كالطاووس فى حدائق الجمال ، طاهرات ، عفيفات .. جميلات المظهر ، والمخبر .. تنطبق عليهن الآية الكريمة ﴿ **فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..** ﴾ (*) . وأن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى حق نساء مكة .. هن مصدر بنى آدم . يتدثرن بالملابس الحريرية طاقماً فوق طاقم .. وهى ملابس فاخرة ... مغرمات بالحلي ، والجواهر .. على رؤوسهن طواقى من الذهب الخالص ، أو من الفضة النقية . وبعضهن يفضلنها مشغوله ، ومطرزة فقط بالقشيب ، والقصب .. يغطون رؤوسهن بالأغطية الحريرية السوداء .. وعلى وجوههن يضعن النقاب والبراقع .. ويصبغن شفاههن بألوان متناسقة مع ألوان الأقمشة الحريرية .. وهن حريصات على ستر وجوههن .. ولا يُرى فيهن سوى العينان المكحولتان .. هن بإختصار سيدات ، ونساء مستورات . ولكن لهن جاريات حبشيات .. الواحدة منهن فى سمرة العنبر الخام .. وهناك الغوازى السمراوات التى يحتار اللسان فى وصف الواحدة منهن .. والبعض منهن يمارسن الرقص على الملئ ، أمام كل الناس .. وهن مشهورات ، ولهن أسماء معروفة فى بلاد الجزيرة كلها . وهذا ليس عيباً .. يتعطرن بأجود أنواع العطر الفوّاح .. وما أن تمر إحداهن بالقرب من الرجل حتى ينفذ العطرإلى آعماق دماغه .

وذات يوم وكنت أنا العبد الحقير متوجهاً لزيارة دار الشورى الخاصة بأبى سفيان ، صادفت إحدى السيدات من اولئك اللائي يقمن الأفراح ، وكان حفل عرس وزفاف.. كانت غارقة في الزينة والبهرجة وقد أتتنى روائحها من على بعد خطوات بعيدة وتعطر دماغى جيداً وأنا على بعد عشر خطوات على الأقل .. كانت العروس

تسيرو يسير من خلفها ما لا يقل عن خمسمائة فتى وفتاة فى سن الكتاب .. يرددون كلمة أمين .. أمين فقط .. حتى أوصلوها إلى المكان والمحل المقصود .

* * *

أوصاف مكاتب = كتاتيب الصبيان فى مكة :

يوجد فى مكة مائة وخمسين مدرسة للصبيان الذين يدرسون الأبجدية ، ومبادئ القراءة ، وهم فلذة أكباد آباءهم . وقد أنشأ كل ملك ، أو سلطان أو بادشاه من السابقين واحدة أو أكثر من مدارس الصبية هذه .. ولكن لما كانت أوقافها غير قوية .. فقد تم تخصيص لباس فاخر ضمن الصرة ، وعطايا السلطان السنوية لكل استاذ ، وقلفه بحيث تُقدم لهم سنة بسنة مع الإحسانات الآخرى .

* * *

أوصاف دور قراءة القرآن العظيم :

توجد دور قراءة القرآن الكريم فى أربعين مكاناً بمكة المكرمة ، وكلها تُحفظ القرآن، وتلاوته ، وتجويده ، وقراءته على قراءات حفص وقراءة أبى عمر ، وقراءة ابن كثير ، والقراءات السبع ، والقراءات العشر وقراءة التقريب . وتخصص المخصصات من العطايا، والجرابة واللحم لشيخ القراء ، وللقراء ، والمعلمين ، والطلبة ، والبوابين ، وكل ذوى المهام ، والوظائف بها .

* * *

أوصاف دار الحديث :

يحتوى أربعون مكاناً على دور للحديث بها .. وبها تُعقد الدروس العامة ، ويُكلف الطلبة كلٍ بوظيفة معينة . ولكن من الملاحظ أن أهل مكة غير مشغولين جداً بطلب العلم ، فجملتهم تجار ، أما علم الحديث ، وعلم الحفظ ؛ فهو خاص ووقف على مصر. والمهتمون بالعلم فى مكة فهم من المجاورين من الروم. وهم المشغولون به.

أما أهل مكة فليس فيهم هذه الكثرة من المهتمين بالعلم ، والإستماع إليه . ولم يظهر فيهم ، أو بينهم مَنْ هم من آصحاب الباع الطويل فى العلم أو طرق العرفان ، أو أهل التوحيد . . أو أصحاب المظان الكبار . . وذلك لأنهم مشغولون بالأبنية ، والأعمال التجارية ، والأبنية العالية أو رق العرفان ، أو أهل التوحيد . . أو أصحاب المظان الكبار . . وذلك لأنهم مشغولون بالأبنية ، والأعمال التجارية ، والأبنية العالية المتعددة الأدوار الموجودة داخل مدينة مكة المكرمة ، غير موجود مثيل لها فى حلب أو الشام أو العراق . . ولكن لها مثيل فى أم الدنيا مصر . . وآهل مكة من الرجال مغرمون بالنساء إلى أبعد حد . وهم آصدقاء لهن . . وهم فى آغلب الآحيان مغلوبين لنساءهن، وزوجاتهن هن اللائي يصدرن الأوامر ، ومهما كانت هذه الآوامر فهى تُنفذ . . وفي كل العصور لم يُظهر أهل مكة ميلاً إلى الجرأة ، والشجاعة .ولكنهم يهتمون جداً وبشكل مبالغ فيه بمظهرهم ، وبملابسهم ، يحنون آياديهم ، وأرجلهم ، ولحاهم ، ويحرصون على تخصيبها بالحناء . يتجولون بين المقاهى . . يحتسون القهوة بكثرة ، مغرمون بالراحة ، والنوم . . جميع أطعمتهم وأشربتهم يؤمنونها من الآسواق ، ولايبذلون جهداً فى ذلك فى المنازل . . ولما كانوا مغلوبين على أمرهم فإن نساءهم لا يطبخن شيئًا فى الدور والخانات والمنازل . . فالنساء بطيئات فى أعمال المنزل . ولا يعرفن طرق طهى الأطعمة على الإطلاق ، ولا يستطعن غسل الملابس أو تنظيفها ، ولا أعمال الإبرة ، أو الغزل ، والتطريز ، ولا يستطعن كنس ، أو تنظيف منازلهن ، بل يؤمنون لسن كل ذلك من الأسواق ، هم ، وهن من الأقوام المسرفة جداً . . ولكن لما كانوا ، وكن يعرفون الحسابات المالية جيداً فهم يصرفون أموال فرعون . لديهن ميل للإحتشام ، فقد رأون الأباء والآجداد هكذا . . واستمرت حياتهن على هذا المنوال . . ليس المقصود من ذلك هو الذم . . فحاشا . . وكلا . . ولكنه وضع قائم . . ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن أشراف مكة ، ورجالاتها فى حفلات الختان التى يقيمونها لصبيانهم . . فإنهم يقدمون الولائم إلى الحجاج المسلمين ، والتجار ويقدمون فيها الخيرات الكثيرة لكل الزوَّار . ومع أن جو مدينة مكة حار ، بل شديد الحرارة ، إلا أن مياه زمزم ، وحرارة مكة قد أفادت نساءها . ولكن فى نفس الوقت جعلتا حيواناتها غيرملحمة ، بل مقددة . . وخاصة حمير المنطقة بسبب عدم وجودها لما تأكله فى وادى فاطمه . . فإنك ترى الصبية يسيرون فى الشوارع ، ويجمعون من على الأرض

نوايا التمور الملقاة عليها .. ثم توضع هذه النوايا فى الماء لمدة ليلة ، ثم تُقدم إلى الحمير .. وبعد أن تأكلها تجد هذه الحمير النحيفة تُطلق نهيقها على مقام الساة = السيكا .

* * *

أوصاف مدينة مكة ، وبيان دفن موتاها :

إن موقع مدينة مكة فى مناخ الإقليم الثاني ، أي الحار ، وهى تتوسط الكرة الأرضية .. وحسب أفواه الناس إنها فى وسط الدنيا . والحقيقة العلمية هي هكذا . ولقربها من خط الاستواء ، فإن ليلها ونهارها متساويان .. والفرق ربع ساعة فقط . دائمة السطوع نجومها ، وانعكس ذلك على مكة وآهلها .. فالجميع سعيد .. مسرور .. مبتسم الوجه ، يميل الجميع إلى البهجة والحبور .. ولو شعرأي انسان وهو داخل مكة بشئ من التوعك ، أو الإضطراب فما عليه إلا أن يتوجه فوراً إلى داخل الحرم الشريف .. وما أن يرى الكعبة المستورة بالستائر الحريرية السوداء ، حتى يزول الإضطراب الذى فى داخل نفسه ، والألم الذى يعتريه ويصير سعيداً ، بهيجاً .. ولهذا السبب فإن أهل مكة دائما مسرورون وسعداء ، تعم البهجة ، والبشاشة وجوههم . وحتى عندما صدر الفرمان السلطان بتنصيب الشريف بركات أميراً — وقام أفندينا حسين باشا بتنصيبه ، ومنحه الفرمان والنيشان .. قام المنادون على الفور بالنداء فى الناس أن يَسعدوا ، ويقيموا الأفراح لمدة ثلاثة أيام .. فزادتهم سعادة .. على سعادة ، وبهجة فوق بهجة . وما أن تمت قراءة الفرمان الذى أصدره السلطان محمد خان الثالث ، حتى أوقدوا القناديل ، والمشاعل .. فزادت مكة نوراً على نور .. وسعد كل مَنْ هم على أرض مكة من الآحياء ، والآموات .

إن مؤلفاً يُدعى الفيروز آبادي قدجمع كل أسماء مكة المكرمة ، ومن بين هذه الأسماء ، اسماً هو (قرية النمل) .. ولو توفى فتى فيها فإنه يطير فيها أى أن هذا النمل يطير فوراً .. ويسير فى كل اتجاه .. ولهذا فإن أهل هذا المتوفى يسرعون باخراجه فوراً .. حتى ولو كانت الوفاة فى نصف الليل فإنهم يجهزونه فوراً للدفن .. والقاعدة المتبعة فى مكة المكرمة ينادى المنادون ، والنجاب بخبر الوفاة .. فيحضر

الندابات بالدفوف .. ويفعمون بالمكان بصيحات التوحيد على مقام الحجاز .. وفي هذه اللحظات ؛ يكون الحانوتي ، والمغسل يقومون باعداده ، فيقصون آظافره ، ويمشطون لحيته ، ويطهرونه أولاً بغير ماء ، ثم يوضئونه بماء زمزم ، فيبدأوّن بيديه ثم المضمضمة ، ثم الاستنشاق ثلاثاً .. ثم وجهه ، فيده اليمني ثم يده اليسرى إلى المرفقين ، وتطبيقاً للآية ﴿ **وامسحوا برؤوسكم** ﴾ فيتم مسح ربع الرأس ، ثم يغسلون الرجلين ، وما أن يتم الغسل هكذا حتى يتسم الجسد بالنضارة ، وتعلو الوجه البسمة، وينثرون من المباخر الكافور ، والعنبر على جوانبه الأربعة ، ويتلون القرآن الكريم من حوله ، أثناء الغُسل ، ثم يبللون قميصاً بدون ياقة ، والكفن بماء زمزم ويكفنونه . ثم ينثرون ماء الورد ، والمسك ، والعنبر الخام ، وماء الهندباء .. ثم يحيطونه بالزعفران الأحمر ، وينثرونه فوق الكفن ، وهم يرددون ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)** ﴾ [١] ، ثم يكتبونها ، ويضعونه فى التابوت ، وتوابيتهم ؛ ذات أربعة قوائم وعلى جوانبها الأربعة قضبان طولية ، وكأنها سلالم ، يضعون فوق التابوت غطاء من ستارة الكعبة ، وتَسير كل الجماعة أمام المتوفى ، وهم يسيرون على صوت الدفوف ، وقد رفعوا الأعلام العباسية ، وهم يرددون (لا إله إلا الله) برتابة ، وصوف رخيم ، وعند الوصول كعبة الحرم الشريف ، يردد كل أهل الميت (لبيك اللهم لبيك) ويضعون المتوفى تحت المزراب الذهبي ، ويؤذن المؤذن لصلاة الجنازة ، وحتى لو كنا فى نصف الليل ، فالحرم لا يخلو من الطائفين .. وتُقام صلاة الجنازة ، وفقاً للشريعة المحمدية ؛ وبعدها يرفع آقارب المتوفى، وأحبابه والأصدقاء الأوفياء التابوت على أكتافهم .. وعلى أمل أن يكسبونه ثواب الحج ، فيطوفون به سبعاً وهم يلبون ، ثم يخرجون من باب الجنائز ، أو من باب الصفا، ويمرون به من سوق الصفا ، والمروة .. ويكون حملة الدفوف مستمرون فى ترديد (لا إله إلا الله) وهم سعداء فرحين بلقاءه مع الله .. ثم يدفنونه فى مقابر الشهداء بالمعلا .. وبينما الإمام يُلقنه ، يكون الجميع فى هدوء وسكينه ينسحبون من حيث أتوا .. وهم يرددون (ضيف الله رب العالمين) ويطلبون له الرحمة مرددين (يرحمه الله) أو (رحمة الله عليه) . ومن المعتادٰ عند آهل مكة ؛ أنهم لابد أن يذهبوا جميعا ؛ شيخاً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

أو شاباً . . رجلاً ، أو امرأة إلى مقابر المعلا ليلة الإثنين ، وليلة الجمعة، ويتصدقون على الفقراء جميعا صدقات معلومة ، ويقدمون لهم الخبز وماء زمزم . ويتلون من القران الكريم ماتيسر لهم ، ويقفون بخشوع ، وسكينة على رأس القبر ، ويضعون حوله الحنطة والماء . . والورد والريحان . . وعلى هذا المنوال يأتون إلى الموتى مرتين اسبوعياً للزيارة . . وهكذا يشعرون وكأن الميت لم يمت ، بل هم يزورونه مرتين اسبوعياً . . فبشرى وطوبا لمن يتوفاه الله فى مكة ، فبعد الدفن يقوم كل أحبته ، وأصحابه بالزيارة إلى بيت الله الحرام ويطوف من يستطيع الطواف ، فهو بذلك ينال ثواب الحج مع الطائفين ، الذين يهبون له ثواب هذا الطواف . . ومما لاشك فيه أن الله سبحانه ، وتعالى . . سيقبله من أهل الجنة .

ولماكنت أنا العبد الفقير قد وقفت وقوفاً كاملاً على هذا الحال ، تمنيت على الله أن انال هذا الثواب العميم عندما يتوفاني الله . . فكم يكون المرء سعيداً عندما ينال كل هذا الدعاء . . ويدفن وسط هذه البهجة . . والروائح الطيبة . . وكنت أردد دائماً (اللهم يسر يا مُيسر) وأوصى بعض السالكين لتقريب اللقاء بالحق أن يُوصى الراغب فى ذلك بالدفن فى منتهى الجبال الواقعة على الجوانب الأربعة لمكة المكرمة . .

* * *

بيان بالجبال الواقعة فى الجهات الأربع للبيت الشريف :

إن بين شرق وشمال سوق = ساحة منى يوجد جبل صغير يسمونه جبل سبر ، حسب الأقوال المسطرة لإسحاق ، فإن آولاد سيدنا اسماعيل مدفوفون فى هذا الجبل . وأن كبش الفداء المقدم قرباناً وفداءاً لسيدنا اسماعيل قد طلع من هذا الجبل ، وأن الكبش قد ذبح قرباناً على أطراف ، وحواف هذا الجبل . وما زال به المكان المسمى « منچر» أو مذبح ، وبعض الحجاج ما زالوا ينحرون ذبائحهم فى هذا المكان ، وما زال فراراً للحجيج . وعلى الجهة الشرقية من البيت الشريف ، يقع جبل أبى قُبيس وقد سبق الحديث عنه تفصيلاً . . ولكن آلاف الصحابة كان هذا الجبل محل اهتمامهم ، ويسميه القرشيون الجبل الأمين . . وما زال مكانًا للتنزه ، والفرجة للخاص ، والعام . وبعده الجبل الأحمر ، والجبل الأخشب . . وهما الذى نزل فى

حقهما الكثير من الآسانيد والآحاديث .. ومنها . (قال رسول الله ﷺ لا نزول مكة حتى نزول أخشبها) وجبل الأخشب أعلى من الجبل الأحمر .. وجبل النور يقع على بعد مسيرة ساعة على شمال مكة . وهو المكان الذى استتر فيه الرسول عن أعين المشركين وهو ما زال مكاناً للزيارة .. وبالقرب من سوق منى يقع جبل مخصب ، وبالقرب من جامع الحنيف فى سوق منى يقع جبل المرسلات .. وبه الغار الذى كان فيه الرسول الأمين أُنزلت عليه سورة «المرسلات» . وهو مزار لكثير من الحجيج . ثم جبل حراء ، وفيه الغار العظيم الشأن ، وهو الغار الذى كان يعتكف فيه الرسول للعبادة قبل البعثة النبوية . وما زال يزار إلى اليوم . وجبل جَزَل ، وهو جبل صغير لطيف ، ولكن مرتبته عالية وجبل لعلع ، وجبل الصفا ، وهو فى الجهة الشرقية من مكة ، وهو جبل منخفض فى المكان المسمى بهذا الإسم ، وهو مثبت فى الحديث الشريف أن المصطفى وهو يسعى عليه الصلاة والسلام بين الصفا والمروة ضرب بالعصا التى فى يده الكريمة جبل الصفا .. وقد سمعت الدابة ضربة العصا ..

* * *

أوصاف مزارات الصحابة الكرام فى مكة :

غير خافٍ على آصحاب الزيارة أن فى مدافن المعلا خمس وسبعين قبة ، ومدفون بها الكثيرين من السلف الصالح من الملوك ، والسلاطين والأشراف ، والصلحاء ، والعلماء ، وآعيان مكة الكبار . ولكن أعظم هذه الأضرحة وأجدَّها هو ذلك الضريح الذى أقامه الشريف زيد .. فهو مثله مثل إرم ذات العماد ، وحضرة الشريف مدفون تحت هذه القبة الرائعة العمارة . كما أن حضرة جد الرسول الكريم عبد المطلب مدفون فى هذا المكان ، وقد توفى عن مائة وعشرين سنة ، وعندما كان الرسول الحبيب فى السابعة من عمره ، كما أن والد سيدنا عليٍّ مدفون هنا ، وكثير من الحجاج الإيرانيين يزورون هذا الضريح بحجة أنه والد سيدنا عليٍّ ، وحوله بستان نخل جميل ، ورطبة لذيذة الطعم . ويُقال أن هذا المكان هو الذى شهد معجزة شق القمر التى دارت بين الرسول « ﷺ » والمشركين .. ويُقدِّم الحجاج الإيرانيون عطايا كثيرة لخدَّام هذا الضريح . وآعلاه بقليل تقع قبة ضريح السيدة خديجة . ومن المعروف أن السيدة خديجة

الكبرى قد أنجبت من الحبيب المصطفى أربع ذكور ؛ هم القاسم ، والطيب ، والطاهر وعبدالله ، وأربع إناث هن ؛ أولاً الست روقية ، والست أم كلثوم ، ولما كان سيدنا عثمان قد تزوج بهما ، فقد لُقب بذى النورين والسيدة فاطمة وهى التى تزوجها سيدنا عليٌّ ، والسيدة زينب وهن جميعا بنات السيدة خديجة الكبرى ، والسيدة زينب قد تزوجها أبو العاص بن ربيع بن عبد العزي . أما سيدنا ابراهيم بن الرسول المصطفى فأُمه هى السيدة ماريا القبطية التى كانت ضمن هدايا ملك مصر المقوقس إلى الرسول المصطفى . وكان ملك مصر قد بعث على طريق الهدية إلى الرسول محمد بن عبد الله سيفاً وبغلاً وجاريتين فقدم الرسول « ﷺ » السيف المسمى ذو الفقار ، والبغل المسمى « دلدل » إلى سيدنا عليٍّ ، وأهدى إحدى الجاريتين إلى الشاعر حسَّان بن ثابت ، وتزوج ﷺ من ماريا القبطية وكانت هى الجارية الثانية . وهى التى انجبت له عليه السلام حضرة الحبيب ابراهيم . وبقية الأبناء الثمانية من السيدة خديجة الكبرى .

وقد لقيت السيدة خديجة وجه ربها فى مكة عن عمر وصل إلى الخامسة والستين، وهى مدفونه من مدافن المعلا . وبعض كتَّاب السير يعتبرونها هى التى قبلت الإسلام قبل أبى بكر الصديق ، والبعض الآخر يجعلها بعده . وتُلقب بأم المؤمنين .

كما أن بعض كتاب السير يذكرون أن السيدة أُم رسول الله مدفونة تحت هذه القبة أيضاً .. وقد سبق الحديث عن ذلك ... وقد أمر السلطان سليمان خان سنة ٩٥٩هـ ببناء قبة على مدفن السيدة خديجة الكبرى ، وكذا ضريح بديع .. وبابه يُفتح على جهة الشرق .. والقبة مغطاة ، ومستورة بطبقة من الجير الأبيض . وتُكثر طائفة النساء من زيارة هذه القبة اللطيفة وينثرون فى الضريح المسك ، والعنبر ، والعود ، والكافور المعطر مما يجعل الزوار فى نشوة من الروائح الزكية .. وعلى الوجه الداخلى لهذه القبة العالية نجد مكتوباً بالخط الجلي : هذه الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ..﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١) ﴾[1] .

كما أن حضرة الشريف مسعود مدفون تحت هذه القبة داخل قفص مربع ، وهذا

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠١ .

القفص مغطى بالحرير الأطلس الأخضر . . ومكتوب عليه : (مولانا السيد الشريف مسعود بن ادريس ابن حسين ابن أبو يمين ابن بركات ابن محمد ابن بركات ابن حسن ابن عجلان ابن فاطمة الزهراء . .) . وجانب قبلة هذه القبة ، هناك قبة صغيرة لسيدنا عبد الله لسيدنا عبد الله الزبير ابن العوام ابن خويلد ابن عبد العزي بن قصي . جده الآعلى هو سيدنا أبو بكر الصديق . والدته هى بنت عبد المطلب ولذلك فهو من الآقارب المقربين لوالد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وبعد ميلاد الرسول الكريم ، وفى السنة الرابعة والعشرين من مولده الكريم وُلد فى نفس اليوم كل من الزبير بن العوام ، وطلحه بنُ عبد الله . وكان الزبير يُذهب إلى التجارة فى اليمن . وأول من آمن بالرسالة التى أُنزلت علي النبي هو أبو بكر الصديق، والثاني هو الزبير بن العوام . وهو من المبشرين بالجنة . وآثناء خلافة مروان حمار فى الشام أي فى سنة ثلاث وأربعين هجرية كان الزبير سلطاناً على مكة ، والمدينة واليمن، والعراق . وبسبب قرابته للرسول ، فقد كان مصدراً من مصادر الاستماع للحديث مثل السيدة عائشة الصدِّيقة . وقد قام بتوسيع الحرم الشريف ، وضم مساحات إليه لكى يتسع لجموع الحجاج . ولكن بسبب الخلاف والجدال قام الحجاج يوسف الظالم بتعليق جسده الطاهر على باب السلام – كما سبقت الإشارة – . وهو الذى كان قد جدد بناء المزراب الذهبي . وأغلق الباب الذى كان على الجهة الغربية ، وألحقه بالحرم . وبعد الزبير أصبح الحجاج هو الوالى على مكة والمدينة ، واليمن والعَراق . وبالرغم من أنه حاول أن يكون عادلاً إلا أنه اشتهر بظلمه . وبعده يوجد قبر بنت حضرة أبى بكر . وقبر بنت حضرة عثمان . وهما عبارة عن قباب صغيرة . ، ولكن يشملهما الهدوء والسكينة ... وبالقرب منهما الشيخ عثمان هارون ، والشيخ الكناس ، وبالقرب منهما مزار حضرة سعد بن أبى وقاص ، الذى وُلد بعد مولد النبى بثلاث وعشرين سنة ... وبالقرب منهم مزارات العديد من الصحابة الكرام ؛ مثل حضرة معدى كرب ، وعبد الله بن عباس ، جامع التفاسير والآحاديث . وهو مجاز بذلك من النبى الكريم . والفضل بن عباس ، وقبر الإمام عبد الكريم بن هوازن . وقبر سفيان بن عبينه ، ويسمونه قبر صفيان الصورى ؛ لإن من يُصاب بألم فى معدته ، فعليه أن يربط صرة عليها وبها قليل من تراب هذا القبر ، وبأمر الله يتم الشفاء . وهو الذى وهب بنته حبيبه إلى المصطفى ﷺ . وهناك قبر أبى حسن

الشـولي . عـدا هؤلاء فـإن هناك آلاف من الصـحـابة الكرام ، وآولاد ذوى الاحـتـرام والاعتبار ، وكلهم مدفونون فى هذا المكان المرقوم .

كما قمت أنا العبد الحقير بزيارة المقامات التى أمكننى التعرف عليها للعلماء ، والفقـهاء المسلمين المرموقين .. وكذا مشايخ وملاوات مكة المكرمة ، والذين تولوا مشيختها ومولويتها خلال فترة حكم آل عثمان .. ومنهم مَنْ كان مقرباً ومحبباً إلى نفس المرحوم والدى مثل مرقد المولى عمر بن محمد ، وقد كان معلماً للسلطان عثمان الثانى ، وأصبح شيخاً لمكة المكرمة . وفى سنة ١٠٣٠ هـ . فى تلك السنة التى تجمدت فيها مياه البحر فى اسلامبول ، جاءنا خبر وفاته .. فشملنا الحزن عليه كثيراً، لإنه كان محباً كثيراً لوالدنا .. والحمد لله أن مكننى بعد ما يزيد عن اثنتي وخمسين سنة من زيارته .. ولقد قرأت ما تيسر من القرآن العظيم ويس ووهبت ثوابها إلى روحه الطاهرة . وكان على قبره المنير هذه اللوحة بخط جميل على شاهد قبره :

(خواجة عثمان خان غريب عمر بن محمد سنة ١٠٣١هـ) . وهذا من فضل ربى .. رحمة الله عليهم أجمعين . وسلم تسليماً كثيراً .

* * *

في بيان الصالحين المعاصرين الذين يعيشون في مكة، والأعيان، والأشراف الذين سعدت بشرف اللقاء بهم

لقد سعدت بلقاء العديد من سادتنا العظام ، وكان على رأس هؤلاء ركن الدين حضرة شيخ الإسلام ، الوارث الوحيد للعلم النبوي ، وباعث الشرع القوي .. مفتي عصره ، ومالك ناصية الدين .. وقد شرفت بصحبتهم ، وتشرفت بنيل خير دعواتهم، ورجوتهم جميعاً الهمة ، وحسن النظر إلى العبد الفقير وخاصة بعد مَنِّ الله عليَ باتمام ما انتويته فى هذا المقام .

ولما كنت قد عزمت العزم ، ونويت التوجه إلى مصر ، ولما كنت موجوداً خلال مراسم اجلاس الشريف بركات .. فقد تكرم على العبد الحقير إلى ربه بثلاثمائة سكة لمصاريف الطريق ، وغلاماً حبشياً ، وهجيناً ، وبغچة من الملابس ، وكمية من العنبر خام ، واستكتبى قائمة الآشياء التى قدمها إلي آفندينا ، وقائدنا صاحب الضمير الوضاء حضرة صارى حسين باشا .. وكان بيانها كالتالى : إثنى عشر جواداً عربياً أصيلاً ممن يسابقون الريح .. وفى أعناقها شجرة النسب الخاصة بها .. التى تبين منشأها ، فبعضها مصرى ، وبعضها نجدى ، واحداها صعيدى ، واحداها من نسل الطريفي .. الخ ومع كل واحد منها سائر من الطواشية الحبش ، وإثنى عشر من الأحباش سبحان الخلاق .. واثنى عشر طاووساً هجيناً ، ومع كل منهم مملوكاً زنجياً ، من بلاد الفونج .. وجاء العبيد يحملون الهدايا المتعددة ، والمختلفة ؛ فمن بُقشات الأقمشة الفاخرة المختلفة النوع والمنشأ .. ومشغولات هندية لا مثيل ، ولا نظير لها ، والجواهر ، والأحجار الكريمة المختلفة الأشكال والأنواع ، والياقوت ، واللعل، والزمرد ، والألماس .. والعقيق اليمنى النادر ، واللؤلؤ والمرجان .. والهدايا الهندية المختلفة الأنواع والأشكال ، والشيلان الكشميرية ، وكميات من العود ، والعنبر والمسك الخام.. وكميات من الليمون والتى كل واحدة منها فى الشفاء من كل داء . والمسك الحيوانى ، وحمل جملين من الوز ، والبط العراقي . وغير ذلك الكثير والكثير.

وفى مقابل ذلك قام سعادة الباشا بتسليم كتخدا الشريف مجموعة من الزمزميات التى لم نر لها مثيلاً .. وقال للمعتمد ، وهو يتسلم منه هذه الهدايا ؛ إننا لسنا فى حاجة إلى أمتعة ، ومتاع الشريف بل نحن فى حاجة إلى خدمات حضرته .. ونريد منه الاستقامة فى القصر .. ولما كنت أنا ممثل السلطان .. فالمطلوب منه أن يُرسل إليَّ على الفور مفاتيح الكعبة الشريفة .. وإلا فنحن لسنا فى حاجة إلى متاعه ، أو هداياه .. وما أن وصل معتمد الشريف ، ووكيله واسمعه ما سمع ، ونقل إليه ما دار، وما رأى ... حتى قال الشريف (الأمر أمركم) وعلى الفور قام بوضع مفتاح البيت الحرام المجوهر فى ظرف من السندس والحرير الأخضر .. وقام بتسليمه لتوصيله إلى حضرة الباشا فوراً . فقام الباشا بإلباس كتخدا الشريف ، وقائد البولكات السبعة المصرية ، الخلع القيمّة . وأحسن على الشريف بمعطف من فراء السمُّور الفاخر .. وقَبل الهدايا التى بعث بها الشريف . فقام المنادون على الفور بإعلان جلوس الشريف، وتسليمه مفاتيح الكعبة المشرفة لتُسلم إلى السلطان ... وبعدها شرع جناب الباشا فى التحرك ناحية المدينة المنورة . وقد أحسن بدوره على العبد الحقير بالكثير من الهدايا التى وصلته .. وقد قمت أنا بدورى باحضار العطايا ، والهدايا الكثيرة التى وصلت إليَّ من الأشراف ، والأعيان مع بقية حاجياتى إلى جده وتوجهت إلى زيارة حضرة أُمنا حواء .

* * *

اوصاف منازل ومراحل بندر جده :

أولاً ؛ أركبنا أربعة من الغلمان على البغال الهجين التى آهداها إليَّ حضرة الشريف مع الهدايا .. وسرنا إلى خارج مدينة مكة المكرمة .. ولم نسترح إلا فى مسجد الشيخ محمود ذى القبة الواحدة .. فى خارج مدينة مكة . ويقع هذا المسجد فى الناحية الجنوبية لمدينة مكة .. قبة المسجد ليست مرتفعة .. وحوله ما يقرب من مائتي منزل فقير وبعض المساجد ، وبساتين النخيل الاخرى . عبرنا هذه المرحلة واتجهنا ناحية الجنوب ، واستمر سيدنا .. وبحثنا عن مكان للإستراحة فيما بين المقاهي الواقعة على الطريق الرئيسي .. ووقفنا فى إحداها .. وجميعها يوجد فيها

مطربات ، وغوازى من الفتيات الحبشيات . استرحنا فى احداها ، وفى الساعة السادسة تحركنا ناحية وادي جده .. حيث :

* * *

مزار أهل سيدنا آدم بني البشر حضرة حواء المكرمة :

هناك قبة شريفة صغيرة على المكان الذى ترقد فيه أُمنا ، وآصلنا السيدة حواء أُم بنى البشر جميعاً .. ومع أن المكان رملي فى وسط الصحراء ، إلا أنه مفرح بالرغم من أنه بسيط وغير مزيّن .. والقبر مغطى بالحرير الأطلس الأخضر .. وخارج الضريح وحوله مغطى بالحصى ناحية رأسها الشريفة ، وكذا ناحية قَدَمَيْها المباركتين .. وكانت حَرَم ملك أحمد باشا المرحومه قره سلطان قد قررت أن تمد المياه العذبة حتى جده ، وتعهدت بذلك ، وأن تتعهد مقام حضرة أُمنا حواء بالرعاية .. ولكن شاءت الأقدار أن يتوفاها الله ، وهى تضع مولودها . وترتب على هذا عدم تنفيذ هذه الخيرات .

ويُقال أن مكان أُمنا حواء فى سرنديل بالهند .. ولكن هذا قول ضعيف ، وهناك مَنْ يقول أن هبوط آدم عليه السلام هو الذى كان فى سرنديل .. ودموع عينيه بنت الزنجبيل ، والفلفل ، والقرانفيل .. وبعد ذلك تمكنت عصفورة الجنة أن تنقل الآخبار بين آدم وحواء .. حتى تم بينهما اللقاء ، والتعارف عند جبل عرفات .. ومن هذا المنطلق يسمون هذا الجبل حتى اليوم « جبل عرفه » ، وذلك لأن حضرة أُمنا حواء قد هبطت إلى الأرض فى جده .. وقد سكن آدم وحواء زمناً طويلاً فى وادى مكة .. وأنزل لهم جناب الحق سبحانه وتعالى البيت المعمور لهم من الجنة ، تحت يطوفان حوله كنوع من أنواع مناسك العبادة . وكانا يَصعدان إلى عرفات . وحسب قول المؤرخ إسحاق ؛ فإن حضرة سيدنا آدم قد عمَّر طويلاً ، ثم وفاه الأجل المحتوم فى عرفات .. ودفن فى المكان المسمى « مطبخ آدم » . وأنه لم يهبط فى سرنديل . بل أكثر الأقوال قبولاً أن سيدنا آدم وسيدتنا حواء عاشا زمناً طويلاً فى وادى مكة ، وأن الحق قد أنزل لهما بيتاً من الجنة ، ولكنه من أديم الأرض .. وكان يتعبدان فيه .. ولما كانت مكة منطقة صخرية فإن الخالق سبحانه وتعالى قد أوحى إلى آدم أن يذهب إلى

صحراء حوران بالقرب من الشام ، وأنه قام بأعمال الزراعة هنالك . وتناسلا هنالك . وكانا كل سنة يأتيان إلى البيت المعمور ، ويطوفان حوله ؛ ويصعدان إلى عرفات . والمؤرخ إسحاق يعتقد بعدم نزول سيدنا آدم فى سرنديل بالهند . . وأن سيدنا آدم عمَّر طويلاً بعد أُمنا حواء . فى حين هناك أقوال تقول أن أُمنا حواء هى التى عمَّرت طويلاً بعد سيدنا آدم . وآن أُمنا حواءهى التى دفنت هابيل وقابيل والنبي شيت بالقرب من جده و « لا يعلم الغيب إلا الله » وفى رواية أخرى أن سيدنا نوح ، قبل الطوفان بسنة واحدة قد أخرج جسد سيدنا آدم من عرفات ، وجسد أُمنا حواء من جده وقام عليه السلام بدفنهما من جديد فى القدس الشريف . والعهدة على الراوى . وحسبما تذكر كتُب تاريخ العالم أن سيدنا آدم كان يُرزق دائما بتوئم ، وأصبحت ذريته أربعين ألفاً . . وجرت قدرة الله أن يكون أحدهما ولد والأخرى فتاة ، وكان يزوج الفتيات بمن سبقها من الذكور . ولهذا قام هابيل بقتل قابيل . . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تُسال فيها الدماء على سطح الأرض . . وأن العاصى هو قابيل لأنه عصى أمر ربه ، ولم يُطعه . . ومنذ هبوط آدم مرت سبع آلاف وثلاثون سنة (رحمة الله عليهم آجمعين) فقد قُمنا بزيارة أُمنا حواء . . وتوجهنا إلى الناحية الجنوبية ، وشاهدنا المقاهى العامرة، وتفرجنا عليها . . وهى موجودة على الجانبين .

* * *

آوصاف بندر مدينة جده وقلعتها القديمة :

هى من مآثر ومباني سلطان مصر السلطان الغورى تُعتبر ميناء الهند ، واليمن، وعدن ، والبصرة ، ولحا ، والحبش ، والسويس يأتيها سنوياً ألف قطعة من سفن الجَلَبَه Gelebe اليولطة Polta ، والقارقه Karka ، والغليون Galyon ، ويأخذ عنها جمارك ، تقع دائرة الجمرك على شاطئ البحر ويسمونه خورده . ويتعاون فى تحصيل الرسوم الجمركية آعاً من طرف الپاشا وشريف من قِبل حضرة الشريف . يأخذ نصف الحاصلات قائد جده ، والنصف يُخصص لحضرة الشريف . ومنذ أن فتح سنان پاشا اليمن وقد تقرر أن يتدخل الأشراف فى شئوون البندر ، وأصبح ذلك فى حكم القانون . وبالعدل ، ووجه الحق حاصلاتها السنوية تُقدر بألف وخمسمائة كيسه ؛

لإنه ميناء عظيم . والقلعة على شفة القلزم محيطها دائراً ما دار ألفين خطوة شداد ؛ بناء متين ، ثرية البنيان وعلى الطرف الجنوبي لهذه القلعة ، وعلى شاطئ بحر القلزم أيضاً ، قلعة داخلية ؛ وهى متصلة بالقلعة الكبيرة الرئيسية . محيطها الدائرى ستمائة خطوة . وهى أيضاً من المباني الصخرية . وقائد جده ، وجميع جنوده يسكنون فى هذه القلعة الداخلية . بابها مكشوف على ناحية قلعة اليمن . كما أن لها باب مطل على ناحية الشرق . ولها بوابتان كبيرتان .. باب كل منهما مكون من ضلفتين . إحداهما بوابة مكة ، وتطل على البحر ، قائدها من قباطنة مصر ، يحمل طوغاً ، أو طوغين معه ثلاثمائة رجل من رجال البحرية . وهى قضاء مخصصاته مائة وخمسين آقجة ، ويحصل قاضيها على ألفين قرشاً سنوياً . ولكن يُنعم ، ويُحسن على مشايخ مكة بما يُعتبر علوفه ، ومحكمتها وسط القلعة ، بها ثلاثمائة دكاناً ما بين صغير وكبير . لها خان كبير على شاطئ البحر وكأنه قلعة منيفة . من مآثر بقلاچى محمد بك المعمارية . يمد القلعة بالكثير . تحته الكثير من المخازن ، والعنابر ، والدكاكين .. وعداه هناك سبعة خانات آخرى ، وكلها مملوءة بالأشياء ذات القيمة . ولكن ليس بها حمامات ، أو عمائر خيرية ، أو مدارس . فالجميع يذهب إلى البحر ويغتسل فيه . تعتمد على مياه الرحمة = المطر ، لذا فمياهها قليلة . بها جامعين كبيرين ، جماعتهما غفيرة ؛ أحدهما قريب من الجمارك وعلى شاطئ البحر ، وهو جامع من الطراز القديم ، ذو منارة واحدة . يتقاضى المؤذنون ، والأئمة مخصصاتهم من الجمارك . والجامع الآخر فى الضواحى وهذا الجامع هو المفيد المختصر أو المختصر المفيد .. وعدا هذين الجامعين فالباقي كلها مساجد .. ويُقال آن مياهها كانت جارية فى الأزمنة السابقة . وكانت حينذاك عامرة ، ذات حدائق غناء ، وكأنها باغ إرم . وبعد ذلك تخربت مجارى المياه نتيجة منازعات الآشراف ، من ناحية ، ومن ناحية آخرى حتى لا يُمكنوا الروم = الأتراك ، من التوطن بها ، والتغلب عليها وهناك حي يسمى « جده » تنساب فيه مياه ثلاث سواقي فتكفيه . والغريب فيها ما أن تجرى على ترابها المياه حتى تغيب . ومن الممكن تسيير المياه فى جده بجهد يسير .. ولو تم ذلك لكانت جده بندراً للفرجة ، والمشاهدة . وقد قمنا نحن أيضاً بالفرجة ، والسير والمشاهدة .

ولما كانت أمتعتنا المرسلة من مكة المكرمة قد وصلت ، فقمنا بوضعها في سفينة الريس = القبطان فنجانجي رئيس ووضعت عشرة أجولة من البن فى فرقاطه القبطان حسن رئيس وخمسة أجولة في مركب النائب مع اثنين من الطواشية وواحد من مماليكنا .. وبعد أن وضعنا باقي الأمتعة في السفن .. توكلنا على الله وودعت آخي في الرضاعة چلبي ، وحاكم جده بقلاجى محمد بك ؛ وتوجهت عائداً إلى مكة المكرمة مع ثلاثة من الغلمان .. وطوال الطريق وآنا أترنم بتلاوة القرآن العظيم .. وبعد ثمان ساعات متصلة ، وصلنا إلى مكة المكرمة .

في ذلك اليوم كان الحجاج مستعدون للإتجاه لزيارة المسجد النبوي الشريف ، والسلام على رسول الله ، ﷺ . وقمت أنا العبد الحقير بدورى ، واستأذنت من أفندينا حسين پاشا فى مرافقة حجاج مصر .. فأحسن إلي بمائة فيلورى ، وسبع جمال ، وسلمنى خطابات إلى وزير مصر كتخدا ابراهيم باشا . وقام بالتنبيه ، والتأكيد على كل من اوزبك بك وقائد الانكشارية اراهيم آغا القيصري ، وجاووش الشريف ، وكتخدا الآعتاب السنية برونسز آحمد آغا بضرورة توصيلى إلى الپاشا المشار إليه ، فتشرفت بتقبيل آياديه الكريمة ، ونُلْت دعواته الخيِّرة ، وودعته . وتلوت هذا الدعاء الطيب :

(اللهم لا تجعله آخر العهد ببيتك الحرام ، وإن جعلته فعوضنى عنه الجنة يا أرحم الراحمين) . وأتممت طواف الوداع على النحو السابق سبعاً .. وشربت من ماء زمزم مودعاً ، وتراجعت مردداً الوداع ، الوداع يا بيت الله الوداع .. وخرجت من الصفا .. وسعيت بين الصفا ، والمروة على النسق السابق سبعاً كسعي وداع . وعلى هذا المنوال تمت سياحة العبد الحقير إلى بيت الله الحرام سنة الف واثنين وثمانين من الهجرة النبوية .. وبها أسقطت فريضة الحج التى تُمثل ركناً من أركان الإسلام . وأتممت نسك طواف الزيارة ... ولقد حرصت كل الحرص على أن أُسجل مناسك الحج المتفق عليها من كل الأئمة .. وراعيت التيسير .. والتركيز على ما فرض الله ورسوله .. وتمنيت على الله أن يكون ذلك صحيحاً .. والله ورسوله أعلم . وزدت على ذلك تطوعاً ، من حبى وشوقي .. ودعوت للوالدين ، ولمشايخنا ، واساتذتنا .. ولكل ذوى القربى والأحبة .. ولكل من سألنا الدعاء ...

وإلى أن تتحرك قافلة العودة ، كنت يومياً أطوف وأسعى بين الصفا والمروة إثنى عشر مرة ، واعتمرت ثلاث مرات يومياً .. وكنت أطوف كل ليلة ثلاث مرات ، وبشرط أن يكون كل طواف سبعاً . وفى كل ليلة كنت أقوم – وخدامى – بالعمرة ليلاً . وهذا من فضل ربي . والسلام .

هذا .. وفى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة سنة الف واثنين وثمانين ، رافقت الألفي جندي الذين عادوا إلى مصر ، وقد قَدِم منها ثلاثة آلاف .. بقي منهم ألف للحفاظ على الأمن والهدوء فى مكة .. وفى مساء اليوم التالي ، يعنى مساء يوم السابع والعشرين تحركت قافلة الحج المصري المكونة من أربعين حاجاً مصرياًمن مكة المكرمة متجهة إلى المدينة المنورة .. وبنية العمرة .. والزيارة إمتطينا صهوة جيادنا الفتية ، وآيدينا تلوح بالوداع إلى بعض الأحبة ، وقلوبنا تهفوا إلي السلام علي الحبيب المصطفى ....

* * *

تم بحمد الله تعالى قبيل المغرب
من يوم الثلاثاء ، الحادي عشر
من جمادي الآخر سنة
١٤٢٠ هـ = الحادي والعشرين
من سبتمبر سنة ١٩٩٩م
أرض الجولف - م. نصر
القاهرة

فهرس الكتاب

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

* * *